رسالة القديس بولس
إلى
أهل رومية

القمص تادرس يعقوب ملطي

من تفسير وتأملات

الآباء الأولين

رسالة القديس بولس
إلى
أهل رومية

كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتنج

القمص تادرس يعقوب ملطي

بسم الآب والابن والروح القدس،

الله الواحد.

آمين.

اسم الكتاب: رسالة القديس بولس إلى أهل رومية.
المؤلف : القمص تادرس يعقوب ملطي.
الطبعة : الثانية أغسطس ١٩٩٠.
الناشر : كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتنج.
المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست).

مقدمة في الرسالة

روما

يرى البعض أن كلمة "روما" من أصل يوناني تعني "قوة"، وكانت تستخدم بمعنى "مع السلامة"، إذ تعني "ليكن لك صحة قوية[1]"؛ ويرى البعض أنها تعني "مرتفع". وربما دُعيت هكذا لسببين: أولاً لأن روموليوس أسسها عام ٧٥٣ ق.م. فحملت اسمه، وأيضًا لأنها بنيت على مكان مرتفع على أكمة من الآكام السبع هناك. وقد اتسعت لتمتد فتشغل كل الآكام. وفي منتصف القرن السادس ق.م أحيطت بسور يضم المدينة كلها مع ضخامتها، محيطة حوالي خمسة أميال، به ١٩ بابًا.

اتسع نطاقها ونفوذها حتى صارت عاصمة الدولة الرومانية التي استولت على حوض البحر الأبيض المتوسط كله، فتزايد عدد سكانها جدًا حتى أقيمت المنازل خارج السور أيضًا. صارت روما ملتقى ساسة العالم وقادته، ومركزًا للعلوم والآداب والفلسفة، اشتهرت على وجه الخصوص بالقانون الروماني الذي لا يزال يُدرّس في أغلب جامعات العالم. وكبلدٍ مفتوحٍ امتلأت روما بالخزعبلات والرجاسات الوثنية وقبائحها، قادمة من كل العالم، يظهر ذلك بوضوح مما جاء في الأصحاح الأول من هذه الرسالة.

يُقدر سكان روما في القرن الأول بحوالي ٢ مليون، وإن كان هذا التقدير يعتبر مبالغ فيه[2]، ثلث سكانها كانوا من الرقيق. وقد ضم سكانها جنسيات متعددة. وكان بالمدينة عدد كبير من اليهود الذين قادهم بومباي القائد الروماني أسرى حينما استولى على سوريا سنة ٦٣ ق.م وأسكنهم قسمًا من المدينة. ثم تحرر هؤلاء اليهود، وتكاثروا حتى أصبحوا حوالي ١٦ ألف نسمة في عهد الرسول بولس. وكان هؤلاء اليهود في سلام وراحة معظم وقتهم في روما، إلا في عهد طيباريوس سنة ١٩م، وفي عهد كلوديوس قيصر سنة ٤٩م الذي أمر بطردهم جميعًا من روما (أع ١٨: ٢). ومما يدل على كثرة هؤلاء اليهود أنه لما مات هيرودس الكبير جاءت لجنة من اليهود إلى روما لتستعطف أوغسطس قيصر، فخرج لاستقبالها حوالي ثمانية آلاف رجل من أعيان اليهود بالمدينة، وكان لليهود في روما أكثر من ١٣ مجمعًا، وكانوا طائفة تميل إلى إحداث الفتن والثورات[3].

---

[1] *Strong: Greek Dictionary of the N.T., article 4517.*

[2] *J. Hastings: Dictionary of the Bible, N.Y. 1963, p 862.*

[3] مذكرات القس مينا إسكندر على الرسالة، بالإكليريكية الإسكندرية.

نشأة المسيحية بروما

لم يذكر العهد الجديد شيئًا عن تأسيس هذه الكنيسة، كما لا يُعرف من الذي قدّم الشعلة الأولى للإيمان هناك، لكننا نلاحظ في نشأة المسيحية بروما الآتي:

١. جاء في سفر أعمال الرسل أنه في يوم الخمسين حضر يهود أتقياء من كل أمة، من بينهم "**رومانيون مستوطنون يهود ودخلاء**" (أع ٢: ١٠)، هؤلاء قبلوا الإيمان بالسيد المسيح وعادوا من أورشليم إلى روما يكرزون بين إخوتهم اليهود. لهذا يرى غالبية الدارسين أن كنيسة روما في بدء انطلاقها كان معظمها من أصل يهودي حتى وقت بعث رسالة القديس بولس إليهم. لهذا نجد الرسالة موجهة بالأكثر إلى اليهود المتنصرين أكثر من الأمم المتنصرين، هذا وقد أعطى هذا الوضع انطباعًا في ذهن قادة الرومان أن المسيحيين ليسوا إلا طائفة يهودية منشقة عنهم.

٢. إذ تميزت الدولة الرومانية بالحرية وسهولة الانتقال فيما بينها، خاصة بين البلدان المختلفة والعاصمة، وكانت روما ملتقى كبار القادة والمعلمين والتجار، فقد دخلها بلا شك جماعة من المعلمين والتجار المؤمنين سواء من أصل يهودي أو أممي، جاءوا يحملون في قلوبهم شعلة الإيمان المتقد، يكرزون ويشهدون للرب. من بين هؤلاء أُناس سمعوا تعاليم القديس بولس في بعض مدن آخائية ومكدونية في بلاد اليونان وفي مدن آسيا الصغرى وآمنوا بهذه التعاليم. ويؤكد ذلك سلام القديس بولس على كثيرين ذكرهم بأسمائهم في الأصحاح الأخير من الرسالة، مما يدل على أنهم كانوا من تلاميذه ومعارفه، مع أنه لم يكن قد ذهب إلى روما قبل كتابة الرسالة.

٣. إذ طُرد كثير من اليهود إن لم يكن جميعهم من روما بأمر كلوديوس إلى مدن أخرى ثم عادوا إليها مرة أخرى، كان بعضهم قد آمن بالسيد المسيح، مثال ذلك أكيلا وبريسكلا اللذان التقيا مع الرسول بولس في كورنثوس (أع ١٨: ١-٢). وآمنا على يديه، وكان يشترك معهما في صناعة الخيام... هذان وغيرهما قد اشتركوا في تأسيس الكنيسة هناك (رو ١٦: ٥).

٤. واضح من الرسالة أن أحدًا من الرسل لم يكن قد أنشأ هذه الكنيسة حتى كتابة هذه الرسالة، فقد كان مبدأه: "كنت محترصًا أن أُبشر هكذا، ليس حيث سُميَ المسيح، لئلا أبني على أساس آخر" (رو ١٥: ٢٠)، وإذ يكتب في نفس الرسالة معلنًا شوقه الشديد للتوجه إليهم وأنه مُنع مرارًا، وأخيرًا قرر زيارتها (رو ١: ٩-١٠؛ ١٥: ٢٢، ٢٤) هذا يؤكد أن أحدًا من الرسل لم يكن قد زار روما من قبل.

٥. كان الرسول بولس يشعر أنه رسول الأمم (غل ٢: ٧، ١١)، لذا أحس بالمسئولية تجاه هذه المدينة كعاصمة العالم الأممي في ذلك الحين. لذا أرادها مركزًا من مراكز خدمته، وأنه مدين لهم بالكرازة (١: ١٤-١٣).

٦. يرى غالبية الدارسين في الغرب والشرق أن القول بأن القديس بطرس الرسول قد أسس هذه الكنيسة وبقي على كرسيها حوالي ٢٥ عامًا لا يمكن قبوله[١]، فمن جهة كان القديس بطرس حاضرًا في أورشليم حتى المجمع الرسولي المنعقد عام ٥٠ م تقريبًا (أع ١٥)، وكان في أنطاكية عام ٥٥ م حيث اجتمع بالقديس بولس هناك (غل ٢: ١١)، وكان في بابل حين كتب رسالته الأولى حوالي عام ٦٠ م (١ بط ٥: ١٣). هذا ولو أن القديس بطرس قد أسس الكنيسة هناك عام ٤١م كما ظن البعض لما كتب الرسول هذه الرسالة، وإن كتبها لما قال أنه لا يبشر حيث سُمي المسيح لئلا يبني على أساس لآخر (١٥: ٢٠)، ولكان ذكر اسمه في الرسالة أو سلّم عليه.

زمان ومكان كتابتها

كتب الرسول هذه الرسالة وهو يتوقع زيارته لروما، وقد قرر ذلك في طريقه إلى أسبانيا (رو ١٥: ٢٣-٢٤)، وذلك بعد ذهابه إلى أورشليم حاملاً معه عطايا مسيحيي مكدونية وأخائية إلى إخوتهم فقراء أورشليم (رو ١٥: ٢٥-٢٦؛ ١ كو ١٦: ١-١٦؛ ٢ كو ٨: ١-٤). بهذا يكون قد كتبها أثناء رحلته التبشيرية الثالثة من كورنثوس في بيت رجل اسمه غايس، وصفه الرسول: أنه "مضيفي ومضيف الكنيسة كلها" (رو ١٦: ٢٣)، وهو أحد اثنين قام الرسول بتعميدهما (١ كو ١: ١٤).

أملاها الرسول على ترتيوس[٢] (رو ١٦: ٢٢)، وقد حملتها إلى روما الشماسة فيبي، خادمة كنيسة كنخريا[٣] (١٥: ١) ميناء شرقي كورنثوس.

إذ ذهب الرسول بولس إلى أورشليم في ربيع عام ٥٨م، لذا يرى غالبية الدارسين أنها كُتبت ما بين عامي ٥٧، ٥٨م.

أعضاء الكنيسة الأولى[٤]

---

[1] *Donald Guthrie: N.T. Introduction, 1975, p 393-4.*

[٢] اسم لاتيني معناه "الثالث".

[٣] اسم يوناني معناه "دخن"، وتسمى حاليًا "كخريس".

[4] *Jerome Biblical Comm., p 292; Guthrie p 395.*

لا يمكننا أن نفهم غاية هذه الرسالة وندرك عمق معانيها ما لم نتعرف على نوعية أعضائها، هل كانوا من اليهود المتنصرين؟ أو من الأمم المتنصرين؟ أو كانوا خليطًا من الاثنين؟

الرأي الأول: لمدرسة توبنجن *Tubingen* و *E. Renan* و *T. Zahn* و *W. Manson* و *F. Leenhardt* أن الغالبية العظمى للأعضاء من اليهود المتنصرين، وحجتهم في ذلك الرئيسية هي استخدام الرسول مقتطفات كثيرة من العهد القديم خاصة قصة إبراهيم داعيًا إيّاه "أبانا"، ويشعر القارئ أن الرسول في أغلب حديثه يتكلم مع من هم من أصل يهودي. هذا بجانب أن تعداد اليهود في روما في القرن الأول كان كبيرًا.

الرأي الثاني: نادى به *J. Munck* و *S. Lyonnet* و *O. Michel* و *C. K. Barrett* بأن الغالبية العظمى هم من أصل أممي، معتمدين على أن الرسول يحدثهم كرسول للأمم (١: ٥–٧، ١٢–١٤؛ ١١: ١١–١٣، ١٥: ١٦)؛ وأنه يقارنهم بغيرهم من سائر الأمم (١: ١٤–١٢). وحديثه لهم قائلاً: "قدمتم أعضائكم عبيدًا للنجاسة والإثم" (٦: ١٩) يناسب من كانوا من أصل أممي لا يهودي، كما يخاطبهم "أقول لكم أيها الأمم" (١١: ١٣).

الرأي الثالث: إنها كانت خليطًا من الصنفين، نادى به *Headlam* و *Sanday* و *Dodd*...

هذا ويمكننا القول بأن الكنيسة كانت تضم الصنفين، غير أن العنصر اليهودي كان غالبًا إلى حد كبير.

أهمية الرسالة وغايتها

كان لهذه الرسالة أهميتها في الكنيسة الأولى، فقد جاء عن **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه كان يقرأها مرتين أسبوعيًا.

١. نستطيع أن نتفهم أهمية هذه الرسالة ونتفهم ما حوته في داخلها من سبب كتابتها والظروف التي كانت تحيط بها. فقد آمن عدد ليس بقليل من يهود روما بالسيد المسيح، سواء كانوا يهودًا من أصل عبراني أو دخلاء من الأمم، كما آمن بعض الأمميّين الوثنيين المثقفين بفكر يوناني بربنا يسوع، وكان يلزم أن يلتقي الجميع بوحدانية الروح كأعضاء في جسدٍ واحدٍ، لكن اليهود بتربيتهم المتزمتة، وتعصبهم الشديد لجنسهم وثقافتهم وفكرهم الديني، لم يقدروا أن ينزعوا أنفسهم بسهولة عن شعورهم بالامتياز عن غيرهم حتى بعد قبولهم الإيمان المسيحي، فكانوا يستخفون بالأمميّين المتنصرين تحت

دعوى:

١. أنهم أبناء إبراهيم، أصحاب الوعد كنسل إبراهيم.
٢. أنهم مستلمو الناموس الموسوي دون سواهم.
٣. أنهم شعب الله المختار وحدهم.

خلال هذا الفكر الذي عاشوه في ماضيهم اليهودي تأصل فيهم الكبرياء عن عدم فهم للبنوة لإبراهيم ولا غاية الناموس ولا معنى اختيار الله لشعبه. فظنوا أنهم حتى بعد قبول الإيمان بالمسيا المخلص يبقون في مرتبة أسمى من غيرهم.

هذا، ومن جانب آخر فإن بعض الأمميّين المتنصرين أخذوا موقفًا مضادًا كرد فعل للفكر اليهودي، فنظروا لليهود كشعبٍ جاحدٍ وأن الباب قد أُغلق بالنسبة لليهود لينفتح لهم على مصراعيه، الأمر الذي يعرضهم هم أيضًا للكبرياء.

خلال هذه الظروف جاءت الرسالة موجهة إلى الطرفين لتعالج قضايا إيمانية حيّة وسلوك روحي إيماني يمس حياة الكنيسة عبر الأجيال كلها، فحدثنا الرسول عن **عمومية الخلاص**. وأن الباب قد انفتح للأمم جميعًا خلال الإيمان الحيّ العامل بالمحبة، فقدم لنا الرسول بوحي الروح القدس مفهوم الإيمان وارتباطه بالخلاص، كما كشف لنا عن قلبه الرسولي المتفجر بالحب نحو المسيّا ونحو البشرية كلها التي مات المسيح عنها. وفي نفس الوقت عالج مشكلة الكبرياء سواء في حياة اليهود أو الأمم، والتقديس، والحياة الإيمانية العملية خلال العلاقات العامة والعلاقة بالنفوس الضعيفة، وعلاقة المؤمن بالمجتمع الخ. لقد قيل عن هذه الرسالة أنها "**كاتدرائية الإيمان المسيحي**"، تدخل بالمؤمن إلى مقدسات الله الفائقة، وترفعه خلال مذبح الإيمان الحيّ العملي إلى الالتقاء بالآب السماوي في الابن الوحيد المبذول، وذلك بعمل الروح القدس.

رأى البعض في الرسالة أنها جاءت لتقف في وجه أنصار "**حركة التهوّد**" التي تدفع بالمؤمنين إلى العودة لأعمال الناموس الحرفية كالختان والتطهيرات والغسالات الموسوية والتزام الأمميّين بالتهوّد قبل تنصرهم؛ أو جاءت هذه الرسالة بهدف المصالحة بين الفريقين من اليهود المتنصرين والأمميّين المتنصرين. لكن في الحقيقية لم يقدم الرسول هذه الرسالة بطريقة دفاعية، ولا لمجرد عمل مصالحة، إنما قدمها كمقال يمس إيمان الكنيسة ويعبِّر عن الحياة الإنجيلية بدقة بالغة، حتى دُعيت هذه الرسالة: "**إنجيل بولس**".

٢. من أهداف هذه الرسالة إعلانه عن زيارته لروما بعد اشتياقات ومحاولات كثيرة. جاءت هذه الرسالة تمهد لمجيئه بعرضه إنجيل ربنا يسوع الذي قبلته الكنيسة الأولى من خلال نظرة معينة هي انفتاح باب الخلاص لكل الشعوب والأمم. مهّد الطريق حتى متى جاء لا يحتك بطالبي التهوّد، أصحاب الفكر الضيق. ولعلّه قد كتب هذه الرسالة بعد أن بلغته أخبار الكنيسة في روما من تلاميذه ومعارفه هناك، فأراد معالجة الأمور كتابة قبل مجيئه.

مشكلة الأصحاح السادس عشر

يمثل الأصحاح السادس عشر مشكلة بالنسبة لبعض الدارسين، إذ يحسبونه غير منسجم مع بقية الرسالة، وأنه قد أضيف إلى الرسالة مأخوذًا ربما عن رسالة كتبها الرسول إلى أفسس، مقدمين الحجج التالية[1]:

أولاً: لم يكن قد زار الرسول بعد روما، فبعث تحيات لعددٍ كبيرٍ من الناس في الكنيسة يناسب بالأكثر مدينة أفسس التي خدمها الرسول وليس مدينة روما. يرد على ذلك بعض الدارسين بأنه ليس من سياسة القديس بولس أن يذكر تحياته لأشخاص معينين في كنائس قد خدم فيها، إذ يحسب كل مخدوميه أحباء له بلا محاباة أو تمييز، وأنه يليق بالأكثر أن يذكر هذه القائمة بخصوص الكنيسة التي في روما لعدم معرفته لبقية الأعضاء بصفة شخصية، ولكي يشجع المعروفين لديه على الخدمة.

ثانيًا: أُشير إلى بريسكلا وأكيلا وإلى الكنيسة التي في بيتهما في ١ كو ١٦: ١٩ التي كُتبت في فترة قصيرة قبل الرسالة إلى أهل روما، وأنهما كانا مقيمين في أفسس، وأيضًا يفهم من ٢ تي ٤: ١٩ أن بريسكلا وأكيلا كانا في أفسس أثناء كتابة الرسالة الثانية إلى تيموثاوس بروما قبيل استشهاده، فكيف يذكرهما كمقيمين في روما؟ (رو ١٦: ٣) يرد على ذلك بأن اليهود رجال أعمال، وأن بريسكلا وأكيلا كانا غنيين تقيين، لهما أعمال تجارية في أكثر من مركز، وقد جعلا من بيتهما في روما وأيضًا في أفسس كنيستين. وبهذا فلا عجب أن تنقلا بين أفسس وروما. ويفترض بعض الدارسين أنهما كانا مقيمين بروما، ولما صدر أمر كلوديوس سنة ٤٩م بطرد جميع اليهود أوكلا عملهما لمن له جنسية رومانية ولم يغلقا بيتهما ولا عملهما حتى عادا إلى روما من جديد عندما استقر الأمر.

ثالثًا: جاء ذكر أبينتوس بكونه باكورة أخائية بآسيا (١٦: ٥)، هذا اللقب يقدمه الرسول لمن هو

[1] *Guthrie, P 400-404.*

في كنيسة أفسس بآسيا الصغرى لا لمن يقيم في روما. يرد على ذلك بأن الرسول إذ يذكره أنه باكورة كرازته في آسيا، يطلب منه وقد رحل إلى روما أن يرد الدين للرسول بكرازته هو للآخرين كما كرز له الرسول، فهو يشجعه على العمل بقوة وغيرة، مستغلاً كونه باكورة عمله في أخائية.

رابعًا: يفترض البعض بأن توصيته عن فيبي شماسة كنخريا (١٦: ٢-١) تليق بالأكثر تقديمها لكنيسة معروفة لديه سبق فخدمها، لا لكنيسة لا يعرف أعضاءها بصفة شخصية. ويرد على ذلك أن الرسول بولس يدرك أن مثل هذا العمل يفرح قلب المؤمنين حتى وإن لم يعرفوه شخصيًا، إذ يشعرون أنه يتكلم معهم بدالة الحب الأبوي، هذا وبلا شك أن الكثيرين سمعوا عنه الرسول بولس وعن خدمته وغيرته الأمر الذي يعطيه دالة لمثل هذا الطلب.

خامسًا: نغمة التحذير الواردة في هذا الأصحاح (١٦: ١٩-١٧) لا تنسجم مع نغمة بقية الرسالة، إذ لم يسبق الحديث عن مثيري انقسامات وواضعي عثرات خلافًا للتعليم الذي تسلموه. ويرد على ذلك بأن الرسالة عالجت مشكلة مثيري حركة التهوّد، وإن كان الرسول قد عالج بطريقة موضوعية إيجابية، فلم يستخدم طريقة الدفاع ولا الهجوم، إنما العرض الإيجابي للفكر الإيماني السليم، وكان لائقًا أن يعرض لهؤلاء المثيرين للانشقاقات بسرعة عاجلة حتى لا ينفر اليهود المتنصرين منه.

سادسًا: يختتم الأصحاح الخامس عشر بذكصولوجية أو خاتمة يظهر منها أن الرسالة قد انتهت، إذ يقول: "إله السلام معكم أجمعين، آمين" (١٥: ٣٣). ويرد على ذلك أنه ربما أراد أن يختم الجانب التعليمي والعملي العام، ليقدم أمورًا خاصة بكنيسة روما كما لو كانت ملحقًا لكنها جزء لا يتجزأ من الرسالة.

هذا وإن افتراض هذا الأصحاح جزءً من رسالة مفقودة مرسلة إلى أفسس مجرد افتراض لا يُدعمه أي دليل تاريخي.

المواضيع الرئيسية في الرسالة

١. الإيمان والخلاص المجاني

عاش القديس بولس قبل الإيمان بالسيد المسيح في صراع داخلي مرّ، ففي الخارج يظهر إنسانًا معتدًا بجنسه وبرّه، بكونه عبرانيًا أصيلاً من شعب الله المختار، وفرّيسيًا وحافظًا للناموس، يمارس الطقوس في جدية ويحفظ الوصايا، لكنه في أعماق نفسه الدفينة متى صارح نفسه يجد أنه ضعيف

للغاية أمام الخطية، وعاجز عن التمتع بالحياة المقدسة الداخلية، محتاج لا إلى وصايا وتعاليم بل بالحري إلى تجديد طبيعته.

وجد الرسول بولس في الإيمان وحده بربنا يسوع، لا بأعمال الناموس الحرفية من ختان وغسالات وتطهيرات، يُدفن مع المسيح ويقوم في مياه المعمودية ليصير "خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل صار جديدًا" (٢ كو ٥: ١٧).

اختبر الحياة الجديدة في المسيح يسوع لا كتغيير مظهري، ولا اعتناقًا لتعاليم جديدة، إنما ما هو أعظم: تمتع بقوة الإيمان الحيّ، وتغيير شامل في حياته الجديدة فيه تقديس للقلب والأحاسيس والعواطف والفكر وكل طاقات النفس والجسد بالروح القدس الذي يسكن فيه. هذا التغيير يتحقق خلال تغيير مركز الإنسان من حالة العداوة مع الله خلال ناموس الخطية إلى حالة البنوة لله في المسيح يسوع الابن الوحيد، الأمر الذي لن يمكن للناموس الموسوي أن يحققه، ولا لأعمال الناموس الحرفية الكثيرة.

حينما يتحدث الرسول هنا عن الإيمان وحده دون الأعمال، لا يتحدث عن الجهاد الروحي النابع عن الإيمان الحق، إنما عن الأعمال الناموسية في حرفيتها، فقد كان الخلاف بين عنصري الكنيسة الأولى من يهود متنصرين وأمميين متنصرين لا في أمر الجهاد الروحي وإنما "**أعمال الناموس**"، إذ طالب البعض من الفريق الأول التزام الأمميين أن يتهودوا أولاً بالختان وممارسة الغسالات والتطهيرات حتى يُقبلوا في الإيمان المسيحي. دُعى هذا الأمر بحركة التهوّد.

يهاجم الرسول بطريق غير مباشر هذه الحركة التي ترد الإنسان إلى حرفية الناموس ومظهرية إتمام أعماله، لذا ركّز على الإيمان. ويقصد به الإيمان الحيّ العامل بالمحبة، والذي به يرتبط المؤمن بربنا يسوع ويتحد معه (رو ٦: ٥)، ويتألم معه (١ كو ١٢: ١٦؛ رو ٨: ١٧)، ويُصلب معه (رو ٦: ٦)، ويموت معه (٢ تي ٢: ١١)، ويقوم معه (أف ٢: ٦)، ويحيا معه (رو ٦: ٨)، ويجلس معه (أف ٢: ٦)، ويتمجد معه (رو ٨: ١٧)، ويملك معه (٢ تي ٢: ١٢)، ويرث معه (رو ٨: ١٧).

٢. عمومية الخلاص

إيمان الرسول بولس بالسيد المسيح زعزع أساسات فكره المتعصب. فبعدما كان يعتنق أن العالم كله قد خُلق من أجل الرجل اليهودي لخدمته، أدرك حب الله الشامل لكل البشر بغض النظر عن جنسيته أو جنسه أو إمكانياته أو سلوكه؛ جاء لليهودي كما للأممي، للرجل كما للمرأة، للطفل وللشيخ،

يطلب الخطاة والفجّار ليقدسهم له. جاء لأجل الجميع، لذا تكررت كلمة "**جميع**" أو ما يماثلها حوالي ٧٠ مرة في هذه الرسالة.

يعتبر موضوع "**عمومية الخلاص**" هو الخط الرئيسي في كل الرسالة، يركز عليه الرسول بكل قوته، مفندًا الحجج اليهودية المتقوقعة حول الفكر اليهودي المتعصب، بطريقة روحية لا تثير اليهود حتى يكسبهم هم أيضًا مع كافة الأمم.

فنّد حجتهم أنهم أبناء إبراهيم أب الآباء، فطالبهم بالبنوة الروحية له بحمل إيمانه، ورفعهم إلى البنوة لله واهبة الحرية الداخلية. وفنّد حجتهم أنهم مستلمو الناموس، مُعلنًا أنه فضح خطاياهم وأعلن الحكم عليهم بالموت ليقودهم إلى المخلص واهب الحياة. وأخيرًا فنّد حجتهم أنهم شعب الله المختار، ليُعلن بسط الله ذراعيه للعالم كله ليضم له شعبًا لم يكن يعرفه، ويجعل من الأمم التي كانت غير محبوبة محبوبة له بإيمانها به بعد جحود طال زمانه. فالله خالق الكل، والمهتم بخلاص الجميع.

النعمة والتبرير والتقديس

تكررت في هذه الرسالة هذه المصطلحات ومشتقاتها: النعمة، البرّ، القداسة الخ. ويلاحظ في الرسول بولس أنه لا يهتم بتقديم مفاهيم فكرية مجردة وتعاريف لمثل هذه المصطلحات، إنما تشعر وكأنه يود أن يدخل بكل مؤمن بالروح القدس إلى التمتع بهذه النعم والعطايا الإلهية، على عكس الدارسين المُحدِثين إذ يهتمون بالأكثر بتقديم تعاريف ويدخلون في أبحاث فكرية فلسفية معقدة أكثر من الخبرة الحيّة.

أولاً: النعمة *Charisma*

إذ يعالج الرسول بولس موضوع "عمومية الخلاص" يكثر الحديث عن النعمة كمقابل لأعمال الناموس الحرفية، فقد أراد اليهود أن يتبرروا بأعمال الناموس، لكن جاء السيد المسيح ليهب النعمة المجانية لكل البشر للتبرير. "**الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته كثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانًا مع المسيح، بالنعمة أنتم مخَلّصون... ليظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع، لأنكم بالنعمة مخَلَّصون بالإيمان وذلك ليس منكم، هو عطية الله، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد**" (أف ٢: ٤-٩).

حاول بنيامين بريوري *Benjamin Brewery* أن يستنبط من كتابات **العلامة أوريجينوس** تعريفًا للنعمة الإلهية والتي استقاها العلامة أيضًا من كتابات الرسول، فقال:

[النعمة هي قوة الله المودعة في يديّ الإنسان مجانًا،
لكنها لا تُعطى بدون شرط،
وهي تهييء الإنسان بالروح القدس، ليقدم الخلاص للتمتع بالحياة الأبدية الجديدة النهائية،
المعلنة والمدبّرة في الكتاب المقدس،
بواسطة يسوع المسيح، والمقدمة للعالم كله[1].]

النعمة هي عطية الله الآب التي يقدمها لنا في ابنه يسوع المسيح، الذي حملنا فيه بالصليب لننعم بما له، ووهبنا روحه القدوس روح الشركة الذي يرفعنا كما بجناحيّ الروح إلى الأحضان الأبوية كأبناء مقدسين في الحق.

وقد جاءت كلمة "نعمة" *Charisma* مقابل "أجرة" *opsonis*، فالخطية أجرتها موت يقابلها النعمة هبتها الحياة الأبدية (٦: ٢٣؛ ٥: ١٥). فما ننناله من الله ليس أجرة عن عمل نمارسه، إنما هو هبة مجانية قدمها الله خلال ذبيحة الصليب، نابعة عن فيض حبه الإلهي. بهذا ارتبطت كلمة "النعمة" في ذهن الرسول بولس بعمل الله الخلاصي المجاني، غايتها أن ترفعنا من حالة ما تحت الناموس أي تحت حكمه إلى "حالة النعمة" (٥: ٢)، نعيشها بمركز جديد.

تُقدم هذه النعمة الإلهية المجانية للعالم كله بلا مقابل، وبلا قيود من جانب الله، لكن لا ينتفع بها المقاومون والعنيدون، إذ لا تنزع النعمة حرية الإرادة. من هنا نفهم الجهاد الروحي، إننا لا نقدمه كثمن للنعمة، وإنما كإعلان عن جدّية قبولنا وتجاوبنا مع نعمة الله المجانية؛ إنه ضروري لخلاصنا وبدونه خسر كثيرون نعمة الله المجانية؛ لكننا لا نحسب هذا الجهاد أو الأعمال الصالحة برًا ذاتيًا من جانبنا. إذن لنقبل نعمة الله ومبادرته بالحب. هذه النعمة تعمل فينا لتقديس مشيئتنا وأعمالنا، وبجديتنا في تقديس المشيئة والعمل ينفتح القلب أكثر لقبول العمل الإلهي، وهكذا نرتفع من مجدٍ إلى مجدٍ، ونمارس الحياة المقدسة بجهادٍ وتعبٍ خلال النعمة المجانية.

هذا ويرى القديس بولس أن "النعمة" هي حالة يتمتع بها المؤمن الحيّ، الذي يقبل الإيمان بالمسيح بطريقة حيّة، أي إيمانًا عاملاً بالمحبة. هذه هي النعمة العامة المقدمة للجميع، لكن هناك نعم أخرى مجانية كنعمة الرسولية التي وهبت له (رو ١٥: ١٥) للكرازة بين الأمم.

كلمة "نعمة" *Charisma* تعبير عسكري، يستخدم عندما يتولى الإمبراطور العرش، أو يحتفل

[1] *Origen & the Doctrine of Grace, London 1960, p. 48.*

بعيد ميلاده، حيث يهب جنوده عطايا مجانية خلال كرم الإمبراطور وسخائه. وكأن السيد المسيح إذ ارتفع على عرش الصليب وملك على النفوس قدم "نعمة" لكل بشر، هي عمله الخلاصي الذي يتركز في حلوله في النفس لتثبيت الإنسان فيه بروحه القدوس، فينعم بالأحضان الأبوية. هذه هي عطيته: تمتع الإنسان بالثالوث القدوس في استحقاقات الدم الثمين، ليحمل الصورة الإلهية، وينعم بسمات سماوية فائقة.

يرى **القديس البابا أثناسيوس الرسولي** أن هذه النعمة الإلهية التي تجلّت في كمال قوتها بالصليب ليست بالأمر الجديد، فعند الخلقة بالنعمة أقام الله الخليقة من العدم إلى الوجود، وميّز الإنسان بنعمة خاصة دون سائر الخليقة، هي نعمة خلقته على صورة الله ومثاله، لكي يستطيع أن يبقى في الفردوس أبديًا. يدعم ذلك نعمة الوصية التي وُهبت له كنعمة، حتى إذا ما بقي أمينًا في حفظه للوصية، أي تمتعه بالنعمة يحيا في الفردوس بلا حزن ولا ألم ولا قلق[1]. أما سرّ عدم الفساد فهو التمتع بالشركة في الكلمة الذي "فيه كانت الحياة" (يو ١: ٤). أما وقد فقد الإنسان النعمة الإلهية بالعصيان، جاء الكلمة متجسدًا ليرد الإنسان إلى الخليقة الأولى بتجديد طبيعته بنعمة أعظم[2].

ثانيًا: التبرير *Dikaisone*

يرى الكثير من الدارسين أن هذه الرسالة في جوهرها أشبه بمقال عن "التبرير". شغل موضوع التبرير الإنسان منذ سقوطه، فقد أحسّ بفشله في التبرر أمام الله، إذ قيل: "ليس بار ولا واحد" (رو ٣: ١٠). خلال الناموس الطبيعي صرخ أيوب التقي: "فكيف يتبرر الإنسان عند الله؟" (أي ٩: ٢). وقال أليفاز التيماني: "من هو الإنسان حتى يزكو أو مولود المرأة حتى يتبرر؟ هوذا قديسوه لا يأتمنهم والسماوات غير طاهرة بعينيه؟ فبالحري مكروه وفاسد الإنسان الشارب الإثم كالماء" (أي ١٥: ١٤-١٦). ويقول بلدد الشوحي: "فكيف يتبرر الإنسان عند الله؟ وكيف يزكو مولود المرأة؟ هوذا نفس القمر لا يضيء، والكواكب غير نقية في عينيه، فكم بالحري الإنسان الرمة وابن آدم الدود" (أي ٢٥: ٤، ٦). وفي عهد الناموس الموسوي يقول المرتل: "لأنه لن يتبرر قدامك حيّ" (مز ١٣٤: ٢). وقد جاء علاج هذا الأمر في الإنجيل، خاصة في هذا السفر:

"متبررين مجانًا بنعمته، بالفداء الذي بيسوع المسيح، الذي قدمه الله كفارة بالإيمان لإظهار بره في

---

[1] *Incar. 3.*
[2] *Against Arians 2: 67.*

الزمان الحاضر، ليكون بارًا، ويبرر من هو من الإيمان بيسوع" (رو ٣: ٢٤-٢٥).

"فبالأولى كثيرًا ونحن متبررون الآن بدمه، نخلص به من الغضب" (رو ٥: ٩).

"إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح" (غل ٢: ١٦).

وإنني إذ لا أود الدخول في مباحثات فلسفية نظرية جافة فقد انشغل كثير من اللاهوتيين في الغرب بهذا الموضوع أقدم مفهومًا مبسطًا للتبرير أو التمتع ببرّ الله في المسيح يسوع ربنا.

كلمة "**بار**" من الجانب اللغوي في الأصل اليوناني تقترب جدًا من كلمة "عادل"، لهذا يرى البعض في البار كائنًا وقورًا، لكنه ليس بالضرورة جذّابًا، إذ هو عادل، لكنه ليس بالضرورة لطيفًا وحانيًا[1]، وربما استخدم الرسول هذا المعنى عندما قال: "فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار، ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضًا أن يموت" (رو ٥: ٧)، غير أنه جاء التعبير في كتابات الرسول نفسه كما في بقية الكتاب المقدس يحمل معنى أوسع.

بالنسبة لله دُعي بارًا في العهد القديم خلال علاقته بنا بتقديمه أعماله الخلاصية للإنسان، إذ يقول: "أنا قد أنهضته بالبرّ (بالنصر)" (إش ٤٦: ١٣)، "قريب برّي" (إش ٥١: ٥)؛ وفي العهد الجديد يتجلى برّه في أعماله الخلاصية لحسابنا في المسيح يسوع: "لأن فيه معلن برّ الله بإيمان لإيمان" (رو ١: ١٦)، "ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبرًا وقداسة وفداء" (١ كو ١: ٣٠).

لعل الرسول بولس قد فهم "برّ الله" بمعنى أن الله بار في وعده، أمين في مواعيده، إذ يقول: "فماذا إن كان قوم لم يكونوا أمناء؟ أفلعل عدم أمانتهم يبطل أمانة الله؟ حاشا! ليكن الله صادقًا وكل إنسان كاذبًا، كما هو مكتوب: لكي تتبرر في كلامك، وتغلب متى حوكمت" (رو ٣: ٣-٤). وكأن الرسول يود أن يقول إن الله بار في وعده للإنسان بالرغم من انتزاع البرّ من البشرية بعدم تجاوبها مع عمله الخلاصي، وعدم قبولها وعوده عمليًا بالطاعة له. بهذا نفهم أيضًا العبارة أنه "ليس بار ولا واحد" (رو ٣: ١٠؛ مز ١٤: ١-٣، ٥٣: ١).

الله بار في وعوده الإلهية نحو الإنسان الذي لم يستطع أن يكون بارًا لا بالطبيعة ولا تحت الناموس الموسوي، فإنه إذ يكسر وصية واحدة ولو بالفكر أو النيّة يُحسب كاسرًا للناموس فلا يتبرر. هذا ما أوضحه الرسول في الأصحاحات الثلاثة الأولى معلنًا أن الإنسان، يهوديًا كان أم أمميًا، صار

[1] *J. Hastings: Dictionary of the Apostolic Church, v., p 370-371.*

في عوز إلى برّ الله، فماذا فعل اليهود؟ لقد حاولوا أن يتبرروا في أعين أنفسهم، حاسبين أن البرّ يكمن في انتسابهم لإبراهيم أبيهم جسديًا أو حفظهم لأعمال الناموس حرفيًا أو انتمائهم لشعب الله المختار أيًا كانت حياتهم. وكانت النتيجة أنهم سعوا وراء "برّ الناموس" الذي يقوم على حفظه شكليًا (رو ١٠: ٢٢)، رافضين برّ الإيمان. وهنا يميز الرسول بين برّ الناموس الذي طلبه اليهود خلال الشكليات في كبرياء، وبرّ الإيمان الذي قدمه الله في ابنه يسوع المسيح للعالم كله. هذا التمييز سبق فأعلنه السيد المسيح لليهود، موضحًا أنهم يطلبون برّ الكتبة والفريسيين في رياء، ويرفضون برّ الله الذي وجده العشّارون والخطاة (مت ٥: ٢٠، ٦: ٣٣، ٢١: ٣).

عاش آباؤنا بروح التمييز، يخشون طلب الإنسان بره الذاتي عوض البرّ بالإيمان الحيّ العامل بالمحبة. فقد جاء ربنا يسوع المسيح يهبنا بنعمته المجانية الدخول إلى بره والثبوت فيه، لكن ليس في رخاوة أو في إيمان لفظي بحت، إنما خلال الإيمان الحي العامل. فالبرّ هو ثمرة نعمته، لا عن استحقاق بشري ذاتي، نطلبه مجاهدين ليقدس إرادتنا وحياتنا العملية، مجاهدين بروحه القدوس، لكي ننطلق إلى "برّ المسيح" من عمق إلى عمق، لتكون لنا خبرات متجددة بروحه في برّ المسيح.

يفهم **القديس أغسطينوس** البرّ على أنه ملكية يمنحها الله للإنسان؛ فالبرّ في نظره ليس غفرانًا للخطايا مجردًا وامتناعًا عنها، وإنما قبول "برّ المسيح" كبرّ له. بمعنى آخر البرّ في سلبيته توقف عن الشر، وفي إيجابيته حمل سمات المسيح عاملة فيه. هذا أيضًا ما أعلنه **القديس يوحنا ذهبي الفم** عندما تحدث عن الحياة الفاضلة بكونها تحمل الجانبين السلبي والإيجابي: رفض الشر وعمل الصلاح.

أخيرًا، ما نود تأكيده أن البرّ ليس عملاً ذاتيًا أو فضيلة بشرية، إنما في إيماننا هو تجلي سمات المسيح في حياة المؤمنين المجاهدين بالروح والسالكين بالحق. هذا ما سنلمسه في دراستنا لهذا السفر، فإنه إذ يتحدث عن "البرّ في المسيح" يربطه بالسلوك الروحي العملي، تحت عنوان "اهتمام الروح" أي "بالسلوك بالروح القدس"، ورفض "اهتمام الجسد" أي الخنوع للشهوات الجسدية التي قد تسيطر حتى على النفس. هذا ويختم السفر بحديث طويل عن حياة البار العملية، مترجمة في عبادته وسلوكه الشخصي وعلاقته بالمجتمع خاصة صغار النفوس والضعفاء. وكأن الرسول يود تأكيد أن البرّ بالإيمان هو خبرة عملية حيّة تتجلى في كل جوانب حياة الإنسان.

ثالثًا: التقديس *agiacmos*

القداسة سمة خاصة بالله نفسه الذي يدعو نفسه "**القدوس**" (لا ١١: ٤٤–٤٥، ٢٠: ٢٦، ٢٢: ٢؛ ١ بط ١: ١٦)، يسكب هذه السمة على خليقته المحبوبة لديه فيحسبهم قديسين، ناسبًا نفسه إليهم بدعوته "قدوس القديسين" (دا ٩: ٢٤)، ويسمى شعبه سواء في العهد القديم أو العهد الجديد "أمة مقدسة" (خر ١٩: ٦؛ ١ بط ٢: ٩).

القداسة هي هبة إلهية تُعطى لمؤمنيه، أو نعمة مجانية تُقدم لأولاد الله المجاهدين لكي يصيروا على شبه أبيهم القدوس، إذ "هذه هي إرادة الله قداستكم" (١ تس ٤: ٣)، أو كما يقول الرسول: "لكي نشترك في قداسته" (عب ١٢: ١٠).

إن كان الروح القدس يسمى "روح القداسة"، فإن الله يهبنا الحياة المقدسة بروحه القدوس الذي يدخل بنا إلى الثبوت في المسيح القدوس، فنحمل سماته فينا، ويتحقق فينا القول أن نكون قديسين كما أنه قدوس (لا ١١: ٤٤؛ ١ بط ١: ١٦).

هذه الهبة المجانية تُعطى للمجاهدين بالرب، لا ثمنًا لجهادهم، وإنما من أجل تجاوبهم مع فيض نعمته المجانية، ليسلكوا في القداسة لعلهم يبلغون إلى قياس قامة ملء المسيح (أف ٤: ١٣). لذلك يقول **العلامة أوريجينوس** أن الرسول يدعو المؤمنين المجاهدين "مدعوّين قديسين" (١: ٧) ليس لأنهم بلغوا الحياة المقدسة في كمالها وإنما لأنهم يسيرون فيها مشتاقين البلوغ إلى كمالها.

الاختيار وحرية الإرادة

يتعثر بعض البسطاء عند دراستهم للأصحاح التاسع من هذه الرسالة، إذ يفسرونه مستقلاً عن ظروف كتابته ويبترونه عن بقية الرسالة فيحسبون أن الله عنده محاباة يختار من يشار ويرفض من يشاء، بناء على العبارات:

"ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى، بل لله الذي يرحم" [١٦]؛

"يرحم من يشاء، ويقسي من يشاء" [١٨]؛

"أم ليس للخزّاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان!" [٢١]

وإن كنا سنعالج هذه النقطة بشيء من التفصيل عند دراستنا لهذا الأصحاح، لكن ما نود تأكيده هنا هو الآتي:

١. لا يعالج الرسول في هذا الأصحاح مشكلة حرية الإرادة، بل حق الله في اختيار الأمم كما سبق فاختار اليهود؛ لقد رحم الآخيرين دون فضل من جانبهم سوى رحمة الله، هذه المراحم لها حق

العمل في غيرهم أيضًا.

٢. يؤكد الرسول في صلب الرسالة عينها حرية الإرادة الإنسانية وتقديس الله لها، مكرمًا الإنسان كشخصٍ له إرادة حرة، هي هبة من عند الله.

٣. يرحم الله المؤمن ليس كأجرة أو كثمن لمشيئته وسعيه، لكنه في نفس الوقت يسألنا أن نشاء وأن نسعى بنعمته فننال رحمته المجانية.

٤. للخزّاف سلطان لكنه يود أن يكون الكل آنية للكرامة، فإن رفض الإناء الكرامة تمجد الله فيه حتى وهو إناء للهوان، كما تمجد في فرعون خلال قسوة قلبه.

أقسامها

الباب الأول: حاجة الكل للخلاص	**ص ١.**
١. مقدمة الرسالة	١.
الباب الثاني: الجانب التعليمي	**ص ٢-١١.**
٢. حاجة اليهودي للخلاص	٢.
٣. حاجة الكل للخلاص	٣.
* **اليهودي وبرّ الله**	**ص ٤-١٠.**
١. الاتكال على أُبوة إبراهيم	٤-٦.
٢. الاتكال على استلام الناموس	٧-٨.
٣. الاتكال على أنهم شعب الله المختار	٩-١٠.
* **الأممي وبرّ الله**	**١١.**
الباب الثالث: الجانب العملي	**ص ١٢-١٥.**
١. المؤمن والحياة المقدسة	١٢.
٢. المؤمن والمجتمع	١٣.
٣. المؤمن وضعاف النفوس	١٤-١٥.
* **الختام**	**١٦.**

الباب الأول

حاجة الكل إلى الخلاص

ص ١

مقدمة الرسالة ص ١

الأصحاح الأول

مقدمة الرسالة

يمثل هذا الأصحاح مقدمة للرسالة، فيها يكشف الرسول عن جوهر الرسالة كلها، إذ لا يقدم افتتاحية شكلية تحمل مجاملة لطيفة لأهل رومية، وإنما يكتب بحكمة ليكشف في كلمات قليلة عن "**إنجيل الله**"، وفاعليته في حياة المؤمنين. كما يعلن خلالها عن مركز الرسول في الرب وفكره وحكمته ورسالته واشتياقاته الروحية. ولما كان الرسول يود أن يقاوم حركة التهوّد، لا في هجوم سلبي، وإنما بفتح كل قلب إيجابيًا لحب خلاص كل الأمم يبدأ بإبراز أخطاء الأمم أولاً ليعطي فرصة لأصحاب حركة التهوّد (أي للمطالبين بالعودة إلى أعمال الناموس الموسوي الحرفية) ألا يشعروا أنه إنسان متحيز للأمم على حسابهم، إنما هو محب للكل.

١. البركة الرسولية	١-٧.
٢. افتتاحية تشجيعية	٨-١٧.
٣. شرور الأمم	١٨-٣٢.

١. البركة الرسولية

لم يقدم الرسول بولس "البركة الرسولية" كأكلشيه يختم به مقدمة الرسالة، وإنما قدم البركة في المسيح يسوع بما يليق ببنيان من يتحدث معهم وموضوع حديثه لهم، إذ نلاحظ فيها الآتي:

أولاً: يبدأ الرسالة بدعوة نفسه بثلاثة ألقاب، قائلاً: "**بولس عبد ليسوع المسيح، المدعو رسولاً، المفرز لإنجيل الله**" **[١].**

اللقب الأول هو "عبد *doulas*"، ولعله ابتدأ بهذا اللقب لأنه يكتب إلى أناسٍ يثيرون تفرقة عنصرية بين اليهود المتنصرين والأمميين المتنصرين، فإن كان هو عبدًا ليسوع المسيح، ففي هذا يتساوى جميع المؤمنين، إذ الكل عبيد للسيد المسيح، أيًا كان أصلهم أو ديانتهم السابقة.

كان أتقياء العهد القديم يعتزون بهذا اللقب بكونهم "عبيد يهوه" (مز ٢٧: ٩؛ ٣١: ١٦؛ ٨٩: ٥٠)، والآن إذ صار الكل في المسيح يسوع يتمتعون ببرّه وتقواه، يتأهلون لهذا اللقب "عبيد ليسوع المسيح"، ويفخرون به دون سواه، الأمر الذي يشترك كل الأعضاء فيه.

هذا وقد كان هذا اللقب يُنسب بالأكثر لمن قاموا بدور في تاريخ الخلاص خلال خدمتهم ليهوه،

مثل موسى (٢ مل ١٨: ١٢)، ويشوع (قض ٢: ٨)، وإبراهيم (مز ١٠٥: ٤٢). وكأن بولس كرسول وهو مفرز لإنجيل الله يقوم بدور في تاريخ الخلاص، هو امتداد للدور الذي قام به آباء وأنبياء العهد القديم، لذا يليق باليهود المتنصرين أن يسمعوا ويتقبلوا رسالته بلا غضاضة.

أما اللقب الثاني فهو: "**المدعو رسولاً**"... لم يقل "رسول" بل "**المدعو رسولاً**"، لأن موضوع هذه الرسالة هو "دعوة الأمم للإيمان" كما سبق فدُعي اليهود قديمًا للإيمان؛ فإن كان القديس بولس يشعر بالفضل لله الذي دعاه للرسولية، فإنه حتى في إيمانه القديم كان مدعوًّا، وفي قبوله الصليب يحسب نفسه "مدعوًا"... كأن لا فضل لنا في إيماننا كما في شهادتنا للرب، أيًا كان مركزنا الكنسي، إنما يرجع الفضل للذي دعانا.

اللقب الثالث: "**المفرز لإنجيل الله**". هذا اللقب "المفرز" في الأرامية "برسي" أو "فريسي"، وتعني "منفصل"، وكأن فريسيته الأولى قد مهدت لفريسية من نوع جديد، لا فريسية الحرف القاتل القائمة على الاعتداد بالذات والكبرياء، إنما "فريسية روحية" تقوم على التكريس والفرز للتفرغ للكرازة لحساب إنجيل الخلاص للعالم كله.

بهذه الألقاب الثلاثة يعلن القديس بولس أنه "**عبد**"، حياته هي امتداد لحياة عبيد الله العاملين في العهد القديم خلال تاريخ الخلاص، يقوم بالعمل الرسولي بدعوة إلهية وليس من عندياته، لا عمل له ولا هدف سوى تقديم إنجيل الله لكل أحد إن أمكن!

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذه الألقاب الثلاثة، قائلاً:

["**بولس عبد ليسوع المسيح**"... إنه يدعو نفسه عبدًا للمسيح، ليس بطريقة واحدة، إذ توجد أنواع من العبودية.

توجد عبودية أساسها الخلقة، كما قيل: "لأن الكل عبيدك" (مز ١١٩: ٩١)، وأيضًا: "نبوخذراصر عبدي" (إر ٢٥: ٩)، لأن المخلوق عبد لخالقه أو صانعه.

توجد أيضًا عبودية من نوع آخر تنبع عن الإيمان، إذ قيل: "فشكرًا لله أنكم كنتم عبيدًا للخطية ولكنكم أطعتم من القلب صورة التعليم التي تسلمتموها، وإذ أُعتقتم من الخطية صرتم عبيدًا للبرّ" (رو ٦: ١٧-١٨).

نوع آخر يقوم على الخضوع للعمل، كما قيل: "موسى عبدي قد مات" (يش ١: ٢). حقًا كان كل الإسرائيليين عبيدًا، لكن موسى كان عبدًا بطريقة خاصة يتلألأ ببهاءٍ شديدٍ في الجماعة.

هكذا كان بولس عبدًا بكل هذه الأشكال (الثلاثة) من العبودية العجيبة، وقد وضعها كلقبٍ مكرمٍ،

قائلاً: "**بولس عبد ليسوع المسيح**"... "**المدعو رسولاً**"، معطيًا لنفسه هذا الطابع في كل رسائله: "**المدعو**"، مظهرًا إخلاصه، وأنه قد وُجد ليس خلال سعيه الذاتي، إنما دُعي فجأة وأطاع.

هكذا أيضًا يعطي نفس الطابع للمؤمنين بقوله أنهم "مدعوون قديسين". ولكن بينما هم مدعوون ليصيروا مؤمنين نال هو بجانب هذا أمرًا مختلفًا يسمى "الرسولية"؛ هذا الأمر مشحون بالتطويبات غير المحصية، أعظم وأسمى من كل العطايا... إذ يتحدث بولس بصوت عالٍ، ويمجد العمل الرسولي، قائلاً: "إذًا نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا" (٢ كو ٥: ٢٠)، بمعنى أننا نحمل دور المسيح (سفراء عنه). "**المفرز لإنجيل الله**"، كما في البيت يقوم كل واحد بعمل مغاير، هكذا في الكنيسة، توجد خدمات متنوعة تُوزع. وهنا يبدو لي أنه يلمح إلى أنه لم يُقم لهذا العمل باختيار الجماعة فحسب، وإنما عُيّن منذ القديم لهذا العمل، الأمر الذي يتحدث عنه إرميا قائلاً بأن الله قال عنه: "قبلما خرجت من الرحم قدستك، جعلتك نبيًا للشعوب" (إر ١: ٥). فإذ يكتب الرسول إلى مدينة تتسم بالمجد الباطل، كل واحد فيها يفتخر متعاليًا، لذلك يكتب بكل وسيلة ليظهر أن اختياره (للرسولية) كان من قبل الله؛ الله هو الذي دعاه وهو الذي أفرزه[1].

ثانيًا: يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على قوله: "**المفرز لإنجيل الله**"، قائلاً: [إنه يقول "**إنجيل الله**" لكي يفرح السامعين منذ البداية (لأن كلمة إنجيل تعني بشارة مفرحة)، فقد جاءهم بأخبار لا تحزن ملامحهم كما سبق ففعل الأنبياء خلال التوبيخات والاتهامات والانتهار، إنما بأخبار سارة، أي "**إنجيل الله**"، الحاوي للكنوز غير المحصية ذات البركات الثابتة غير المتغيرة[2].]

ثالثًا: يستخدم **القديس أمبروسيوس** هذه العبارة مع عبارات أخرى (٢ كو ١٣: ١٤) للرد على الأريوسيين الذين نادوا بأن الآب أعظم من الابن مدللين على ذلك بأن الآب يُذكر أولاً في الترتيب، وههنا الرسول يذكر الابن قبل الآب، إذ يقول: "**عبد ليسوع المسيح**" أولاً ثم "**المفرز لإنجيل الله**"، هذا علامة على وحدة اللاهوت[3].

وفي نفس المقال يقول بأن الرسول بولس الذي يمنعني من التعبد للخليقة أجده هنا يحثني على التعبد للسيد المسيح، إذ يدعو نفسه "**عبد ليسوع المسيح**"، مظهرًا أنه الخالق وليس مخلوقًا[4].

رابعًا: إن كان الرسول يلتزم بصد حركة التهوّد المُعطلة لإنجيل الله وسط الأمم، فقد أراد أن يؤكد

---

[1] In Rom, hom 1.
[2] In Rom, hom 1.
[3] Of the Christian Faith, 5: 9 (115).
[4] Of the Christian Faith, 1: 16 (104).

لليهود المتنصرين أنه لا يحمل أفكارًا غنوصية كتلك التي حملها البعض والتي ظهرت بالأكثر في مرقيون فيما بعد في القرن الثاني، حيث تجاهل العهد القديم، بل واستخف به. لقد أراد الرسول أن يُبرىء نفسه من هذه الأفكار الخاطئة، فأعلن أن "**إنجيل الله**" الذي أُفرز له ليس إلا تحقيقًا لخطة الله الخلاصية القديمة التي يمثل العهد القديم جزءًا منها، إذ يقول: "**الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة**" [٢]؛ فما يكرز به إنما هو شهوة رجال وأنبياء العهد القديم وتحقيق لنبواتهم المقدسة.

إن كان محور إنجيله هو "المسيح ابن الله"، فإن هذا القدوس هو أيضًا مركز خدمة رجال العهد القديم، عنه تنبأ الأنبياء، وبه جاءنا الوعد في الكتب المقدسة (العهد القديم). أو ربما أراد أن يؤكد لهم أنه لن ينسى أن منهم جاء الأنبياء، ولهم قد سُلمت الشريعة والكتب المقدسة التي هيأت الطريق للمسيَّا المخلص.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** هكذا: [إذ يريد أن يصنع أعمالاً عظيمة علانية يسبق فيُعلن عنها زمانًا طويلاً ليُهيئ مسامع البشر لقبولها عندما تتحقق. يقول "**في الكتب المقدسة**"، لأن الأنبياء لم يتكلموا فقط وإنما كتبوا ما نطقوا به، بل وقدموا ظلالاً لها خلال الأعمال مثل إبراهيم الذي رفع إسحق، وموسى الذي رفع الحيّة، وبسط يديه ضد عماليق، وقدم خروف الفصح[1].]

خامسًا: لما كانت الرسالة في مجملها هي إعلان عن "**إنجيل الله**"، لذلك عرّفه هنا في المقدمة بقوله: "**عن ابنه، الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات، يسوع المسيح ربنا**". إنجيلنا إذن هو قبول "**ربنا يسوع المسيح**"، الذي يكرر الرسول مؤكدًا أنه "ابن الله"، إذ خلاله ننال البنوة لله. هو الابن الذي باتحادنا فيه ننتقل من مركز العبيد إلى "الأبناء" بالمعمودية، لنُحسب موضع رضا الآب وسروره، وهذا هو مركز الرسالة كلها.

هذا أكد نسب المسيح لداود من جهة الجسد، أولاً لكي يشجع اليهود على متابعة حديثه، إذ لا يتجاهل أن مخلص العالم كله جاء متجسدًا منهم، ومن جهة أخرى ليؤكد أن فيه تحققت النبوات خاصة بكونه ابن داود الملك ليجلس على كرسي أبيه خلال ملكوت روحي سماوي (مت ٢١: ٩؛ يو ١٢: ١٣؛ لو ١: ٣٢؛ ٢ تى ٢: ٨). وكما يقول **القديس كيرلس الأورشليمي:** [تقبل إذن المولود من ذرية داود وأطع النبوة القائلة: "ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب، إيّاه تطلب الأمم" (إش

[1] *In Rom. hom 1*

١١: ١٠) [1].]

هذا هو نسل داود الذي قيل عنه: "أُقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأُثبّت مملكته، هو يبني بيتًا لاسمي وأنا أُثبِّت كرسي مملكته إلى الأبد" (٢ صم ٨: ١٢-١٣). وكما يقول **القديس أغسطينوس: [**إن نسل داود الذي بنى البيت الإلهي ليس سليمان بل السيد المسيح، إذ أقام هيكل الله غير المصنوع من خشب وحجارة، بل من البشر، أي من المؤمنين الذين قال عنهم الرسول: "أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم؟" (١ كو ٣: ١٦)، لأن السيد المسيح لا سليمان هو الذي تثبت مملكته إلى الأبد حسب هذا الوعد الإلهي (٢ صم ٨: ١٣) [2].]

أما كلمة "تعيّن"، فكما يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** وغيره من الآباء الشرقيين، فتعني "أُعلن" أو "أُظهر". فالكنيسة الأولى كانت ترى أنه لم يكن ممكنًا أن يُعلن عنه كمسيّا ورب إلا بعد قيامته (أع ٢: ٣٤-٣٦؛ في ٣: ١٠؛ ١ كو ١٥: ٤٥). هذا ما رأيناه بوضوح في دراستنا للإنجيل بحسب مرقس، إذ كان السيد نفسه يخفي لاهوته ويؤكد لتلاميذه ألا يعلنوا عن شخصه حتى يقوم. قيامته هي الدليل القاطع على بنوته الطبيعية لله. وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم: [**بماذا إذًا "أعلن" عنه؟ لقد أظهر وأعلن عنه واعترف به خلال مشاعر الكل وشهادتهم، وذلك بواسطة الأنبياء، وخلال ميلاده حسب الجسد بطريقة عجيبة، وبقوة العجائب، وبالروح الذي به يهب التقديس، وبالقيامة التي بها وضع نهاية لطغيان الموت[3].]

سادسًا: يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** إن الرسول إذ ذكر أنه مفرز لإنجيل الله، تحدث عن تجسد ابن الله خلال نسل داود حتى نقبله، فيرتفع بنا إلى أسراره السماوية. بدون التجسد الإلهي والتواضع لا نقدر أن نرتفع معه إلى سمواته، إذ يقول: [من يريد أن يقود البشر بيده إلى السماء، يلزم أن يرتفع بهم من أسفل، وهكذا كان عمل التدبير (الإلهي). فقد نظروه أولاً إنسانًا على الأرض وعندئذ أدركوا أنه الله. بنفس الاتجاه إذ شكّل (السيد) تعاليمه هكذا استخدم تلميذه ذات الطريق ليقودنا إلى هناك[4].]

يقول **القديس أمبروسيوس:** [من جهة الجسد صار من نسل داود، لكنه هو الله المولود من الله (الآب) قبل العوالم[5].]

---

[1] Cat. Lect., 12: 23.
[2] City of God, 17: 8.
[3] In Rom. hom 1.
[4] In Rom. hom 1.
[5] Of Christian Faith, 3: 5 (34).

يقول أيضًا **القديس غريغوريوس النزينزي:** [لقد دعيَ من نسل داود؛ ربما بهذا نظن إن الرجل قد كُرم (لأنه جاء رجلاً ومنتسبًا إلى رجل)، لكنه وُلد من عذراء، وبهذا تُكرم المرأة من جانبها[1].]

سابعًا: بعد أن سجل اسم الراسل وألقابه خلال دعوته للرسولية وعمله الإنجيلي، كاشفًا عن مفهوم الإنجيل الإلهي الذي أُفرز له، سجل اسم المرسل إليهم ومركزهم من هذه الرسالة الإلهية، قائلاً: "**الذي به لأجل اسمه قبلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم، الذين بينهم أنتم أيضًا مدعوو يسوع المسيح، إلى جميع الموجودين في رومية أحباء الله مدعوين قديسين**" **[٧-٥]**.

قبل أن يدخل معهم في حوار بخصوص النزاع القائم بين اليهود المتنصرين والأمم المتنصرين أخذ يشجع الكل، معلنًا للجميع أن ما ناله القديس بولس إنما هو من قبيل نعمة الله المجانية كهبة مقدمة، لا لفضل فيه ولا فيهم كيهود أو أمم، وإنما لأجل اسمه، إذ يقول: "**لأجل اسمه قبلنا نعمة ورسالة (رسولية)**".

إن كانت هذه الرسالة تكرر الحديث عن نعمة الله، سواء في حياة الرسول، إذ نقلته لا من عدم الإيمان إلى الإيمان فحسب، وإنما من مضطهدٍ إلى كارزٍ ورسولٍ، أو في حياة المخدومين من يهود وأمم، فإن الرسول لم يقدم لنا تعريفًا عن "النعمة"، إنما حديثًا عن قوة النعمة وفاعليتها في حياة الكنيسة وكل عضو فيها. وكأن الرسول لم يرد أن يشغلنا بتعاريف نظرية وفلسفات فكرية، إنما أراد لنا معرفة التلامس الحقيقي والتمتع الواقعي بهذه الأمور. هذا هو أيضًا منهج الكنيسة الشرقية كما سبق فرأينا عند عرضنا "للنعمة" عند **العلامة أوريجينوس**[2].

ما هي هذه النعمة إلاَّ عطية الله المجانية، عطية الآب الذي في محبته قدم ابنه الحبيب مبذولاً عن خلاص العالم (يو ٣: ١٦؛ رو ٨: ٣٢). نعمة الابن الوحيد الذي أحبني، وأسلم ذاته لأجلي. كما أرسل لنا روحه المعزي من عند الآب يشهد له في حياتنا (يو ١٥: ٢٦)، يعلمنا كل شيء ويذكرنا بكل ما قاله لنا (يو ١٤: ٢٦)، كما ارتبطت النعمة بالروح القدس، فإن كان الروح هو واهب العطايا، لكنه في نفس الوقت هو عطية، إذ صار ساكنًا فينا، حالاً في داخلنا بكوننا هياكل الله وروح الله ساكن فينا.

يعلن الآب عن نعمته خلال تدبير الخلاص، والابن يعلن عن ذات النعمة خلال حمله الصليب عنا، والروح القدس يقدم ذات النعمة بسكناه فينا لنقبل عمل المسيح الخلاصي في حياتنا.

---

[1] *Oration. 37: 7.*

[2] للمؤلف: آباء مدرسة إسكندرية الأولون، العلامة أوريجينوس، النعمة.

هذه هي النعمة الإلهية المجانية التي تعمل في الكنيسة، لتهب الكل العضوية في الجسد الواحد، لكن لكل عضو تمايزه دون انفصال عن الرأس أو بقية الأعضاء، ولكل عضو بالنعمة خدمته ومواهبه، فقد ميّز الروح القديس بولس بالرسولية لأجل الكرازة والرعاية. هذه العطية "الرسولية" دفعته أن يكتب لهم كما لغيرهم بسلطانٍ لكي يحقق عمل النعمة الإلهية فيه وفيهم.

ثامنًا: إن كان الروح القدس قد ميّز القديس بالرسولية، فبنعمته صار يعمل في سامعيه لا للدخول في مناقشات ومجادلات، وإنما لقبول الإيمان في طاعة وخضوع: "**لإطاعة الإيمان في جميع الأمم**" [٥]. هذا هو عمل النعمة الإلهية أو عمل الروح القدس نفسه في المخدومين. يقول: **القديس يوحنا ذهبي الفم:** [انظروا صراحة العبد، فإنه لا يود أن ينسب شيئًا لنفسه بل لسيده، فإن الروح بالحق هو الذي يهب هذا. لذلك يقول السيد: "إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق" (يو ١٦: ١٢)... وجاء في الرسالة إلى أهل كورنثوس: "فإنه لواحد يُعطى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام علم" (١ كو ١٢: ٨)، "الروح الواحد بعينه قاسمًا لكل واحد بمفرده كما يشاء" (١ كو ١٢: ١١)[1].]

إذن نعمة الله التي قدمت للقديس بولس "الرسولية" هي التي تعمل لطاعة الإيمان لا في اليهود وحدهم، وإنما "في جميع الأمم".

هذا ويرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن قوله "**في جميع الأمم**" يكشف أن الرسول إذ يتكلم عن عمل النعمة فيه كرسول يضم معه بقية الرسل، إذ تعمل النعمة في الكل لأجل جميع الأمم، أو ربما يقصد أنه وإن كان لا يعمل هنا في جميع الأمم فإنه حتى بعد موته لا يكف عن العمل في جميع الأمم. وربما يقصد **الذهبي الفم** أن الرسول يبقى في الفردوس خادمًا بحبه لخلاص العالم وبصلواته غير المنقطعة من أجل الكل.

تاسعًا: دعاهم "**مدعوّي يسوع المسيح**"، فالفضل لمن "دعانا" مجانًا لنعمته. كما دعاهم "**مدعوّين قديسين**". فإن كان شعب إسرائيل قد دُعي قديمًا بالجماعة المقدسة (حز ١٢: ١٦؛ لا ٢٣: ٢، ٤٤) بكونهم الشعب المفرز لله القدوس (لا ١١: ٢٤، ١٩: ٢)، فإن هذا الشعب قد فشل في تحقيق القداسة إلا من خلال الرموز والنبوات، أما الآن فقد جاء مسيحنا القدوس يدعونا للدخول فيه والثبات فيه، فنُحسب به أبرارًا وقديسين.

---

[1] *In Rom. hom. 1.*

أراد الرسول في أبوته الحانية أن يوضح نظرته لهم، أنه يحترمهم ويقدّرهم، لأنهم "**مدعوّو يسوع المسيح**" [٦]، "**أحباء الله**" [٧]، "**مدعوّون قديسين**" [٧]، كأنه يفتخر أن يكون خادمًا لهم!

يحسب **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن هذه الدعوة للقداسة هي كرامة فائقة ترافق المؤمنين حتى بعد عبورهم الحياة، إذ يقول: [الكرامات الأخرى تُعطى لزمان ثم تنتهي مع الحياة الحاضرة، هذه يمكن أن تُقتنى بمال... أما الكرامات التي يهبها الله، أي عطية التقديس والتبني، فلا يقدر حتى الموت أن يحطمها. إنها تجعل البشر مشهورين هنا، كما ترافقنا في رحلتنا إلى الحياة العتيدة[1].]

هذا وسرّ تقديسنا هو قبول "**النعمة والسلام**" [٥]... فقد كانت كلمة "نعمة" هي تحية اليونانيين[2]، و"سلام" أو "شلوم" هي تحية العبرانيين؛ أما وقد صار الكل جسدًا واحدًا فلم يقبلوا "النعمة والسلام" من بعضهم البعض، إنما تمتعوا بهما كعطية إلهية للجسد الواحد الذي يضم اليونانيين واليهود معًا. تقبلوا نعمة الله الفائقة، أي عطاياه المجانية والتي تتجلى في سكنى الله نفسه في داخلهم ليُعلن ملكوته فيهم باستحقاقات دم الصليب، وسلامه السماوي الذي يوحِّد الإنسان مع خالقه والجسد مع الروح والإنسان مع أخيه، أيًا كان جنسه!

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول بحكمة يبدأ بالنعمة ثم بالسلام (رو ١: ٥)، إذ لا نستطيع أن ننعم بالسلام الداخلي، بعد أن دخلنا خلال عصياننا في حرب روحية شرسة ما لم تعمل نعمة الله فينا لتهبنا بالمسيح يسوع روح الغلبة والنصرة؛ فنعيش في سلام حقيقي، كأبناء لأبٍ سماويٍ. هذه هي عطية الله لنا، ونعمته التي تسندنا في هذا الزمان الحاضر وترافقنا حتى تدخل بنا إلى الحضن الأبوي أبديًا. يقول القديس:

[إنها تحية تقدم لنا بركات بلا حصر.

هذا (السلام) هو ما أمر به المسيح الرسل أن يستخدموه كأول كلمة ينطقون بها عندما يدخلون البيوت (لو ١٠: ٥). لهذا يبدأ الرسول بالنعمة والسلام. فقد كانت توجد حرب ليست بهينة، وضع المسيح لها نهاية؛ كانت بالحقيقة حربًا متنوعة من كل صنف استمرت زمنًا طويلاً، وقد انتهت خلال نعمة المسيح وليس بمجهوداتنا الذاتية.

الحب جلب النعمة، والنعمة جلبت السلام، لذلك جاء ترتيب التحية لائقًا (النعمة والسلام)، طالبًا لهم أن يعيشوا في سلامٍ دائمٍ غير متزعزع، حتى لا يشتعل لهيب حرب أخرى، سائلاً الله أن يحفظ لهم

---

[1] *In Rom. hom. 1.*
[2] *Erdman: The Epistle to Romans, p 25.*

هذه الأمور ثابتة، قائلاً: "**نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح**" [٧].

عجبًا! يا لقدرة حب الله، نحن الذين كنا قبلاً أعداء ومطروحين صرنا قديسين وأبناء! فإنه إذ يدعو الله "أبانا" يظهرهم أبناء له، وعندما يدعوهم أبناء يكشف عن كنز البركات كلها[١].]

السلام هو عطية الله التي يلزم أن نطلبها بالصلاة، فيهبها لنا إن صارت لنا الإرادة المقدسة، وكما يقول **القديس جيروم:** [يلزمنا أن نقتني السلام بالصلاة، هذا الذي يوجد ليس بين الجميع، بل بين من لهم الإرادة الصالحة... "لأن مسكنه (الله) في السلام" (مز ٧٦: ١٠).]

لاحظ **القديس أمبروسيوس** أن النعمة والسلام قد نُسبا للآب كما للسيد المسيح، إذ يقول: [ها أنتم ترون إننا نقول بأن نعمة الآب والابن واحدة، وسلام الآب والابن واحد، لكن هذه النعمة وهذا السلام هما ثمر الروح كما يعلمنا الرسول نفسه، قائلاً: "وأما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة" (غل ٥: ٢٢)[٢].]

٢. افتتاحية تشجيعية

تكشف افتتاحية هذه الرسالة كما في باقي الرسائل عن جانب هام من منهج الرسول بولس في خدمته ومعاملاته، فإنه بروح الحكمة يشجع ويسند، حتى إن أراد أن يحاور أو يوبخ، فإن كان يكتب في جوهر الرسالة عن مشكلة حركة التهوّد التي سببت متاعب كثيرة للكنيسة، لكن بروح الحب يكسب من يوجه إليهم رسالته، إذ يعلن في الافتتاحية الآتي:

أولاً: تزكيته لإيمانهم: "**أولاً أشكر إلهي بيسوع المسيح من جهة جميعكم، أن إيمانكم ينادى به في كل العالم**" [٨]. يبدأ بالجانب الإيجابي لا السلبي، فلا يتحدث مثلاً عن خطورة حركة التهوّد ولا عن ضعفات هذا الشعب، إنما يعلن تزكيته لإيمانهم الذي صار علة كرازة في كل العالم، مقدمًا الشكر لله بابنه يسوع المسيح. هذا المنهج أساسي في اللاهوت الرعوي. أن نشجع أولاً ونسند، مبرزين الجوانب الحيّة والناجحة في حياة المخدومين قبل الجوانب السلبية والخاطئة.

يقدم الشكر للآب إلهه كعبادة حيّة، يقدمه في يسوع المسيح، لكي يكون مقبولاً. إذ لا نقدر أن نلتقي مع الآب، ولا أن نقدم له ذبيحة حب وشكر، إلا خلال رأسنا يسوع المسيح موضع سروره.

وقد استلفت نظر **القديس يوحنا الذهبي الفم** في تسبحة الشكر هذه أمران:

---

[1] *In Rom. hom., 1.*
[2] *Of the Holy Spirit 1: 12 (126).*

أ. أن الرسول بولس يقدم باكورة أعماله وكلماته تسبحة شكر لله، فيبدأ رسائله بالشكر، والعجيب أنه لا يشكر الله على عطاياه له فحسب، وإنما على عطاياه للآخرين، حاسبًا ما يتمتع به الآخرون يتمتع هو به. لذا يشكر الله هنا من أجل إيمانهم وكأنه مكسب له. يقول ابن **كاتب قيصر** في تفسيره للرسالة إلى أهل رومية: [هذا هو أول الرسالة. كان الشكر لمقدم النعم واجبًا، وكان هو أكثر منهم معرفة بقدر هذه النعمة التي وُهبت لهم، خاصة أنه يجد في إيمانهم نجاحًا لسعيه، إذ لم يسعَ إلا ليؤمنوا، لذلك قدم الشكر عنهم بسبب إيمانهم، ليعلمنا أن نفتتح أقوالنا وأفعالنا بالشكر.]

ب. ينسب الله إلى نفسه، إذ يقول **القديس يوحنا ذهبي الفم:** [بأية مشاعر يقدم الشكر، إذ لا يقول: "الله" بل "**إلهي**"، الأمر الذي يفعله الأنبياء أيضًا، حاسبين ما هو عام للكل كأنه خاص بهم. وأي عجب إن فعل الأنبياء هكذا؟ فإن الله نفسه يفعل هذا دائمًا وبوضوح، فينسب نفسه لعبيده، قائلاً أنه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، كما لو كان خاصًا بهم[1].]

ثانيًا: بجانب كشفه عن جوانب نجاحهم يعلن حبه نحوهم بالصلاة من أجلهم، مشهدًا الله نفسه على أعماقه المتسعة نحوهم: "**فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه، شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم**" [٩].

لم يكن ممكنًا أن يذكر المخدومين، حتى وإن كان لم ينظرهم بعد حسب الجسد، بالصلاة الدائمة غير المنقطعة لو لم يكن قلبه وفكره وكل طاقاته قد تكرّست وأُفرزت لله، هذا ما عناه بقوله "**أعبده بروحي**"، أي أضع نفسي بكل طاقاتي الروحية والنفسية والجسدية للعبادة لله والتمتع بإنجيله.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة موضحًا نقطتين، هما:

أ. الرسول وهو يكرز بالإنجيل يعبد الله بالروح والحق: [لأن طريق خدمتنا ليس بخرافٍ وتيوسٍ ولا بدخانٍ وشحومٍ، وإنما بنفسٍ روحية، كقول المسيح: :"الله روح والذين يسجدون لله فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" (يو ٤: ٢٤)[2].]

ب. يخدم إنجيل الابن الذي هو بعينه إنجيل الآب: [قال قبلاً أنه إنجيل الآب، أما هنا فيقول إنجيل الابن، فلا اختلاف بين القولين، إذ تعلّم الرسول من الصوت الطوباوي أن ما للآب هو للابن، وما للابن هو الآب، إذ قيل: "ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠)[3].]

---

[1] *In Rom. hom 2.*
[2] *In Rom. hom 2.*
[3] *In Rom. hom 2.*

ثالثًا: حبه مترجم عمليًا ليس فقط بذكرهم المستمر بلا انقطاع في صلواته، وإنما بشوقه الحقيقي لرؤيتهم ليهبهم "**هبة روحية**" هي إنجيل المسيح، الذي يثبتهم ويعزيهم كما يعزيه هو أيضًا، الإنجيل الذي يفرح قلب السامعين والكارزين معًا، إذ يقول: "**متضرعًا دائمًا في صلواتي عسى** الآن أن **يتيسر لي مرة بمشيئة الله أن آتي إليكم، لأني مشتاق أن أراكم، لكي أمنحكم هبة روحية لثباتكم، أي لنتعزى بينكم بالإيمان الذي فينا جميعًا، إيمانكم وإيماني**" **[١٢-١٠]**.

بالحق هم موضوع حبه، يشغلون فكره وخطته وصلواته، وأيضًا تصرفاته من أجل غاية واحدة: تمتعتم بالهبة الروحية الإلهية، إنجيل الله! وقد حقق الله للرسول شوقه الروحي المقدس، لكن بخطة إلهية فائقة، إذ ذهب إليها كأسير من أجل الإنجيل بعد أن تعرض لضيقات كثيرة كانكسار السفينة به (أع ٢٧: ٤٣). ليقف أمام كرسي قيصر (أع ٢٧: ٢٤).

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على كلمات الرسول هذه لأهل رومية مبرزًا حب الرسول الشديد للكرازة، خاصة بين الأمم، لكن في حكمة الروح يلح في الطلب بلا انقطاع، مسلمًا الأمر بين يديّ الله العارف ما هو لبنيان الكنيسة، إذ يقول: [تضرعه الدائم دون توقف بسبب عدم نواله طلبه يكشف عن حبه الشديد لهم. لكنه وهو يحب مستمر في خضوعه لمشيئة الله... في موضع آخر يقول: "تضرعت إلى الرب ثلاثة مرات" (٢ كو ١٢: ٨)، وليس فقط لم ينل طلبته، إنما قبل عدم نواله الطلبة بشكرٍ شديد، ففي كل الأمور كان ينظر إلى الله. هنا نال الرسول، لكنه لم ينل عندما طلب بل في وقت متأخر، ومع هذا لم يكن متضايقًا. أشير إلى هذه لكي لا نتبرم نحن عندما لا يُستجاب لنا، أو عندما تأتي الاستجابة ببطء، فإننا لسنا أفضل من بولس الذي كان يشكر في الأمرين، مسلمًا نفسه في يدّ مدبر الكل، خاضعًا له تمامًا، كالطين في يدّ الخزّاف، يسير حيثما يقوده الله[1].]

رابعًا: كان الرسول ليس فقط خاضعًا لمشيئة الله التي سمحت له بتأجيل ذهابه إلى روما بالرغم من حبه الشديد لافتقادها، لا بهدف أرضي وإنما بتقديم "هبة روحية" هي "إنجيل الله"، وإنما أعلن الرسول تواضعه بقوله: "**لنتعزى بينكم بالإيمان الذي فينا جميعًا، إيمانكم وإيماني**" **[١٢]**.

في تواضع صادق بلا تزييف يشعر الرسول أنه محتاج إلى مخدوميه، فهو يفتقدهم ليس فقط لكي يرشد ويعلم ويوصي، وإنما أيضًا ليتعزى بإيمانهم. هم محتاجون إلى نعمة الله العاملة فيه، وهو محتاج إلى إيمانهم وتعزيتهم.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [يا لعظم تواضع فكره! لقد أظهر نفسه أنه في حاجة إليهم

---

[1] *In Rom. hom 2.*

وليس هم فقط المحتاجين إليه. يضع التلاميذ موضع المعلمين، غير حاسبًا نفسه أعلى منهم، بل مقدمًا كمال مساواتهم له، لأن النفع مشترك، يقصد أنه يتعزى بهم وهم به. كيف يتحقق ذلك؟ "**بالإيمان الذي فينا جميعًا، إيمانكم وإيماني**". وذلك كما في حالة النار، فإن أضاف إنسان مشاعل إلى بعضها البعض يشتعل بالأكثر اللهيب ويتقد الكل؛ هذا أيضًا يحدث بين المؤمنين طبيعيًا[1].] كما يقول أيضًا: [يقول هذا لا كمن هو في حاجة إلى أي عون منهم، وإنما لكي لا تكون لغته ثقيلة عليهم وتوبيخه عنيفًا، لهذا يقول أنه في حاجة إلى تعزياتهم. ربما يقول أحد أن تعزيته تكمن في فرحه بنمو إيمانهم، هذا هو ما يحتاج إليه بولس، هذا المعنى ليس بخاطئ[2].]

يقول **ابن كاتب قيصر** أن كلمة التعزية هنا تعني الفرح والسرور، هو يتعزى لأنه كان مضطهدًا وصار رسولاً مبشرًا دُعي لهذا الرجاء الصالح، وهم يفرحون إذ كانوا قبلاً في ضلالة عبادة الشياطين وصاروا أولاد الله، عابدين له، مترجين ملكوته الأبدي.

خامسًا: يرى **القديس إكليمنضس السكندري** في حديث الرسول هنا التعزية التي ينالها كما ينالونها هم خلال الإيمان المشترك، إنما يعني أن الإيمان يحمل حركة نمو مستمر[3]، إذ يرى أن هناك إيمانًا مشتركًا يكون أساسًا خفيًا في حياة جميع المؤمنين، هذا الإيمان لا يحمل جمودًا، بل حركة نمو مستمرة، لذا طلب التلاميذ من السيد المسيح: "**زد إيماننا**". بمعنى آخر يمكننا أن نقول بأن الإيمان حركة حياة ديناميكية غير جامدة، يعيشها المؤمن كل يوم منطلقًا من خبرة معرفة عملية وتلاقٍ مع المسيح إلى خبرة أعمق، ومن قوة إلى قوة، ومن مجد داخلي إلى مجد، مشتاقًا كل يوم أن يبلغ إلى قياس قامة ملء المسيح كقول الرسول بولس.

سادسًا: إذ يعلن حبه عمليًا بشوقه لزيارتهم بل ومحاولاته العملية وقد مُنع حتى لحظات الكتابة، يكشف عن رسالته، بقوله: "**ليكون لي ثمر فيكم أيضًا كما في سائر الأمم. إني مديون لليونانيين والبرابرة، للحكماء والجهلاء، فهكذا ما هو لي مستعد لتبشيركم أنتم الذين في رومية أيضًا، لأني لست استحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص، لكل من يؤمن لليهودي أولاً ثم لليوناني، لأن فيه معلن برّ الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب: أما البار فبالإيمان يحيا**" [١٧-١٣].

أ. إن كان الرسول قد صار له ثمر متكاثر في أمم كثيرة، لكنه مترقب الثمر أيضًا في روما

---

[1] *In Rom. hom 2.*
[2] *In Rom. hom 2.*
[3] *Strom. 5: 1.*

بكونها عاصمة العالم الروماني الأممي، حاسبًا الكرازة بينهم وثمرهم هو تحقيق ونجاح لمهمته الرسولية؛ مستعد للعمل مهما بلغ الثمن بلا خجل.

إن كانت روما بكونها عاصمة للدولة الرومانية فيها تصب كل الشعوب أوثانها ورجاساتها وما يحملونه من انحطاط، فقد كانت مرآة للعالم الوثني بكل شروره وبؤسه، موضع غضب الله، لذا أراد الرسول أن تكون هذه المدينة هي بعينها مركزًا للخدمة، مقدمًا لها مفهوم إنجيل الله في كمال قوته. بمعنى آخر يودّ الرسول أن يخدم حيث يزداد بالأكثر الشرّ، إذ لا يريد الطريق السهل المتسع، بل الضيق الكرب لكي تعلن قوّة الإنجيل بالأكثر، ويظهر عمل النعمة الإلهية وفاعليتها بأكثر وضوح. هذا ما نستنبطه من قوله: "**ما هو لي مستعدّ لتبشيركم**"، بمعنى أنه مستعدّ لاحتمال كل ضيق وألم من أجل تقديم كلمة الإنجيل، إذ كان الرسول يُدرك أن الكرازة بينهم تستوجب أتعابًا كثيرة. لذلك يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [يا لها من نفس نبيلة! لقد وضع الرسول على عاتقه أن يقوم بعمل ذي مخاطر عظيمة، إذ يقوم برحلة عبر البحر تعترضها تجارب ومكايد... ومع توقعه لاحتمال هذه الأتعاب العظيمة لم يقلل هذا الأمر من همته بل كان يُسرع مجاهدًا، مستعدًا بذهنه لاحتمالها[1].]

ب. كان القدّيس بولس يخجل من الصليب قبل أن يلتقي بالمصلوب الممجّد، حاسبًا الصليب عارًا لا يليق بالمسيّا ملك اليهود، أمّا الآن فقد أدرك أنه قوّة الله للخلاص، يلزم أن يُكرز به للجميع.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على كلمات الرسول قائلاً:

[يقول لأهل غلاطية: "حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح" (غل ٦: ١٤). كان الرومانيّون شديدي التعلّق بالزمنيّات بسبب غناهم وإمبراطوريتهم وكرامتهم، فكانوا يحسبون ملوكهم في مصاف الآلهة، حتى أقاموا لهم المعابد، وقدّموا لهم القرابين، وهم يتشامخون بهذا. أمّا بولس فكان يودّ أن يكرز لهم بيسوع الذي ظنوا أنه ابن نجار نشأ في اليهوديّة، في بيت امرأة فقيرة لا يحيط بها الخدم والحشم ثم مات ميّتة اللصوص والمجرمين، متحمّلاً أصناف السُخرية والإهانات، الأمور التي حاول (بعض الرومانيّون الذين تنصروا) الاختباء منها قبل إدراكهم عظمة هذه الأمور غير المنطوق بها: لهذا يقول الرسول أنه لا يستحي، إذ كان يعلمهم هم أيضًا ألا يستحوا من هذه الرسالة المجيدة، حتى إذا ما بدأ هكذا بعدم الاستحاء ينتهي بهم إلى الافتخار أيضًا. فإن سألكم أحد: أتعبدون المصلوب؟ لا تستحوا، ولا تنظروا إلى الأرض بل ارفعوا رؤوسكم... أجيبوا باعتزاز، نعم نعبده!... الصليب بالنسبة

[1] *In Rom. hom 2.*

لنا هو عمل المحبّة اللانهائية نحو البشر، وعلامة عناية الله غير المنطوق بها[1].]

ج. أدرك الرسول أن الإنجيل أو الكرازة بالصليب هو "**قوة الله الخلاص**"، اختبر هذه القوّة في حياته فأراد أن يقدّمها للجميع، كارزًا لليونانيّين أي أصحاب الفكر الهيليني، وللبرابرة أي بقية الأمم. يودّ أن يتمتّع الكل بعمل الصليب: الحكماء أصحاب الفلسفات، والبسطاء الذين يُحسبون كجهلاء.

إن كان الصليب قد أنقذه، فإنه مدين للعالم كله، حاسبًا الوثنيّين دائنين له، يلتزم أن يرد لهم الدين بالكرازة لهم ليتمتّعوا بما تمتّع هو به!

د. يدعو الإنجيل "**قوة الله للخلاص**"، إذ هو ليس رسالة نظرية أو فلسفة فكرية تعليمية إنما "عمل إلهي ديناميكي" في حياة الإنسان، حركة حب إلهي لا تتوقف تبلغ به إلى شركة الأمجاد الإلهية.

هـ. إنجيل المسيح مُقدّم لليهودي أولاً ثم اليوناني، هنا الأولوية لا تقوم على محاباة الله لجنسٍ على حساب آخر، وإنما أولوّية الالتزام بالمسئولية والعمل. فإن كانوا قد ائتمنوا على الناموس المكتوب، وتقبلوا إعلانات ونبوّات، ومنهم خرج رجال الله، فقد لاق بهم أن يتلّقفوا عمل السيد المسيح الخلاصي، ويحتضنوا الصليب حتى يخرجوا إلى الأمم، حاملين نير البشارة بالخلاص.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [كلمة "أولاً" ليست إلا تعبيرًا عن الناحية الزمنيّة فقط، إذ لا يوجد امتياز في مقدار البرّ الذي يحصل عليه، ولكن كمن ينزل في جرن المعمودية أولاً ثم يليه الآخر نعمة أعظم من التالي له، إنما ينعم الكل بنعمة واحدة. هكذا يتساوى اليهودي واليوناني في مواهب النعمة متى قبِلوا الإنجيل[2].]

و. ماذا يعني بقوله: "**إيمان لإيمان؟**" يرى **العلامة ترتليان**[3] **والعلامة أوريجينوس وابن كاتب قيصر** أن برّ الله بإيمان الناموس حين نُقل المؤمنين إلى الإيمان بالإنجيل، وكأن الثمر الذي يشتهيه الرسول لكل عالم هو ذات الثمر الذي ترجّاه رجال الإيمان في العهد القديم، وقد حلّ الوقت المعيّن لينعم العالم به خلال الإيمان بالإنجيل الإلهي. يقول **القدّيس إكليمنضس السكندري:** [يعلّمنا أن خلاصًا واحدًا من الأنبياء إلى الإنجيل يحقّقه الرب الواحد عينه[4].] ويرى **القدّيس أمبروسيوس** أن برّ الله يُعلن خلال أمانة الله في مواعيده، فتنتقل أمانته إلى إيمان الإنسان الذي ينعم ببرّ الله.

---

[1] *In Rom. hom 2.*
[2] *In Rom. hom 2.*
[3] *Adv. Marc. 5: 13.*
[4] *Strom 2.6.*

يقدّم لنا الرسول مفتاح كل عطيّة صالحة إلهية: "**أما البارّ فبالإيمان يحيا**" **[١٧]**. فالإنسان الذي يرتبط بالله يحمل برّ المسيح فيه، لكنه لا يعني هذا أنه يصير معصومًا من الخطأ كما يظن البعض، إنما يتمتّع بالنمو المستمر في برّ المسيح بلا توقف. وقد حذّرنا **القدّيس أغسطينوس** من فهم هذه العبارة بمعنى أننا نصير بلا خطيّة[1].

ويُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة (رو ١: ١٧) بالقول:

[مادامت عطيّة الله تفوق الإدراك تمامًا فمن المنطق أننا نحتاج إلى الإيمان.

أما ترون أن عدم الإيمان هو هوّة سحيقة، أمّا الإيمان فحصن حصين. لأن عدم الإيمان أهلك الآلاف بينما الإيمان لم يُؤدِ إلى خلاص الزانية وحدها بل جعلها أيضًا أمًا لكثيرين.

إننا نستضيف برقةٍ أم كل البركات، وهو الإيمان، لكي نكون كمن هم يسيرون في ميناء هادئ مستقر تمامًا، محافظين على إيماننا الأرثوذكسي، فنقود سفينتنا باستقامة ونحظى بالبركات بالنعمة ومحبة البشر التي لربنا يسوع المسيح[2].]

٣. شرور الأمم

إذ يواجه القدّيس بولس حركة التهوّد ليُعلن عن عمومية الخلاص لليوناني كما لليهودي، لم يبدأ بضعفات اليهود وشرورهم، بل بالعكس يتحدّث بصراحة ووضوح عن شرور الأمم، لكي يكون ذلك مدخلاً لنقد اليهود أيضًا، في صراحة وتفنيد كل حججهم دون اتهامه بالمحاباة. فقد وُجّه إليه هذا الاتهام: "إنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى، قائلاً أن لا يختنوا أولادهم، ولا يسلكوا حسب العوائد" (أع ٢١: ٢١). هذا ما دفع الرسول إلى البدء بإعلان شرور الأمم ومسئوليتهم عنها، ليس تشهيرًا بهم ولا تحقيرًا، وإنما كمدخل لاجتذاب اليهود المتنصّرين لقبولهم معهم في العضوية في الجسد الواحد على قدَم المساواة، إذ يُعلن أن الأممي كاسر للناموس الطبيعي واليهودي كاسر للناموس الموسوي، لذلك صار الكل في حاجة إلى تدخل إلهي كي يتبرّروا لا بالناموس الطبيعي ولا بالناموس الموسوي، وإنما بالإيمان بالمسيح يسوع مخلص الجميع.

في حديثه عن شرور الأمم أصحاب الناموس الطبيعي يبرز الرسول الآتي:

أولاً: إن كان الله قد أعطى اليهود الناموس الموسوي، فإنه لم يهمل الأمم ولا تركهم بلا شاهد لنفسه بينهم، فقد أعلن عن نفسه خلال الطبيعة المنظورة، إذ يقول: "**إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن**

---

[1] *City of God 20: 26.*
[2] *In Rom. hom 2.*

الله أظهرها لهم، لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته، حتى أنهم بلا عذر" [٢٠].

الله لم يترك نفسه بلا شاهد، فإن "السماء تحدِّث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه" (مز ١٩: ١). يُعلن عن قدرته السرمدية ولاهوته خلال أعمال الخليقة الفائقة، التي أقامها بكلمته، ولا يزال يرعاها ويهتم بها، لا لاستعراض إمكانياته، وإنما من أجل أعماق محبته لنا. فحب الله الفائق غير المنظور نلمسه خلال رعايته العجيبة، إذ قدّم لنا هذه المصنوعات لراحتنا.

بينما يتهم الرسول بولس البشر أنهم يحجزون الحق بالإثم [١٨]، وكأن الإنسان يتفنن في اختراع الطرق الأثيمة المتنوعة ليحجز "الحق" فلا يُعلن، إذ بالله يُعلن "الحب" لنا بطرق متنوعة خلال المصنوعات المباركة التي هي من عمل يديه. الإنسان يستميت في حجز الحق، والله يبذل لإعلان الحب السرمدي!

يرى **القديس أغسطينوس** في هذا القول الرسولي أن الله يقدم لنا العالم كعطية نستخدمها و ليس نتلذذ بها، فنرى خلالها أموره غير المنظور، نمسك بالروحيات والسماويات خلال الماديات والزمنيات[1].

يُعلّق **القدّيس أمبروسيوس** على التعبير "**قدرته السرمدية**"، قائلاً: [إن كان المسيح هو قدرة الله السرمدية، فالمسيح إذن سرمدي[2].]

هذا وإذ يحجز الإنسان الحق بالإثم يسقط تحت الغضب الإلهي [١٨]، أمّا من يرجع إليه بالتوبة فيسمع الصوت الإلهي: "هلم يا شعبي أدخل مخادعك وأغلق أبوابك خلفك، اختبئ نحو لُحيظة حتى يعبر الغضب، لأنه هوذا الرب يخرج من مكانه، ليعاقب إثم سكان الأرض فيهم، فتكشف الأرض دماءها ولا تغطي قتلاها فيما بعد" (إش ٢٦: ٢٠-٢١). ما هي المخادع التي تدخل فيها إلا الحياة السرية في المسيح يسوع حيث فيه نختبئ من الغضب، ونصير موضع سرور الآب! وأمّا قوله "هوذا الرب يخرج من مكانه ليعاقب..." إنما يعني أنه يودّ أن يبقى في مكانه يُعلن حُبّه ورحمته، لكن إصرار سكان الأرض على الإثم تلزمه أنه يعاقب!

ثانيًا: لم يستطِع الأممي خلال هذه المعرفة المعلَنة بالناموس الطبيعي، والمُسجلة خلال المنظورات أن يخلص، بل على العكس أخذ موقف المقاومة التي تظهر في الآتي:

---

[1] *On Christian Doctrine 1: 4.*
[2] *Of Christ. Faith 1: 10 (62).*

أ. "**لأنهم لما عرفوا الله، لم يمجّدوه أو يشكروه كإله، بل حمَقوا في أفكارهم، واِظلمّ قلبهم الغبي، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى والطيور والدواب والزحافات**" **[٢٣-٢١]**.

هذا الاتهام كما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أخطر من الاتهام السابق، فإن الأمر لم يقف عند رفض الله الذي أعلن عن محبته وقدرته خلال مصنوعات يديه، وإنما لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه، بل استبدلوا عبادة الله الحيّ بالعبادة الوثنيّة. وكما قال الله على لسان إرميا: "لأن شعبي عمل شرين: تركوني أنا ينبوع المياه الحيّة لينقروا لأنفسهم أبارًا أبارًا مشققة لا تضبط ماءً" (إر ٢: ١٣). أمّا علّة انحرافهم فهو اتكالهم على الفكر البشري المجرد دون عون الله، "وبينما هو يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء"، فصاروا كما يقول **الذهبي الفم** كمن يبحِّرون في مياه مجهولة، فتتحطم سفينتهم على صخور صلدة، إذ حاولوا بلوغ السماء بعدما أطفأوا النور المضيء في داخلهم، متّكلين على ظلمة أفكارهم.

يرى **القدّيس أغسطينوس** أن سرّ هلاكهم هو جحودهم وعدم شكرهم، إذ يقول: [بجحودهم صاروا أغبياء، فما يهبه الله مجانًا (أي الحكمة) ينزعه عن غير الشاكرين[1].] كما يقول: [لقد رأوا إلى أين يجب أن يذهبوا، لكنهم بجحودهم نسبوا هذه الرؤية التي وهبهم الله إيّاها لأنفسهم، وإذ سقطوا في الكبرياء فقدوا ما قد رأوه، وارتدّوا إلى عبادة الأوثان والتماثيل والشياطين، يعبدون المخلوق ويحتقرون الخالق[2].]

هذا ويرى **القدّيس أغسطينوس** أن هؤلاء الذين نسبوا لأنفسهم الحكمة فسقطوا في العبادات الرذيلة هم الرومان واليونان والمصريّون الذين مجدوا أنفسهم تحت اسم الحكمة[3].

ب. إذ تركوا الله الذي يُعلن ذاته لهم خلال الطبيعة تخلَّى هو أيضًا عنهم كشهوة قلوبهم، هذا هو ما عناه الرسول بقوله: "**لذلك أسلمهم الله أيضًا في شهوات قلوبهم إلى النجاسة، لإهانة أجسادهم بين ذواتهم**" **[٢٤]**. تركوه بإرادتهم، وإذ هو يُقدر الحرّية الإنسانيّة ويكرمها، أعطاهم سؤل قلبهم وهو تركهم، فمارسوا شهوات قلوبهم الشرّيرة، حيث ارتكب الرجال والنساء قبائح لا تليق حتى بالطبيعة [٢٦-٢٧].

---

[1] *In Ioan. tr 14: 3.*
[2] *In Ioan. Tr 2: 4.*
[3] *City of God 8. 10.*

ويرى **القدّيس يوحنا كاسيان**[1] أن الإنسان إذ يسقط في الكبرياء حتى وإن كان طاهرًا جسديًا، يسمح الله بالتخلّي عنه لكي إذ يسقط في شهوات جسديّة ظاهرة أمام عينيه يقدر أن يدرك الكبرياء الخفي الذي لا يراه.

لهذا السبب نجد كثير من الشباب يسقطون في الرجاسات الجسديّة بالرغم من مواظبتهم على وسائل الخلاص، من دراسة في الكتاب وتقديم صلوات، وربّما اعتراف وتناول، لكن العلّة الرئيسية لسقوطهم هو كبرياء قلوبهم. بالكبرياء يفقد الإنسان نعمة الله التي تهبه القداسة، فينهار تحت ثقل شهوات جسده وفساده.

ويحدّثنا **القدّيس بفنوتيوس** عن سماح الله لنا بهذا الانحراف، معلنًا أننا نحن السبب في هذا الفساد، إمّا بسبب كبريائنا أو إهمالنا، إذ يقول: [علينا أن نعرف أن كل شيء يحدّث، إمّا بإرادته أو بسماح منه، فكل ما هو خير يحدّث بإرادة الله وعنايته، وكل ما هو ضدّ ذلك يحدّث بسماح منه، متى نُزعت حماية الله عنّا بسبب خطايانا أو قسوة قلوبنا أو سماحنا للشيطان، أو للأهواء الجسديّة المخجلة أن تتسلط علينا، ويُعلمنا الرسول بذلك، مؤكدًا: "لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان" (رو ١: ٢٥)، وأيضا: "كما لم يستحسنوا أن يُبقوا الله في معرفتهم، أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق" (رو ١: ٢٨). ويقول الله بالنبي: "فلم يسمع شعبي لصوتي، وإسرائيل لم يرضَ بي، فسلّمتهم إلى قساوة قلوبهم، ليسلكوا في مؤامرات أنفسهم" (مز ٨١: ١١-١٢)[2].]

يقول **الأب يوحنا كاسيان:** [من عدل الحكم الإلهي أن تُعطى المواهب الصالحة للمتواضعين، وتُمنع عن المتكبّرين المرفوضين الذين يقول عنهم الرسول أنهم مستحقون أن يُسلّموا إلى ذهن مرفوض (رو ١: ٢٨)[3].]

إذًا اختار الإنسان في شرّه الفساد، حلّ الفساد به، أمّا الله فهو "**مبارك إلى الأبد، آمين**" [٢٥] وكأن ما يرتكبه الإنسان إنما يحلُ به لا بالله. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إن كان الفيلسوف لا يتأثر بإهانة الجهلاء له، فكم بالحري الله الأزلي غير المستحيل، لا تبلغ وقاحة الناس إلى طبيعته المجيدة التي لا يعتريها ظلّ دوران[4].]

يقف **القدّيس الذهبي الفم** هنا قليلاً ليسألنا أن نتشبّه بالله الذي يحتمل الأشرار ولا يتأثّر بشرّهم،

---

[1] *Instit. 12: 21.*
[2] *Conf. 3: 20.*
[3] *Conf. 3: 20.*
[4] *In Rom. hom 3.*

فإن طبيعته أسمى من أن تتأثر بهم، هكذا إذ نتشبّه به نحتمل نحن أيضًا شرور الأشرار، إذ يقول: [يليق بنا ألاّ نحاول الهروب من الإهانات بل بالأحرى نحتملها، لأن مثل هذا الاحتمال هو الشرّف بعينه. لماذا؟ لأنه في قدرتك أنت أن تحتمل، أمّا تصليح الآخرين فهو من عمل الغير. أتسمع صدى الضربات التي تسقط على الماس؟ قد تقول هذه هي طبيعة الماس. حسنًا، وأنت في مقدورك أن تتدرّب على ما هو للماس بالطبيعة. ألم تسمع كيف لم تؤذِ النار الثلاثة فتية؟ وكيف ظلّ دانيال في الجب سالمًا؟ فما حدث لهؤلاء ممكن بالنسبة لنا، إذ يوجد حولنا أسود الشهوة والغضب مستعدّة لتمزيق من يسقط تحت قدميها. إذن كن كدانيال واِثبت، فلا تجعل الانفعالات تنشب بأظفارها في نفسك. تقول: هذا من فعل النعمة. حقًا، لكن النعمة تنساب خلال تدريب الإرادة، فمتى كنّا مستعدّين لتدريب أنفسنا على نمط هؤلاء الرجال، تنساب النعمة في داخلنا، عندئذ تقبع الوحوش في مذلّة قدّامنا بالرغم من جوعها. فإن كانت الوحوش قد تراجعت أمام عبد، أفلا تتراجع بالأحرى أمام أعضاء جسد المسيح (أمامنا)! [1].]

ج. ربّما يعتذّر البعض بأن ما يرتكبوه من شرور هو ثمرة ضعف الطبيعة البشريّة وجرْيها وراء اللذّات بلا ضابط، لذا أوضح الرسول أن الإنسان في شرّه صار يمارس حتى ما هو مخالف للطبيعة، يسيء للطبيعة عنه لتحوّل حياتهم إلى جحيم، إذ يقول: "**لأن إناثهم استبدلْن الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة، وكذلك الذكور أيضًا تاركين استعمال الأنثى الطبيعي، اشتعلوا بشهوتهم بعضهم لبعض، فاعلين الفحشاء ذكورا بذكور، ونائلين في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق**" **[٢٦-٢٧]**.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هنا إذ يتحدّث عن العالم يضع أمامهم اللذّة الطبيعية التي كان في مقدورهم الاستمتاع بها في طمأنينة وفرح قلبي، متحاشين الأعمال المخزية، لكنهم لم يريدوا... إذ أهانوا الطبيعة عينها... جلبوا عارًا على الطبيعة، وداسوا على القوانين الإنسانيّة في نفس الوقت[2].]

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الإنسان قد حوّل حياته إلى حرب داخليّة وجحيم لا يُطاق، فإن كان الله قد وهب بالطبيعة أن يتزوج الرجل بامرأة، ويصير الاثنان جسدًا واحدًا في انسجام الحب والألفة، أهان الاثنان نفسيهما ودخل كلاهما في حرب داخليّة، فجرت النساء وراء بعضهن البعض وأيضًا الذكور، فتحوّلت الحياة الإنسانيّة إلى انشقاقات وحروب داخليّة لا تنقطع، تقوم ليس فقط بين

[1] *In Rom. Hom. 4.*
[2] *In Rom. Hom. 4.*

الرجل وامرأته، وإنما بين النساء وبعضهن البعض، والذكور وبعضهم البعض، فنالوا في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق [٢٧]. هذا ما أكّده كثير من الآباء وهو أن الخطيّة تحمل فسادها فيها، فتسكب من هذا الفساد على مرتكبها ليحمل عقوبته، ليس فقط كأمرٍ يصدر ضده من الخارج، وإنما خلال ممارسته الشرّ عينه.

د. قدّم صورة بشعة للإنسان في شرّه، إذ صار لا يطلب اللذّة الطبيعية فحسب، وإنما صار مفسدًا للطبيعة عِوض السُمو بها. فبدلاً من أن يرتفع بالروح، ليسمو بغرائزه الحيوانية، ليصير جسده بغرائزه مقدسًا للرب، صار في بشاعته مفسدًا للطبيعة، يفعل ما لا يرتكبه الحيوان خلال العلاقات الجسديّة الشاذة، سواء بين الإناث وبعضهن البعض أو الذكور وبعضهم البعض. الآن يقدّم لنا قائمة مرّة بما ترتكبه البشريّة المنحرفة، وقد لاحظ **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول يذكر في قائمته هذه التعبيرات: "**مملوءين**"، "**من كل**"، "**مشحونين**". وكأن الآثام لم تعد أمرًا عارضًا في حياة الإنسان، لكنها تملأ كيانه الداخلي، وتشحنه تمامًا ليرتكب لا إثمًا أو إثمين وإنما "**كل إثمٍ**"!

هـ. العجيب أن الخطايا والآثام تحطِّم سلام الإنسان وتفقده فرحه الداخلي، لكنها في نفس الوقت تدفع مرتكبها نحو العجرفة والكبرياء، لذلك جاءت القائمة تصفهم هكذا: "**مفترين، مبغِضين لله، ثالبين، متعظمين...**" [٣٠]. يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [التشامخ مع الخطيّة طامة كبرى... إن كان الذي يعمل صلاحًا يفقد تعبه إن انتفخ، فكم يكون إثم الذي يضيف إلى خطاياه خطيّة التشامخ؟ لأن مثل هذا لا يقدر أن يمارس التوبة[1].]

و. إن تأملنا هذه القائمة من الآثام والشرور نشعر أن البشريّة إذ سلّمت نفسها بنفسها للعصيان ومقاومة الله مصدر حياتها وتقديسها، صارت ملهى للخطايا، كل خطيّة تلهو بالإنسان، لتُلقي به في أيدي خطايا أخرى، وهكذا يصير أضحوكة كل الآثام والشرور، ويمكننا هنا في شيء من الاختصار أن نورد ترتيب هذه القائمة هكذا:

* يبدأ الإنسان يلهو بلذّة الجسد فيستسلم للزنا [٢٩].

* إذ يتقوقع الإنسان حول لذته الجسديّة، يطلب ما هو لذاته، حتى وإن بدا في الظاهر سخيًا ومبذِّرًا، لكن يتملكه حب الطمع، الأمر الذي يدفعه أيضًا إلى الخبث لتحقيق غايته هذه [٢٩].

* أمّا الطمع فيسبب حسدًا وخصامًا ومكرًا وربّما يؤدى إلى القتل [٢٩].

---

[1] *In Rom. Hom. 5.*

* هذا الحسد والمكر يدفع الإنسان إلى الاعتداد بذاته، فيصير متعاظمًا [٣٠].

* حب العظمة ينحرف بالإنسان إلى الابتداع وترك الحق [٣٠].

* رفض الحق يدفع الإنسان إلى تعدى الطبيعة، فيصير غير مطيعًا للوالدين [٣٠].

* إذ يتعدى الإنسان حتى أبسط نواميس الطبيعة يفقد الفهم [٣١]، ويكسر كل عهد طبيعي أو مكتوب، ويخسر طبيعة الحب والحنوّ [٣١]، بهذا يسقط تحت تحذير الرب: "لكثرة الإثم تفتر المحبّة" (مت ٢٤: ١٢)، فيصير أبشع من الحيوانات المفترسة التي تتحد معًا كجماعات بحكم الغريزة، أمّا الإنسان فيكره أخاه.

ز. في هذا الانحدار البشري إلى ما هو أدنى من الطبيعة تبلّدت القلوب البشريّة فلم يستكينوا للشر فحسب، وإنما صاروا يفرحون بمن يسقط مثلهم، إذ يقول الرسول: "**الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت، لا يفعلونها فقط، بل أيضًا يُسرّون بالذين يعملون**" [٣٢].

ط. يلاحظ في هذا السفر بوجه عام أنه إذ يتحدّث عن الأمم يُعلن دور الناموس الطبيعي بكونه، كما يقول **العلامة ترتليان**[1]، ناموس الله الذي يسود العالم منقوشًا على لوحي الطبيعة، لذلك يقول الرسول: "لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس..." (٢: ١٤). وفي هذا الأصحاح يتحدّث عن الأمم في شرٍ ككاسري ناموس الطبيعة الذين "**يفعلون ما لا يليق**" (١: ٢٨)، كأن تستبدل الإناث "**الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة**" (١: ٢٦). وعندما يتحدّث الرسول عن التزام المرأة بغطاء الرأس أثناء الصلاة، يقول: "أم ليست الطبيعة نفسها تعلمكم...؟" (١ كو ١١: ١٤).

فالمسيحي إذن ملتزم بناموس الطبيعة، بل ويسمو ليبلغ لا إلى تكميل الناموس الموسوي، بل إلى الوصيّة الإنجيليّة العالية.

[1] *De Corona 6.*

الباب الثاني

الجانب التعليمي

التبرير بالإيمان العامل بالمحبّة

ص ٢ – ص ١١

١. اليهودي وبرّ الله ٢–١٠.

حاجة اليهودي للخلاص ٢.

الاتّكال على أبوة إبراهيم ٤–٦.

الاتّكال على برّ الناموس ٧–٨.

الاتّكال على الاختيار ٩–١٠.

٢. الأممي وبرّ الله ١١.

الأصحاح الثاني

حاجة اليهودي للخلاص

إن كان الأممي قد سقط في شرور كثيرة ونجاسات، مقاومًا الناموس الطبيعي، فإنه لا يليق باليهودي أن يدينه، لأن الأول أخطأ بدون الناموس المكتوب، أمّا الثاني فبالناموس تعدى الوصيّة، وكأنه لم يخطئ فقط ولكنه أيضًا "**تعدّى**"، فصارت مسئوليته أعظم وعقابه أشد. وبهذا فإن الناموس لا يُبرّر من يسمعه بأذنيه، وإنما من يمارسه ويحفظه ويحيا به [١٣]. اليهودي ليس يهوديًا في الظاهر [٢٨]، ولا الخِتان في اللحم ختانًا، إنما اليهودي من عاش بالحق رجل الله الروحي، وكأن قلبه لا جسده مختونًا بالروح.

هذا ما أوضحه الرسول في هذا الأصحاح، وهو حديث نافع لنا نحن كمؤمنين، لأنه إن كان اليهودي الظاهر يُدان على حرفيته القاتلة بدون روح، فبالأولى المسيحي أن تمسّك بالشكل والاسم دون الحياة، يكون أشر من اليهودي وأبشع، مستهينًا بالدم الكريم.

هذا الحديث يمس بالأكثر حياة الخدام والرعاة، إذ يقدّم تحذيرًا لهم لئلاّ يسحبهم المجد الزمني وتلهيهم الكرامات عن الحياة الداخليّة الملتهبة بالروح والحق.

١. الناموس وإدانة الآخرين	**١-١١.**
٢. الناموس والحياة العمليّة	**١٢-١٦.**
٣. الناموس والتعليم	**١٧-٢٩.**

١. الناموس وإدانة الآخرين

يعالج الرسول بولس موضوع اعتداد اليهودي بنفسه لأنه مستلم الناموس دون سواه من بقية الأمم، ولم يدرك أن الناموس هو مرآة تفضح الخطيّة وتكشف عن الضعف. للأسف بدلاً من أن يستخدمه اليهودي لاكتشاف ضعفاته، فيصرخ إلى الله بالتوبة، طالبًا عمل المخلص، تقسّى قلبه مستخدمًا الناموس لفضح خطايا الآخرين. هكذا بدلاً من أن يدخل به الناموس إلى التوبة اغتصب مركز الديّان، وأقام نفسه لمحاكمة الآخرين، تحت دعوى معرفة إرادة الله ومشيئته. استخدم الناموس لطلب المتكآت الأولى، ليُقيم نفسه ديّانًا للغير.

إدانة الآخرين هي في ذاتها إعلان عن التعب الداخلي، كما فعل اليهود عندما أمسكوا بالزانية

فأرادوا أن يتشفّوا فيها برجمها، أمّا الديّان فستر عليه بحبه، لكنه لم يتركها في خطيتها، إنما خلال محبته الحازمة أوصاها: "ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطيء أيضًا". هكذا شتان بين تصرف الإنسان الذي يدين أخاه مع أنه مشترك معه في الضعفات، وبين حكم الله الذي يطيل أناته علينا، لعلّنا نتوب فنفلت من الدينونة.

هكذا يربط الرسول بولس بين إدانتنا نحن للآخرين وإدانة الله الديّان لنا، مبرزًا النقاط التالية:

أولاً: إذ نقيم أنفسنا ديّانين للإخوة ونحن مشتركون معهم في الضعف، نحكم على أنفسنا بأنفسنا خلال حكمنا على الغير، إذ يقول: "**لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين، لأنك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك، لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها... أفتظن هذا أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها أنك تنجو من دينونة الله؟**" **[١-٣]**.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [كأن منطقه يُعلن: يا مَن تدين الزاني وأنت نفسك ترتكب ذات الخطيّة، ألست تدين نفسك بنفسك، حتى وإن لم يدنك أحد؟... إن كنت تعاقب إنسانًا يرتكب ذنبًا أقل منك، فكيف لا يأخذك الله بجريرتك ويدينك بقسوة، خاصة وأنك تحكم على نفسك بنفسك[1]؟]

ثانيًا: بحكمك على أخيك ليس فقط تحكم على نفسك بذات تصرفك، وإنما غالبًا ما تخطئ أنت في الحكم، لأنك تحكم حسب الظاهر ولا تعرف أعماق الآخرين ودوافعهم، أمّا الله فيحكم عليك بحق، لأنه عالم بكل أسرارك. بمعنى آخر حتى إن حسبت نفسك أبرّ من أخيك فتحكم عليه وتدينه، فغالبًا ما يكون هذا الحكم ظالمًا، أمّا الله فهو وحده يدين البشر عن حق، إذ يقول الرسول: "**ونحن نعلم أن دينونة الله هي حسب الحق على الذين يفعلون مثل هذه**" **[٢]**.

هذا وقد أبرز الرسول بولس سمات دينونة الله التي تختلف تمامًا عن إدانتنا نحن للآخرين، ألا وهي:

أ. أنها "**حسب الحق**" [٢]، لأنه هو "الحق" عينه.

ب. إنه لا يودّ العقوبة، إنما في غنى لطفه وإمهاله وطول أناته يودّ أن "**يقتادك إلى التوبة**" **[٤]**.

ج. إنها **عادلة [٥]**.

د. "**سيجازي كل واحد حسب أعماله**" **[٦]**.

هـ. **بدون محاباة [١١]**.

---

[1] *In Rom. hom 5.*

و. ليست حسب ما يعلمه الإنسان بل حسب **ما يعمله** ويحيا به **[١٣]**.

ز. **يدين الأعماق الداخليّة للضمير والفكر**، أي سرائر الناس **[١٥-١٦]**.

ط. حسب حقيقة الإنسان الداخلي، **لا مظهره** كمتدينٍ أو كمعلم **[١٧-٢٩]**.

ثالثًا: أخطأ اليهود، خاصة قادتهم من الكتبة والفرّيسيّين أولاً بتحويل الناموس لا إلى مجال للحياة والعمل الروحي، وإنما لنقد الناس وإدانتهم بروح العجرفة والكبرياء، وثانيًا بكونهم إذ أدركوا لطف الله وطول أناته أساءوا استخدام هذه المعرفة. بمعنى آخر بينما هم يقسون على الآخرين ويدينونهم إذا بهم يستهينون بحب الله وصلاحه، إذ يقول الرسول: "**أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة**" **[٤]**. لكن طول أناة الله علينا بالرغم من تسرّعنا نحن في الحكم على الآخرين لا يعني إعفائنا من العقاب، إنما حفظه للوقت المعيّن "**ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب، تذخر لنفسك غضبًا في يوم الغضب، واستعلان دينونة الله العادلة، الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله**" **[٦-٥]**.

الله يطيل أناته لعلّنا نتوب، فإن تمسكنا بالشر زاد العقاب حيث يمتلئ كأس شرّنا، لهذا يرتعب الآباء من عدم التأديب في هذا العالم، حاسبين أن عدم تأديبنا هنا، إنما يحمل غضب الله في يوم الدينونة، عِوض العلاج الخفيف والسريع في هذا العالم بالتأديبات الزمنيّة[1].

❖ ليت الذين يحبون حنوه يهابون أيضًا حقه (عدله)، فإن "الرب صالح (حلو) ومستقيم (حق)" (مز ٢٥: ٨).

إنك تحب فيه أنه صالح (حلو)، فلتخشه بكونه الحق...

الرب لطيف، طويل الأناة، حنان، وهو أيضًا البارّ والحق.

منحك فرصة للإصلاح، لكنك تحت تأجيل الدينونة أكثر من إصلاحك طرقك. هل كنت بالأمس شريرًا، فلتكن اليوم صالحًا![2]

القدّيس أغسطينوس

❖ كثيرًا ما أحدثكم عن صلاح الله، لا لتستهينوا به وتفعلون ما هو على هواكم، وإلا صار صلاحه هذا مؤذٍ لخلاصنا، وإنما لكي لا نيأس من خطايانا بل نتوب.

صلاح الله يقودك للتوبة لا لصنع شر أعظم، فإن فسدت بسبب صلاحه تهين الله أمام الناس.

---

[1] *Cassian: Conf. 7: 31.*

[2] *In Ioan.tr 33: 7.*

❖ طول الأناة تقدّم لنا منافع فإن لم نستفد منها نسقط تحت دينونة أشد[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ [يستخدم الله أحيانًا التأديب وتارة الرحمة لحساب الصالحين:]

طول أناة الله تدعو الأشرار للتوبة، كما أن تأديب الله يدرب الصالحين على الاحتمال.

تحتضن أيضًا رحمة الله الصالحين لتثقيفهم كما أن حزم الله يصد الأشرار بسقوطهم تحت العقوبة[2].]

القدّيس أغسطينوس

بمعنى آخر إن كان الإنسان يميل بطبعه إلى القسوة على أخيه، حتى أن قدّم الله له كل حب وطول أناة فيدين الغير ويعنفه، فإن الله على النقيض يودّ خلاص الجميع ويطيل أناته لعل الكل يرجع إليه بالتوبة.

لعلّه أيضًا أراد أن يؤكّد أن الله إن كان يطيل أناته عليهم فليس ذلك علامة رضاه عنهم، وإنما علامة صلاحه ينتظر توبتهم.

رابعًا: إن كان الله هو الديّان، لكنّنا نحن الذين "**تذخر لأنفسنا غضبًا**"... إذ يريد الله الرحمة مقدمًا كل وسيلة لعلّنا نقتنيها، أمّا الإنسان غير التائب فيحفظ لنفسه الغضب. يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لاحظوا دقة التعبير: "**تذخر لنفسك غضبًا**"، موضحًا أن الدينونة لا تصدر عن الديّان إنما هي نتيجة لعمل الخاطئ، إذ لا يقول "يذخر الله لك" وإنما "**تُذخّر لنفسك**"... أنه يحاول اجتذابك بكل وسيلة، فإن ظللت على عنادك تذخر لنفسك غضبًا في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة. ولكن لا يتبادر إلى ذهنك أن غضبه انفعال عنيف إنما هو العدالة، هو "استعلان"، حيث ينال كل إنسان ما يستحقه[3].]

خامسًا: إذ يتحدّث عن دينونة الله للبشر يبدأ أولاً بالحديث عن الصالحين الذين يكافئون بالحياة الأبدية، وبعد ذلك يتحدّث عن الذين يسقطون تحت الغضب، إذ يقول: "**وأما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحياة الأبدية، وأمّا الذين هم من أهل التحزب ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للآثم فسخط وغضب، شدة وضيق على كل نفس إنسان يفعل الشرّ،**

---

[1] In Eph. hom 4; In Matt. hom 75.
[2] City of God 1: 8.
[3] In Rom. hom 5.

اليهودي أولاً ثم اليوناني. مجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح، اليهودي أولاً ثم اليوناني" [٧-١٠].

كأن الله يودّ أن يتمتّع الكل بنوال الحياة الأبدية خلال صبرهم في العمل الصالح، فينالون مجدًا وكرامة وخلودًا مع سلام أبدي، لذلك بدأ بهذه الفئة، أمّا الفئة الثانية التي تسقط تحت السخط والغضب التي تئن من الشدة والضيق فهي تحكم على نفسها بهذا خلال إطاعتها للإثم، الأمر الذي يودّ الله ألا يسقط أحد تحته. في هذا يختلف حكم الله عن حكم الناس، الله يتطلّع أولاً إلى الصالحين والأمور الصالحة، أمّا الإنسان فينظر الشرّ أولاً ويحكم سريعًا على الآخرين متطلعًا بالأكثر إلى عيوبهم.

لاحظ **القدّيس إيريناؤس** أن الرسول بولس قد ركّز على حريّة الإرادة الإنسانيّة في هذه الرسالة (رو ٢: ٤-٥، ٧)، لذلك يعطى الله خيرات للذين يعملون الصالح، كما يقول الرسول، فينالون المجد والكرامة لأنهم يمارسون العمل الصالح مع أنه كان في سلطانهم ألا يفعلوه فيسقطون تحت حكم الله العادل[1].

سادسًا: يؤكّد الرسول أن الله في حكمه لا يحابى: "**لأن ليس عند الله محاباة**" **[١١]**، فإن كان يكافئ اليهودي أولاً سواء في الخير أو الشرّ، فلأن الله يدين بالأكثر من نال معرفة أوفر أو احتل مركز القيادة والخدمة. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم: [**من العدل أن من يستمتع بنصيب أوفر من المعرفة ينال نصيبًا أشد من العقاب أن تعدى الناموس. ومن ثمة، يكون عقابنا أشد كلما ازددنا في الحكمة والسلطان. إن كنت غنيًا يُطلب منك العطاء أكثر من الفقراء، وإن كنت صاحب حكمة أوفر تلتزم بالطاعة أكثر من غيرك، وإن نلت سلطانًا يلزمك تقديم أعمال أكثر بهاءً[2].]

المحاباة هي من سمات البشر، الذين ينحرفون عن الحق في الحكم مراعاة لحسب الإنسان أو نسبه أو غناه أو طلبًا لمنفعة ما، إذ يقول الرسول: "يحابون بالوجوه من أجل المنفعة" (يه ١٦)، وقد كان ذلك محظورًا على القضاة (لا ١٩: ١٥؛ تث ١٠: ١٧). يحذرنا الرسول يعقوب منها، قائلاً: "لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة" (يع ٢: ١)، أمّا الله فيستحيل أن يحابى أحدًا (أف ٦: ٩؛ كو ٣: ٢٥). وقد ظهر عدم محاباة الله على الصليب، إذ "هكذا أحب الله العالم (بلا محاباة) حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو ٣: ١٦)، كما يقول الرسول: "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين" (رو ٨: ٣٢).

---

[1] *Adv. Haer 4: 37: 1.*
[2] *In Rom. hom 5.*

٢. الناموس والحياة العمليّة

تحوّل الناموس في حياة اليهود عن غايته الإلهية، فعِوض أن يكون علّة إدراكهم لخطاياهم وشعورهم بالحاجة إلى عمل الله الخلاصي، تحوّل إلى تشامخ وكبرياء بأنهم عارفو الحق ومعلموه، فصاروا ديّانين للأمم، الأمر الذي أسقطهم تحت دينونة الله. إذن فالناموس ليس غاية في ذاته، إنما يليق أن نحتضنه ونحفظه لا خلال المعرفة الفكرية النظرية، وإنما خلال معرفة الحياة العمليّة والخبرة المُعاشة يوميًا، فيصير علّة تكليلنا، لهذا يقول الرسول:

أولاً: "لأن كل من أخطأ بدون الناموس فبدون الناموس يهلك، وكل من أخطأ في الناموس فبالناموس يُدان" [١٢].

الناموس ليس مجالاً للافتخار بل للعمل، فإن كان الناموس يهب معرفة لوصية الله وإرادته، يلتزم أصحاب الناموس أن يمارسوا الوصيّة، وإلا سقطوا بالناموس تحت الدينونة، فيصيروا ليس كالأمميّين الذين يخطئون بدون الناموس يهلكون وإنما أشر منهم لأنهم يخطئون بمعرفة وهم تحت الناموس. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هنا لا يُظهر المساواة بين اليهودي والأممي فحسب، وإنما يوضّح كيف أثقل الناموس كاهل اليهودي. لأن الأممي يُدان بدون الناموس؛ هنا "بدون الناموس" تعبير عن تخفيف للعقوبة، إذ لا يقف الناموس شاهدًا عليه... إنما ينال جزاءه بناءً على منطق الطبيعة والعقل. أمّا اليهودي فيُدان بالناموس، أي تكون محاكمته بالطبيعة والمنطق وبجانبهما الناموس، لأن ما ناله من عناية يزيد من مسئوليته. تأملوا إلى أي مدى يجعل اليهودي يسرع بالضرورة نحو النعمة يستنجد بها. لأنهم أن احتجّوا بأنهم يكتفون بالناموس بلا حاجة إلى النعمة، يظهر لهم أنهم في حاجة إلى النعمة أكثر من الأمميّين، لأنه بالناموس يكون عقابهم أشد[١].]

يقول **القدّيس أغسطينوس:** [الذين لم يسمعوا الكلمة (كلمة الإنجيل) يدانون بطريقة غير التي يُدان بها الذين يسمعونها ويستخفون بها[٢].]

يقول أيضًا[٣] أن الذين هم بلا ناموس يهلكون، الأمر الذي له صداه المرهب، أمّا الذين تحت الناموس، فيُدانون بمعنى أنهم بلا عذر، وتكون دينونتهم هي الهلاك، بهذا فدينونتهم أصعب.

ويقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لا تكون العقوبات واحدة في كل الخطايا بل هي متعددة ومتنوعة حسب الأوقات والأشخاص ورتبهم وفهمهم وظروفهم... فإن ارتكب كاهن زنًا تكون عقوبته

---

[1] *In Rom. hom 5.*
[2] *In Ioan tr 54: 6.*
[3] *n Ioan tr 89: 3.*

مضاعفة جدًا بسبب الكرامة التي نالها[1].]

ولعلّ الرسول قصد بذلك سقوط الكل تحت الدينونة، الأمم واليهود، ليُعلن حاجة الكل إلى الخلاص.

ثانيًا: من يُخطي في الناموس تكون عقوبته أشد، لأن الناموس أو المعرفة تشهد عليه في يوم الدين، لذلك فالناموس لا يُبرّر الإنسان لمجرد سماعه أو حفظه، وإنما بتنفيذه كله، الأمر الذي يحسب مستحيلاً على البشر، "**لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله، بل الذين يعملون بالناموس هم يبرّرون**" **[١٣]**.

لاحظ دقّة حديث الرسول بولس، إذ يقول: "**هم أبرار عند الله**"، فإن كثيرين يسمعون الناموس ويتلونه على لسانهم فيتبرّرون أمام الناس كمتديّنين، لكن الله لا يدين الإنسان حسب مظهره، إنما حسب برّ قلبه الداخلي. فبسماعنا للوصية يمكننا أن نخدع إخوتنا وربّما أنفسنا، لكن هل نقدر أن نتبرّر أمام الله؟

لقد طالبت الشريعة بالطاعة الكاملة (تث ٤: ١؛ لا ١٨: ٥)، وهو أمر مستحيل إذ لا يوجد إنسان بلا خطيّة... إذن فالحاجة ماسة إلى الذي يبرّر.

ثالثًا: في الوقت أظهر فيه الناموس كثقلٍ على اليهودي، إذ يكون شاهدًا عليه يوم الدين، معلنًا أن الاستماع له بالأذن دون القلب والعمل لن يبرّره أمام الله، رفع من شأن الأممي الذي لم ينل الناموس المكتوب، وإنما خلال الطبيعة جاهد ليمارس ما جاء فيه، إذ يقول: "**لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس، فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم، الذين يظهرون عمل الناموس مكتوبًا في قلوبهم، شاهدًا أيضًا ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة، في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي بيسوع المسيح**" **[١٤-١٦]**.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**، قائلاً:

[كأنه يقول: أنا لا أرفض الناموس، لكنني بسببه أبرّر الأمميّين... مظهرًا أنهم أفضل منهم، بل يمتازون عنهم بعملهم الصلاح، مع أنهم لم يأخذوا الناموس الذي يتشامخ به اليهود. في هذا كان الأمميون جديرين بالإعجاب، لأنهم تمّموا صلاح الناموس بأعمالهم لا بكلمات سمعوها... انظروا إذن

[1] *In Matt. hom 75.*

كيف يلوم اليهود هكذا هادمًا غرورهم، مظهرًا أن الأمميّين الذين سعوا باجتهاد لإتمام الناموس، مع أنهم بدون الناموس، هم أولى بالكرامة منهم. هنا تزداد عجبًا بحكمة الرسول الذي أظهر تفوق الأممي على اليهودي دون أن ينطق بذلك صراحة[1].]

[ولكي يزيد من مخاوفهم لا يكتفي بالقول: "**خطايا الناس**" بل يقول: "**يدين الله سرائر الناس**"، كي لا تظن أنه في مقدورك الهروب من دينونة الله... لأن الناس يقيمون القضاء لمحاكمة الأعمال العلنية (أما الله فيدين السرائر)... إذن ليدخل كل إنسان إلى أعماق ضميره ويحاسب نفسه بكل تدقيق، "**لكي لا ندان مع العالم**" (١ كو ١١: ٣٢)، لأن تلك المحاكمة رهيبة، وذلك الكرسي مخوف، والحساب يكون مرعبًا، لأن "**الأخ لا يفدي**" (مز ٤٩: ٨)،... ماذا يكون شعورنا حينما نقف أمام العالم بأسره وتعلن كل سرائرنا في مسرح مُضاء فسيح يضم من نعرفهم ومن لا نعرفهم؟[2]]

ويرى **ابن كاتب قيصر** أنه يقصد بالأمم الذين ارتفعوا، بحياتهم مع الله، فوق اليهود هم "الآباء السابقون" قبل استلام الناموس الموسوي على يديّ موسى مثل إبراهيم وأيوب ويوسف، آمن إبراهيم بالله وقدّم ابنه ذبيحة مُحرقة، وقرّب أيوب عن بنيه ذبائح، خشية أن يكون أحدهم قد نطق بكلمة باطلة، أو أضمر في داخله ما يغضب الله (أي ١: ٥)، ويوسف مارس حياة الطهارة ممتنعًا عن الشرّ لئلا يخطئ قدام الرب (تك ٣٩ : ٥)... [هؤلاء عملوا بالطبيعة ما بالناموس ولم يحتاجوا إلى ناموسٍ مكتوبٍ، إذ لم يدعوا نيّاتهم تبكّتهم بل عملوا بما توجبه من الصلاح، وتركوا ما تنكره من القبائح، وهم في هذا ليسوا مثلنا نحن الذين تبكّتنا نيّاتنا وكتبنا.]

يُعلّق أيضًا **ابن كاتب قيصر** على العبارات السابقة موضحًا أن أفكارهم مشتكية [١٥]. بمعنى أنها توبّخهم أن فعلوا أمرًا غير حسن، إذ كانت تقوم مقام الناموس.

ويرى **الأب سيرينوس** في هذه العبارة تأكيدًا لسلطان الإنسان على فكره، وإلا ما كانت أفكارنا وضمائرنا تشتكي علينا، إذ يقول: [إذا ما جاهدنا كبشر ضد الاضطرابات والخطايا، تصير هذه تحت سلطاننا وفق إرادتنا، فنحارب أهواء الجسد ونهلكها، ونأسر حشد خطايانا تحت سلطاننا، ونطرد من صدورنا الضيوف المرعبين، وذلك بالقوّة التي لنا بصليب ربنا، فنتمتع بالنصرة التي نراها في مثال قائد المئة (مت ٨: ٩) روحيًا[3].]

---

[1] *In Matt. hom 5.*
[2] *In Matt. hom.*
[3] *Cassian: Conf. 7: 5.*

ويرى **الأب يوسف** في هذه العبارة إعلانًا عن [أن نية الإنسان هي التي تجعله يُكافأ أو يعاقب[1].]

ويُعلّق **العلامة أوريجينوس** على التعبير: "**حسب إنجيلي**" [١٦]، قائلاً: [الآن ليس لدينا عمل كتابي لبولس يدعى إنجيلاً، وإنما كل ما كرز به وما قاله هو الإنجيل، وما كرز به وما قاله كان أيضًا في حكم المكتوب؛ وما كتبه كان الإنجيل. وإن كان ما كتبه بولس إنجيلاً، فإن ما كتبه بطرس أيضًا هو إنجيل؛ وفي كلمة كل ما قيل أو كُتب ليُخلِّد معرفة حلول المسيح على الأرض، ويهيئ لمجيئه الثاني أو ليقدّم ذلك كحقيقة قائمة في تلك النفوس التي تريد أن تتقبّل كلمة الله الواقف على الباب يقرع ويطلب أن يدخل فيها[2].]

٣. الناموس والتعليم

عرض الرسول بولس في الأصحاح السابق شرور الأمم مؤكدًا حاجتهم لنعمة الله المجانية لكي تسندهم وتدخل بهم إلى خلاص الله. أمّا في هذا الأصحاح فإذ يوجّه الحديث لليهود يكشف لهم أنهم أكثر احتياجًا إلى النعمة الإلهية من الأمم، إن صح هذا التعبير. فإن الناموس الذي وُهب لهم لمعاونتهم استخدموه في إدانة الآخرين لا في توبتهم، وعِوض العمل به اكتفوا بالاستماع إليه، الأمر الذي جعل بعض الأمميّين المجاهدين داخليًا في ممارسة الحياة النقيّة يسبقونهم، إذ فعلوا خلال الطبيعة والمنطق بما هو في الناموس، فظهر الناموس مكتوبًا في قلوبهم وضميرهم وأفكارهم، بينما بقي أصحاب الناموس يسمعون له بآذانهم دون قلوبهم أو سرائرهم الداخليّة. والآن لكي يوضّح الرسول بشاعة ما بلغ إليه اليهود، يُعلن أنهم عِوض أن يكرزوا بالناموس حيًا في حياتهم، صاروا معلّمين به بالكلام ومقاومين له بالعمل. حسبوا أنفسهم قادة الفكر الروحي، ونورًا للعالم، ومهذّبين للأغبياء، ومعلِّمين للأطفال، لهم صورة العلم والحق في الناموس، بينما تُقدّم حياتهم وسلوكهم خلاف هذا تمامًا.

ويلاحظ في هذا الحديث الآتي:

أولاً: يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول بولس يستخدم أسلوبًا يناسبهم كأناس يدعون العلم والمعرفة، ويقيمون أنفسهم كمعلِّمين للعالم، يتهكَّمون بالكل ويسخرون بهم، إذ يقول:

[إنه لا يقول: "هوذا أنت يهودي"، إنما "**هوذا أنت تسمى يهوديًا**"، "**وتفتخر بالله**" **[١٧]**، أي تظن أنك محبوب لدى الله، ومكرم فوق جميع الناس. يُخيَّل إليَّ أنه هنا يسخر برفق بقلّة منطقهم، وجنون شهوتهم وراء المجد، إذ أساءوا استخدام هذه العطية، فعِوض استخدامها كوسيلة لخلاصهم جعلوها

---

[1] *Cassian: Conf 17: 14.*
[2] *Comm. On John, book 1: 6.*

علّة للتشامخ على الآخرين والازدراء بهم... كما يقول: "**تثق أنك قائد للعميان**"، وهنا أيضًا لا يقول: "أنت قائد" بل "**تثق أنك قائد**" بمعنى أنك تنتفخ، وهذا لأن كبرياء اليهود كان متشامخًا جدًا. يستخدم معهم ذات الكلمات المتداولة بينهم، والتي كانوا يردّدونها في زهوِهم. اسمعوا ما يقولونه في الإنجيل: "في الخطيّة وُلدتِ أنت بجُملتك وأنت تعلمنا" (يو ٩: ٣٤). بهذا الاستخفاف المتعالي كانوا يتطلّعون إلى جميع الناس[1].]

[يستخدم الرسول ذات كلماتهم: "**قائد للعميان، ونور للذين في الظلمة، ومهذّب للأغبياء، ومعلم للأطفال**"، الألفاظ التي كان اليهود يطلقونها على من يتتلمذون لهم. تكراره هنا للعبارات هدفه أن يدركوا أن ما زعموه ميزة يفتخرون به هو علّة دينونتهم بالأكثر[2].]

ثانيًا: إن كان يليق بالمعلم الروحي أن يكون بالحق قائدًا للعميان، ونورًا للذين في الظلمة، ومهذبًا للأغنياء، ومعلمًا للأطفال، لكنه لا يمارس هذا بذاته، بل بالله نفسه الذي يعمل في خدامه، إذ يدخل إلى قلوب المخدومين فيقودها بنفسه ويضيء في داخلها ويهذّبها ويدرّبها كأطفال صغار. وقد جاء السيد المسيح متجسدًا ليقوم بهذا الدور التربوي الروحي، لا خلال تقديم وصايا فحسب، وإنما بتغيير القلب وتجديده على الدوام.

❖ معلم الأطفال الكامل صار طفلاً بين الأطفال لكي يهب حكمة للأغنياء[3].

القدّيس كيرلس الأورشليمي

ثالثًا: لا يقف الرسول عند استخدام تعبيراتهم ذاتها لتوبيخهم، لأنهم احتلّوا مركز المعلِّمين للعالم الوثني وهم لا يمارسون شيئًا ممّا يعلمون به، وإنما انتقل بهم إلى اتهامهم أنهم يهينون الله نفسه الذي يظنون أنهم يعلمون الآخرين عنه. إذ يقول: "**فأنت إذن الذي تعلم غيرك، ألست تعلم نفسك؟ الذي تكرز ألا يُسرق، أتسرق؟ الذي تقول أن لا يُزنى، أتزني؟ الذي تستكره الأوثان، أتسرق الهياكل؟ الذي تفتخر بالناموس، أبتعدي الناموس تهين الله؟**" **[٢١-٢٣]**.

اهتم معلمو اليهود بالوعظ دون الحياة، ففقدت الكلمة قوّتها، لهذا يحث الرسول بولس تلميذه تيموثاوس الأسقف: "كن قدوة للمؤمنين في الكلام، في التصرف، في المحبّة، في الروح، في الإيمان، في الطهارة، إلى أن أجيء أعكف على القراءة والوعظ والتعليم... لاحظ نفسك والتعليم وداوم على

---

[1] *In Matt. hom 6.*
[2] *In Matt. hom 6.*
[3] *Cat. Lect. 12: 1.*

ذلك، لأنك إذا فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضًا" (١ تي ٤: ١٢-١٣، ١٦).

❖ من يقوم بدور قيادي يلزم أن يكون أكثر بهاءً من أي كوكب منير.

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

رابعًا: لا يقف الأمر عند إهانتهم لله خلال تعليمهم بشيءٍ وسلوكهم بآخرٍ، وإنما يستند الرسول إلى الأنبياء ليكيل لهم اتهامًا جديدًا: "**لأن اسم الله يجدف عليه بسببكم بين الأمم**" **[٢٤]** (إش ٥٢: ٥؛ حز ٣٦: ٢٠، ٢٣؛ ٢ صم ١٢: ٢٤).

وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [اليهود لا يتوقحون على الله فحسب، بل يدفعون الآخرين على ذلك... يدفعونهم إلى التجديف[1].]

ولكيلا نسقط نحن في ذات هذا الخطأ علمنا ربنا يسوع أن نصلّي قائلين: "ليتقدّس اسمك"، فإنه لا يوجد حلٌ وسط إمّا أن يتقدّس اسم الله فينا، أو يجدف عليه بسببنا.

❖ اسم الله قدوس بطبيعته، قلنا أو لم نقل، لكنه أحيانًا يتدنس بين الخطاة... لذلك نصلّي أن يتقدّس اسم الله، لا بأن يصير مقدسًا كما لو كان غير مقدَّس، وإنما أن يتقدّس فينا عندما نتقدّس نحن ونعمل ما يليق بالقداسة[2].

القدّيس كيرلس الأورشليمي

خامسًا: ما هي غاية اليهودي في تعليمه الأممي؟ أن ينزعه من الغُرْلة لينقله إلى أهل الخِتان، ومن إنسان بلا ناموس إلى إنسان تحت الناموس. هذا الهدف يحقّقه اليهودي لكن في شكليّة بلا روح. هذا ما أعلنه الرسول بولس كاشفًا عن نوعين من الخِتان، ونوعين من الغُرْلة، وأيضًا نوعين من الناموس. فاليهودي يهتم بنزع غُرْلة الجسد لا الروح، وممارسة ختان الجسد لا الروح والاستماع للناموس والفخر به دون الحياة به عمليًا. هكذا يميّز الرسول بين الغُرْلة حسب الجسد، والغُرْلة حسب الروح، وأيضًا بالنسبة للختان، وبين الاستماع للناموس وممارسته. فاليهودي يهتم بالجسد والمظهر الخارجي في حياته وأيضًا في تعليمه للأممي، لذلك يقول:

"**فإن الخِتان ينفع أن عملت بالناموس،**

ولكن أن كنت متعديًا الناموس فقد صار ختانك غُرْلة.

---

[1] *In Matt hom 6.*

[2] *Cat. Lect. 23: 13.*

إذًا إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس، أفما تُحسب غرلته ختانا؟
وتكون الغُرْلة التي من الطبيعة وهي تكمل الناموس
تدينك أنت الذي في الكتاب والخِتان تتعدى الناموس؟
لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهوديًا، ولا الخِتان الذي في الظاهر في اللحم ختانًا،
بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي،
وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الخِتان،
الذي مدحه ليس من الناس بل من الله" [٢٥-٢٩].

ويلاحظ في هذا النص الرسولي الآتي:

أ. يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن الرسول يشبه قاضيًا يريد أن يصدر حكمًا على أشخاص ذوي رُتب، فكان يليق به أولاً أن يجردهم من رتبهم، وعندئذ يحكم عليهم، هكذا جرد الرسول اليهود من ميزاتهم إذ كشف عن حقيقة أمرهم أنهم غير مختونين بالروح، ولا متمتعين بالناموس روحيًا، إنما يعيشون في غُرْلة روحية رغم ختانهم بالجسد، هكذا جرّدهم لكي يُعلن دينونتهم.

بهذا لم يقلّل الرسول من شأن الخِتان، ولا أعطى للغُرْلة فوزًا على الخِتان، إنما أوضح أن مختون الجسد قد يكون في غُرْلة من جهة الروح، وأيضًا من في غُرْلة الجسد قد يكون مختونًا في الداخل روحيًا، وهكذا قد يصبح الخِتان غُرْلة، والغُرْلة ختانًا!

❖ كيف يصير الإنسان في غُرْلة بعد أن يُختتن؟ يقول (الرسول) ليته لا يكون هكذا، ليته لا يعيش كما لو كان أَغْلف، أي كما لو كان قد اِكتسى مرة أخرى باللحم الذي قُطع منه، فلم يعد يهوديًا[2].

القدّيس أغسطينوس

❖ يتفق هذا مع قوله: "**دُعي أحد وهو مختون فلا يصر أَغْلف**" (١ كو ٧: ١٨).

لقد كان يهوديًا ودُعي مختونًا، فليته لا يشاء أن يصير أَغْلف، أي لا يعيش كمن هو ليس مختونًا[3].

القدّيس أغسطينوس

❖ عندما يخطئ اليهودي يصير ختانه غُرْلة، وعندما يعمل الأممي باستقامة تُحسب غرلته ختانًا.

---

[1] *In Matt hom 6.*
[2] *On lying 8.*
[3] *Of the work of Monks 12.*

فالأمور التي يظن أنها طاهرة تُحسب دنسة بالنسبة لمن لا يستخدمها بلياقة[1].

العلامة أوريجينوس

لقد سبق فتحدث إرميا النبي بوضوح عن ختان القلب والأذن، الأمر الذي نرجو أن نعود إليه في تفسيرنا لسفر إرميا إن شاء الرب.

ب. يرى **العلامة أوريجينوس** في تعليقاته على إنجيل متي أن هذا النص الرسولي يودّ أن يوضّح أن اليهودي الحقيقي، ليس حسب الجنس، وإنما بالروح كرجل الله، هو ذاك الذي يُنتسب للسيد المسيح، إذ يقول أن كلمة "يهود" جاءت منتسبة ليهوذا بن يعقوب، لكنها الآن بالروح تخص من ينتسب لذاك الذي تجسد من سبط يهوذا. هذا هو اليهودي في الخفاء الذي له ختان القلب بالروح.

بنفس المعنى يقول **البابا غريغوريوس (الكبير)**: [الآن أسأل: ما هو إسرائيل اليوم؟ يجيب الرسول: الذين يسلكون بالروح لا بالحرف، يسلكون في ناموس المسيح، هم إسرائيل الله[2].]

أما سمة اليهودي الروحي أو إسرائيل الجديد فهي: "**الذي مدْحُه ليس من الناس بل من الله**" **[٢٩]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لست أمنعك من شهوة المجد، إنما أريك المجد الحقيقي النابع عن الله... لنكن أنقياء في الخفاء، لا أن نتثقل بالاستعراضات والمظاهر والرياء. لنخلع بالأحرى ثياب الحملان، ولنكن بالحقيقة حملان، ليس شيء أتفه من المجد البشري. إن رأيت أطفالاً صغارًا رُضَّع، فهل تشتهي مجدًا منهم؟ هذا هو الحادث بالنسبة لكل البشر بخصوص المجد، لهذا دُعي "المجد الباطل[3]".]

---

[1] *Com. On Matt. book 11: 12.*
[2] *On the Trinity 5: 28.*
[3] *In Titus hom 2.*

الأصحاح الثالث

حاجة الكل للخلاص

بعد عرض الرسول لعلاقة البشريّة بالله انتهى إلى هذا الأصحاح ليُعلن أنه وإن اختلفت خطايا البشر عن بعضهم البعض، لكن النتيجة واحدة، وهي سقوط الكل تحت نير الخطيّة، أي إعلان أن الكل غير بار ويحتاج إلى تبرير حقيقي فعَّال. بمعنى آخر جاء هذا الأصحاح أشبه بحكم عام على البشرية كلها أنها بلا برّ حقيقي، في عوز إلى من يبرّرها.

١. الاتهام: عدم أمانتنا مع أمانة الله ١-٨.
٢. علّة الاتهام: الكل بلا برّ ٩-٢٠.
٣. الحكم: دينونة الكل، والحاجة إلى تبرير عام ٢١-٣١.

١. الاتهام: عدم أمانتنا مع أمانة الله

الاتهام الموجّه للبشرية كلها: إنها بلا برّ، أي بلا أمانة في قبول وعد الله لها، بالرغم من برّ الله في وعده لها؛ في هذا يشترك اليهودي مع الأممي، ويتساوى الكل. هذا الاتهام قد يُسيء اليهود فهمه فيحسبونه مستهينًا بما نالوه من امتيازات، لذلك جاء الاتهام مفصلاً بطريقة لائقة لا تجرح مشاعرهم، يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

أولاً: إن كان الأممي قد كسر الناموس الطبيعي فهلك (ص ١)، واليهودي كسر الناموس المكتوب واستهان بالخِتان الروحي فسقط في دينونة أكثر مرارة من التي يسقط تحتها الأممي، فما الحاجة إذن لاختيار الله لشعبه؟ وتقديمه عهد الخِتان والناموس المكتوب؟ هذا هو التساؤل الذي وضعه الرسول بولس في نهاية حديثه عن ما بلغ إليه الأممي واليهودي، ولئلاّ يظن القارئ أن بولس الرسول يستهين بنعم الله وعطاياه في العهد القديم، لذلك يقول الرسول:

"إذًا ما هو فضل اليهودي؟ أو ما هو نفع الخِتان؟
كثير على كل وجه، أمّا أولاً فلأنهم أستؤمنوا على أقوال الله.
فماذا إن كان قوم لم يكونوا أمناء؟ أفلعلّ عدم أمانتهم يبطل أمانة الله؟
حاشًا، بل ليكن الله صادقا وكل إنسان كاذبًا،

كما هو مكتوب: لكي تتبرّر في كلامك،

وتغلب متى حوكمت" [١-٤].

خشي الرسول أن يُساء فهم حديثه السابق، فيظنه البعض أنه يقلل من شأن معاملات الله مع شعبه، خاصة تقديمه ناموسه كعطيّة يؤتمنوا عليها، أو اختيارهم كشعبٍ مقدس له، أو دخوله في عهد معهم مقدمًا الخِتان علامة عهد. لذلك أسرع ليؤكّد أن العيب لا في العطيّة ولا في العاطي، وإنما في عدم أمانة من تسلمها. بمعني آخر، إنه ينتقد تصرف اليهود نحو نعم الله لا نعم الله في ذاتها، فإن الله في أمانته قدّم عطايا إلهية ونعم مجّانية مقدّسة، لكن الإنسان في غير أمانة أساء استخدامها، وأفسد عملها في حياته.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على عبارات الرسول هذه، قائلاً:

[إن كان المقصود هو أن كل هذه الأشياء بلا قيمة، فلماذا دُعي الشعب؟ ولماذا أُقيم عهد الخِتان؟ ماذا يفعل الرسول هنا؟ وكيف يحل هذه المشكلة؟

يحلها بنفس الطريقة التي سبق فاتبعها، إذ تغني بهبات الله لا بفضل اليهود، فبكونهم يهودًا عرفوا إرادة الله، وأدركوا الأمور الأسمى، ذلك ليس بفضل عملهم الذاتي، إنما هو عمل نعمة الله. وكما قال المرتّل في المزمور: "لم يصنع هكذا بإحدى الأمم وأحكامه لم يعرفوها". وكما أعلن موسى بسؤاله: "هل جرى مثل هذا الأمر العظيم؟ أو هل سُمع نظيره؟ هل سمع شعب صوت الله يتكلّم من وسط النار كما سمعت أنت وعاش؟" (تث ٤: ٣٢-٣٣). هذا ما يفعله بولس هنا، إذ اتّبع ذات الوسيلة إذ قال بأن الخِتان ذو نفع إن أُقترن بفعل الصلاح (رو ٢: ٢٥) ولم يقل أن الخِتان بلا نفع، لذلك تساءل: إن كنت متعديًا الناموس فقد صار ختانك غرلة (رو ٢: ٢٥). كأنه يقول: يا من أختتنت صار ختانك غُرْلة، ولم يقل: يا من اختتنت ختانك بلا نفع على الإطلاق. لهذا يطيح بالأشخاص ويؤيد الناموس؛ هذا ما يفعله هنا إذ بعدما تساءل: ما هو فضل اليهودي؟ لم يجب بالنفي، بل أكدَ فضله ليعود فيدحضهم موضحًا عقوبتهم خلال الميزات التي نالوها.

أردف السؤال بسؤال، قائلاً: **أو ما هو نفع الخِتان؟**

ويجيب على السؤالين، قائلاً: "**كثير على كل وجه، أمّا أولاً فلأنهم استؤمنوا على أقوال الله**".

ترون إذن أنه في كل مناسبة يعدد نعم الله لا أفضال اليهود.

ما معنى: "**استؤمنوا**"؟ معناها أن الناموس قد وُضع بين أيديهم، لأن الله جعل لهم قيمة فأقامهم أمناء على أقواله التي نزلت من فوق. بقوله هذا يقيم شكوى ضدهم، إذ يهدف إلى إظهار نكرانهم

للفضل بالرغم من المزايا التي وُهبت لهم.

يستطرد فيقول: "**فماذا إن كان قوم لم يكونوا أمناء، أفلعلّ عدم أمانتهم تبطل أمانة الله؟ حاشًا**" **[٣-٤]**.

لاحظوا هنا كيف يبرز الاتهام في شكل اعتراض، وكأنه يقول: رب معترض يتساءل: ما نفع الخِتان إذًا ما داموا قد أساءوا استخدامه؟ وهو لا يقف هنا موقف المشتكي العنيف، إنما موقف من يلتزم بتبرير الله من الشكاوى الثائرة ضده، فيحولها من ضد الله إلى ضد اليهود. يقول لهم: لماذا تتذمّرون من أن البعض لم يؤمنوا؟ كيف يؤثر هذا في الله من جهة عطاياه، فهل نكران مستخدميها يغيَر من طبيعتها؟ أو يجعل من الأمر المكرّم هوانًا؟ هذا هو معنى تساؤله: "**أفلعلّ عدم أمانتهم يبطل أمانة الله؟**" يجيبهم: "**حاشا**"، وكأنه يقول: لقد أكرمت فلانًا، فلم يقبل إكرامي، فهل يُحسب عدم قبوله الإكرام علّة شكوى ضدي؟ أو يقلّل هذا من إكرامي؟...

تأمّلوا إذن كيف وضعهم الرسول في قفص الاتهام خلال ذات الأمور التي ينتفخون بها!... لقد عمل الله ما في وسعه، أمّا هم فلم يعرفوا أن ينتفعوا بأعماله معهم، إذ يردّد قول المرتّل في المزمور: "**لكي تتبرّر في كلامك وتغلب متى حوكمت**[1]".]

[انظروا إلى خطّة بولس فإنه لم يَتّهم الكل بعدم الأمانة، بل قال: "**إن كان قوم**" **[٣]** هؤلاء كانوا غير أمناء، وهكذا يبدو الرسول غير قاسٍ في اتهاماته حتى لا يظهر كعدوٍ[2].]

هكذا لم يحقِّر الرسول من العطايا الإلهية سواء بالنسبة للختان كعلامة للعهد الإلهي إن فهم روحيًا وأيضًا لعطيّة الأقوال الإلهية، إنما يهاجم عدم أمانة الإنسان، الأمر الذي لا يبطل أمانة الله.

لم يتجاهل رجال العهد الجديد عطايا الله لرجال العهد القديم، خاصة أقوال الله، ففي خطاب الشماس استفانوس جاء حديثه عن موسى النبي هكذا: "الذي قبل أقوالاً حيّة ليعطينا إيّاها" (أع ٧: ٣٨).

في حبٍ قدّم الله أقوالاً حيّة تحمل المواعيد الإلهيّة، لكن قابل الإنسان الحب بالجمود، فعصى أقوال الله، وتجاهل حفظها روحيًا وعمليًا بالرغم من افتخاره بها، وتمسكه بحفظها في حرفيتها. ومع هذا يبقى الله أمينًا في تحقيق ما وعد به.

رفض الإنسان اليهودي "الحق" برفضه وعود الله الواردة في أقواله خاصة ما جاء بالنسبة للمسيا

---

[1] *In Rom. hom 6.*
[2] *In Rom. hom 6.*

المخلص، فحُسب كاذبًا، أمّا الله فيبقي صادقًا يحقّق ما وعد به.

هذا ويقدّم لنا **القدّيس جيروم** تفسيرًا روحيًا لعبارة: "**ليكن الله صادقًا وكل إنسان كاذبًا**" **[٤]**، معلنًا أنه ما دام الإنسان يسلك بفكره وإمكانياته البشريّة الذاتية، إنما يعيش بالكذب، لكنه متى التقى بالله "الحق" وحمل سماته ويحسب ابنًا لله، ينعم بالحق فيه، فيكون بالله صادقًا، إذ يقول: [يصير الإنسان بالقداسة إلهًا، بهذا يكف عن أن يكون إنسانًا ينطق بالكذب[١].]

ويرى **القدّيس كبريانوس** خلال ذات العبارة أنه لا يليق بنا أن نيأس حين نرى البعض ينحرف عن الإيمان أن ينكره، إنما كرجال الله نتشدّد ونسلك بالحق، حتى وإن سلك كثيرون بالكذب، فمن كلماته:

[إن كان كل إنسان كاذبًا والله وحده صادق يليق بنا نحن خدام الله، خاصة الكهنة، ماذا نفعل سوى أن ننسى الأخطاء البشريّة والكذب، ونستمر في حق الله، ونحفظ وصايا الرب[٢]!]

[اختار الرب يهوذا من بين الرسل، وقد خان يهوذا الرب، فهل ضعُف إيمان الرسل أو وَهن ثباتهم لأن يهوذا الخائن قد فشل في تبعيتهم؟ هكذا فإن قداسة الشهداء وكرامتهم لا تنقصان لأن إيمان البعض قد تحطّم[٣].]

[ينصحنا بولس أيضًا ألا نضطرب حين يهلك الأشرار خارج الكنيسة، ولا يضعف إيماننا بمفارقة غير المؤمنين لنا... فمن جانبنا يلزمنا أن نجاهد ألا يهلك أحد تاركًا الكنيسة بسبب خطأ ارتكبناه، لكن أن هلك أحد بإرادته وخطيته ولا يودّ العودة أو التوبة والرجوع إلى الكنيسة، فإننا لا نُلام في يوم الدين، مادمنا كنّا مهتمين بإصلاحه، إنما يسقط هو وحده تحت الدينونة لرفضه العلاج بنصيحتنا الصالحة[٤].]

ويقدّم لنا **الأب بولاس أسقف** يوبا *Bobba* بموريتانيا ذات الفكر قائلاً أنه يلزم ألا نضطرب حين يرفض إنسان إيمان الكنيسة[٥].

يرى **القدّيس أغسطينوس** أن الكذب هنا يعني الفراغ، والصدق أو الحق يعني الملء، إذ يقول: [الله الملء والإنسان فارغ. أن أراد أحد أن يمتلئ فليذهب إلى ذاك الذي هو الملء: "تعالوا إلى

---

[1] On Ps. hom 20.
[2] Ep.67: 8.
[3] Unity of the Church 22.
[4] Ep. 54: 6, 7.
[5] Seventh Council of Carthage under Cyprian.

واستنيروا" (راجع مز ٣٤: ٥). فإن كان الإنسان كاذبًا، فهو بهذا فارغ يطلب أن يمتلئ، فيجري بسرعة وغيرة نحو الينبوع ليمتليء[1].]

يقول أيضًا: [عندما يعيش إنسان حسب الحق يعيش لا حسب نفسه بل حسب الله القائل: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). من يحيا حسب نفسه، أي حسب الإنسان لا الله، فبالتأكيد يعيش حسب الكذب، ليس لأن الإنسان نفسه كذب إذ الله موجده وخالقه، وهو بالتأكيد ليس موجدًا للكذب ولا خالق له، إنما لأن الإنسان الذي خُلق مستقيمًا لكي يحيا حسب الله خالقه لا حسب نفسه، أي يتمّم إرادة الله لا إرادته الذاتية، صار يعيش بغير ما خُلق ليعيش به، وهذا هو الكذب... لذلك لم يقُل أن كل خطيّة هي كذب باطلاً[2].]

ثانيًا: إذ عالج الرسول المشكلة الأولي وهي: ما نفع بركات الله ونعمه على اليهودي، إن كان اليهودي قد أساء استخدامها، فصارت البركات وهي مقدّسة ومباركة علّة عقوبة أعظم لمن أساء استخدامها؟ إذ أظهر الرسول أن بعضًا منهم كانوا غير أمناء، لكن يبقي الله أمينًا بالرغم من عدم أمانتهم، وأنه لا يليق أن نشين كرامة واهب النعم، إن أساء الذين قبلوها استخدامها. الآن يعالج الرسول مشكلة أخرى مشابهة للأولى ومكمّلة لها، وهي كما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الوثنيّين قد استهانوا بكلمات الرسول بولس: "**حيث كثرت الخطيّة ازدادت النعمة جدًا**"... فحسبوا أن النتيجة الطبيعية لذلك هي أننا نخطيء لكي تزداد النعمة، أو بمعنى آخر لنكن غير أمناء فتتجلي أمانة الله.

يقول الرسول: "**ولكن إن كان إثمنا يبين برّ الله، فماذا نقول: ألعلّ الله الذي يجلب الغضب ظالم؟ أتكلم بحسب الإنسان: حاشًا، فكيف يدين الله العالم إذ ذاك؟ فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لمجده، فلماذا أُدان أنا بعد كخاطئ؟ أما كان يُفترى علينا، وكما يزعَم قوم أننا نقول: لنفعل السيّئات لكي تأتي الخيرات، الذين دينونتهم عادلة**" **[٨-٥]**.

نستخلص من هذا النص الآتي:

أ. لا يتوقف عدو الخير عن محاربة خدمة السيد المسيح بكل طرق، فإن كان اليهود يهاجمون الكرازة بدعوى أن الرسول بولس يُهين الناموس ويستخفّ بالخِتان، ويقاوم أمة اليهود، فإن الأمم من

---

[1] *Ser.on N.T. Lessons 83: 6.*
[2] *City of God 14: 4.*

جانبهم أيضًا يقاومون هذا العمل بإساءة فهمه، حاسبينه أنه ينادي بفعل السيئات لكي تأتي الخيرات، وكأن الشرّ هو علّة الخير، وعدم أمانتنا هو مجد لأمانة الله، وهذا بلا شك افتراء كاذب. لذا إذ يُعلن الرسول عن سقوط العالم كله في الشرّ، ليتحدّث عن حاجة الجميع إلى المخلص، يوضّح أنه لا ينادي بما أُتُّهم به، مُظهرًا أن هذا القول يستلزم أحد أمرين: إمّا أن يكون الله غير عادل، لأنه يجازي الإنسان على شرّه وعدم أمانته، وهو علّة نصرة الله ومجده، أو أنه إن لم يعاقبنا تقوم نصرته على رذائلنا، وكِلا الأمران ممقوتان عند الرسول.

ب. يودّ الرسول تأكيد أن الله الذي يتمجّد حتى في شرّنا بإعلان برّه وحبّه للخطاة لا يعفي الإنسان من مسئوليته عن ارتكابه للإثم. فقد اعتاد الإنسان منذ بدء سقوطه أن يلقي باللوم على غيره، كما فعل آدم الذي ألقى باللوم على المرأة التي جعلها الله معه (تك ٣: ١٢)، وكما فعلت حواء التي ألقت باللوم على الحيّة.

يقول الرسول: "**أتكلم بحسب الإنسان**" **[٥]** وكأنه إذ يلتزم بتقديم هذا الاعتراض الذي يخطر على فكر البعض، إنما يتكلّم كإنسان متكابر على الله، إذ ينسب لله الظلم في إدانته للإنسان الأثيم ويفتح الباب للإنسان أن يتمادى في ارتكاب الآثام بحجّة إعلان "برّ الله". لهذا جاءت هذه الرسالة تؤكد أن برّ الله وأمانته في مواعيده وفيض نعمته على الخطاة ليست فرصة للشر، إذ يقول: "**أنبقى في الخطيّة لكي تكثر النعمة؟ حاشا، نحن الذين مُتنا عن الخطيّة كيف نعيش بعد فيها؟**" (رو ٦: ١-٢).

ج. يُعلّق **القدّيس إكليمنضس السكندري**[1] على العبارات الرسولية التي بين أيدينا موضحًا أن الله يوقع العقوبة ليس عن انفعال، إنما لتحقيق العدالة، فيختار الأثيم لنفسه أن يسقط تحت العقوبة بكامل حريته، هو الملوم لا الله.

٢. علّة الاتهام: الكل بلا برّ

الآن بعد أن ردَّ على اليهود الذين اتهموا الرسول أنه يستخف بعطايا الله لهم كيهود أهل الخِتان وأصحاب الناموس، كما ردَّ على الأمميّين الذين حسبوه ينادي بفعل الشرّ لكي يجلب الخير، بدأ يؤكّد من جديد فساد البشريّة كلها ليُعلن حاجة الكل إلى طريق واحد للخلاص، هو التمتّع ببرّ المسيح خلال الإيمان بفدائه، إذ يقول:

---

[1] *Paedagogus, 1: 8.*

"فماذا إذًا، أنحن أفضل؟ كلا البتة.
لأننا قد شكونا أن اليهود واليونانيّين أجمعين تحت الخطيّة.
كما هو مكتوب: أنه ليس بار ولا واحد، ليس من يفهم، ليس من يطلب الله.
الجميع زاغوا وفسدوا معًا، ليس من يعمل صلاحًا ليس ولا واحد.
حنجرتهم قبر مفتوح، بألسنتهم قد مكروا.
سمَ الأصلال تحت شفاههم، وفمهم مملوء لعنة ومرارة.
أرجلهم سريعة إلى سفك الدم، في طرقهم اغتصاب وسحق، وطريق السلام لم يعرفوه.
ليس خوف الله قدام عيونهم" [٩-١٨].

الآن إذ يُعلن فساد البشريّة كلها يلجأ إلى رجال العهد القديم ليقتطف كلماتهم التي تؤكد ذلك:

يلجأ إلى داود النبي القائل: "ليس من يفهم، ليس من يطلب الله" (مز ١٤: ٢ الترجمة السبعينيّة)، وقد جاءت الترجمة العبرية: "هل من فاهم طالب الله!" فإذ أخطأ الكل في حق الله، انطمست عيون أذهانهم، فلم تعد تستطيع أن تراه، ولا أن تدرك أسراره الإلهية، كآدم الذي أخطأ، فصار غير قادرٍ على إدراك محبّة الله، وأصبح هاربًا من وجهه لا يقدر أن يطلبه. لكن هل ينطبق هذا على اليهود الذين صارت لهم معرفة الله بالناموس، ويطلبونه خلال طقوسهم وعبادتهم غير المنقطعة؟ يجيب المرتّل: "**ليس من يفهم، ليس من يطلب الله**"، غير مميّز اليهودي عن الأممي، لأن اليهودي في حرفيته لم يستطِع إدراك أعماق الناموس وغايته الإلهية كما تحوّلت الطقوس إلى شكليات لا تمس القلب ليُدرك الله ويعاينه.

ويقتطف من نفس المزمور: "الجميع زاغوا وفسدوا معًا، ليس من يعمل صلاحًا ليس ولا واحد" (مز ١٤: ٣). مرة أخرى يؤكّد أن "الجميع" بلا تمييز بين يهودي أو أممي إذ لم يفهموا، ولم يعد للصلاح موضع فيهم. هذا أيضًا ما يعلنه إشعياء النبي القائل: " كلنا كغنمٍ ضللنا ملنا كل واحدٍ إلى طريقه" (إش ٥٣: ٦).

بعد أن تحدّث عن فساد الكل بوجهٍ عام بدأ يُعلن فساد الإنسان في كُلّيته، فتحوّلت الحنجرة إلى قبر مفتوح (مز ٥: ٩) تخرج رائحة موت ونتانة، وانشغل اللسان بالمكر، وتحوّلت الشفاه إلى مخزن خفي لسمَ الأصلال (مز ١٤٠: ٣)، وفمهم ينبوع لعنة ومرارة (مز ١٠: ٧)، وأرجلهم تسرع إلى سفك الدم (إش ٥٩: ٧؛ أم ١: ١٦) لا تعرف طريق السلام، بل طريق السحق والمشقة، أمّا أعماقهم ففقدت البصيرة الداخليّة، فلم يعد خوف الله أمام عيونهم (مز ٣٦: ١). وكأن الفساد قد دبَّ في حياة الإنسان

الداخليّة، كما في أعضائه الظاهرة.

٣. الحكم: دينونة الكل، والحاجة إلى تبرير عام

إن كان الذين بلا ناموس مكتوب قد سقطوا تحت الهلاك، والذين تحت الناموس قد صاروا تحت الدينونة، فكيف يمكن الخلاص؟ يقدّم لنا الرسول بولس العلاج معلنًا الحاجة إلى المخلص الذي يقدّم حياته فِدْية عن العالم كله، واهبًا البرّ الإلهي لمؤمنيه. ويلاحظ في هذا العلاج الآتي:

أولاً: يقول الرسول: "**وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس**" **[٢١]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لا يكتفي بقوله "**البرّ**"، إنما يصفه "**برّ الله**" مظهرًا مدى النعمة وعظمة الوعد مادام الله هو مصدرهما.]

إن كان الإنسان قد فشل في نوال البرّ خلال الناموس الطبيعي أو الناموس المكتوب، إذ ظهر كاسرًا للناموس، فإن الله قدّم برّه لنا، باتحادنا مع الآب في ابنه البارّ الذي بلا خطيّة، نحمله في داخلنا، ويحملنا هو فيه، فنحسب به أبرارًا. فالبرّ الذي صار لنا ليس وليد جهادنا الذاتي ولا طاعتنا الذاتية، إنما هو ثمرة عمل روحه القدوس الذي يهبنا الشرّكة مع الآب في ابنه، فنحمل سمات الابن فينا، ويصير برّه برًا لنا.

بمعنى آخر إذ فقد الكل "البرّ" صارت الحاجة إلى برّ الله، الأمر الذي تحدّث عنه الله بلسان النبي إشعياء:

"اسمعوا لي يا أشدّاء القلوب البعيدين عن البرَّ، قد قربت برّي، لا يبعد، وخلاصي لا يتأخر" (إش ٤٦: ١٢-١٣).

"قريب برّي، قد برز خلاصي... أمّا خلاصي فإلى الأبد يكون، وبرّي لا ينُتقص... أمّا برّي فإلى الأبد يكون، وخلاصي إلى دور الأدوار" (إش ٥١: ٥، ٨).

"احفظوا الحق واِجروا العدل، لأنه قريب مجيء خلاصي واستعلان برّي" (إش ٥٦: ١).

ثانيًا: بقوله: "**ظهر برّ الله**". وليس "قدّم برّ الله" يُعلن أن هذا البرّ الإلهي ليس جديدًا، إنما هو في ذهن الله يودّ أن يقدمه لنا، إنما في الوقت المعيّن، لذا يقول: "**مشهودًا له من الناموس والأنبياء**". وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [يودّ أن يقول لهم: لا تضطربوا لأنكم لم تنالوا قبل الآن، ولا

تفزعوا... لأن الناموس والأنبياء أشاروا إليه منذ القديم[1].]

هذا البرّ الذي أنبأ الله به على أفواه الأنبياء، أعلنه في ابنه يسوع المسيح البارّ لحسابنا، إذ يقول: "**برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح، إلى كل وعلى الذين يؤمنون، لأنه لا فرق**" **[٢٢]**. أشار الأنبياء على البرّ من بعيد، أمّا المسيح فهو وحده جاء نائبًا عنّا لكي إذ يحمل المؤمنين فيهن ينعمون ببرّ الآب الذي هو أيضًا برّ الابن. هذا ما أعلنه السيد في صلاته الوداعية: "أنا مجّدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والآن مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يو ١٧: ٤-٥). هذا المجد الأزلي الذي له، يحمله الآن وهو في الجسد كبَرّ إلهي، ليكون لنا برًا نعيشه ونمارسه، فنقول: "**الرب برَنا**" (إر ٢٣: ٦، ٣٣: ١٦، ٥١: ١٠).

ثالثًا: جاء الحكم: "**إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله**" **[٢٤]**، جاء حكمًا جامعًا وشاملاً لليهود وللأمم.

في موضع آخر يضم الرسول نفسه بين الخطاة بل ويحسب نفسه "أول الخطاة" (١ تي ١: ١٥)، بينما نجده أيضًا يقول: "من جهة البرّ الذي في الناموس بلا لوم" (في ٣: ٦). فكيف يحسب نفسه أول الخطاة وفي نفس الوقت بلا لوم من جهة البرّ الذي في الناموس؟ يجيب **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أنه بالنسبة لبرَ الله يُحسب حتى الذين يتبرّرون في الناموس خطاة. ويشبه ذلك بإنسان جمع مالاً وحسب نفسه غنيًا لكنه متي قارن نفسه بالملوك ظهر فقيرًا للغاية وأول الفقراء. [بالمقارنة بالملائكة يُحسب حتى الأبرار خطاة، فإن كان بولس الذي مارس البرّ الذي في الناموس هو أول الخطاة، فأي إنسان آخر يحسب نفسه بارًا[2]؟]

يقول **القدّيس أغسطينوس:** [جاء المسيح للمرضي فوجد الكل هكذا. إذن لا يفتخر أحد بصحته لئلاّ يتوقف الطبيب عن معالجته... لقد وجد الجميع مرضى، لكنه وجد نوعين من القطيع المريض؛ نوع جاء إلى الطبيب، والتصق بالمسيح، وصار يسمعه ويكرمه ويتبعه فتغيرَ... أمّا النوع الآخر فكان مفتتنًا بمرض الشرّ ولم يدرك مرضه، هذا النوع قال لتلاميذه: "لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة؟" (مت ٩: ١١). وقد أجابهم ذاك العارف لهم ولحالهم: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضي[3]".]

---

[1] *In Rom hom 7.*
[2] *In 1 Tim. hom 4.*
[3] *Ser. 0n N.T. lessons 30: 4.*

إن كان الرسول يعقوب يقول: "من عثر في واحدة فقد صار مجرمًا في الكل" (يع ٢: ٧)، فمن منا لم يعثر في واحدة؟ إذن الكل يحتاج إلى الطبيب، إذ صاروا فاقدين للمجد الحقيقي: "**أعوزهم مجد الله**".

صارت البشريّة كلها في حالة عوز وجوع إلى "المجد "، لكن للأسف أرادوا أن يشبعوا بمجد الناس لا الله (يو ١٢: ٤٣).

رابعًا: يبلغ الرسول إلى غاية حديثه، ألا وهو وإن جُرح اليهودي فاقدًا المجد الإلهي لأن الناموس صار فاضحًا لخطاياه عِوض أن يكون مبرّرًا له وممجّدًا، لكنه يتمتّع مع الكل بعمل المسيح الفدائي خلال الدم بخطة إلهية سبق فأعدّها لتظهر في ملء الأزمنة، إذ يقول: "**متبرّرين مجانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدّمه الله كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه**" **[٢٤]**.

إن كان الحكم جماعيًا بأن الكل بلا استثناء قد فقدوا "المجد" الحقيقي وسقطوا في الفساد الداخلي والخارجي، لكن الطبيب يقدّم العلاج "مجّانًا"، لا لأنه علاج رخيص، وإنما لأن ثمنه لا يُقدر، لا يستطيع أن يدفعه سوى الابن، الذي بنعمته قدّم حياته كفّارة عنّا لإظهار برّه فينا. لذلك وقف السيد المسيح ينادي: "من يرد فليأخذ ماء الحياة مجّانًا" (رؤ ٢٢: ١٧)، أي ماء نعمته المجّانية.

لقد جاء السيد المسيح "**كفّارة**" عنّا، وهو مبدأ سبق فهيأ له في العهد القديم، فقد هيّأ الله كبشًا لإبراهيم يُصعده مُحرقة عِوضًا عن ابنه (تك ٢٢: ١٣)، أو كفّارة عنه. وقد أمر الله موسي أن يقدّم كل واحد فِدْية نفسه للرب (خر ٣٠: ١١)، أمّا في العهد الجديد فيقول الرسل:

"هو كفّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضًا" (١ يو ٢: ٢).

"هو أحبّنا وأرسل ابنه كفّارة لخطايانا" (١ يو ٤: ١٠).

"الذي لنا فيه الفداء (الكفّارة) بدمه غفران الخطايا" (أف ١: ٧؛ كو ١: ١٤).

"عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى... بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح" (١ بط ١: ١٩).

خامسًا: بقوله: "**ليكون بارًا، ويُبرّر من هو بالإيمان بيسوع المسيح**" **[٢٦]**، يُعلن أن برّه سهل المنال، يُمنح للجميع. لذلك يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** مشجعًا كل مؤمن ليتمتع ببرّ المسيح؛ [لا تتشكّك إذن... ولا تبتعد عن برّ الله لأنه بركة سهلة المنال وممنوحة للجميع بلا استثناء. لا تخجل ولا تخزي، لأنه أن كان الله يُعلن استعداده أن يفعل هذا لك، بل ويفرح بذلك ويعتز، فكيف تغتم أنت

وتخزى وتخفي وجهك خجلاً ممّا يتمجّد به سيدك؟[1]]

هذا هو عمل الله القدوس وشهوة قلبه، أنه كقدوس يودّ أن يقدس الكل، وقادر على ذلك لكن ليس بدون إرادتنا. يقول **القدّيس أغسطينوس:** [الله قدوس ويقدِّس، الله بار ويُبرّر[2].]

سادسًا: ينتهز الرسول هذه الفرصة ليعود فيؤكّد أن برّ المسيح لا يتحقّق بأعمال الناموس بل بالإيمان، قائلاً: "**فأين الافتخار؟ قد انتفى. بأي ناموس؟ أبناموس الأعمال؟ كلاّ، بل بناموس الإيمان**" **[٢٧]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لو كان للناموس فاعلية لظهرت قبل مجيء (الفادي)، أمّا الآن وقد جاء الفادي فإنه لا يطلب غير الإيمان، إذ زالت الحاجة إلى عمل الناموس. ومادام الكل قد سقطوا فقد جاء ليفتديهم بنعمته، وقد جاء الآن لهذا السبب. فلو أنه جاء قبل ذلك ظنوا بأنه من الممكن أن يخلصوا بجهادهم الذاتي وصلاحهم طوعًا للناموس... كأنهم أشبه بإنسان صدر عليه الحكم بالإعدام، وبينما هو مُساق إلى المشنقة صدر العفو الملكي لكنه توقح هذا الإنسان مدعيًا أنه خلّص نفسه بنفسه، أفلا يسخر به الآخرون، قائلين: كان الأولي به أن ينطق بهذا وهو في الطريق إلى المشنقة قبل صدور العفو، أمّا وقد شمله العفو الملكي فلا مجال له للافتخار. هذا هو حال اليهود، إذ خانوا العهد مع أنفسهم، وجاء المسيح يفديهم، نازعًا عنهم سبيل الافتخار. لأن ذاك الذي وصف نفسه أنه معلِّم الأطفال ومهذِّب الأغبياء وله صورة العلم والحق في الناموس، وجد نفسه في حاجة إلى معلّم ومخلِّص، تمامًا كالذين يَدّعي أنه يعلِّمهم، فكيف يفتخر بعد؟[3]]

سابعًا: إن كان الرسول يؤكّد من وقت إلى آخر أنه لا خلاص بأعمال الناموس الحرفيّة كالخِتان والغسالات والتطهيرات، إنما "**بناموس الإيمان**" **[٢٧]** لننعم ببرّ المسيح. فإنه يؤكّد أن للإيمان أيضًا "ناموس"، بمعنى أن للإيمان شريعة أو قانون يلتزم به المؤمن، وليس الإيمان حالة من التشويش أو الاستهتار. فإن كنّا بالإيمان بالمسيح قد تحرّرنا من عبودية حرف الناموس، إنما لنعيش "الحرّية في المسيح"، سالكين بروح لائق بالحياة الإيمانية الخاضعة لقانون الحب أو ناموس السماء أو تدبير الروح الجاد المدقق. لهذا يُعلّق **القدّيس أغسطينوس** على حديث الرسول بولس: "**إذًا نحسب الإنسان يتبرّر بالإيمان بدون أعمال الناموس**" **[٢٨]**، قائلاً: [توجد أعمال تبدو أنها صالحة، لكنها إذ هي خارج الإيمان بالمسيح فهي غير صالحة، لأنها لا تحقّق غاية الأعمال الصالحة، "لأن غاية الناموس

---

[1] In Rom. hom. 7.
[2] City of God 17: 4.
[3] In Rom. hom. 7.

هي المسيح للبرَ لكل من يؤمن" (رو ١٠: ٤). لهذا لا يريدنا الله أن نميز الإيمان عن الأعمال، إنما نعلن الإيمان نفسه بكونه عملاً، إذ الإيمان ذاته عامل بالمحبّة (غل ٥: ٦) [1].]

ثامنًا: إذ أوضح الرسول أن الخلاص يتحقّق خلال الإيمان بالمسيح يسوع دون أعمال الناموس الحرفيّة ليفتح الباب على مصراعيه لجميع الأمم، استصعب اليهود أن يدخل الأمم معهم على قدم المساواة، لذلك تساءل الرسول: "**أم الله لليهود فقط؟ [٢٩]**. وكما يُعلّق **الذهبي الفم:** [كأنما يقول لهم: على أي أساس يبدو لكم تخطئة مبدأ خلاص الجميع؟ ألعلّ الله يحابي؟ وهكذا يوضّح لهم أنهم باحتقارهم الأمم إنما يهينون مجد الله، لأنهم لا يريدونه إله الجميع. فإن كان إله الكل فإنه يعتني بالكل وبالتالي يخلص الكل بذات الطريق، أي طريق الإيمان[2].]

هكذا يجيب الرسول على اعتراضهم مظهرًا أن الله "**هو الذي سيُبرّر الخِتان بالإيمان، والغُرْلة بالإيمان**" **[٣٠]**... أنه يمطر محبّته على الجميع ليُبرّر الكل، وكما يقول **القدّيس إكليمنضس السكندري:** [إنه يمطر نعمته الإلهية على الأبرار والظالمين (مت ٥: ٤٥)[3].]

تاسعًا: أوضح الرسول أنه إذ يُعلن فتح باب الخلاص للجميع لا يستخف بالناموس، وإن كان الناموس بأعماله الحرفية يعجز عن تحقيق الخلاص، إذ يقول: "**أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا، بل نثبت الناموس**" **[٣١]**. إنه يثبت الناموس، لا لكي يلزِم الأمم بأعمال الناموس، وإنما يثبته بتحقيق غايته. أنه هبة الله ليفضح شرّنا، فنكشف حاجتنا للخلاص والمخلص، وقد جاء الإيمان يحقّق هذه الغاية في كمالها.

---

[1] *In Ioan tr 25: 12.*
[2] *In Rom. hom 7.*
[3] *Strom 5: 3.*

اليهودي وبرّ الله

ص ٤–١٠

١. الاتّكال على أبوة إبراهيم ٤–٦.

٢. الاتّكال على استلام الناموس ٧–٨.

٣. الاتّكال على أنهم شعب الله المختار ٩–١٠.

الأصحاحات ٤–١١

التبرير بالإيمان العامل بالمحبّة

سبق فأعلن الرسول أن الأمم بلا عذر لأن الله وهبهم الناموس الطبيعي، فإذا بهم يكسرونه لا عن ضعف فحسب وإنما عن عمد وفي جسارة. فصاروا مقاومين للحق، عاملين ما هو ضد الطبيعة، مفسدين حتى أجسادهم، فرحين ومتهلّلين بالنفوس الساقطة معهم. الآن يبدأ يفنّد أيضًا حجج اليهود ليؤكّد أن البشريّة كلها خاطئة وتستحق عقاب الموت، فصار الكل متساويًا في حاجته إلى من يبرّره. إن كان اليهودي والأممي قد سقط كلاهما تحت الموت، فهل يفتخر أحدهما على الآخر أو يتمايز الواحد عن الثاني لأن الأول لم يتبرّر بناموس موسى والثاني لم يتبرّر بالناموس الطبيعي؟

تركّزت حجج اليهود في ثلاثة أمور هي:

١. اتكالهم على بنوّتهم لإبراهيم أب الآباء.

٢. اتكالهم على تسلمهم الشريعة أو الناموس الموسوي.

٣. اتكالهم على أنهم شعب الله المختار دون سواهم.

وقد فنّد الرسول هذه الحجج ليُعلن أن هذه الأمور جميعها لا تقدر أن تبرّر أحدًا، وإنما في المسيح يسوع يصير جميع المؤمنين، يهودًا ويونانيين، أبناء لإبراهيم لا حسب الجسد، وإنما خلال التمتّع بإيمانه العملي، وينعم الكل لا بالناموس الموسوي في حرفيته، وإنما في التمتع بغايته أي الالتقاء مع المسيّا مركز الناموس وغايته، وأخيرًا يدرك الكل أنهم مختارون في الرب أبناء الآب.

هكذا يخرج الرسول من حواره مع الفكر اليهودي إلى نتيجة هامة، أن البشريّة كلها موضع اهتمام الله وحبّه، حتى وإن اختلفت الوسائل التي قدّمها لهم، وإنها قد سقطت بكاملها عن "البرّ" لكي يجده الكل في المسيح، يجده اليهودي المتنصر كما الأممي بلا تمييز أو محاباة.

الأصحاح الرابع

إبراهيم دُعي في الغُرْلة

في الأصحاحات الثلاثة السابقة أظهر الرسول بولس فساد كل البشريّة، يستوي في ذلك اليهود كما الأمم، وصار الكل في حاجة إلى من يخلص ويبرر، والآن يقدّم الرسول مثلين لرجلين بارّين من رجال العهد القديم، أحدهما إبراهيم بكونه أب الآباء وقد تبرّر خلال إيمانه وهو بعد في الغُرْلة قبل ممارسة أعمال الناموس خاصة الخِتان. والثاني هو داود الذي نال الوعد أن من صُلبه يأتي المسيّا الملك، وهو من أهل الخِتان لكنه يقدّم التطويب لمن يتبرّر لا بأعمال الناموس بل بالإيمان.

ركّز الرسول بالأكثر على شخصية "إبراهيم" لأن اليهود كانوا يشعرون أنهم أحرار لمجرد انتسابهم له بالجسد. هذه العقيدة دفعتهم إلى العجرفة والكبرياء عِوض أن تدفعهم للحياة بفكر إبراهيم وإيمانه والامتثال به في سلوكه، فجاء الرسول يفنّد هذه العقيدة، مظهرًا أن سرّ قوّة إبراهيم تكمن في إيمانه الحيّ الذي عاشه وهو في الغُرْلة، كما عاش وهو في الخِتان، لذا فهو أب لأهل الغُرْلة كما لأهل الخِتان.

١. إبراهيم والإيمان	**١–٨.**
٢. إبراهيم أب جميع المؤمنين	**٩–١٦.**
٣. إيمان إبراهيم وإيماننا	**١٧–٢٥.**

١. إبراهيم والإيمان

إذ كان الرسول يُعلن عجز أعمال الناموس عن تقديم برّ الله، ليفتح الباب للبشرية كلها فتنعم بهذا البرّ خلال الإيمان، انتقل إلى الحديث عن إبراهيم بكونه أول من نال عهد الخِتان ليوضّح أن إبراهيم أيضًا لم يتبرّر بالخِتان (أعمال الناموس) وإنما بالإيمان، إذ يقول: "**فماذا نقول أن أبّانا إبراهيم قد وُجد حسب الجسد، لأنه إن كان إبراهيم قد تبرّر بالأعمال فله فخر، ولكن ليس لدي الله**" **[١–٢].**

ويلاحظ في حديث الرسول عن إبراهيم وارتباطه بالإيمان الآتي:

أولاً: "**فماذا نقول: أن أبّانا إبراهيم قد وُجد حسب الجسد؟**" **[١].** كأن الرسول بولس يحدد العلاقة التي تربطهم بإبراهيم كأب إنما هي "**حسب الجسد**"، الأمر الذي يُضعف صلتهم به ماداموا لا ينعمون بأبوته خلال إيمانه، وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم: [**أنه بهذا يفسح المجال أمام الأمميّين

ليدخلوا هم أيضًا في قرابة مع إبراهيم خلال الامتثال بإيمانه[1].]

ثانيًا: لماذا اختار الرسول بولس إبراهيم مع أنه قد سبقه هابيل الذي قيل عنه "**أنه بار**" (عب ١١: ٤)، ونوح الذي قيل أنه كان "**رجلاً بارًا كاملاً في أجياله**" (تك ٦: ٩)؟

يردّ على ذلك أن الرسول اختار إبراهيم لعدة أسباب رئيسية منها:

أ. أن اليهود كانوا يفخرون بنسبهم لإبراهيم كأب للمؤمنين، فحينما حدّثهم السيد المسيح عن الحرّية، "أجابوه: أننا ذُرّية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول أنت أنكم تصيرون أحرارًا؟" (يو ٨: ٣٣). فقد أراد الرسول أن يفنّد هذه الحُجّة.

ب. لم يُدعَ هابيل ولا نوح أبًا للمؤمنين، أمّا إبراهيم فقد جاء عنه: "لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم" (تك ١٧: ٤).

ج. لأن إبراهيم يعتبر حلقة الوصل بين أهل الغُرْلة وأهل الخِتان، عاش متبررًا بالإيمان وهو في الغُرْلة، وإذ نال الوعد الإلهي وتمتع بالخِتان كعلاقة للعهد عاش أيضًا متبررًا بالإيمان وهو في الخِتان. بهذا ضمّ المؤمنين من أهل الغُرْلة وأهل الخِتان في شخصه، خلال الإيمان.

ثالثًا: لا ينكر الرسول بولس أن لإبراهيم أن يفتخر من جهة الأعمال، لكن ليس لدي الله، لأن ما مارسه من أعمال الناموس كالخِتان لا فضل له فيه إنما هو عطيّة الله له خلال العهد الذي أقامه الله معه، وله أيضًا أن يفتخر من جهة الإيمان، بهذا له أن يفتخر لا متعاليًا على الله، وإنما يفتخر أنه ارتمى في حضن الله، ليغتصب بالإيمان مواعيد الله وعهوده، ويحسب بارًا في عينيه. يقول الرسول: "**لأنه أن كان إبراهيم قد تبرّر بالأعمال فله فخر، ولكن ليس لدى الله، لأنه ماذا يقول الكتاب: فآمن إبراهيم بالله فحُسب له برًا**" **[٣-٢]**.

إن قورن إبراهيم بمعاصريه من البشر فله فخر بأعماله أمام البشر، سواء بكونه أول من اُختتن كعلامة عهد بينه وبين الله أو أعظم معاصريه في الأعمال الصالحة. أمّا أمام الله ففخره الحقيقي أنه اغتصب برّ الله بإيمانه الحيّ العملي، المُعلن خلال طاعته له سواء بالعبادة له وسط جوّ وثني أو بالخروج من أرضه وعشيرته وبيت أبيه (تك ١٢)، أو عدم محبته للنصيب الأكبر في معاملته مع لوط ابن أخيه (تك ١٣)، أو حُبّه لإضافة الغرباء (تك ١٨)، أو شفاعته عن إخوته في البشريّة (تك ١٨)، أو تقديم ابنه ذبيحة (تك ٢٨) الخ. هذه التصرفات جميعها وغيرها إنما كانت نابعة عن إيمانه

[1] *In Rom. hom 8.*

بالله وملتحمة به، فجاءت تمجد الله.

بمعنى آخر لم يكن لإبراهيم أن يفتخر بأعمال الناموس في ذاتها، إنما بإيمانه الحيّ العملي الذي به حُسب بارًا في عيني الله فاحص القلوب.

بهذا نوفّق بين ما يقوله الرسول بولس هنا وبين ما ورد في رسالة معلمنا يعقوب الرسول: "ألم يتبرّر إبراهيم أبونا بالأعمال، إذ قدّم اسحق ابنه على المذبح؟ فترى أن الإيمان عمل من أعماله، وبالأعمال أكمل الإيمان، وتمّ الكتاب القائل: "آمن إبراهيم بالله فحسب له برًا، ودعي خليل الله" (يع ٢: ٢١-٢٣).

يُعلن الرسول بولس أن إبراهيم لم يتبرّر أمام الله خلال أعمال الناموس، كالخِتان والتطهيرات والغسالات، إنما تبرّر خلال الإيمان الحيُ، ومعلمنا يعقوب يُعلن أن إبراهيم لم يتبرّر خلال إيمان شفهي نظري جامد إنما خلال الإيمان المترجِم عمليًا كذبيحة اسحق، وكأن الأعمال التي يذكرها القدّيس يعقوب إنما هي أعمال الإيمان وليست خارج الإيمان! يحذّر الرسول بولس من الاتّكال على حرفيّة أعمال الناموس ويحذّر الرسول يعقوب من الاتّكال على الإيمان الخالي من الأعمال، أو الإيمان النظري غير الحيُ، هذه الأعمال التي يسألنا الرسول بولس أن نمارسها بالمسيح يسوع ربنا، إذ يقول: "لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحةٍ قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها" (أف ٢: ١٠).

رابعًا: آمن أبونا إبراهيم وأيضًا مارس أعمال الناموس، إذ قبِل الخِتان في جسده كما خَتن ذكور بيته، لكن شتّان بين الإيمان وأعمال الناموس، إذ يقول الرسول: "**أما الذي يعمل فلا تُحسب له أجرة على سبيل نعمة بل على سبيل دين**" **[٤]**.

أيهما أعظم: الأجرة التي ينالها الإنسان مقابل أعمال الناموس، أم النعمة التي ينالها مقابل الإيمان؟ بلا شك البرّ أعظم من الأجرة، لأن البرّ يعني عفو الله عن آثامنًا، ليهبنا برّه عاملاً فينا فننال مجدًا أبديًا. وقد اقتبس الرسول من المرتّل داود العبارة: "طوبى لمن غفرت آثامهم" **[٧]**. وكما **يقول القدّيس الذهبي الفم:** [لا يقدّم بولس هذه العبارة (رو ٤: ٧) اعتباطًا، لكنه يودّ القول بأن من غُفرت آثامه بالنعمة نال التطويب، فمن آمن وتبرّر يتأهل بالأكثر للبركة، التي خلالها يُنزع الخزي ليحل المجد[1].]

القول النبوي "**طوبى لمن غُفرت آثامهم**" يكشف عن بهجة قلب المرتّل بنوال برّ مجّاني لا أجرة

[1] *In Rom. hom 8.*

عن عمل ناموسي، هذا البرّ هي عطيّة إلهية يهبها الله لمؤمنيه. يقول **القدّيس إكليمنضس السكندري:** [هذه الطوباوية تحلّ على الذين اختارهم الله خلال يسوع المسيح ربنا، لأن "المحبّة تستر كثرة من الخطايا" (١ بط ٤: ٨). هؤلاء قد اغتسلوا بواسطة ذاك الذي يريد توبة الخاطي لا موته (حز ٣٣: ١١)[1].]

خامسًا: ما هو هذا الإيمان الذي يبرّرنا؟

❖ ماذا يعني نؤمن به؟ الإيمان به يعني حبنا له، وتقديرنا لسموه، والذهاب إليه، والإتحاد بأعضائه.

❖ الإيمان بالمسيح هو أن نؤمن به أنه يُبرّر الخاطي؛ نؤمن بالشفيع الذي بدون وساطته لا يمكن أن نتصالح مع الله؛ نؤمن بالمخلص الذي جاء يطلب ويخلِّص ما قد هلك (لو ١٩: ١٠)؛ نؤمن بذاك القائل: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥).

❖ إيماننا نفسه بالمسيح هو عمل المسيح، إذ هو يعمل فينا، بالتأكيد ليس بدوننا. اسمع الآن وافهم: "من يؤمن بي فالأعمال التي أعملها أنا يعملها هو". يقول: الأعمال التي أفعلها أنا أولاً، ثم يفعلها هو بعد ذلك، فأنا أفعلها لكي يفعلونها هم أيضًا. ما هي هذه الأعمال إلا إقامة الإنسان البارّ من الشرّير؟

❖ تتبرّر النفس بارتفاعها نحو الله، والتصاقها بذاك الذي يبرّرها... فإنها إذ تتركه تصير شريرة، وإذ تعود إليه تتبرّر. ألا يظهر لك أنه متي وُجد شيء ما بارد واقترب من النار يصير دافئًا؟ وعندما يُنزع من النار يبرد! لو أن شيئًا ما كان مظلمًا واقترب من النور، أمَا يصير بهيًا؟ وإن نُزع عن النور يصير مظلمًا؟ هكذا هي النفس، أمّا الله فليس هكذا![2]

القدّيس أغسطينوس

سادسًا: ماذا يعني الرسول بقوله: "**وأما الذي لا يعمل، ولكن يؤمن بالذي يُبرّر الفاجر، فإيمانه يُحسب له برًا**" **[٥]؟** هل يحثّنا الرسول على تجاهل الأعمال لنتبرّر بالإيمان وحده؟

نجيب على ذلك بأن الرسول كان يُحدّث اليهود الذين تشامخوا على الأمم بأعمال الناموس بطريقة حرفيّة قاتلة، فإن هذه لا تبرّر الإنسان، إنما لو حُفظت بطريقة روحية، تدفعهم لإدراك الخلاص والتبرير بالمسيّا، الذي كانوا يتظرونه. هذا من جانب ومن جانب آخر، فإننا كمسيحيّين لا نتبرّر

---

[1] *Strom 2: 15.*
[2] *In Ioan. Tr. 29: 6; 53: 10; 72: 2; 19: 11.*

بأعمالنا الصالحة كأعمال من عندياتنا، وإلا حسبت "برًا ذاتيًا" تعطل خلاصنا، إنما نمارسها بكونها ثمرة عمل الله فينا، وكما يقول الرسول بولس: "لأن الله هو العامل فيكم" (في ٢: ١٣)، "نحن عاملان مع الله" (١ كو ٣ : ٩). لهذا يؤكّد الرسول يعقوب "لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت هكذا الإيمان أيضًا بدون أعمال ميت" (يع ٢: ٢٦).

٢. إبراهيم أب لجميع المؤمنين

إذ قارن الرسول بين أعمال الناموس والإيمان في حياة أبينا إبراهيم ليُعلن سموّ الإيمان، الذي به يتبرّر، دون تجاهل لأعمال الناموس التي مارسها إبراهيم وإن كانت عاجزة عن التبرير، الآن يؤكّد الربط بين الإيمان وأعمال الناموس في حياة هذا الأب دون تعارض، قائلاً: "**أخذ علامة الخِتان ختمًا لبرّ الإيمان الذي كان في الغُرْلة**" **[٨]**. فالخِتان هو علامة جسديّة جاءت لا معارضة للإيمان، بل خاتمة على إيمانه ومؤكدة له، حتى كل من يحملها إنما يلزم أن يلتزم أيضًا بالإيمان. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن العلامة جاءت لاحقة للإيمان، إذ آمن إبراهيم حين كان أولاً في الغُرْلة، وبقيَ مؤمنًا أيضًا وهو في الخِتان، بهذا أعلن أبوته لأهل الغُرْلة أن يقبلوا الامتثال به في إيمانه، وأيضًا لأهل الخِتان أن يفعلوا ذات الأمر.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة الرسولية مظهرًا أن اليهود لم يأتوا إلا كضيوف لاحقين لأهل الغُرْلة، وأنهم أضيفوا إليهم، أي جاءوا إلى بيت الإيمان مُضافين إلى إبراهيم الذي قبِل الإيمان وهو في الغُرْلة قبل الخِتان، قائلاً: [لأنه إن كان إبراهيم قد تبرّر وكلِّل وهو بعد في الغُرْلة، فقد جاء اليهود بعد ذلك. إذًا إبراهيم هو أب الأمميّين أولاً الذين ينتسبون إليه بالإيمان، كما أنه أب اليهود ثانيًا، أي أب الجنسين... لهذا يستكمل بولس حديثه، قائلاً: "**ليكون أبًا لجميع الذين يؤمنون وهم في الغُرْلة، كي يحسب لهم البرّ أيضًا وأبًا للختان**" **[١٢-١١]**. هذا وينتسب الأمميّون لإبراهيم لا بسبب غرلتهم، وإنما لإقتدائهم بإيمانه، كذلك اليهود لا ينتفعون ببنوّتهم له لا لكونهم مختونين، وإنما لأنهم لم يؤمنوا... إذن لك الحق في أبوة إبراهيم إن سرْت في خطوات ذلك الإيمان، دون تنازع ولا مشايعة لمناصرتك للناموس[1].]

هذا ويرى **الذهبي الفم** أن الخِتان مجرّد علامة حملها إبراهيم من أجل ضعف اليهود، إذ يقول الرسول "**ليكون أبًا للختان**"، لا بمعنى أن يحملوا العلامة جسديًا فيصيرون أبناء له، وإنما يحملون ما وراء العلامة ألا وهو إيمانه. لأن هذه العلامة ليست إلاّ ختمًا للإيمان. فإن لم يسعَ اليهود إلى الإيمان

[1] *In Rom. hom 8.*

مكتفين بالعلامة التي للجسد، تصير هذه نفاية لا ضرورة لها. هكذا أيضًا لا يليق بهم إذ نالوا الخِتان أن يحتقروا أهل الغُرْلة، بل أن يكونوا سندًا لهم، ليكون الكل معًا في ذات الإيمان الواحد.

لقد ظنّ اليهود أنهم ورثة إبراهيم في نواله المواعيد الإلهية لمجرد تمتعهم بهذه العلامة، أي ممارستهم لأعمال الناموس، متجاهلين التزامهم بالاقتفاء بأبيهم في إيمانه، لهذا يقول الرسول: "**لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة، فقد تعطّل الإيمان وبطل الوعد**" **[١٤]**. بمعنى آخر إن تمسك اليهود بأعمال الناموس كعلامة لميراثهم ما لإبراهيم، مكتفين بهذه الأعمال عند حرفيتها يسلبون الإيمان عمله، ويفقدون نوالهم الوعد الإلهي الذي أُعطيَ لإبراهيم، أن بنسله تتبارك الأمم. على العكس إن كان أهل الغُرْلة لم يمارسوا أعمال الناموس في حرفيتها، لكنهم بالإيمان صاروا ورثة إبراهيم وحُسبوا أصحاب الوعد كأبناء له.

الاتّكال على أعمال الناموس ليس فقط يفقد الإنسان عمل الإيمان الذي لإبراهيم، ويحرمه التمتّع بالوعد الإلهي، وإنما يدخل به إلى غضب الله، لأنه وهو يمارس الأعمال الظاهرة كالخِتان والغسالات يكسر شرائعه السلوكية، كالوصايا العشر، ولو وصية واحدة فيُحسب متعديًا. لذلك يقول الرسول: "**لأن الناموس ينشئ غضبًا، إذ حيث ليس ناموس ليس تعدٍ**" **[١٥]**. فبدون الناموس يخطئ الإنسان، لكن الغضب ينشأ بالأكثر حيث يوجد الناموس، كاشفًا للخطايا التي يرتكبها الإنسان متعديًا الوصيّة، وكما قيل: "ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به" (غل ٣: ١٠).

يقدّم لنا **القدّيس أغسطينوس** تفسيرا لهذه العبارة، قائلاً: [قبل الناموس كان يمكن أن يدعى الإنسان خاطئًا ولم يكن ممكنًا أن يُدعي متعديًا. أمّا وقد أخطأ بعد استلامه الناموس فلم يعد خاطئا فحسب وإنما متعديًا أيضًا. وهكذا أضيف "التعدي" إلى "الخطيّة" فكثرت الخطيّة جدًا[1].]

إن كان اليهود بفهمهم الحرفي لأعمال الناموس فقدوا تمتعهم بالوعد ودخلوا إلى الغضب، لا كخطاة فحسب وإنما كمتعدين، فإنه من الجانب الآخر الإيمان يفتح لهم كما لأهل الغُرْلة التمتّع بالبنوة لإبراهيم المؤمن.

"لهذا هو من الإيمان كي يكون على سبيل النعمة،
ليكون الوعد وطيدًا لجميع النسل،
ليس هو من الناموس فقط،
بل أيضًا لمن هو من إيمان إبراهيم الذي هو أب لجميعنا" [١٦].

[1] *Ser. on N.T. lessons 75: 2.*

وكما يقول **الذهبي الفم** أنه بدون الإيمان لا يخلص أحد، لأن الناموس بالنسبة لأهل الخِتان لا يبرّرهم بل ينشئ غضبًا، إذ سقط الكل تحت التعدي، لذا جاء الإيمان يرفعهم من الخطر وليس كالناموس. كما يرفع أيضًا أهل الغُرْلة، فيحسب الكل أبناءً لإبراهيم. "**كما هو مكتوب إني قد جعلتك أبًا لأمم كثيرة**" **[١٧]**. فكما أن الله هو إله الجميع وليس خاصًا بأمّة معيّنة، هكذا بالإيمان حُسب إبراهيم أبًا للجميع حسب الوعد المُعطي له (تك ١٧: ٥).

٣. إيمان إبراهيم وإيماننا

إن كان الإيمان قد فتح الباب على مصراعيه ليدخل كل الأمم إلى النسب لإبراهيم كأبناء له، فما هي مادة هذا الإيمان؟

"**كما هو مكتوب إني قد جعلتك أبًا لأمم كثيرة،**

أمام الله الذي آمن به،

الذي يحي الموتى،

ويدعو الأشياء الغير موجودة كأنها موجودة" **[١٧]**.

اقتبس الرسول هذا الوعد: "**قد جعلتك أبًا لأمم كثيرة**" (تك ١٧: ٥ الترجمة السبعينية)؛ هذا لا يتحقّق حسب الطبيعة، إذ هو ليس أبًا للأمم حسب الجسد، إنما حسب الإيمان.

مادة إيمانه هي أن الله "**يحيي الموتى، ويدعوا الأشياء الغير موجودة كأنها موجودة**". من هم الموتى الذين يُحييهم؟ أو ما هي الأشياء الغير موجودة التي يدعوها كأنها موجودة؟

أولاً: مستودع سارة أو أحشاؤها أشبه بالميّت الذي لا يحمل حياة، وقد وهبه الله اسحق حيًا خلال هذه الأحشاء الميّتة، وكما يقول الرسول نفسه: "**وإذ لم يكن ضعيفًا في الإيمان لم يعتبره جسده، وهو قد صار مماتًا، إذ كان ابن نحو مائة سنة ولا مماتيّة مستودع سارة**" **[١٩]**. ما ناله إبراهيم من وعد كان "على خلاف الرجاء"، إذ لم ينظر قط إنسانًا قبله نال ابنًا بهذه الطريقة، وإنما صار هو مثلاً لمن جاء بعده. هو ترجّى الله الذي يُقيم من الموت ويهب حياة، فآمن بالله أنه يعطيه نسلاً كما من العدم، فاتحًا باب الرجاء لمن جاء بعده ممن أنجبوا في شيخوختهم خلال زوجات عاقرات.

ثانيًا: آمن إبراهيم بتمتعه بالأبوة، ليس فقط لإسحق الذي وهبه الله إيّاه في فترة شيخوخته، وخلال مستودع سارة الذي كان في حكم الموت، وإنما أيضًا لأمم كثيرة، هي بحسب الطبيعة ميّتة لا تحمل بنوّة لإبراهيم حسب الجسد، لكن الله يُقيمها من هذا الموت ويقدّمها لإبراهيم أبناء له.

هذا ما أوضحه الرسول بقوله: "**فهو على خلاف الرجاء آمن على الرجاء، لكي يصير أبًا لأمم كثيرة، كما قيل هكذا يكون نسلك**" **[١٨]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أنه كان على خلاف رجاء البشر في رجاء من جهة الله آمن بالوعد ونال. فكان الإيمان هو سنده، لم يعطِه الله برهانًا، ولا علامة، إنما مجرّد كلمات وعد ومع هذا لم يتردّد، ولا شك مرتابًا مع أن العائق كان عظيما: "**ولا بعدم إيمان ارتاب في وعد الله، بل تقوّى بالإيمان معطيًا مجدًا لله**" **[٢٠]**.

بمعنى آخر ليتنا نتعلم أن الله يتمّم مواعيده معنا مهما كانت العوائق أو المعطّلات، إذ "**تيقّن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضًا، لذلك أيضًا حُسب له برًا**" **[٢١-٢٢]**.

نال إبراهيم الوعد، كما قلت، لا بميلاد اسحق كما من العدم، وإنما بأبوّته لأمم كثيرة، لا خلال الجسد وإنما خلال الإيمان. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن هذه الأمم أيضًا تُحسب تحت حكم الموت وعدم الوجود بسبب وثنيّتها، إذ تقبل الإيمان تنال قيامة من الأموات، يصيّرونها شعب الله الحيّ وكنيسة العهد الجديد المقدّسة، لذلك قيل: "**أرحم لورحامة (ليست مرحومة) وأقول للوعمى ليست شعبي أنت شعبي**" (هو ٢: ٢٣).

ثالثًا: إن كانت الخطيّة قد أفقدت الإنسان حياته وجعلته كمن هو غير موجود، فبالإيمان ينعم الإنسان ببرّ المسيح كمن قد أقيم من الموت، أو صار موجودًا بعد فقدانه، كقول الأب عن ابنه الراجع إليه: "لأن أخاك هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضالا فوُجد" (لو ١٥: ٣٢). لذلك يقدّم لنا **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** في تعليقه على هذا الأصحاح سلاحًا روحيًا نلتزم باستخدامه، هو الإيمان باسم ربنا يسوع المسيح وقوة الصليب، قائلاً:

[هذا السلاح لا يُخرج الحيّة من جحرها فحسب، وإنما أيضًا يلقيها في النار (أع ٢٨: ٥) وتُشفي الجراحات.

إن نطق أحد بهذا الاسم ولم يُشف، فبسبب عدم إيمانه وليس عن ضعف في القول ذاته. لأن البعض التفوا حول يسوع وكانوا يضغطون عليه (لو ٨: ٤٤-٤٥) ولم ينتفعوا منه، أمّا المرأة نازفة الدم فحتى بدون لمس جسده، وإنما بمجرد لمس هُدب ثوبه أوقفت ينبوع دمها الذي طال أمده.

هذا الاسم مخيف للشياطين وللسموم والأمراض. ليتنا نجد فيه سرورًا فنتقوّى به...

أي عذر لنا أن نقدّمه، إن كان ظل (الرسل) وثيابهم أقاموا موتى (أع ٥: ١٥)، بينما صلواتنا لا تنزع عنّا الشهوات؟ ما هو علّة هذا؟... فإن طبيعة بولس هي كطبيعتنا، وُلد ونشأ مثلنا، سكن على الأرض واستنشق هواءها مثلنا، لكنه من جانب آخر كان أعظم وأفضل منّا من جهة الغيرة والإيمان

والحب. إذن لنقتد به، ولنسمح للمسيح أن يتكلّم خلالنا، فإنه يرغب في هذا أكثر منّا. لقد أعدّ هذا التعليم ويريد ألا يكون ذلك بلا نفع أو معطلاً إنما يودّ أن يستخدمنا...

إن تحدّث المسيح فينا وأشرق الروح القدس بنوره فينا نكون أفضل من السماء، إذ لا تظهر الشمس والقمر في جسدنا بل يظهر رب الشمس والقمر والملائكة ساكنًا فينا وعاملاً.

لست أنطق بهذا لكي نقيم الموتى ونطهر البرص، إنما لنحقق معجزة أعظم من هذا كله هو إعلان المحبّة. لأنه حيث توجد هذه الممجدة يسكن الابن مع الآب والروح القدس... فقد قيل: "**إن اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون أنا في وسطهم**" (مت ١٨: ٢٠). يتحقّق هذا من أجل الحنو الشديد ورباط الصداقات القوية، أي من أجل من لهم حب بعضهم لبعض....]

إذن ليكن لنا كإبراهيم أبينا الإيمان بالوعد الإلهي، فننال لا القدرة على عمل المعجزات، إنما ما هو أعظم ننال "الحب" الحقيقي في الرب، فننعم بسكنى الثالوث القدوس فينا كسُر حياتنا وفرحنا ومجدنا أبديًا. هذه هي القيامة الأولى التي لنفوسنا!

ويُعلّق **القدّيس أغسطينوس** على العبارة "**يدعو الأشياء الغير موجودة كأنها موجودة**"، قائلاً: [لقد كنتَ غير موجود فخلقكَ الله ووهبك الوجود، أفلا يهتم بك الآن وقد صرت أنت هكذا، هذا الذي يدعو الأشياء غير موجودة كأنها موجودة؟[1]]

أخيرًا، أكد الرسول بولس أن ما كُتب عن إبراهيم من جهة إيمانه بالقيامة من الأموات، إذ آمن بالله الذي يهبه إسحق من مستودع سارة المُمات، وآمن أن يقيمه أبًا على شعوب ليست من نسله حسب الجسد، كما آمن أن الله يهب البرّ كحياة لمن مات بالخطيّة. فإن هذا كله قد كُتب من أجلنا من جهة إيماننا بالمسيح الذي يقيمنا من الموت، ويهبنا برّه كحياة جديدة مقامة نمارسها عمليًا، إذ يقول: "**ولكن لم يُكتب من أجله وحده أنه حُسب له، بل من أجلنا نحن أيضًا الذين سيحسب لنا، الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات، الذي أُسلم من أجل خطايانا، وأُقيم لأجل تبريرنا**" **[٢٥-٢٤]**.

هنا يبرز النقاط التالية:

أ. غاية الحديث الإلهي عن إيمان إبراهيم هو إعلان طريق البرّ الحقيقي خلال الإيمان. فقد تبرّر إبراهيم بالإيمان لكي نتبرّر نحن أيضًا معه كأبناء له نحمل ذات إيمانه. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**، لئلاّ يقول المستمع، ما لنا نحن بهذا؟ لذلك ربطنا نحن بأبينا إبراهيم، فنتبرّر مثله، لأننا

[1] *Sermons On N.T. 19: 3.*

نؤمن بنفس الإله الذي آمن به إبراهيم، ونثق في ذات الأمور التي وثق فيها، فما حدث لإبراهيم ليس خاصًا به وحده، وإنما يحدث مع الكل.

ب. إن كان إبراهيم قد نال وعدًا بخصوص نسله، يتحقّق هذا الوعد فينا بصلب السيد المسيح وقيامته الذي هو من نسل إبراهيم حسب الجسد. إبراهيم آمن بنيل بركة مستقبلة خلال نسله، إذ يقول السيد: "**أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي فرأى وفرح**" (يو ٨: ٥٦)، أمّا نحن فقد تمتّعنا بهذا الوعد بصلب السيد المسيح وقيامته.

يقول **العلامة ترتليان:** [ها أنتم ترون حكمة الله كيف ذبحَت ذبحها (أم ٩: ٢)، البكر الابن الوحيد يحيا ويردّ الآخرين للحياة. أقول أن حكمة الله هو المسيح الذي بذل ذاته لأجل خطايانا[1].]

ج. إذ يحدّثنا الرسول بولس عن إيمان إبراهيم، يقدّم لنا ملخصًا لإيماننا، غالبًا ما كان نصًا كنسيًا تسلّمه الرسل وسلّموه، ألا وهو: "**أُسلم من أجل خطايانا، وأُقيم لأجل تبريرنا**" **[٢٥]**.

لقد أسلم للصليب بإرادة الآب (رو ٨: ٣٢؛ غل ١: ٣) كما بإرادته هو (غل ٢: ٢٠؛ أف ٥: ٢؛ تي ٢: ١٤) ليكفِّر عن خطايانا (٣: ٢٥؛ إش ٥٣: ٥-٦؛ عب ٩: ٢٨؛ ١ بط ٢: ٢١-٢٤)؛ وأُقيم ليهبنا برّه عاملاً فينا، إذ نحمل الحياة الجديدة المُقامة.

[1] *Scorpiace 7.*

الأصحاح الخامس

بنوّتنا لآدم الواحد

إذ يعالج الرسول بولس موضوع انتساب اليهود لأبينا إبراهيم حسب الجسد أبرز أن إبراهيم قد تبرّر وهو في الغُرْلة كما وهو في الخِتان خلال إيمانه، ليحمل أبوة صادقة روحية لكل مؤمنٍ حقيقيٍ. والآن يودّ الرسول بطريقة غير جارحة أن يظهر رجل الإيمان الأعظم إبراهيم، أنه ابن آدم، أحد هؤلاء الذين سقطوا تحت مملكة الموت بسبب عصيان آدم، فكان محتاجًا إلى من يبرّره. بمعنى آخر خلال الظلام والرموز تبرّر إبراهيم نفسه ببرّ المسيح، إذ بدون إيمان لم يكن ممكنًا أن يتبرّر، وكما قال **القدّيس جيروم:** [قبل مجيء المسيح كان إبراهيم في المواضع السفلية بينما بعد مجيئه صار اللص في الفردوس[1].]

كأن الرسول يودّ أن يوجّه أنظار الكل، اليهود والأمم، إلى برّ المسيح الذي اشتهاه إبراهيم نفسه (يو ٨: ٥٦) عِوض الافتخار بالانتساب لإبراهيم حسب الجسد.

بدأ الأصحاح بالكشف عن ثمر برّ المسيح، ليحدّثنا عن حالنا كأبناء لآدم، من بيننا إبراهيم نفسه، ثم عن حالنا خلال آدم الثاني أو الجديد.

١. ثمار برّ المسيح	**١-١١.**
٢. آدم وبنوه تحت الموت	**١٢-١٤.**
٣. آدم الثاني والنعمة	**١٥-٢١.**

١. ثمار برّ المسيح

كعادة الرسول بولس قبل أن يبرز الجانب السلبي وهو خضوع آدم وبنيه تحت حكم الموت بسبب العصيان، بما فيهم رجل الإيمان إبراهيم، أبرز في إيجابيّة ثمار برّ المسيح التي يتمتّع بها كل أبناء إبراهيم الروحيين، والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ. التمتّع بالسلام مع الله	[١].
ب. نعمة حاضرة ورجاء لمجد أبدي	[٢].
ج. ارتفاع فوق الضيقات	[٣-٤].

[1] *Ep. 60: 3.*

د. عطيّة الروح القدس واهب الحب [٥].

هـ. اختبار محبّة الله بالصليب [٦-١١].

ويلاحظ في هذه الثمار الفائقة الآتي:

أ. ننعم بلقاء الثالوث القدوس، ونختبر حُبّه وعمله فينا: (سلام مع الله الآب، انسكاب الحب بالروح القدس الساكن فينا، اختبار للحب الإلهي بصليب ربنا يسوع المسيح).

ب. ثمار على مستوي أبدي، إذ ننعم بمصالحة أبدية ومجد أبدي. لكنّنا ننال العربون حاضرًا الآن في حياتنا: "**هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون**" **[٢]**.

الآن في أكثر تفصيل نتحدث عن هذه الثمار:

أولاً: التمتّع بالسلام مع الله

"**فإذا قد تبرّرنا بالإيمان، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح**" **[١]**.

يبدو لي أن "**السلام مع الله**" هنا يحمل معنى غير السلام من الله (رو ١: ٧) أو "سلام الله الذي يفوق كل عقل" (في ٤: ٧)، فإن السلام الإلهي الذي ننعم به إنما هو "سلامنا الداخلي" الذي يهبه الله كعطيّة روحية، يعطي للإنسان انسجامًا في الغاية والسلوك، فيعمل الإنسان بنفسه كما بجسده بسلام الله لحساب الملكوت، كما يهبه سلامًا مع الآخرين مشتاقًا أن يبذل كل حياته لحسابهم في المسيح يسوع؛ أمّا "**السلام مع الله**" فيعني تغيير شامل لمركزنا من حالة العداوة التي كنّا فيها إلى حالة بنوّة وحب وصداقة. أو تعني انطلاقنا من حالة الانحدار التي بلغناها بسبب خطايانا وعصياننا، لندخل خلال الدم إلى حالة مصالحة مع الآب، فنُحسب بالمسيح يسوع الابن الوحيد أبناء له، موضع سروره ورضاه. هذا هو أول ثمر "**برّ المسيح**"، إننا نختفي فيه لنُحسب أبرارًا فيه، ومصالحين، نحيا كأبناء في سلام حقيقي مع الآب. بذات الفكر يقول معلمنا بطرس الرسول: "فإن المسيح أيضًا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا، البارّ من أجل الأثمة، لكي يقرّبنا إلى الله" (١ بط ٣: ١٨).

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [ماذا يعني "لنا سلام"؟ يقول البعض: ألا نكون على خلاف بارتكاب معاصي ضد الناموس، أمّا بالنسبة لي، فأظن أن ما جاء هنا يخص مناقشتنا، لأنه بعدما تحدّث كثيرًا عن موضوع الإيمان، وقد وضعه قبل البرّ بالأعمال، فلئلا يظن أحد أن ما قاله يُحسب أساسًا للتهاون، لذلك قال: "**ليكن لنا سلام**"، بمعنى "ليتنا لا نخطيء بعد"، "ليتنا لا نعود مرة أخري إلى حالنا القديم"، إذ يسبّب هذا حربًا مع الله. كيف يمكن تحقيق هذا؟ إن كنّا ونحن نحتمل خطايا كثيرة هكذا نتحرر منها جميعًا بالمسيح، فإننا بالأكثر نستطيع أن نبقى على هذا الحال بالمسيح. فإن

ثمة فارق بين تقبلنا السلام حيث لم يكن موجودًا، وبين احتفاظنا به حين يكون لدينا، لأن نواله أصعب من الاحتفاظ به بالتأكيد، ومع هذا فإن ما هو أصعب صار ميسورًا وتحقق. لذلك يلزمنا أن نسعى وراء ما هو أسهل بالتصاقنا بالمسيح الذي وهبنا ما هو أصعب... إن كان قد صالحنا في الوقت الذي كنّا فيه في حرب مع الله، فمن المعقول أن نبقى في حالة المصالحة[1]...]

بمعنى آخر نحن الذين كنّا في حالة عداوة مع الآب صرنا في سلام معه بربنا يسوع، فكم بالأكثر وقد تصالحنا معه أن نبقى هكذا، لكن ليس بجهادنا الذاتي وإنما بربنا يسوع نفسه. لنبقى في "سلام" كعطيّة إلهية، وفي نفس الوقت دخول في علاقة قربى معه! يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إن كان قد أحضرنا إليه لنكون قريبين منه عندما كنّا بعيدين، كم بالأكثر يحفظنا الآن ونحن قريبون[2]؟]

ثانيًا: نعمة حاضرة ورجاء لمجد أبدي

"الذي به أيضًا قد صار لنا الدخول بالإيمان
إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون،
ونفتخر على رجاء مجد الله" [٢].

لم يعد الزمن يمثل رعبًا بالنسبة لنا، فالماضي بالنسبة للكثيرين مفقود والحاضر مؤلم والمستقبل مجهول، أمّا وقد دخلنا بالإيمان إلى "برّ المسيح"، صار الماضي بركة لنا، إذ نرى أحداث الفداء التي عبرت كتاريخٍ لا تزال حيّة وفعّالة في أعماقنا وتصرّفاتنا، وصار الحاضر بالنسبة لنا مفرحًا إذ نسلك "بالنعمة الإلهية" متمتّعين بالسلام مع الله، أمّا المستقبل فمكشوف إذ نعيش على "**رجاء مجد الله**". هكذا لم يعد الزمن بالنسبة لنا مرعبًا ولا مفقودًا، الماضي حاضر بالنسبة لنا، والحاضر عربون المستقبل، والمستقبل حال خلال عربون الحاضر.

الإيمان بالمصلوب فتح لنا بالـ "**النعمة التي نحن فيها مقيمون**"، نعمة البنوّة التي نلناها في مياه المعموديّة بالروح (يو ٣: ٥)، خلالها نختبر أحداث الصلب والقيامة كحياة واقعية حاضرة ونعتزّ بالتمتّع بمجد الله الأبدي، بكوننا "ورثة الله، ووارثون مع المسيح" (رو ٨: ١٧).

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة الرسولية (رو ٥: ٢)، قائلاً:

[اسمحوا لي أن أسألكم أن تتأمّلوا كيف يؤكّد الرسول في كل موضع نقطتين: جانب الله وجانبنا، فمن جانب الله، كيفما كان، توجد أمور كثيرة، عديدة ومتنوّعة، إذ مات من أجلنا وصالحنا وجبَلنا إليه

[1] *In Rom. hom 9.*
[2] *In Rom. hom 9.*

ووهبَنا نعمة لا ينطق بها. أمّا نحن فمن جانبنا نقدم إيمانًا (حيًا) فقط، لذلك يقول: "**بالإيمان إلى هذه النعمة**". اخبرني: أيّة نعمة هذه؟ أنك حُسبتَ أهلاً لمعرفة الله، وانتزعت عن الخطأ وتعرفّتَ على الحق ونلتَ كل بركات المعموديّة؟ لأن غاية إحضارنا إليه هو تقبُّل هذه العطايا. فإننا لم ننل غفران الخطايا فحسب لنكون مُصالحين، وإنما لننال بركات لا حصر لها.

لم يقف عند هذا الحد إنما وعدنا ببركات أخرى، بركات لا يُنطق بها، تفوق الإدراك واللغة، لهذا لم يحدّثنا عنها. فبإشارته للنعمة أوضح ما نلناه حاليًا، وبقوله: "**ونفتخر** (نبتهج) **على رجاء مجد الله**" **[٢]**. يكشف عن كل الأمور العتيدة.

حسنًا قال: "**التي نحن فيها مقيمون**" **[٢]**، لأن هذه هي طبيعة نعمة الله، أنها بلا نهاية ولا تعرف الحدود، بل على الدوام ننعم بأمور أعظم، على خلاف ما يُحدّث في الأمور البشريّة. أعطيك مثلاً لما أقصده: إن نال إنسان سيادة ومجدًا وسلطانًا لا يقيم في هذه الأمور على الدوام، إنما سرعان ما تُسحب منه. فإن لم يسحبها منه إنسان آخر يأتيه الموت الذي يسحبها منه بالتأكيد. أمّا عطايا الله فليست من هذا النوع إذ لا يستطيع إنسان ولا ظروف ولا كوارث ولا حتى الشيطان أو الموت أن يسلبها، بل بالعكس عندما يحلّ الموت تتأكد بالأكثر ملكيتنا لها وثبوتنا فيها ويزداد تمتّعنا بها أكثر فأكثر... لهذا يقول: "**نبتهج على رجاء مجد الله**"، لكي تتعلم ما هي النفس التي يليق بالمؤمن أن تكون له. ليس فقط نعرف ما هي العطايا التي تقدّم وإنما لمن تقدّم، فنمتلئ ثقة أنها قُدِّمت فعلاً، إذ يبتهج الإنسان بكونه قد نالها فعلاً... وقد دعاها "مجدًا"؛ إذ هي شركة في مجد الله[1].]

هكذا يركّز **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على تعبير "**مقيمون فيها**" علامة استمرارية عمل نعمة الله في حياتنا متى خضعنا لها وقبلّناها متجاوبين معها، ولا يقف الأمر عن الاستمرارية، وإنما تزداد قوّة فينا وبهاءً مع الزمن حتى متى بلغنا الخروج من هذا العالم ننعم بالشركة في المجد الإلهي.

ثالثًا: الارتفاع فوق الضيقات

ربّما يتساءل البعض: إن كان الإيمان بالمسيح يدخل بنا إليه لنحمل برّه فينا، فننعم بالسلام مع الله، وإذ نقيم في هذه النعمة ينفتح قلبنا على رجاء المجد الإلهي، فما هو عمل هذا البرّ في حياتنا وسط الضيقات التي لا تنقطع؟

يجيب الرسول على هذا التساؤل معلنًا أن السيد المسيح ببرّه الذي يهبه لنا لا ينزع عنّا الضيقات، بل يرفعنا فوق الضيقات، فنجتازها أو تعبر هي بنا، ونحن في اعتزاز نراها سرّ تزكيتنا أكثر فأكثر،

[1] *In Rom. hom 9.*

فلا يتحطم رجاؤها باليأس، بل بالعكس يلتهب رجاؤنا في المجد، خلاص صبرنا في الضيقات، إذ يقول: "**وليس ذلك فقط، بل نفتخر (نتمجد) أيضًا في الضيقات، عالمين أن الضيق ينشىء صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء**" **[٤-٥]**.

كأن عمل المسيح لا يمس المجد الأبدي فحسب وإنما يمس حياتنا اليومية لا بتغيير الظروف المحيطة بنا لننعم بسلامٍ زمنيٍ، وإنما بتغيير القلب الداخلي والفكر، فنسمو فوق الآلام، إذ نراها طريق الشرّكة مع المسيح المتألم، وسبيل التمتّع بالتزكية خلال الصبر. وكما يقول القدّيس بطرس: "لكي تكون تزكية إيمانكم وهي أثمن من الذهب الفاني مع أنه يُمتحن بالنار توجد للمدح والكرامة والمجد" (١بط ١: ٧)، ومعلمنا يعقوب: "طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكي ينال إكليل الحياة" (يع ١: ١٢).

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:**

[فإنه حتى في الضيقات الحاضرة تعطينا (نعمة الله) القدرة على تلألؤ ملامحنا، وتجعلنا بالأكثر مستحقّين لمكافأتنا...

الآن، لنتأمل عظمة الأمور المقبلة، فإنه حتى بالنسبة للأمور المسبّبة الحزن نفرح. عظيمة هي عطيّة الله، ليس فيها شيء كريه، لأنه في الخيرات الخارجية يسبّب الجهاد من أجلها تعبًا وألمًا وضيقًا كمرافق لها، لكن الأكاليل والمكافآت تردّ البهجة معها. أمّا هنا فالحال مختلف، لأن نكهة الضيقات فيها بالنسبة لنا لا تقل عن نكهة المكافآت. ففي هذه الأيام توجد تجارب ثانوية، لكن يوجد رجاء في الملكوت؛ يحل الرعب الآن لكن يوجد توقع للخيرات... إنه يعطي جزاء هنا قبل نوال الأكاليل بالقول إنه يجب أن "**نتمجد (نفتخر) بالضيقات**"... مقدمًا نفسه مثلاً لهم لتشجيعهم... يتمجّدون فيها ليس فقط من أجل الأمور المقبلة، وإنما أيضًا من أجل الحاضر، فإن الضيقات صالحة في ذاتها، كيف هذا؟ لأن الضيقات تعطينا مسحة "الصبر"، لذلك بعد قوله أننا نتمجّد بالضيقات قدّم السبب هكذا: "**عالمين أن الضيق ينشئ صبرًا**"...

"**والصبر تزكية، والتزكية رجاء**". فالضيقات التي هي (بالطبيعة) بعيدة عن الرجاء تصير تزكية للرجاء ومؤكدة له. فإنه قبل نوال الأمور المقبلة ينشئ الضيق ثمرًا عظيمًا جدًا هو "الصبر"، فيجعل من الإنسان المُجرّب صاحب خبرة؛ وفي نفس الوقت يساهم إلى درجة ما في الأمور المقبلة، إذ يهب رجاءً ملتهبًا فينا، فإنه ليس شيء يجعل الإنسان يميل إلى الرجاء في البركات مثل الضمير الصالح... نعم يهب رجاءً، لكنه ليس رجاءً بشريًا غالبًا ما يزول، ويُخزى من يتوقعه... لا، فإن

نصيبنا ليس هكذا، إنما رجاؤنا أكيد وثابت، لأن مقدم الوعد حيّ إلى الأبد، ونحن الذين نتمتع به، وإن كنّا نموت لكنّنا سنقوم ثانيًا، فلا يخزى رجاؤنا[1].]

يشعر القدّيسون ببركة الضيق في هذا العالم، إذ يمجّدهم داخليًا في عيني الله، لكي يتجلّى هذا المجد بالأكثر في الحياة العتيدة، لذلك **يقول القدّيس جيروم:** [لا يطلب القدّيس الراحة بل الضيق[2].]

إن رجعنا إلى كلمات **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** نلاحظ نظرته الإنجيليّة العجيبة لتعبير "الصبر"، فإنه لا يتطلّع إليه كجهادٍ بشريٍ مجرّد أو قُدرة إنسانية على احتمال الضيق، وإنما يراه "مكافأة"... كيف يكون هذا؟ لأن "الصبر" هو سمة تمس حياة السيد المسيح، الذي قيل عنه: "احتمل الصليب مستهينًا بالخزي... فتفكّروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه مثل هذه، لئلاّ تكلّوا وتخوروا في نفوسكم" (عب ١٢: ٢-٣). مرة أخرى يقول الرسول: "الرب يهدي قلوبكم إلى محبّة الله وإلي صبر المسيح" (٢ تس ٣: ٥). إذًا فالصبر هو عطيّة إلهية، أو هو شركة في "صبر المسيح" تعطي عذوبة للنفس وسط الآلام، أو قل مجدًا خفيًا وسط الضيقات. هذا ما أكّده القدّيس يوحنا الحبيب بقوله: "شريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره" (رؤ ١: ٩).

إذن الضيق ينشئ صبرًا، هو شركة في صبر المسيح!

رابعًا: عطيّة الروح واهب الحب

إن كان السيد المسيح يُعلن برّه فينا برفعنا داخليًا فوق الآلام وجعلها مصدر مجد حتى في هذا الزمان الحاضر، لنحتمل الضيقات بصبر المسيح على رجاء المجد الأبدي، فإنه من جانب آخر يهبنا بروحه القدوس "محبة الله" منسكبة في قلوبنا لكي تسندنا فلا يخزى رجاؤنا. بمعنى آخر صبرنا في التجارب واحتمالنا للألم لا يقف عند قوّة عزيمتنا أو إمكانيّاتنا البشريّة، إنما على عمل الله فينا، إذ يسكب حُبّه بفيض على المجاهدين روحيًا لأجل اسمه وبقوّة نعمته.

يقول الرسول: "**والرجاء لا يخزى لأن محبّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا**" [٥]. سرّ القوّة في الضيق، وانفتاح الرجاء في قلوبنا عطيّة الروح القدس الساكن فينا، إذ يهبنا محبّة الله غير المتغيّرة بفيض، قائلاً: "**انسكبت**" وكأنها تُعطى بلا حساب كمن تنسكب من السماء لتملأ القلب.

❖ لم يقل الرسول "قد أعطيت" بل قال: "**انسكبت في قلوبنا**" ليظهر فيضها.

---

[1] *In Rom. hom 9.*
[2] *On Ps. hom 39.*

هذه العطيّة هي العظمى، فإنه لم يهبنا السماء ولا الأرض ولا البحر، إنما ما هو أثمن من هذه كله، جعلنا نحن البشر ملائكة، نعم بل أبناء الله وإخوة المسيح. لكن ما هي هذه العطية؟ الروح القدس!

لو لم يكن يريد أن يقدّم لنا أكاليل عظيمة على جهادنا لما وهبنا مثل هذه العطايا القادرة أن تسندنا في جهادنا. هنا يُعلن دفء محبته التي يكرمنا بها لا تدريجيًا ولا شيئًا فشيئًا، وإنما يسكبها بفيض بكونها ينبوع بركاته، وذلك قبل صراعنا.

هكذا وإن كنت لست مستحقًا بالمرة، لكنه لم يزدرِ بكَ، بل وهبكَ حب ديّانك كمعين قدير يسندك، لهذا يقول الرسول: "**والرجاء لا يخزي**"، ناسبًا كل شيء لمحبّة الله وليس لأعمالنا الذاتية الصالحة.

بعدما أشار إلى عطيّة الروح القدس عاد ليتحدّث ثانية عن الصليب[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ كأنه يقول أن محبّة الله قد انسكب في قلوبنا بالروح القدس الساكن فينا...

سامية هي فضيلة الحب المبجّلة، إذ يُعلن الرسول الطوباوي يوحنا أنها ليست فقط تُنسب لله بل هي الله: "الله محبّة، ومن يثبت في المحبّة يثبت في الله والله فيه" (١يو ٤: ١٦) [2].

الأب يوسف

❖ بهذا (القول الرسولي) نفهم أن الروح القدس ليس عملاً وإنما هو المدبر وينبوع الحب الإلهي الفائض[3].

القدّيس أمبروسيوس

❖ كما أن جسدك إن صار بلا روح، أي بدون نفسك يكون ميتًا، هكذا نفسك بدون الروح القدس، أي بدون المحبّة، تُحسب ميّتة.

❖ إن كان حب الله المنسكب في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا يجعل النفوس الكثيرة نفسًا واحدة، والقلوب الكثيرة قلبًا واحدًا، فكم بالأحرى يكون الآب والابن والروح القدس الله الواحد، النور الواحد، والبدء الواحد؟

---

[1] In Rom. hom 9.
[2] Cassian: Conf 16: 13.
[3] Of the Holy Spirit 1: 8(94).

❖ إذ نكون أعضاء تربطنا الوحدة معًا؛ ما الذي يقيم هذه الوحدة إلا الحب الذي يربطنا معا؟

❖ ليكن لك حب فيكون لك الكل؛ وبدونه كل ما يمكن أن يكون لك لا ينفعك شيئًا. إنما ما يجب أن تعرفه هو أن الحب الذي نتكلم عنه يُشير إلى الروح القدس. اسمع ما يقوله الرسول: "محبّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا"[1].

القدّيس أغسطينوس

❖ [عن عمل الروح القدس في قلوب الشهداء بسكب حب الله فيهم.]

لقد جعلهم شهداءه بالروح القدس الفعّال فيهم، إذ يجعلهم يحتملون أتعاب الاضطهادات من كل نوع، ويصيرون متلألئين بالنار الإلهية، فلا يفقدون دفء محبتهم للكرازة[2].

القدّيس أغسطينوس

❖ إنه يقول: "**محبّة الله المنسكبة في قلوبكم**"؛ ولكي لا يظن أحد أن محبّة الله هي من عندياته يضيف: "**بالروح القدس المُعطى لنا**". لذلك لكي تحب الله دعْ الله يسكن فيك، فيكون "الحب" ذاته فيك، بمعنى أن محبته تحركك وتلهبك وتنيرك.

❖ لا تتقبل الملائكة ولا البشر الحكمة إلا بالشركة في هذه الحكمة التي نتّحد بها بالروح القدس الذي يسكب الحب في قلوبنا[3].

القدّيس أغسطينوس

❖ [الحب الإلهي المنسكب في قلوبنا بالروح القدس يهبنا لا قدرة على تحقيق الوصايا الناموسية فحسب وإنما لذّة في تحقيق الوصايا الإنجيليّة التي تبدو صعبة ومستحيلة:]

"**لأن محبّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس**" (رو ٥: ٥).

بهذا يُنزع عنّا كل اهتمام بأي أمر آخر، ولا يرغب (المؤمن) في صنع ما هو ممنوع منه، أو يهمل فيما قد أُمر به. لكن إذ يكمل كل هدفه وكل اشتياقه في الحب الإلهي على الدوام، لا يقع في التلذذ بالأمور التافهة، بل ولا يطلب حتى الأمور المسموح له بها.

فتحت الناموس يسمح بالزوجات الشرّعيات، وهذا فيه قمع للذّة والخلاعة مكتفيًا الإنسان بامرأة

---

[1] In Ioan. Tr 9: 8; 39: 5; 27: 9; 32: 8.
[2] Ibid 94: 2.
[3] Ser. On N.T. lessons 78: 4; Harm. Of the Gospel 1: 34.

واحدة، لكنه لا يبطل بهذا وخزات الشهوة الجسدانيّة، ويصعب إطفاء النار المتقدة والتي تُمون بوقود دائم، حتى لا تخرج إلى الخارج... أمّا الذين تضرمهم نعمة المخلص بحب الطهارة المقدس، فإنهم يهلكون كل أشواك الشهوات الجسديّة بنار الحب الإلهي...

كذلك من يقنع عند حد دفع العشور والبكور... بالتأكيد يخطئ في طريقة التوزيع أو كميته... أمّا الذين لم يزدروا بنصيحة الرب بل تركوا كل ممتلكاتهم للفقراء، وحملوا صليبهم، وتبعوا مانح النعمة لا يكون للخطية سلطان عليهم، إذ لا يساورهم القلق من جهة طعامهم اليومي... فالشخص الذي يدفع العشور والبكور... يستحيل عليه أن يتخلص من سلطان الخطية، وأما الذي تبع نعمة المخلص، فإنه يتخلص من حب الامتلاك[1].

الأب ثيوناس

خامسًا: اختيار محبة الله بالصليب

إذ يتحدث الرسول عن "**برّ المسيح**" يربط عمل الأقنوم الثاني أي كلمة الله المتجسد (السيد المسيح) بعمل الأقنومين الأول والثالث، فخلال برّ المسيح يعمل الأب إذ يهبنا روحه القدوس (الأقنوم الثالث) ساكنًا فينا، يسكب الحب الإلهي في أعماقنا. بمعنى آخر "الإنسان" هو موضوع لذّة الله الواحد المثلّث الأقانيم، يعمل فيه بلا انقطاع ليبلغ به إلى أمجاده كابن وحبيب وصديق نحيا معه أبديًا.

هكذا يعمل الثالوث القدوس فينا فيسكب حب الله في قلوبنا، الذي تجلّى في كمال أعماقه خلال عمل المسيح الخلاصي، إذ يقول الرسول:

"لأن المسيح إذ كنّا بعد ضعفاء مات في الوقت المعيّن لأجل الفُجّار.
فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار،
ربّما لأجل الصالح يجسر أحد أيضًا أن يموت،
فبالأولى كثيرًا ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب.
لأنه إن كنّا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه،
فبالأولى كثيرًا ونحن مصالحون نخلص بحياته.
وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضًا بالله بربنا يسوع المسيح
الذي نلنا به المصالحة" [٦-١١].

[1] *Cassian: Conf 21: 33.*

هذا هو ما يعلنه الروح القدس فينا: محبّة الله الفائقة لمصالحتنا خلال الصليب؛ ويلاحظ في هذا الإعلان الآتي:

أ. يسمى الرسول هذا الإعلان "**سكب محبّة الله في قلوبنا**". يوجد فارق بين المعرفة الفكرية للصليب التي يمكن أن نتمتّع بها خلال دراسة الكتاب المقدس، خاصة خلال شهادة الناموس والنبوّات التي مهدت أفكارنا لإدراك سرّ الفداء، أو سرّ محبّة الله بالصليب، وبين معرفة الخبرة التي يهبها الروح لأعماقنا في الداخل، حيث ينطلق بالنفس إلى الصليب لتلتقي بعريسها المصلوب، وتدرك حُبّه لها شخصيًا، فتلتهب بنيران المحبّة الحقيقية، وتشتهي أن ترد الحب بالحب.

ب. هذه المحبّة التي يسكبها الروح فينا ليست بجديدة بالنسبة لله، فهي في تدبيره الأزلي، لكنه حقّقها في الوقت المناسب لخلاصنا، أو "**في الوقت المعيّن**"، أو في "**ملء الزمان**"، إذ قيل: "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنّي" (غل ٤: ٤-٥).

ج. قدّم الله هذا الحب من أجلنا، وقد دعانا "**ضعفاء**"، "**الفُجّار**"، فمن جهة كنّا ضعفاء مغلوبين بالخطيّة ساقطين تحت سلطان عبوديّتها. وفي نفس الوقت دعانا "فُجّارا" إذ لم نستسلم لها عن ضعف فحسب وإنما التهبت فينا، فصرنا نمارسها بعنف بكمال حريتنا، عن معرفة أيضًا وفي تهوّر.

كخطاة نشعر أننا ضعفاء في حاجة إلى طبيب يعالج ضعفنا، واهبًا إيّانا القوّة عِوض الضعف؛ وفُجّار نحتاج إلى القدوس يهبنا الاتحاد معه لينزع فسادنا وتجبُّرنا ممارسين قداسته فينا.

د. أراد إظهار عظمة محبّة الله لنا، إذ قدّم السيد المسيح حياته لنا ونحن ضعفاء وفُجّار، فبحسب المنطق البشري بالجهد أو بالكاد يمكن لأحد أن يموت عن بار، وربما يجسر أحد ويخاطر بحياته من أجل صالح، أما أن يموت أحد عن فاجرٍ شريرٍ، فهذا يبدو مستحيلاً!

ما الفارق بين البارّ والصالح؟ جاء في كتب ربانيي اليهود أن البارّ هو من يقول لجاره كل ما هو لي فهو لي وكل ما هو لك فهو لك، وأن الصالح يقول لجاره كل ما هو لك فهو لك وكل ما هو لي فهو لك[1]. بمعنى آخر البارّ يسلك بالعدل، فيعطي كل إنسان حقّه، متمسكًا بحقّه هو أيضًا، أمّا الصالح فيسلك بالحب يودّ أن يعطي ماله للآخرين. أمّا في مفهومنا المسيحي فالبار هو من يحمل برّ المسيح فيه، والصالح هو من يحمل صلاح المسيح فيه؛ وكأن البرّ والصلاح في حياتنا هما تجلّي

[1] الكنز الجليل في تفسير الإنجيل – رسالة رومية، ص ٧٢.

سمتا المسيح في حياتنا.

لم يمت السيد المسيح من أجل صالحين وأبرار، وإنما من أجل الخطاة المقاومين له، الذي حملوا له العداوة.

❖ إن كان من أجل إنسانٍ فاضلٍ لا يسرع أحد بالموت عنه، فتأمل محبّة سيّدك إذ صُلب لا من أجل أناس فضلاء، بل من أجل خطاة وأعداء[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ أحبّنا ونحن نمارس العداوة ضده، ونرتكب الإثم، ومع ذلك فبحق كامل قيل: "يا رب أبغضت جميع فاعلي الإثم" (مز ٥: ٥). بهذا فإنه لأمر عجيب وإلهي أنه حتى حيث يبغضنا يحبنا، إذ هو يبغض فينا ما لم يخلقنا عليه... يبغض ما لم يصنعه فينا، ويحب ما خلقه فينا (يبغض الشرّ ويحب النفس مشتاقًا إلى خلاصها[2]).

القدّيس أغسطينوس

هـ. إذ يحدثنا الرسول عن "برّ المسيح" الذي تُعلن مكافأته بكمالها في الحياة العتيدة الأبدية، يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم**[3] أن الرسول أراد في هذا الأصحاح تأكيد التمتع بالوعود الإلهية الخاصة بالمجد الأبدي، وذلك بالبراهين التالية:

* **الإيمان** بالله الذي وعد، أنه قادر أن يحقق وعده [١].
* **النعمة** التي وهبت لنا ونحن مقيمون فيها فعلاً [٢].
* **الضيقات** التي تقدم لنا رجاء [٤-٣].
* عطية **الروح القدس** الذي نلناه، يسكب حبًا في قلوبنا [٥].
* أخيرًا **موت المسيح** بطريقة مملوءة حُبًا، فقد مات، ومات من أجل الخطاة لا الأبرار، مات ليصالحنا ويخلصنا ويبررنا فيجعلنا خالدين وأبناء وورثة، دون حاجة إلى أن يموت مرة أخرى.

هكذا ينتقل بنا الرسول من برهان إلى آخر، تارة خلال إيماننا بالله الذي وهبنا سلامًا معه فصرنا قريبين إليه، وأخرى خلال نعمته العملية التي نقيم فيها فتفتح بصيرتنا للرجاء في السماويات، وثالثة خلال عمله معنا وسط الضيق، فيحوله إلي مجد نتذوق عربونه، ورابعًا خلال روحه القدوس الساكن

---

[1] *In Rom. hom 9.*
[2] *In Ioan. Tr. 110: 6.*
[3] *In Rom. hom 9.*

فينا يعلن حب الله بلا حدود، وأخيرًا خلال التأمل في جراحات الرب وصلبه! هذه البراهين كلها تدفعنا نحو الثقة الكاملة في مواعيده الإلهية للتمتع بشركة أمجاده.

و. لا يقف الأمر عند اليقين بنوال الأمجاد الأبدية، إنما يقول الرسول: **وليس ذلك فقط بل نفتخر (نفرح) أيضًا بالله بربنا يسوع المسيح الذي نلنا به الآن المصالحة" [١١]**، ماذا يعني هذا؟

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أننا ليس فقط ننعم ببركات الخلاص هنا ونترجى الأمجاد الأبدية إنما يصير الله نفسه مجدنا وفخرنا وفرحنا. تعامل معنا كصديق مع أصدقائه، وحبيب مع محبوبيه، فنفرح به أكثر من الملكوت (لو أن الملكوت أمر غير الله)، نريد شخص الله ذاته. بمعنى آخر نلنا المصالحة لا لننعم بشيء إنما ما هو أعظم أننا صرنا أحباء الله، ليس فقط نقف بجوار مجده كالقوات السمائية المُحبة له، إنما نحمله ساكنًا فينا جالسًا علي العرش!

ز. إذ يتأمل **القديس كبريانوس** في محبة الله هذه كما وردت في هذه العبارات الرسولية، يقول: [إذ نتأمل محبته ورحمته يليق بنا ألا نكون قساة ولا عنيفين ولا صارمين في تبكيت الأخوة بل نحزن مع الحزانى، ونبكي مع الباكين، ونرفعهم قدر ما نستطيع خلال عون وتعزية حبنا لهم، فلا نكون قساة جدًا ومتشبسين معهم نصدهم في توبتهم كما لا نكون متراخين جدًا ومتساهلين بتهور في قبول الشركة[1].]

٢. آدم وبنوه تحت الموت

حديث الرسول بولس عن البنوة الجسدية لإبراهيم نقلنا إلى حاجة إبراهيم نفسه إلى برّ المسيح خلال الإيمان، موضحًا ثمر برّ المسيح في حياة المؤمن. والآن يوضح الرسول خضوع كل بني آدم، بما فيهم إبراهيم طبعًا، للموت، لكي يعلن حاجة الكل إلى نعمة المسيح وبرِّه، إذ يقول:

"من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم،
وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس
إذ أخطأ الجميع.
فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم،
على أن الخطية لا تحسب، إذ لم يكن ناموس.
لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى،

[1] *Ep. 51: 19.*

وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي " [١٤-١٢].

في هذا الحديث أوضح الرسول الآتي:

أولاً: فضح علة دخول الموت إلي البشرية وسلطانه عليها لكي يبرز بعد ذلك قوة تبريرنا بالسيد المسيح غالب الموت. يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم: [**كما يبذل أفضل الأطباء كل الجهد لاكتشاف مصدر الأمراض ويبلغون أصل الداء عينه هكذا فعل الطوباوي بولس أيضًا، فعندما قال أننا قد تبررنا، مؤكدًا ذلك خلال البطريرك (إبراهيم)، والروح (القدس)، وموت المسيح (لأنه ما كان ليموت إلا ليبرر)، أخذ بعد ذلك يؤكد ما سبق أن أوضحه بإسهاب خلال مصادر أخرى، محققًا هدفه ببرهان آخر مضاد، أي الموت والخطية[1].]

كأن الرسول يسأل: متى دخل الموت؟ وكيف غلب؟، فيجيب: "**من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس، إذ أخطأ الجميع**" [١٢]. لقد أظهر أن الخطية بدأت بالإنسان الأول، وتملّك الموت غالبًا إياه، وقد صار الكل مخطئين وإن لم يسقطوا في ذات المعصية. صارت الخطية منتشرة في الطبيعة البشرية لكنها غير مُكتشفة حتى جاء الناموس، فظهرت بعصيان الإنسان لوصايا معينة: "**فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم على أن الخطية لا تُحسب إن لم يكن ناموس**" [١٣].

دبت بذار الموت مع الخطية منذ آدم، لكن الموت لم يكن ثمرة عصيان للناموس بل ثمرة عصيان أبينا آدم. ملك الموت علي الذين لم يخطئوا بعصيان الناموس إنما خلال شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي [١٤].

❖ في آدم سقطت أنا، وفيه طُردت من الفردوس، وفيه مت، فكيف يردني الرب إلا بأن يجدني في آدم مذنبًا، إذ كنت هكذا، أما الآن ففي المسيح أتبرر أنا[2].

القديس أمبروسيوس

❖ لذلك يقول: " **افرحوا، أنا قد غلبت العالم**" (يو ١٦: ٣٣).

هذا قاله كمصارع لائق ليس بكونه الله فحسب، وإنما بإظهار جسدنا (الذي التحف به) كغالبٍ للألم والموت والفساد.

لقد دخلت الخطية إلى العالم بالجسد، وملك الموت بالخطية علي جميع الناس، لكن دينت الخطية

---

[1] In Rom. hom 10.
[2] On Belief of Resur. 2: 6.

بذات الجسد في شبه (شبه جسد الخطية)، فقد غُلبت الخطية، وطرد الموت من سلطانه، ونُزع الفساد بدفن الجسد وظهور بكر القيامة، وبدأ أساس البرّ في العالم بالإيمان، والكرازة بملكوت السماوات بين البشر، وقيام الصداقة بين الله والناس[1].

القديس غريغوريوس صانع العجائب

❖ حتى الأطفال الذين لا يخطئون في حياتهم الشخصية، إنما حسب الجنس البشري (العالم) يكسرون عهد الله، إذ أخطأ الكل في واحد[2].

القديس أغسطينوس

ثانيًا: يرى **القديس إيريناؤس**[3] أنه بالخطية "**ملك الموت من آدم إلي موسى**" **[١٤]**، أما وقد جاء الناموس في العصر الموسوي، انفضحت الخطية، وظهرت أنها خاطئة، وأُعلن أن الموت ليس ملكًا حقيقيًا إنما هو مُغتصب ومجرم يمثل ثقلاً على الإنسان.

ثالثًا: ماذا يقصد بعبارة "**آدم الذي هو مثال الآتي**" **[١٤]؟** يجيب **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه كما بواحدٍ صار الحكم علي الكل بواحدٍ أيضًا صار البرّ لكل المؤمنين. كما سقط الكل تحت الموت مع أنهم لم يأكلوا مع آدم من الشجرة، هكذا قُدم الخلاص للعالم دون فضل من جانبهم، إنما يرجع الفضل لبرّ المسيح الذي يهبه خلال شجرة الصليب.

يؤكد **القديس الذهبي الفم** أنه لا يفهم من هذا أن الخطية والنعمة متساويان، ولا الموت والحياة عديلان، لأن الشيطان والله ليسا متساويين.

رابعًا: إن كان الموت قد ملك علي البشرية بسبب آدم، فقد جاء كلمة الله متجسدًا كآدم الثاني لينزع عن الإنسان هذا السلطان القاتل:

❖ من آدم إلى موسى ملك الموت، لكن حضور الكلمة حطّم الموت (٢ تي ١: ١٠). لم يعد بعد في آدم يموت جميعنا (١ كو ١٥: ٢٢)، إنما صرنا في المسيح نحيا جميعنا[4].

القديس البابا أثناسيوس

❖ منذ القديم: "**تسلط الموت من آدم إلي موسى**"، أما الآن فالصوت الإلهي يقول: "اليوم تكون معي

---

[1] *12 Topics of Faith 12.*
[2] *City of God 16: 27.*
[3] *Adv Haer 3: 18: 7.*
[4] *Against Arians, Dise 1: 59.*

في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣). إذ يشعر القديس بهذه النعمة يقول: "لولا ان الرب كان معي لهلكت نفسي في الهاوية"(مز ٩٤: ١٧) [1].

القديس البابا أثناسيوس

❖ إذ أخطأ الإنسان وسقط صار كل شيء في ارتباك بسقوطه، وتسلط الموت من آدم إلي موسى، ولعنت الأرض، وانفتح الجحيم، وأُغلق الفردوس، وتكدرت السماء، وأخيرًا فسد الإنسان وتوّحش (مز ٤٩: ١٢) بينما تعظم الشيطان ضدنا. لذلك فإن الله في حبه الحاني لم يرد للإنسان الذي خُلق علي صورته أن يُهلك، فقال: "من أرسل؟ ومن يذهب من أجلنا؟" (إش ٦: ٨). وإذ صمت الكل قال الابن: "هأنذا أرسلنى"، عندئذ قيل له: "اذهب" وسُلم إليه الإنسان، حتى إذ صار الكلمة جسدًا، فبأخذه الجسد أصلح الإنسان بكليته. لقد أُسلم إليه الإنسان كما إلى طبيب ليشفيه من لدغة الحية، فيهبه الحياة، ويقيمه من الموت، ويضيء عليه، وينير الظلمة. إذ صار جسدًا جدّد الطبيعة العاقلة... وردّ كل الأشياء إلى الصلاح والكمال [2].

القديس البابا أثناسيوس

٣. آدم الثاني والنعمة

إذ عرض لآثار الخطية الأولى التي ارتكبها آدم الأول، فملك الموت علي الكل، حتى على الذين هم بلا ناموس مكتوب حيث لا يوجد عصيان ضد وصية معينة معلنة، يعود فيعرض لآثار النعمة الإلهية التي يقدمها آدم الثاني ليخلص العالم من موت الخطية ويهب المؤمنين الحياة الأبدية، مظهرًا الفارق بين فاعلية الخطية وفاعلية النعمة.

"**ولكن ليس كالخطية هكذا أيضًا الهبة،**
لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون،
فبالأولي كثيرًا نعمة الله،
والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح
قد ازدادت للكثيرين" [١٥].

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [ما يقوله (رو ٥: ١٥) هو هكذا: إن كان للخطية آثارها البعيدة المدى هكذا وهي خطية إنسان واحد، فكم بالأولى تكون النعمة، نعمة الله، التي هي نعمة الآب والابن

[1] *Pasch. Ep. 5: 3.*
[2] *On luke 10: 22.*

أيضًا يكون لها فيض؟... ربما معاقبة إنسان من أجل خطأ ارتكبه آخر يبدو غير مقبول، لكن ما هو أكثر قبولاً ومنطقيًا أن يخلص إنسان بسبب آخر[1].]

"وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية،

لأن الحكم من واحد للدينونة،

وأما الهبة فمن جري خطايا للتبرير" [١٦].

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[للخطية قوتها إذ تجلب الموت والدينونة، وأما النعمة فلا تبرر خطية واحدة فحسب إنما الخطايا التي تبعتها أيضًا. ولئلا يُفهم من الكلمتين "كما"، "هكذا" تساوى البركات مع الشرور، ولئلا عند سماعك "آدم" تظن أن الخطية التي ارتكبها آدم هي وحدها التي تُغفر، لذلك يقول: من جري خطايا كثيرة للتبرير... فقد تحقق التبرير بعد ارتكاب خطايا بلا حصر بعد الخطية التي أُرتكبت في الفردوس.

حيث يوجد البّر تتبعه بالضرورة الحياة بكل وسيلة، ويرافقه بركات بلا حصر، وذلك كما أنه حيث توجد الخطية يحدث الموت. البرّ هو أكثر من الحياة، وهو أصل الحياة...

سبق فقال أنه إن كان بخطية واحد مات الكل فبالأولي نعمة الواحد لها سلطان أن تخلص... عاد فأوضح أن النعمة ليست فقط تنزع الخطايا وإنما تهب البرّ. فالمسيح لم يقدم خيرًا بقدر ما جلب آدم من أضرار، وإنما أكثر جدًا بما لا يُقاس[2].]

إن كنا قد ورثنا عن آدم عصيانه، إنما حملنا هذه الطبيعة فينا، لذا جاء السيد المسيح بنعمته يقدم لنا "**طاعته**" لنحياها، فنحمل طاعة المسيح فينا، لا كفضيلة خارجية وإنما كطبيعة تمس كياننا، إذ يقول الرسول: "**لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارًا" [١٩].** هذه الطبيعة المتبررة الجديدة، طبيعة الطاعة للآب بابنه، تحمل انعكاسًا على كل تصرفاتنا فنشتهي الطاعة لو أمكن للجميع، وكما يقول **القديس أمبروسيوس:** [إذ كان هو مطيعًا، ليتهم يقبلون تدبير الطاعة، الأمر الذي نلتصق به، قائلين للذين يثيرون الشر ضدنا من جهة الإمبراطور: "نحن نعطي ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". نقدم الجزية لقيصر ولا ننكرها، وننتمي للكنيسة التي لا تخص قيصر، فإن هيكل الله لا يمكن أن يكون من حق قيصر[3].]

---

[1] *In Rom. hom 10.*
[2] *In Rom. hom 10.*
[3] *Ser. Against Auxentius 36.*

عاد ليؤكد مرة أخرى أنه لا وجه للمقارنة بين الضرر الذي أصابنا من الخطية مهما بلغ بالنسبة للخير الذي ننعم به خلال برّ المسيح ونعمته، إذ يقول: "**لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيرًا الذين ينالون فيض النعمة، وعطية البرّ سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح**" **[١٧]**.

يشرح **القديس يوحنا الذهبي الفم** هذه العبارة (رو ٥: ١٧) موضحًا أن الرسول لم يقل هنا "النعمة" بل "**فيض النعمة**"، لأننا لم ننل بنعمته زوال الخطية فحسب وإنما نلنا ما هو أكثر:

أ . نلنا التحرر من العقاب.

ب . التحرر من الشر.

ج . الميلاد الجديد من فوق (يو ٣: ٣).

د. القيامة أو الحياة المقامة.

وهبنا الخلاص والتبني والتقديس، فصرنا إخوة للابن الوحيد الجنس، وشركاءه في الميراث، وحُسبنا جسدًا له وهو الرأس، وهكذا اتحدنا به.

هذا كله دعي الرسول بولس أن يقول: " **فيض النعمة**" مظهرًا إن ما نلناه ليس مجرد دواء لتضميد الجراحات وإنما للتمتع بالصحة والسلامة والكمال والكرامة والمجد، الأمور التي تفوق طبيعتنا. كل عطية من هذه كفيلة أن تنزع عنا الموت، أما كونه يهبنا هذا كله، فهذا يعنى أنه لم يعد للموت أدنى أثر أو ظل.

يقول **القديس الذهبي الفم** أننا في هذا نشبه إنسانًا مدينًا بعشر وزنات وإذ لم يكن له ما يوفي الدين سجن هو وزوجته وأولاده، فجاء آخر لا ليسدد الدين فحسب، وإنما ليهبه عشرة آلاف وزنة ذهبية، ويقوده من السجن إلي العرش، ويهبه سلطانًا عظيمًا، ويجعله شريكًا معه في الأمجاد العلوية وكل عظمة، حتى لم يعد بعد يذكر موضوع الدين. هكذا يدفع لنا السيد أكثر مما علينا، نعم قدر ما يتسع محيط بلا حدود مُقارنًا بحفرة صغيرة.

لقد غطت هبات الله علي موضوع الخطية والموت، فصار يشغلنا عظم فيض نعمته الخاصة بالحياة الأبدية.

يحدثنا **القديس جيروم** علي بركات فيض نعمة المسيح أو عمل إنجيله الذي يهدم موت الخطية، قائلاً: [أما تحت المسيح. أي تحت إنجيله. فقُتح لنا باب الفردوس وصار الموت مصحوبًا بالفرح لا

بالغم[1].]

قدم لنا الرسول مقارنة بين أثر الخطية وأثر النعمة الإلهية لنجد أنفسنا وقد قدم لنا السيد المسيح فيض نعمته فلا نعود نخاف الخطية، ولا نرهب الموت كأثرٍ لها، بل ننشغل بالأمجاد التي أعدتها لنا نعمته الفائقة. عاد ليقارن بين الناموس والنعمة، قائلاً: "**وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية، ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا، حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا**" **[٢١-٢٠]**.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** (رو ٥: ٢٠-٢١) بأن الناموس قد أُعطي بحق لكي ينقص العصيان ويتدمر لكن النتيجة جاءت عكسية، لا بسبب طبيعة الناموس وإنما بسبب إهمال الذين قبلوه. جاء يكشف المعصية ويدين العصاة متهمًا إياهم بالأكثر. لكننا لا نخاف، لأن الناموس لم يُوضع لكي تزداد عقوبتنا، وإنما لكي نتقبل النعمة التي ازدادت جدًا، إذ لم تقدم لنا إعفاءً من العقاب فحسب وإنما وهبتنا الحياة. صرنا أشبه بإنسان كان محمومًا فلم يُشف من مرضه فحسب، وإنما نال جمالاً وقوة وكرامة، كما نشبه إنسانًا جائعًا لم ينل غذاء ليقوته فحسب، وإنما تمتع بغنى عظيم وسلطان.

ربما يتساءل البعض: كيف كثرت الخطية بالناموس؟ لأنه قدم وصايا كثيرة بلا حصر وقد عُصيت، فازداد العصيان.

كشف الناموس أيضا أصل الموت والحياة، إذ أظهر أن الخطية تسلحت بالموت لتبيد البرّ، لكن النعمة حطمت سلاح الموت، ووهبتنا البرّ على مستوى الحياة الأبدية الخالدة.

يقدم لنا **القديس أغسطينوس** تفسيرًا لازدياد الخطية بالناموس، إذ يقول:

[جاء الناموس لكي تكثر المعصية، لأن المنع جعل الشهوة تزداد، وصيرها عنيفة (رو ٧: ٧). وهكذا صارت المعصية التي لم تكن بدون الناموس رغم وجود الخطية (حتى قبل الناموس) "**إذ حيث ليس ناموس ليس أيضًا تعدٍ**" (رو ٥: ٢٠). وهكذا زادت قوة الخطية، وذلك بالناموس، مع عدم مساعدة النعمة، والمنع من الخطية، لذلك يقول الرسول "**وقوة الخطية هي الناموس**" (١ كو ١٥: ٥٦).

إذن لا عجب إن كان ضعف الإنسان يجعل من الناموس الصالح ما يزيد من الشر، مع أنه قد عهد إليه به لينفذ الناموس.

حقًا إذ هم جاهلون ببرّ الله (رو ١٠: ٣) الذي يهبه للضعفاء، ويريدون أن يقيموا برّهم الذاتي،

[1] *Ep. 39: 4.*

الأمر الذي يتجنبه الضعفاء، صاروا غير خاضعين لبرّ الله وفاسدين ومتكبرين. لكن الناموس كمعلمٍ يقود الذين صاروا مجرمين إلي النعمة، طالبين "**الطبيب**" لأن بهم جراحات خطيرة، فيعطيهم الرب عذوبة في عمل الخير عوض لذة الشهوة المهلكة، حتى تكون لهم بالعفة بهجة أعظم، وتعطى أرضهم ثمرها (مز ١٣٥: ١٢) الذي منه يقتات الجندي (الروح) الذي يهزم الخطية بمساعدة الرب[1].]

[1] *On Continence.*

الأصحاح السادس

بنوّة المؤمنين لله

فنّد الرسول بولس حجة اليهود من جهة بنوّتهم لإبراهيم الحرّ جسديًا، موضحًا أن إبراهيم قد تبرّر وهو في الغُرْلة بالإيمان، كما تبرّر بذات الإيمان وهو في الخِتان، لذا فهو أب أهل الغُرْلة كما هو أب أهل الخِتان، هو أب الجميع. فإن أردنا البنوّة لإبراهيم نلتزم أن نتبرّر معه بالإيمان. الآن يرفعنا الرسول من البنوّة لإبراهيم إلى البنوّة لله نفسه في مياه المعموديّة التي يتمتّع بها الأممي المتنصر كما اليهودي المتنصر، ليعيش الكل كأبناء الله في جدّة الحياة، يمارسون حياة المسيح المُقامة، مقدّمين أجسادهم آلات برّ لله، بعد أن كانت آلات إثم للخطية. هذا هو مفهوم الحرّية الجديد: ليس الانتساب جسديًا لإبراهيم، وإنما ممارسة الحياة المقدّسة بالنعمة الإلهية بروح البنوّة.

١. الحياة الجديدة بالمعموديّة ١-١٤.

٢. الحرّية في المسيح يسوع ١٥-٢٣.

١. الحياة الجديدة بالمعموديّة

سبق أن تحدث في الأصحاح السابق عن فيض نعمة الله المجّانية التي لا تقف عند غسلنا من الخطيّة ومحو آثارها، أي الموت، إنما تفيض فينا بغنى عطايا إلهية بلا حصر. إذ تهبنا برّ الله، وتقدّم لنا الحياة الأبدية بشركة أمجاد إلهية وميراث سماوي فائق. بهذا أكدّ الرسول ليس فقط تفَّوق آثار النعمة على أثر الخطيّة، وإنما أكَّد التزامنا ونحن نتمسك بالنعمة أن نحيا كما يليق بمن نالها، مقدّسين في الرب. هذا ما عاد ليؤكّده بأكثر وضوح في هذا الأصحاح مبرزًا بنوّتنا لله التي ننالها خلال نعمة المعموديّة، إذ يقول:

"فماذا نقول؟ أنبقى في الخطيّة لكي تكثر النعمة؟ حاشا!
نحن الذين مُتنا عن الخطيّة، كيف نعيش بعد فيها؟
أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته؟
فدفنا معه بالمعموديّة للموت،
حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب،
هكذا نسلك نحن أيضًا بجدة الحياة" [١-٤].

إن كان الله بكثرة رحمته أفاض بنعمته علينا لينزع عنّا كل أثر للخطية، فتمجّد فينا نحن الخطاة، هذا لا يدفعنا للاستهتار بالخطيّة أو التهاون في الجهاد ضدّها، إنما يليق بنا أن نتركها سالكين كما يليق بنا كأولاد لله، نلنا بنعمته البنوّة له. هكذا يضع الرسول بولس "**المعموديّة**" أمامنا لندرك مركزنا الجديد خلال النعمة فنحيا في جدة الحياة كأولاد لله.

هذا هو عمل الكنيسة تجاه المؤمنين، كأم نحو أولادها، تأكيد نعمة الله المجّانية كباعثٍ حقيقي للجهاد بلا انقطاع، وتذكير الكل بمركزهم الجديد خلال مياه المعموديّة، ليعيشوا كل زمان غربتهم سالكين بقوّة القيامة كأولاد لله، في جهادٍ غير منقطعٍ.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن المعموديّة قد أماتت الخطيّة فينا، ولكي تظلّ الخطيّة ميّتة يليق بنا أن نجاهد بلا انقطاع، فلا نُطيع الخطيّة بالمرّة، بل نقف أمامها جامدين كالموتى.

❖ ماذا يعني "**اعتمدنا لموته**"؟ يقصد موتنا نحن كما مات هو. فالمعموديّة هي الصليب، وما كان الصليب والدفن بالنسبة للمسيح تكون المعموديّة بالنسبة لنا، ولو أن التطابق ليس تمامًا. لأنه هو مات ودُفن بالجسد، أمّا نحن فنمارس الاثنين (الموت والدفن) بالنسبة للخطية.

لم يقل "متّحدين معه بموته" وإنما قال "**بشبه موته**" **[٥]**، فإن هذا وذاك هما موت، لكن موضوع الموت مختلف، المسيح مات بالجسد، أمّا نحن فنموت عن الخطيّة التي من عندياتنا[2].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ واضح أن من يعتمد يُصلب فيه ابن الله، فإن جسدنا لا يقدر أن يطرد الخطيّة ما لم يصلب مع يسوع المسيح[3].

القدّيس أمبروسيوس

❖ لندفن مع المسيح بالمعموديّة لنقوم معه!
لننزل معه لكي نرتفع أيضًا معه!
لنصعد معه، فنتمجّد أيضًا معه![4]

القدّيس غريغوريوس النزينزي

---

[1] *In Rom. hom 10.*
[2] *In Rom. hom 10.*
[3] *Concerning Repentance, 2: 3(9).*
[4] *Oration on Holy Baptism 9.*

❖ الآن إن كنّا نتمثل بموته، فالخطيّة التي فينا تكون بالتأكيد جثمانًا ميتًا، تُجرح برمح المعموديّة كما ضرب فينحاس الغيور الزاني بالرمح[1] (عد ٢٥: ٦-١٥).

القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص

ويلاحظ في حديثه عن تمتّعنا بالحياة الجديدة في مياه المعموديّة الآتي:

أولاً: يربط الرسول بين الصلب والدفن والقيامة، أو بين الموت مع السيد المسيح والحياة معه بقوّة قيامته. فإن كانت المعموديّة هي دفن، فهي في نفس الوقت قيامة، بهذا نفهم طريق المسيح كطريق كرْب، وفي نفس الوقت طريق مُبهج، لأنه طريق الألم مع المسيح والقيامة معه. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تمتّعنا بقيامته ليس أمرًا مستقبليًا فحسب، إنما هي حياة حاضرة نعيشها في حياتنا اليومية.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** إذ يلمح هنا عن التزامنا بالسلوك المدقق يُشير إلى موضوع القيامة... فإنه يقصد بكلماته هكذا: أتؤمن أن المسيح مات وقام؟ آمن بهذا من جهة نفسك، فالقيامة كالصلب والدفن هي خاصة بك. إن كنت تشترك في الموت والدفن فبالأولي أن تشترك في القيامة والحياة. إن كانت الخطيّة، الأمر الأصعب، قد أُزيلت فبلا شك يُنزع الموت الأمر الأقل (فتنال القيامة) الآن. إذ يقدّم لنا القيامة فإنه يسألنا أمرًا آخر هو تغيير (تجديد) عاداتنا هنا (بكونها قيامة عاملة فينا). فعندما يصير الزاني عفيفًا والطماع رحيمًا والعنيف مطيعًا، بهذا تكون القيامة عاملة هنا كعربون للقيامة الأخرى. كيف يُحسب هذا قيامة؟ لأن الخطيّة تموت والبرّ يقوم، الإنسان القديم ينتهي، والجديد الملائكي يعيش[2].

يكمل **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** حديثه عن الموت مع المسيح والقيامة معه في جرن المعموديّة، مبرزًا دورنا الإيجابي في "الإماتة". فإن كان السيد المسيح يهبنا أن نموت معه في المعموديّة، إنما ليقدّم لنا إمكانية السلوك والجهاد كل أيام غربتنا بلا توقف، حتى لا نفقد نعمة المعموديّة أو ثمرها فينا، أي حتى لا نفقد تمتّعنا بالموت مع المسيح. يقول **القدّيس الذهبي الفم:**

[يتحدّث الرسول عن نوعين من الإماتة والموت، الأولي هي عمل المسيح (فينا) في المعموديّة، والثاني نمارسه بشغف بعد المعموديّة؛ فدفن خطايانا السابقة هو هبة منه، لكن أن نبقى أمواتًا عن الخطيّة بعد المعموديّة، فيلزم أن يكون موضع شغفنا لنجد الله نفسه معينًا لنا. فإن سلطان المعموديّة

[1] *On Baptism of Christ.*
[2] *In Rom. hom 10.*

لا يقف عند محو معاصينا السالفة، إنما تهبنا أمانًا من جهة المعاصي اللاحقة. بالنسبة للخطايا السابقة نساهم نحن بالإيمان لكي تُمحى، وهكذا أيضًا بالنسبة للخطايا اللاحقة يلزمك إظهار تغيير نيّتك مؤكدًا أنك لا تدنّس نفسك بعد. هذا هو ما يُشير به عليك الرسول بقوله: "**إن كنّا قد اتحدنا (زرعنا) معه في شبه موته نصير أيضًا بقيامته**" **[٥]**. ألا تلاحظ كيف يستثير سامعه ليقوده إلى سيده محتملاً آلامًا كثيرة ليصير على شبهه؟ لهذا لم يقل: "اتّحدنا (زُرعنا) معه في موته" لئلاّ تعارضه بل قال: "**في شبه موته**". لأن جوهرنا لا يموت بل "إنسان الخطيّة" أي "الشرّ" هو الذي يموت.

"**إن كنّا قد زرعنا معه**"؛ فبإشارته للزرع هنا يلمح إلى الثمر الذي ينتج عنه، فكما أن جسد (المسيح) بدفنه في الأرض قدّم لنا ثمر الخلاص للعالم، هكذا نحن أيضًا إذ ندفن في المعموديّة نحمل ثمر البرّ والتقديس والتبنّي وبركات بلا حصر، كما نحمل بعد ذلك عطيّة القيامة.

نحن دفنا في المياه، أمّا هو ففي الأرض. نحن دُفنا عن الخطيّة، أمّا هو فمن جهة الجسد، لذلك لم يقل: "زُرعنا معه في موته" وإنما "**في شبه موته**"... لكنه لم يقل: "نصير أيضًا في شبه قيامته" بل "**بقيامته**" ذاتها[1].]

ثانيًا: غاية المعموديّة إننا إذ نُصلب مع السيد المسيح ننعم بالحياة المُقامة الجديدة، فنعيش هنا بفكر سماوي متمتعين بعربون الميراث الأبدي.

❖ الغنوسي (صاحب المعرفة الروحيّة الحقيقية) لن يضع غايته الرئيسية في الحياة (الزمنيّة) إنما يبقي على الدوام سعيدًا ومطوّبًا وصديقًا ملوكيًا لله[2].

القدّيس إكليمنضس السكندري

❖ يتقبل المعمدون الميراث، هؤلاء الذين يعتمدون بموت المسيح ويدفنون معه ليقوموا معه. لذا فهم ورثة الله ووارثون مع المسيح (رو ٨: ١٧)، ورثة الله لأن نعمة المسيح توهب لهم؛ وورثة مع المسيح، لأنهم يتجدّدون بحياته، وهم أيضًا ورثة المسيح إذ وهبهم الميراث بموته، كما لو كانوا ورثة للموصي[3].

القدّيس أمبروسيوس

ثالثًا: إذ أراد الرسول تأكيد حقيقة القيامة لم يقل "نصير أيضًا بشبه قيامته" بل "**بقيامته**" عينها،

---

[1] *In Rom. hom 11.*
[2] *Strom. 4: 7.*
[3] *Ep; 63: 11.*

قدّم لنا عربون هذه القيامة المقبلة خلال حياتنا الزمنيّة، قائلاً: "**عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه، ليبطل جسد الخطيّة، كي لا نعود نُستعبد أيضًا للخطية، لأن الذي مات قد تبرّأ من الخطيّة، فإن كنّا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضًا معه**" **[٦-٨]**. لنمت هنا عن الخطيّة فنحيا للبرّ. هذه هي القيامة الأولى التي يدعوها الرسول "**جدّة الحياة**" **[٤]**، عربون القيامة الأخيرة.

"**جسد الخطيّة**": الذي يبطل هو شرور الإنسان وآثامه التي عاشت فيه فمات روحيًا. بالمعموديّة يموت الإنسان القديم بهذا الجسد، أي "الآثام"، ليُمارس قوّة القيامة كحياة جديدة، بفكرٍ جديدٍ وتسبحةٍ جديدة.

يقول **القدّيس جيروم:** [حتى التسبحة التي نتغنّى بها جديدة (رؤ ١٤: ٣) إذ نخلع الإنسان القديم (أف ٤: ٢٢)، فلا نسير في عتق الحرف بل في جدة الروح (رو ٧: ٦)... أنه لا يسعفني الوقت لأحاول تقديم كل عبارات الكتب المقدّسة الخاصة بفاعلية المعموديّة شارحًا لك التعاليم السرية الخاصة بهذا الميلاد الجديد الذي هو ميلاد ثانٍ لكنه يُحسب الأول في المسيح[1].]

حاول كثير من الآباء تأكيد أن الذي يموت في المعموديّة ليس "الجسد" إنما "جسد الخطيّة"، مظهرين خطأ بعض الأفكار الغنوسية التي تنظر إلى الجسد (الجسم) كعنصر ظلمة يجب الخلاص منه ومقاومته. فإننا نؤمن بأن الله لم يخلق فينا عنصر ظلمة، ولا شرًا، وأن الجسد بأحاسيسه وعواطفه وقدراته هو من صنع الله الصالح. إنما نحن أفسدناه بانحراف الأحاسيس والعواطف عن غايتها وانحراف الحب إلى الشهوة والدنس. وكما يقول **العلامة ترتليان** في مقاله عن "قيامة الجسد": [الجسد ليس مضادًا للخلاص بل أعمال الجسد (المنحرفة). عندما تُنزع عنه هذه الأعمال المسببة للموت يظهر الجسد في أمان ويتحرّر من كل علّة الموت[2].] ويكمل حديثه بإفاضة[3] مؤكدًا أن الذي يصلب مع المسيح ليس هيكل الجسد ولا كيانه الذاتي، إنما سلوكه الأخلاقي (أو الطبيعة الفاسدة) وأحاسيس الخطيّة التي طرأت عليه، مدلّلا على ذلك بأن الرسول لم يقل: "كي لا نعود نستعبد أيضًا للجسد" بل قال: "**للخطية**" **[٦]**. وأيضًا لم يقل: "احسبوا أنفسكم أمواتًا عن الجسد" وإنما قال: "**عن الخطيّة**" **[١١]**. وقد سبق لي معالجة هذا الموضوع في مقدّمة كتاب "العفة" **للقديس أغسطينوس** الذي سبق لي ترجمته ونشره.

رابعًا: إن كنّا نقبل أن نبقى في حالة "موت عن الخطيّة" فما هي المكافأة؟ "**فإن كنّا قد متنا مع**

---

[1] *Ep. 69: 7.*
[2] *On Resurrection of the Flesh 46.*
[3] *On Resurrection of the Flesh, 47.*

المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضًا معه" **[٨]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أنه إذ يطلب الرسول منّا أن نقوم بهذا الدور البطولي أن نموت عن الخطيّة، فنصير بالنسبة لها كمن هو مُلقي جامدًا بلا حراك، فلا نشوّه عطيّة الله التي وُهبت لنا في المعموديّة يقدّم لنا الأكاليل: "الحياة مع المسيح"، قائلاً "**سنحيا أيضًا معه**". [حقًا حتى قبل نوالنا الإكليل، فإن الشرّكة مع سيدنا هي في ذاتها أعظم إكليل[1].]

خامسًا: لئلاّ يستثقل المؤمن هذا الطريق: "**الموت مع المسيح**"، خاصة وأنه يطالبنا به كل أيام غربتنا بعد تمتّعنا بالدفن معه في المعموديّة، أوضح الرسول جانبين: الأول أن هذا الموت هو "مع المسيح"، يرافقنا الطريق بكونه الحياة والقيامة، فلا يستطيع الموت أن يحطمنا، والثاني أن المسيح مات مرة واحدة عن خطايانا وقام، فلا يعود يموت ثانية، هكذا يهبنا قوّة القيامة والغلبة على الخطيّة. بهذا لا يكون موتنا عن الخطيّة حرمانًا أو خسارة، بل ممارسة لقوّة الغلبة والنصرة التي لنا بالمسيح غالب الخطيّة والموت. هذا هو ما قصده الرسول بقوله: "**عالمين أن المسيح بعدما أقيم من الأموات لا يموت أيضًا، لا يسود عليه الموت بعد، لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة، والحياة التي يحياها فيحياها لله، كذلك أنتم أيضًا احسبوا أنفسكم أمواتًا عن الخطيّة، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا**" **[٩-١١]**.

أكد الرسول أن السيد المسيح لم يمت عن ضعف خاص به، إنما "**للخطية**"، لكي يحطم خطايانا ويبدّد قوّتها، لهذا لم يعد لها سلطان علينا مادمنا في اتحاد معه. حقًا الخطيّة خاطئة جدًا وعنيفة، بسببها مات المسيح عنّا مرة واحدة، لكنه بموته هدم سلطانها، فلا نخاف من السير معه في هذا الطريق.

لقد مات المسيح مرة واحدة بلا تكرار، لأنه لم يمت عن ضعف بل عن قوّة الحب الباذل، لكي إذ لا يموت مرة أخرى يهبنا أن نشترك معه في موته وأن نشاركه قيامته التي لا يغلبها الموت.

❖ هذه هي نعمة الله، وهذه هي طرق الله في إصلاح بني البشر، فإنه تألم ليحرّر الذين يتألّمون فيه،
نزل لكي يرفعنا،
قبل أن يولد حتى نحب ذلك الذي هو ليس (بإنسان مولود عادي)،
نزل إلى حيث (الموت) ليهبنا عدم الموت،

[1] *In Rom. hom 11.*

صار ضعيفًا لأجلنا حتى ننال قوة...

أخيرًا صار إنسانًا حتى نقوم مرة أخرى نحن الذين نموت كبشر، ولا يعود يملك الموت علينا، إذ تعلن الكلمات الرسولية قائلة: "**لا يسود علينا الموت بعد**[1]" **[راجع ٩، ١٤]**.

القدّيس البابا أثناسيوس الرسولي

لقد أكد الرسول أن المسيح مات مرة واحدة عن الخطيّة، لهذا ففي سرّ الإفخارستيا نقبل السيد المسيح الذي مات مرة على الصليب، فنقبل ذات عمل الصليب الذي لا يتكرّر، إنما هو ممتدّ في حياة الكنيسة كسرّ غلْبتها على الخطيّة والموت، ويبقى سرّ تسبيحها الذي لا ينقطع حتى في الأبدية.

مات السيد المسيح مرة واحدة عن الخطيّة، مقدمًا ذبيحة الحب باسمنا، هذه التي يشتهي أن يقدّمها في حياة شعبه وخدامه. يروي لنا **القدّيس أمبروسيوس**[2] قصة لقاء السيد المسيح مع القدّيس بطرس عند أبواب روما وهو خارج تحت ضغط المؤمنين ليهرب من الاستشهاد، فرأى السيد حاملاً صليبه، فعرف أنه يريد أن يُصلب في شخص خادمه، لهذا عاد إلى روما، وقدم نفسه للموت من أجل المسيح، وتمجّد ربنا يسوع بصلبه.

سادسًا: إن كان المسيح قد مات "**للخطية**" كي لا يكون لها سلطان علينا، فإنه لا يليق بنا إلا أن نسلِّم القلب عرشًا له، بعد أن ملَكت عليه الخطيّة زمانًا. لنمت عن الخطيّة، فلا تملك علينا بعد. ولنحيا لله بالمسيح يسوع ربنا الذي يملك فينا، ويقيم مملكته داخل قلوبنا، مقدّمين كل أعضاء جسدنا وطاقاتنا وعواطفنا لحساب ملكوته، كآلات برّ لله بعد أن كانت خاضعة للشهوات كآلات إثم للخطية.

هذا ما عناه الرسول بولس بقوله: "**كذلك أنتم أيضًا احسبوا أنفسكم أمواتًا عن الخطيّة ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. إذن لا تملكنّ الخطيّة في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته، ولا تقدّموا أعضائكم آلات إثم للخطية، بل قدّموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات، وأعضاءكم آلات برّ لله، فإن الخطيّة لن تسودكم، لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة**" **[١١-١٤]**.

يوضّح الرسول أن المسيح يسوع ربنا هو الذي يهبنا الموت عن الخطيّة والحياة للآب كأبناء له؛ وهو الذي يحطم الشهوة الشرّيرة لا الجسد ذاته، محوِّلاً أعضاء الجسد من آلات إثم للخطية إلى آلات برّ لله، لهذا وجب أن يملك هو فينا لا الخطيّة.

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** في قول الرسول "**لا تملكن الخطيّة**" (رو ٦: ١٢) إعلانًا عن

---

[1] *Paschal Ep.,10: 8.*

[2] *Sermon. Against Auxentius 13.*

استعباد الخطيّة لإنسان، إذ تودّ أن تحكمه بالقوّة والقهر. لذا من يعود إليها بعدما تمتّع بنعمة المسيح يكون كمن قذف بالتاج من على رأسه ليحني رقبته لعبودية امرأة مجنونة مهلهلة الثياب وعنيفة. أمّا قوله "**في جسدكم المائت**" إنما لكي يوضّح الرسول أن الجهاد مؤقت وله نهاية مادام مرتبط بجسدنا الزمني.

فيما يلي بعض مقتطفات للآباء بخصوص ملكية المسيح فينا وملكية الخطيّة علينا:

❖ لا يجسر أحد أن يقول: "**ملكي وإلهي**" (مز ٥: ١) إلا ذلك الذي لا تملك الخطيّة في جسده المائت...

أنت تملك فيّ، أمّا الخطيّة فلا تملك، لأنك أنت إلهي!

أنت هو إلهي، لأن بطني ليست إلهًا لي، ولا الذهب ولا الشهوة!

أنت هو الفضيلة، أودّ أن أقتنيك!

أنت هو إلهي، أنت هو فضيلتي![1]

القدّيس جيروم

إنها كرامة عظيمة وشرف كبير أن يكون الإنسان عبدًا للرب لا للخطية[2].

❖ "**قلب الملك في يدّ الرب**" (أم ٢١: ١). لنكن ملوكًا فنحكم جسدنا (من الخطيّة) ونخضعه، فيكون قلبنا في يد الله[3].

القدّيس جيروم

❖ هذا هو عملنا الحالي مادامت حياتنا مستترة، ألا نملك الخطيّة أو شهوة الخطيّة في جسدنا المائت، فإننا إن كنّا نطيع شهوتها تملك علينا.

شهوة الخطيّة فينا، لكنّنا لا نسمح لها أن تملك علينا. ورغبتها موجودة، لكن يلزم ألا نطيعها حتى لا تسيطر علينا. فإذ لا نسمح للشهوة أن تغتصب أعضاءنا بل للعفة أن تطلبها كحق لها، بهذا تكون أعضاؤنا آلات برّ لله وليست آلات إثم للخطية. بهذا لا تسودنا الخطيّة، لأننا لسنا تحت الناموس الذي يأمر بما هو للخير دون أن يهبه، بل تحت النعمة التي تحببنا بما يأمر به الناموس، وهي قادرة على السيطرة على (الإرادة).

---

[1] *On Ps. hom 5.*
[2] *On Ps. Hom, 40.*
[3] *On Ps. Hom, 55.*

❖ مادامت الخطيّة بالضرورة موجودة في أعضائك فلا تجعل لها سلطان عليك لتملك، وإنما على الأقل اطردها ولا تطع متطلباتها.

هل يثور فيك الغضب؟ لا تُخضِع له لسانك بالنطق بكلمة شريرة، ولا تُخضع له يدك أو قدمك كأن تضرب بهما. ما كان يمكن للغضب غير المتعقل أن يثور فيك لو لم توجد الخطيّة في أعضائك، ولكن أُطرد قوّتها الحاكمة، فلا يكون لها أسلحة لمحاربتك، عندئذ تتعلم هي ألا تثور فيك إذ تجد نفسها بلا أسلحة...

هكذا يليق بكل أحد أن يجاهد إذ يبغي الكمال، حتى إذ تجد الشهوة نفسها بلا استجابة من الأعضاء تقل يومًا فيومًا خلال رحلتها[1].

القدّيس أغسطينوس

❖ "**إذن لا تملكن الخطيّة في جسدكم المائت**" **[١٢]**... لم يقل: "لا تدعها توجد هناك" لأنها هي موجودة فعلاً.

❖ ما دمت تحمل جسدًا قابلاً للموت تحاربك الخطيّة؛ لكن ليتك لا تجعلها تملك... أي اقطع رغباتها. فإن بدأتَ تطيعها تملك عليك.

ماذا يعني "تطيع"؟ تخضع أعضاؤك كآلات إثم للخطية[2].

القدّيس أغسطينوس

سابعًا: مرة أخرى يؤكّد الرسول أن الدعوة للموت مع المسيح لا تعني تحطيم كيان الجسد بل تقديسه، فقد رأينا في الحديث عن المعموديّة أن الإنسان العتيق الذي يُصلب **[٦]** إنما يبطِل جسد الخطيّة لا أعضاء الجسد في ذاتها، والآن إذ يتحدّث عن الجهاد بعد المعموديّة خلال إمكانيات المعموديّة أو خلال "عمل النعمة" فينا يؤكّد أن الدعوة للموت مع المسيح ليست دعوة سلبيّة للخسارة والتبديد، وإنما دعوة إيجابيّة للربح. فالموت هنا هو ربح، إذ فيه تمتّع بالمعيّة مع المسيح المصلوب القائم من الأموات، القادر لا على تحطيم أعضاء الجسم كآلات إثم للخطية وإنما بالأحرى يقيمها آلات برّ لله، واهبًا إيّاها تقديسًا من عنده.

يقول الرسول: "**ولا تقدّموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل قدّموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات برّ لله**" [١٣].

---

[1] *On Continence 8; In Ioan. tr 41: 12.*
[2] *Serm on N.T. 78: 8, 12.*

والعجيب قبل أن يطالبنا بتقديم أعضاءنا آلات برّ لله يطالبنا بتقديم "**ذواتنا لله كأحياء من الأموات**"، بمعنى أنه لن تتقدّس أعضاؤنا الجسديّة ما لم يتقدّس كياننا ككل، ونقبل القيامة عاملة في نفوسنا كما في فكرنا وجسدنا الخ...

❖ الأعضاء عينها التي اعتدنا أن نخدم بها الخطيّة ونجلب بها ثمرة الموت يريدنا الله أن نستخدمها للطاعة للبرّ فنثمر للحياة[1].

القدّيس إيريناؤس

يرى **القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص** أنه إذ يتقدّس الإنسان في كُلّيته، خاصة النفس، تتحوّل الأعضاء الجسديّة من آلات إثم إلى آلات برّ لمجد الله. فتكون النفس كالمرأة التي وجدت الدرهم المفقود (لو ١٥)، فدعت جيرانها ليفرحوا معها ويشاركونها بهجتها بالدرهم. هكذا أعضاؤنا أشبه بالجيران، ندعوها لتمارس فرحنا بخلاص الرب عمليًا!

ثامنًا: يختم الرسول بولس حديثه عن عمل المعموديّة الملتحم بالجهاد الروحي، قائلاً: "**فإن الخطيّة لن تسودكم، لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة**" **[١٤]**، مؤكدًا الإمكانيات الجديدة التي صارت لنا خلال النعمة، التي تعمل فينا في مياه المعموديّة كما في جهادنا اليومي، الإمكانيات الواهبة للغلبة والنصرة.

٢. الحرّية في المسيح يسوع

إذ ركّز الرسول بولس أنظارنا نحو المعموديّة كأبناء لله، نمارس هذه البنوّة خلال موتنا مع المسيح وحياتنا معه كل أيام غربتنا، أراد أن يصحّح مفهومًا خاطئًا استقر في ذهن اليهود، ألا وهو أنهم أحرار لمجرد انتسابهم لإبراهيم جسديًا، الأمر الذي وضح في حوارهم مع السيد المسيح حين أعلن لهم: "أنكم إن ثبتّم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يحرركم" (يو ٨: ٣١-٣٢)، "أجابوه: إننا ذُرّية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول أنت أنكم تصيرون أحرارًا؟ أجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل الخطيّة هو عبد للخطية، والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أمّا الابن فيبقى إلى الأبد، فإن حرّركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحرارًا" (يو ٨: ٣٣-٣٦).

يلاحظ في حديث الرسول بولس هنا عن الحرّية التي صارت لنا في المسيح يسوع الآتي:

أولاً: يستخدم الرسول أسلوب التشجيع، إذ يقول: "**فشكرًا لله أنكم كنتم عبيدًا للخطية، ولكنكم**

[1] *Adv. Haer 5: 14: 4.*

أطعتم من القلب صورة التعليم التي تسلّمتموها، وإذ أُعتقتم من الخطيّة صرتم عبيدًا للبرّ" [١٧-١٨]. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أنه يعود فيُدخل الثقة في نفوسهم بعد أن أزعجهم بالخزي وأرعبهم بالعقاب، مظهرًا لهم أنهم بالفعل نالوا الحرّية من شرورٍ كثيرة بفضل النعمة الإلهية، لذا وجب عليهم تقديم الشكر لله على هذه العطية. بمعني آخر، إن كان الرسول يدعونا للحرية، فإنه يدعونا لحياة نمارسها بالنعمة، يجب أن تزداد وتلتهب فينا.

ثانيًا: بقوله "**أطعتم من القلب**" يُشير إلى أن الحرّية التي نمارسها لا تتحقق عن اضطرار، إنما تُمارس خلال الحب "**من القلب**" بكمال إرادتنا. فالحرّية في المسيح هي عبودية للبرّ **[١٨]** لكنها عبودية الحب الاختياري وليس عبودية العنف الإلزامي؛ عبودية النضوج والالتزام بلا استهتار أو تسيّب!

❖ لا يقل المسيحي أنني حرّ، أفعل ما يحلو لي، ليس لأحد أن يكبح إرادتي مادمت حرًا. إن كنت بهذه الحرّية ترتكب خطيّة فأنت عبد للخطية.

لا تفسد حريتك بالتحرّر للخطية، إنما لاستخدامها في عدم ارتكاب الخطيّة. "فإنكم إنما دُعيتم للحرّية أيها الإخوة، غير أنه لا تُصيّروا الحرّية فرصة للجسد بل بالمحبّة اخدموا بعضكم بعضًا" (غل ٥: ١٢) [1].

القدّيس أغسطينوس

ثالثًا: ما هي صورة التعليم التي تسلّمناها لنطيعها من القلب؟ "**إذ أُعتقتم من الخطيّة صرتم عبيدًا للبرّ**"... أي خروج بالنعمة من حالة العبوديّة القاسية التي أذلتنا بها الخطيّة إلى حالة عبودية للبرّ يبتهج بها قلبنا بالحب الداخلي.

رابعًا: يقول الرسول: "**أتكلم إنسانيًا من أجل ضعف جسدكم**" **[١٩]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول يتكلّم معهم بكونه إنسانًا، يشاركهم ذات العمل، فهو لا يتحدّث متعاليًا عن أمر عسير صارم، إنما يوصيهم كإنسان يحمل معهم ذات طبيعتهم، وله خبرة عمليّة أنه كان قبلاً يستخدم أعضاءه لخدمة الإثم وقد تحررت، فصارت أعضاؤه متعبدة للبرّ.

خامسًا: يقارن الرسول بين العبوديّة للإثم والعبوديّة للبرّ، فيرى الأولى قاسية ومخزية، إذ يقول

[1] *In Ioan tr. 41: 8.*

"**تستحون منها**" **[٢١]** ونهايتها الموت **[٢١]**، أمّا الثانية فعلى العكس تهب تقديسًا ونهايتها حياة أبدية **[٢١]**. فإن كانت الأولي تثمر عارًا وموتًا، فالثانية تثمر قداسة وحياة أبدية. ويرى **الأب موسى** أن الثمر الثاني يحمل مستويين: الهدف النهائي وهو الحياة الأبدية، وأمّا الهدف الحالي فهو "القداسة" التي هي "نقاوة القلب" والتي بدونها لن ننعم بالحياة الأبدية[1]. وكأن العبوديّة للبرّ تسندنا في زماننا الحاضر بثمرها الذي للبرّ حيث تهب القلب نقاوة، فيقدر على معاينة الله، وتدخل بنا إلى العالم الأبدي، إذ تهبنا "الحياة الأبدية".

سادسًا: إذ يتحدّث الرسول بولس هنا عن "**الحياة الأبدية**" **[٢٤]** كعطيّة مجّانية للنعمة، يتساءل **القدّيس أغسطينوس:** كيف يمكن أن تكون "الحياة الأبدية" جزاءً لأعمال صالحة (مت ١٦: ٢٧) وفي نفس الوقت عطيّة مجّانية للنعمة؟ وقد جاءت إجابته بإسهاب في كتابه عن "النعمة والإرادة الحرة[٢]"، نقتطف منها الآتي:

[يبدو لي أن هذا السؤال لا يمكن حلّه مطلقًا ما لم نفهم أنه حتى الأعمال الصالحة التي نجازى عنها بالحياة الأبدية هي من عمل نعمة الله، لأنه عن ماذا قال الرب يسوع: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا"؟ (يو ١٥: ٥)

والرسول نفسه بعدما قال: "لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطيّة الله، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" (أف ٢: ٨-١٠) رأي بالطبع أن البشر يمكنهم أن يفهموا من هذه العبارة أن الأعمال الصالحة ليست هامة للمؤمنين، إنما يكفيهم الإيمان وحده، وفي نفس الوقت يرى أولئك المفتخرون بأعمالهم كما لو أنهم قادرون وحدهم على تنفيذها، لهذا وفّق بين هذه الآراء بعضها البعض... مكملاً: "لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيه"...

اسمع الآن وافهم إن عبارة: "**ليس من أعمال**" قيلت عن الأعمال التي تظن أن مصدرها هو أنت وحدك. لكن لتفتكر في الأعمال التي يشكِّلها الله فيك. عن هذه يقول: "نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع" "لأعمال صالحة قد سبق فأعدها الله لكي تسلك فيها"...

على أي الأحوال تُعطى الحياة الأبدية هكذا، كجزاء لأعمال صالحة، لأن الله يعمل أعمالاً صالحة في أناس صالحين، قيل عنهم: "الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل مسرّته"، حتى أن

---

[1] *Cassian: Conf 1: 5.*

[٢] للمؤلف: النعمة والإرادة الحرة، طبعة ١٩٦٩ ص ٣٨-٤٢.

المزمور المطروح أمامنا يقول: "الذي يكلّلك بالرحمة والرأفة" (مز ١٠٣: ٤)، إذ من خلال رحمته تنفذ الأعمال الصالحة التي بها تنال الأكاليل.]

الأصحاح السابع

الناموس فاضح الخطيّة

بعد تفنيده للحُجَّة الأولى لليهود الخاصة ببنوّتهم لإبراهيم الحرّ رافعًا إياهم إلى البنوّة للتمتع بالحريّة الحقيقية، أخذ يفنّد الحُجّة الثانية الخاصة باستلامهم الناموس الموسوي دون سواهم، معلنًا أن الناموس يفضح الخطيّة ولا يعالجها، لذا فهو لا يُبرّر الخطاة، إنما يقودهم إلى المسيح لينعموا ببرّه.

١. الحاجة إلى التحرّر من الناموس ١–٦.

٢. الناموس يفضح الخطية ٧–١٣.

٣. ناموس الله وناموس الخطيّة ١٤–٢٥.

١. الحاجة إلى التحرّر من الناموس

الناموس الذي يفتخرون به يمثل رجلاً يحكم على امرأته الخاطئة بالموت؛ إنه يدينها! فالحاجة الآن إلى التحرّر من حكمه هذا بدخول آخر كرجل لها بعد أن يموت حكم الأول فتتحرر من سلطانه. بمعنى آخر، يلزم أن يتحرّر الإنسان من حكم حرفيّة الناموس ليتقبل العريس الآخر ربنا يسوع.

"أم تجهلون أيها الإخوة، لأني أكلم العارفين بالناموس،
أن الناموس يسود على الإنسان ما دام حيًا.
فإن المرأة التي تحت رجل هي مرتبطة بالناموس بالرجل الحيّ،
ولكن إن مات الرجل فقد تحررت من ناموس الرجل،
فإذًا مادام الرجل حيًا تدعى زانية إن صارت لرجلٍ آخر،
ولكن إن مات الرجل فهي حرة من الناموس،
حتى أنها ليست زانية إن صارت لرجلٍ آخر.
إذًا يا إخوتي أنتم أيضًا قد متم للناموس بجسد المسيح،
لكي تصيروا لآخر للذي قد أقيم من الأموات لنثمر لله" [١–٤].

يلاحظ في هذا النص الرسولي:

أولاً: إذ كان الرسول بولس يعالج موضوع افتخار اليهود على الأمم بكونهم مستلمي الناموس، أراد وهو يحطّم كبرياءهم هذا ألاّ يهاجم الناموس ذاته، لأنه ناموس الله المقدس، إنما يهاجم مستخدميه. يظهر ذلك في دقة العبارات التي استخدمها الرسول هنا وهو يتحدّث عن الناموس، إذ نراه يكتب بحساسية شديدة:

أ. وهو يقدّم مثل المرأة المرتبطة برجل كمثال للأمة اليهوديّة المرتبطة بالناموس، يقول: "**لأني أكلم العارفين بالناموس**" **[١]**... كأنه في نفس المثال يتحدّث ناموسيًا، عن أمور واضحة يحكم فيها الناموس نفسه، أو بمعنى آخر يُعلن الرسول أنه يقبل حكم الناموس ذاته في هذا الأمر، أو يلتجئ إلى حكم الناموس لأنه عادل ومقدس.

ب. في مثل المرأة المرتبطة برجل اكتفى بذكر موت الرجل لتُحرّر المرأة من سلطانه، فلا تُحسب زانية إن تزوجت آخر. فالمرأة هنا تُشير إلى الكنيسة، سواء على مستوى الجماعة أو كل عضو فيها. فالمؤمن لا يقدر أن يرتبط بحرف الناموس وأعماله الرمّزية مع أعمال النعمة الإلهية، وإلا حُسب كامرأة اقترنت بعريسين.

هذا ويلاحظ دقّة تعبير الرسول بولس، فإذ يتحدّث عن اقتران الإنسان بالناموس لم يتعرض لموت الناموس نفسه كي يتحرّر الإنسان منه، بل في دقّة بالغة يقول: "**قُتِّ متم للناموس**"... وكأن الذي يموت هو الإنسان للناموس ليحيا للمسيح. قال هذا حتى لا يظن أحد أن الرسول يقاوم الناموس نفسه ويطلب الخلاص منه، إنما الحرّية من حكمه، ومن حرفيته القاتلة.

مرة أخرى يقول: "**أن الناموس يسود على الإنسان مادام حيًا**" **[١]**، لكن إن مات الإنسان فلا يخضع لشرائع الناموس الحرفيّة وأعماله.

ثانيًا: في المثال الذي بين أيدينا يقدّم لنا الرسول امرأة ورجلين، فإن المرأة تبقى تحت ناموس الرجل الأول مادام حيًا، فإن مات تحرّرت من سلطانه لترتبط بالآخر، ولا تُحسب هذه الأرملة زانية. فإن كانت المرأة تمثل جماعة المؤمنين، والرجل الأول هو الناموس، والثاني هو السيد المسيح، فإن المؤمنين إذ يرتبطون بالناموس يخضعون لأعماله، ويسقطون تحت الحكم الصادر منه. لذا صارت الحاجة أن يتحرّر المؤمنون من هذا السلطان، أي حرفيّة أعماله، وإيفاء الحكم الصادر منه بموتنا، كي نرتبط بالثاني، أي السيد المسيح القائم من الأموات. وقد تحقّق هذا الموت للناموس والتحرّر منه

خلال موت المسيح عنّا، إيفاءً للحكم الصادر ناموسيًا ضدّنا! بهذا لم يكسر المسيح الناموس بل أكمله، وحقّق غايته، بدخوله كعريسٍ للجماعة المقدّسة خلال موته بالصليب، لتعيش معه عروسًا متّحدة معه أبديًا بلا انفصال عنه.

إذن موتنا للناموس لحساب اتحادنا مع السيد المسيح لا يعني انهيارًا للناموس، إنما يعني تحقيق غايته بتقديمنا للرجل الآخر الذي أُقيم من الأموات لنقوم معه. أكَّد الرسول التزامنا بالزواج الثاني، قائلاً:

"إنكم لستم لأنفسكم" (١ كو ٦: ١٩).

"قد اشتُريتم بثمن، فلا تصيروا عبيدًا للناس" (١ كو ٧: ٢٣).

"وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام" (٢ كو ٥: ١٥).

ثالثًا: أنجب هذا الزواج ثمرًا لحساب الله، إذ يقول: "**لنثمر لله**" **[٤]**، على عكس الزواج السابق حين كان المؤمنون تحت سلطان الرجل الأول، أي تحت الناموس الموسوي، فإنهم لم يستطيعوا أن يُثمروا لله لا لسبب خاص بالناموس ذاته، وإنما بسبب طبيعة العصيان التي كانت لهم، لذا جاء الثمر هو: "**حكم الناموس علينا بالموت**".

يقارن الرسول بين الثمرين: ثمر الاتحاد بالرجل الأول المعلن حكمه علينا بسبب شر طبيعتنا وثمر الاتحاد بالثاني الذي يحررنا من الحكم الناموسي، مقدمًا لنا إمكانيات جديدة: "**لنثمر لله، لأنه لما كنّا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا لكي نُثمر للموت، وأمّا الآن فقد تحرّرنا من الناموس إذ مات الذي كنّا ممسكين فيه، حتى نعبد بجدّة الروح لا بعُتق الحرف**" **[٤-٦]**.

يقول **القدّيس يوحنا ذهبي الفم:** [ها أنتم ترون ما قد نلناه من الزوج السابق! إنه لم يقل: "لما كنّا في الناموس"، إذ في كل عبارة يحجم عن أن يعطي فرصة للهراطقة (باحتقار الناموس)، بل يقول "**لما كنّا في الجسد**"، أي كنّا في الأفعال الشرّيرة، في الحياة الجسدانيّة. ما يقوله لا يعني أنهم كانوا قبلاً في الجسد وأنهم الآن بدون أجسام، إنما يقصد بقوله هذا أنه ليس الناموس هو سبب الخطايا، وفي نفس الوقت لا يحرّر من خزيها، إذ قام بدور المتّهم القاسي بفضح خطاياهم، حيث أن الذين يرتبطون به أكثر لا يفكّرون في الطاعة نهائيا، الأمر الذي يكشف نهاية عصيانهم بصورة أقوى. هذا

ما جعله لا يقول: "كانت أهواء الخطايا التي أنتجها الناموس" بل قال "**كانت أهواء الخطايا التي بالناموس (خلاله)**"... بمعنى أنه خلال الناموس صارت ظاهرة ومعلنة. كذلك لم يتّهم الجسد ذاته، إذ لم يقل: "الأهواء التي ارتكبتها الأعضاء"، وإنما التي "**تعمل في أعضائنا**"، ليظهر أن أصل الضرر جاء من موضع آخر، وهي الأفكار التي تعمل فينا، وليست الأعضاء التي تعمل الأهواء فيها. فإن النفس تقوم بدور اللاعب على القيثارة التي هي الجسد، فتلزمه بذلك. فالنغم غير المنسجم لا ينسب للأخير (القيثارة) بل للأول (النفس) أكثر من الأخير[1].]

هكذا وإن أعلن الرسول بولس الحاجة إلى التحرّر من الناموس، الرجل الأول، لكنه لا يُلقي باللوم على الناموس ولا أعضاء الجسم، إنما العيب هو في النفس التي تقود الأهواء فينا أكثر ممّا للجسد... وإن كان الأخير ملتزم بالمسئولية مع النفس لكنه ليس المسئول الأول.

إذ تحقّق الزواج الثاني يقول الرسول: "**وأما الآن فقد تحرّرنا من الناموس**" **[٦]**، وقد جاءت الكلمة اليونانية للتحرير هنا بمعني أنه "لم يعد هناك أثر أو فاعلية".

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة بالقول:

[انظر كيف يستعبد هنا الناموس والجسد، إذ لم يقل أن الناموس صار بلا فاعلية، ولا الجسد بلا فاعلية، وإنما نحن صرنا بلا فاعلية (أي خلصنا). كيف خلصنا؟ بموت الإنسان القديم ودفنه، هذا الذي كان ممسكًا بالخطيّة، هذا ما يعنيه بقوله: "**إذ مات الذي كنّا مُمسكين فيه**". كأنه يقول بأن القيد الذي كنّا ممسكين به قد انكسر وتبدّد (مات)، حتى أن الخطيّة التي كنّا ممسكين بها لا تعود تمسك بنا. لكن لا ترجعوا إلى الوراء أو تهملوا، فقد تحرّرتم لتصيروا عبيدًا لكن ليس بذات الطريقة السابقة وإنما "**بجدّة الروح، لا بعُتق الحرف**".

عندما أخطأ آدم وسقط جسمه تحت الموت والآلام تقبل خسائر جسديّة كثيرة، وصار الحصان (الجسم) أقل حيويّة وأقل طاعة. ولكن إذ جاء المسيح جعله أكثر رشاقة بالنسبة لنا خلال المعموديّة، رافعًا إيّاه بجناح الروح (القدس). بهذا لم تعد العلامات الخاصة بسباق الجري هي بعينها القديمة، إذ لم يكن السباق سهلاً كما هو الآن (لأن الحصان صار أكثر رشاقة). لهذا السبب لم يطلب منهم أن يتركوا القتل فقط، كما في القديم وإنما حتى الغضب؛ لا يتركوا الزنا فحسب، وإنما يتخلّوا حتى عن النظرة غير الطاهرة؛ يمتنعوا لا عن القسم الباطل فقط، وإنما حتى عن القسم الصادق (مت ٥: ٢١،

[1] *In Rom. hom 12.*

٢٧، ٣٣). أمّا من جهة الأصدقاء فيأمرهم أن يحبّوا حتى أعداءهم. في كل الأمور أعطانا أرضًا أوسع للجري عليها فإن لم نطِع يهدّد بجهنم، مظهرًا أن هذه الأمور نصارع من أجلها إلزاميًا مثل العزوبية والفقر، يأمرنا أن نتمّمها... لذلك يقول: "**إن لم يزد برّكم على الكتبة والفرّيسيّين لن تدخلوا ملكوت السماوات**" (مت ٥: ٢٠). ومن لا يدخل الملكوت بالضرورة يُلقى في جهنم. لذلك يقول بولس أيضًا: "**فإن الخطيّة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة**" (رو ٦: ١٤). وهنا أيضًا يقول: "**حتى نعبد بجدة الروح لا بعتق الحرف**" **[٦]**، فإنه لم يعد الحرف الذي يدين، أي الناموس القديم، وإنما الروح الذي يعين. لهذا السبب أن وجد بين القدماء إنسان بتول كان هذا الأمر غريبًا تمامًا، أمّا الآن فقد صار هذا الأمر منتشرًا في كل أنحاء العالم. قديمًا قليلون بالكاد كانوا يحتقرون الموت، أمّا الآن (في عهد القدّيس ذهبي الفم) فيوجد في القرى والمدن طغمات من الشهداء بلا حصر، لا من الرجال فحسب وإنما أيضًا من النساء[1].]

الآن اعتقنا من الحرف، وتمتّعنا بجدية الروح، وكأننا بملخس عبد رئيس الكهنة الذي قُطعت أذنه اليمنى كما بالسيف (يو ١٨: ١٠) ليُمسك الرب بنفسه أذنه ويشفيه، وكما يقول **القدّيس أغسطينوس**[2] كانت رمزًا لتجديد السمع، ينزع الفكر الحرفي القديم والتمتّع بالفكر الروحي الجديد.

٢. الناموس يفضح الخطيّة

خشي الرسول بولس لئلا يسيء القارئ فهم عبارته: "**وأما الآن فقد تحرّرنا من الناموس**" **[٦]**، لئلاّ يُظن أن الرسول يهاجم الناموس أو يقلّل من قدسيّته، لذلك قدّم سؤالاً: فماذا نقول؟ "**هل الناموس خطيّة؟**" **[٧]**، وجاءت الإجابة واضحة وصريحة: "**حاشا**"... إذن، فلماذا يفرح بتحريره من الناموس؟

أولاً: لأن الناموس يفضح الخطيّة ولا يعالجها. عرّفني على الخطيّة التي أرتكبها، وربّما لم أكن أدركها [٧].

ثانيًا: لأن الناموس إذ قدّم لي الوصيّة كشف عن طبيعة العصيان التي فيَّ [٨-١١]، فربّما لو لم توجد وصية معيّنة تمنعني من شيء لا أهتم بعمله، إنما وجود الوصيّة يثير فيّ طبيعتي (كل شيء ممنوع مرغوب). هنا العيب لا في الوصيّة التي أثارتني، وإنما في طبيعة العصيان الخفيّة في داخلي والتي لم يكن لها أن تظهر ما لم توجد وصية.

---

[1] *In Rom. hom 12.*
[2] *In Ioan tr., 112: 5.*

أبرز الرسول بولس هاتين النقطتين بكل وضوح في هذا الأصحاح [٧-١٣] وقد علَّق عليهما **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**، قائلاً:

[سبق فقال: "**كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا**" (٧: ٥)؛ "**فإن الخطيّة لن تسودكم، لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة**" (٦: ١٤)؛ "**حيث ليس ناموس ليس أيضًا تعدٍ**" (٤: ١٥)؛ "**وأما الناموس فقد دخل لكي تكثر الخطيّة**" (٥: ٢٠)؛ "**لأن الناموس ينشىء غضبًا**" (٤: ١٥)، فلئلا يسيء هذا كله للناموس، ولكي يصحح الشك الذي ينشأ عن هذه الأقوال قدّم اعتراضًا، قائلاً: "**فماذا نقول؟ هل الناموس خطيّة؟ حاشا**" **[٧]**. قبل أن يقدّم البرهان استخدم هذا القسم "حاشا" لكي يسترضي السامع، ملاطفًا من اضطرب للسؤال...

لا يقول هنا: "فماذا أقول"، إنما "**فماذا نقول؟**" كأنه أمامهم مداولة وحكم، حيث اجتمعوا معًا، وجاء الاعتراض لا منه، وإنما خلال المناقشة بسبب ظروف الحال. فإنه لا ينكر أحد أن الحرف يقتل والروح يحي (٢ كو ٣: ٦)، إذ هذا واضح تمامًا، ولا يقبل المناقشة. فإن كان هذا حقيقة مُعترف بها، فماذا نقول عن الناموس؟ هل الناموس خطيّة؟ حاشا! وضح لنا إذن هذا الأمر الصعب!...

يقول إن الناموس ليس خطيّة، "**بل لم أعرف الخطيّة إلا بالناموس**"... "**فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته**" **[٧]**. ألا تلاحظ كيف أنه لم يظهر الناموس كديان للخطية، وإنما أيضًا إلى حد ما كمصدر لها، لكن لا عن خطأ من جانبه هو (وإنما من جانب ضعفنا وعصياننا)... هذا جاء عن ضعفنا لا عن عيب في الناموس، لأنه عندما نشته شيئًا ونُمنع منه تلتهب الشهوة بالأكثر. هذا لا ينبع عن الناموس، لأنه يمنعنا ليحفظنا منها، وإنما الخطيّة هي من إهمالك وسوء تصرفك، مستخدمًا ما هو صالح للضد. العيب ليس في الطبيب بل في المريض الذي لا يسيء استخدام الدواء، فإن الناموس لم يُعطَ لإشعال الشهوة بل لإطفائها، وإن كان ما قد حدث هو العكس. فاللوم ينسب إلينا لا إلى الناموس... فإن عمل الطبيب يقف عند المنع لكن على المريض أن يضبط نفسه.

ولكن ماذا إن كانت الخطيّة قد اتخذت فرصة بالوصيّة؟ بالتأكيد يوجد أشرار كثيرون اتّخذوا من الوصايا الصالحة فرصة ليزدادوا شرًا. هذا هو الطريق الذي به أهلك الشيطان يهوذا بإغراقه في محبّة الطمع وجعله يسرق ما هو للفقراء. فما حدث لم يكن بسبب الثقة التي أُعطيت له بتسليمه الصندوق، وإنما بسبب شرّ روحه. وأيضًا حواء بإحضارها ما يأكله آدم طُرد من الفردوس، لكن لم تكن الشجرة هي السبب، وإن كان ما حدث قد اتّخذ الشجرة فرصة لتحقيقه...

لو كان الناموس ملومًا لأن الخطيّة وجدت فرصة به، لا نطبق هذا أيضًا على العهد الجديد، ففي العهد الجديد نجد آلاف القوانين أكثر أهمية...

عندما قال الرب: "لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطيّة" (يو ١٥: ٢٢)، وجدت الخطيّة مجالاً في مجيء الرب وحديثه معهم، ومع ذلك فقد صار عقابهم أشد. وأيضًا عندما تحدّث بولس الرسول عن النعمة قال: "فكم عقابًا أشرّ تظنون أنه يُحسب مستحقًا من داس ابن الله؟" (عب ١٠: ٢٩)[1].

❖ لقد استلمت الناموس، وأنت تود أن تحتفظ به لكنك لا تقدر. بهذا تترك كبرياءك وتدرك ضعفك. إذن اِجرِ إلى الطبيب، واغسل وجهك. لتشتاق إلى المسيح ولتعترف به. آمن متكلاً عليه، فإذ تتمتّع بالروح بعد الحرف (السابق) تخلص.

❖ إننا نصغي إلى الناموس، فإن لم توجد نعمة إنما نصغي للعقاب الذي يحلّ بنا[2].

القدّيس أغسطينوس

يكمل **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** حديثه السابق، متسائلاً: إن كان الإنسان لم يعرف الشهوة قبل الناموس، فلماذا صار الطوفان؟ ولماذا كان حرق سدوم؟ ويجيب على هذا التساؤل، بأن الإنسان يعرف الخطيّة (بالناموس الطبيعي)، لكن جاء الناموس يحدّد الشهوة ويكشفها، مقدمًا للإنسان معرفة دقيقة، فصار الناموس جنبًا إلى جنب مع الناموس الطبيعي يضيف على الإنسان اتهامًا أشد، هذا ما دعا الرسول أن يقول: "**أمّا أنا فكنت بدون ناموس عائشًا قبلاً**" **[٩]**، إذ لم تكن هناك معرفة دقيقة ومحدّدة، ولا اتهام صريح ضدي يحكم عليَّ بالموت. فبقوله "**كنت عائشًا قبلاً**" تعني أنني لم أكن تحت إدانة الناموس الدقيقة والصارمة التي تستوجب موتي.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم: [**لم يعطِ الناموس للخطية وجودها، إذ كانت موجودة من قبل، لكنه أشار إلى تلك التي هربت من ملاحظتنا. هذا يُعتبر مدحًا للناموس، إذ كان الناس يخطئون قبله وهم لا يدركون. ولما جاء الناموس فإنهم وإن لم ينتفعوا منه بشيء إلا أنه عرّفهم عليها بدقة، مظهرًا أنهم يخطئون. هذا ليس بالأمر الهيّن لتحريرهم من الشرّ. فإن كانوا لم يتحرّروا، فالأمر لا يخص الناموس الذي حدّد كل شيء بهذا الهدف، وإنما يسقط بالاتهام كله على أرواحهم...

---

[1] *In Rom. hom 12.*
[2] *In Ioan tr 86: 5; Ser. On N. T. lessons 95: 3.*

لذلك يقول: "**فوُجدت الوصيّة التي للحياة هي نفسها لي للموت**" **[١٠]**. لم يقل "جاءت الوصيّة للموت" أو "صارت للموت" بل قال: "**فوُجدت**"... كأنه يقول إن أردت أن تعرف غايتها فهي تقود إلى الحياة وأعُطيت بهذه الغاية. فإن وُجدت للموت، إنما الخطأ فيمن استلم الوصيّة، وليس في الوصيّة التي تقود للحياة.

سلَّط الرسول على هذه النقطة ضوءً جديدًا، بقوله: "**لأن الخطيّة وهي متخذة فرصة بالوصيّة خدعتني بها وقتلتني**" **[١١]**. لاحظ أنه في كل موضع يُبرّر الناموس من الاتهام ويحفظه من الخطيّة.

"**إذًا الناموس مقدس والوصيّة مقدّسة وعادلة وصالحة**" **[١٢]**... لأنه وإن كان اليهود غير طاهرين خلال الناموس، وإن كانوا ظالمين وطامعين، فإن هذا لا يفسد صلاح الناموس، تمامًا كما أن عدم أمانتهم لا يبطل أمانة الله[1].]

لقد أظهر قدسية الناموس وصلاحه وعدله، مادحًا إياه، لأنه وإن كانت الخطيّة وجدت الفرصة في الوصيّة لتقتلني، لكنها بالأكثر انفضحت فظهر شرّها بقتلي... بهذا يقودنا الناموس إلى ضرورة الخلاص منها، إذ يقول: "**فهل صار لي الصالح موتًا؟ حاشا! بل الخطيّة، لكي تظهر خطيّة، منشئة لي بالصالح موتًا لكي تصير الخطيّة خاطئة جدًا بالوصيّة**" **[١٣]**. هكذا حوّل الرسول الاتهام من الناموس الصالح إلى الخطيّة الخاطئة جدًا، أو بمعني آخر ركّز أنظارنا على أنفسنا في الداخل. فبشرنا يتحوّل حتى ما هو صالح إلى ضررنا. وكما يقول **القدّيس أغسطينوس**: [النقطة موضوع الاهتمام ليس ما نتسلمه بل الشخص الذي يتسلم الشيء... فإنه حتى الأمور الصالحة تكون ضارة، والضارة تكون مفيدة حسب شخصية من يتقبّلها. ها أنت ترى الشرّ قد جاء خلال الصالح (الناموس) مادام الذي يتقبله إنما يتقبله بطريقة خاطئة[2].]

٣. ناموس الله وناموس الخطيّة

إذ أظهر في بداية هذا الأصحاح الحاجة إلى التحرّر من الناموس الذي فضح خطاياي وأصدر حكمه على بالموت، عاد ليؤكّد أن العيب ليس في الناموس، وإنما في الخطيّة العاملة فيّ، والآن

---

[1] *In Rom. hom 12.*
[2] *In Ioan. tr 62: 1.*

يمدح الرسول الناموس الإلهي، ويُعلن عن ناموس الخطيّة الكائن في أعضائي، لكي إذ اكتشفه ألجأ إلى المخلص القادر وحده أن ينقذني منه.

"**فإننا نعلم أن الناموس روحي وأمّا أنا فجسدّي، مبيع تحت الخطيّة**" **[١٤]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] إن الرسول بقوله هذا يُعلن أنه لا حاجة للتدليل على أن "**الناموس روحي**". فهو بعيد كل البعد عن كونه مصدرًا للخطية، أو علّة للشرور الحادثة. أنه "**روحي**"، معلم للفضيلة ومضاد للرذيلة؛ يقودنا بعيدًا عن كل أنواع الخطايا بالتهديد والنصح والتأديب والإصلاح وبمدحه للفضيلة. إذن من أين جاءت الخطيّة مادام الناموس معلمًا هكذا؟ إنها منّا نحن: "**وأما أنا فجسدي، مبيع تحت الخطيّة**". لقد تقبّلت الشهوات الجسديّة واستُعبدت للخطية، صرت غارقًا في أعماقها، ساقطًا تحت ناموسها، فحُسبت جسديًا.

❖ لعنة الله الأصليّة (بسقوط أبوينا في العصيان) جعلتنا جسدانيّين، وحُكم علينا بالأشواك والحسك؛ وقد باعنا أبونا بذلك التعاقد التعيس حتى أننا صرنا عاجزين عن فعل الصلاح الذي نريده. إذ صرنا ننقطع أحيانًا عن تذكّر الله العظيم السمو، مضطرّين إلى الانشغال بما يخص الضعف البشري. وبينما نشتهي الطهارة ننزعج غالبًا بغير إرادتنا بالشهوات الطبيعية التي لا نريد حتى أن نعرفها، لذلك نحن نعلم أنه ليس ساكن في أجسادنا شيء صالح (رو ٧: ١٨)، أي ليس ساكن فيه السلام الأبدي الدائم الذي لهذا التأمل المذكور[2].

الأب ثيوناس

❖ "**أمّا أنا فجسديّ، مبيع تحت الخطيّة**" **[١٤]**. هذا يعني: "بكوني إنسانًا جسدانيًا موضوع بين الخير والشرّ كوكيل حرّ، لي سلطان أن اختار ما أريد. فإنه "هاأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت" (إر ٢١: ٨؛ جا ١٥: ٨؛ تث ٣٠: ١٥)، بمعنى أن الموت يأتي ثمرة لعصيان الناموس الروحي أو الوصيّة والطاعة للناموس الجسدي أي مشورة الحيّة. فبمثل هذا اختيار أنا مبيع للشيطان، ساقط تحت الخطيّة. هكذا أمسك الشرّ بي، والتصق بي، وسكن فيّ، وسلمني العدل للشرير بانتهاكي للناموس[3].

---

[1] *In Rom. hom 12.*
[2] *Cassian: Conf 23: 13.*
[3] *On Resurrection.*

الأب ميثودوس

والآن ماذا فعل ناموس الخطيّة فيَّ؟

أولاً: شوّه معرفتي، إذ يقول الرسول: "**لأني لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإيّاه أفعل**" **[١٥]**.

ماذا يقصد الرسول بهذا؟

أ. أفقدت الخطيّة نقاوة البصيرة الداخليّة، فصارت معرفتنا للخطية غير دقيقة، لذا يقول "لست أعرف ما أنا أفعله"... لا بمعنى أن الإنسان يجهل الخطيّة، وإلا لما دين عنها، وإنما قبل الناموس لم يكن قادرًا على معرفتها بدقةٍ، وذلك كما سبق فقال: "فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته" [٧]. وكما يقول القدّيس يوحنا ذهبي الفم كان الإنسان قبل الناموس لا يعرف الخطيّة بحقٍ ودقةٍ، لذلك أيضًا كان العقاب أقل قسوة من الذين يخطئون وهم تحت الناموس عارفون الخطيّة.

ب. ربّما يقصد هنا بقوله "**لست أعرف**" لا معرفة الفكر النظري، فإنه بناموس الطبيعة يعرف الإنسان الخطيّة، لكنه يقصد معرفة الإنسان القادر عن الإحجام عنها ومقاومتها ليعمل البرّ عِوض الشرّ، لهذا يكمل الرسول حديثه: "**إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإياه أفعل**". وكأنه يقول: صرت كمن بلا معرفة لأنني أمارس ما أبغضه. وذلك كمن يشرب الخمور وهو يعرف إنها مؤذية لصحّته، لكن استعباده لها جعله كمن يجهل آثارها عليه.

ثانيًا: أفقدتني الإرادة الصالحة العاملة، إذ لم يقف الأمر عند تشويه المعرفة، سواء بإفساد البصيرة الداخليّة أو بالعجز عن التمتّع بالمعرفة المقدّسة خلال الخبرة، وإنما أيضًا تسيطر على إرادتي، فتفسد إمكانية العمل الصالح في حياتي، وأحسب كمن يعمل بلا إرادة، إذ سلمت نفسي بنفسي عبدًا لها.

يليق بنا، كما **يقول القدّيس يوحنا الذهبي الفم**، ألا نفهم العبارات الواردة هنا حرفيًا، فنظن أن الإنسان مصيّر، يمارس الشرّ إلزامًا، وإلا كان سقوطه تحت الدينونة غير عادل. حينما يقول: "**لست أفعل ما أريده**" **[١٥]** لا ينكر الرسول حريّة الإرادة الإنسانيّة كمن يخطئ قسرًا وجبرًا، وإلا كان الرسول قد أكمل الحديث هكذا: "بل ما أجبر عليه وأُلزم به فإيّاه أفعل"، إنما قال: "**بل ما أبغضه فإيّاه أفعل**"، فإنه لا ينكر ما للخطية من سلطان أفقده قوّة الإرادة لكن في نفس الوقت لا يتصرف جبرًا بغير إرادته.

الخطيّة مخادعة تجتذبه وتجعله يلتزم بممارستها، وإن كان في نفس الوقت يبغضها بحسب الناموس الطبيعي العامل فيه كما بحسب الناموس المكتوب. لهذا يكمل قائلاً: "**فإن كنت أفعل ما لست أريده، فإني أصادق الناموس أنه حسن**" **[١٦]**. كأنه يقول إن كنت بالناموس الطبيعي أكره الخطيّة التي أمارسها فإن الناموس المكتوب أو الموسوي يصادق على الناموس الطبيعي الذي يبغض الخطيّة لذا فالناموس حسن.

ربّما يتساءل البعض: إن كان الإنسان قبل التمتّع بالنعمة يستطيع تحت ظل الناموس المكتوب أو الموسوي أن يقول بأن الخطيّة شوّهت معرفتي، وأفقدتني الإرادة الصالحة والعاملة، حتى كنت لا أفعل ما أريده بل ما أبغضه [١٥]، فهل ينطبق هذا القول الرسولي علينا ونحن في عهد النعمة؟ أو بمعنى آخر هل هذا القول يناسب الخطاة الذين لم يتمتّعوا بعد بعمل الله فيهم أم يئن منه الجميع؟

يجيب **الأب ثيوناس** في حديث طويل في مناظرات **القدّيس يوحنا كاسيان**[1]، موضحًا الآتي:

أ. يرى **الأب ثيوناس** أن الرسول ينطق بهذه الكلمات عن نفسه حتى بعد تحوّله إلى الإيمان، ليس لأن الوضع لم يتغيّر، إنما لأنه وإن كان قد تمتّع بفيض من الفضائل أشبه بالجواهر وبالبركات الإلهية، لكنه إذ يتطلّع إلى ما سيناله أبديًا يحسب ما لديه تافهًا وقليلاً. فمع ممارسته للحياة المقدّسة في الرب يبغي أن يبلغ رؤية الله وجهًا لوجه، ولا يشغله شيئًا حتى وإن كان أمرًا صالحًا لضروريات الحياة.

ب. إذ يقارن الرسول بولس صلاحه بصلاح الله الفائق يرى أنه "**ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله**" (لو ١٨: ١٩)، فيحسب الرسول نفسه تحت الضعف.

ج. كلما تمتّع الإنسان بالنمو الروحي ازداد نقاوة داخليّة، وفي نفس الوقت ازداد حساسية لأتفه الخطايا، إن صح هذا التعبير. كلما ارتفع الإنسان روحيًا يخشى بالأكثر من السقوط، لا عن يأس أو خوف، وإنما عن حذر لئلاّ تكون سقطته مرّة.

هذا الرأي لا يمثل فكرًا خاصا بالأب ثيوناس وحده، وإنما خاص بالكنيسة الجامعة، فإنها تنظر إلى ما ورد في هذا الجزء من الأصحاح (٧: ٢٥-١٤) أنه وإن كان ينطبق على الإنسان وهو تحت الناموس، لكنه ينطبق بطريقة ما على كل عضو في الكنيسة لا يزال في الجسد، لكن الفارق في

[1] *Cassian, Conf 23.*

الحالتين كبير. فتحت الناموس تعرّف الإنسان على الصلاح ووقف موقف العاجز عن ممارسته، أمّا في عهد النعمة فقد صارت له معرفة أعظم وإمكانيات على مستوى فائق، وقدرة على التحرك بالنعمة الإلهية وعمل الروح القدس فيه، لكنه ليس معصومًا من الخطأ، إنما يبقى يرتفع كما بجناحي الروح منطلقًا من مجدٍ إلى مجدٍ، لعلّه يبلغ قياس قامة ملء المسيح، وفي هذا مع شعوره بعمل الله العظيم فيه يُدرك أنه لم يبلغ بعد تمام اشتياقه في الرب، فيئن في الداخل مقدمًا التوبة بلا انقطاع، شاعرًا مع الرسول بولس أنه أول الخطاة في غير يأس.

❖ جزئيًا نحن في حرية، وجزئيًا في عبودية.

ليست الحرّية كاملة بعد ولا نقيّة بالتمام، لأننا لم ندخل بعد الأبدية.

نحن لا نزال في الضعف جزئيًا، لكنّنا نلنا الحرّية جزئيًا. ما قد ارتكبناه من خطايا قد غُسل في المعموديّة سابقًا، لكن هل قد محيّ كل الشرّ وبقينا بلا ضعف؟[1]

القدّيس أغسطينوس

❖ توجد فينا شهوة شريرة، ولكن بعدم موافقتنا لها لا نعيش أشرارًا.

توجد فينا شهوة الخطيّة، وبعدم طاعتنا لها لا نكمل الشرّ، لكن وجودها يعني أننا لم نكمل الخير بعد؛ وقد أظهر الرسول الأمرين:

أ. إننا لن نكمل الخير مادمنا نشتهي الشرّ.

ب. ولم نكمل الشرّ مادمنا لا نطيع مثل هذه الشهوة.

وقد أظهر الأمر الأول بقوله: "**لأن الإرادة حاضرة عندي، وأمّا أن أفعل الحسنى فلست أجد**" **[١٨]**، وأظهر الأمر الثاني بقوله: "اسلكوا بالروح، فلا تكملوا شهوة الجسد" (غل ٥: ١٦). ففي النص الأول لم يقل أن الحسنى (الخير) غير موجودة إنما لم يكملها (أن أفعل لست أجد)، وفي الثاني لم يقل أن شهوة الجسد غير موجودة بل قال "**فلا تكمّلوا**".

لهذا تجد الشهوات الشرّيرة لها موضعًا فينا حيث توجد اللذّات غير المشروعة، ولكنّنا لا نكمِّل هذه الشهوات عندما نقاومها بالذهن، خادمين ناموس الله.

---

[1] *In Ioan. Tr., 41: 10.*

كذلك فإن الخير يجد له موضعًا فينا حينما لا تكون للذّة الخاطئة مكانًا، وذلك بغلبة اللذّة الصالحة عليها. ولكن تكميل الخير لا يتحقّق تمامًا طالما هذا الجسد – خادم ناموس الخطيّة – يستميل الشهوة الشرّيرة. فمع أننا نقاومها لكنها تتحرك، إن مقاومتنا لها علامة تحركها فينا.

لهذا يكون كمال الخير بهلاك الشرّ تمامًا، فيعلو الواحد ويبيد الثاني.

فإن ظننا أن هذا يتم في هذه الحياة نكون مخدوعين، إنما يتحقّق بصورته الكاملة حينما لا يكون بعد موت، بل حياة أبدية فهناك في الملكوت سيكون الخير في أعلى درجاته، ولا يكون شرّ قط في ذلك الوقت...، وفي ذلك الموضع لا يكون بعد جهاد للعفّة وضبط النفس.

إذن، الجسد ليس شرًا متى تجنب الشر أي الخطأ الذي به يصير الإنسان مخطئًا، إنما هو أوجده. لأن كل من جانبي الإنسان، الجسد والنفس، خلقهما الله الصالح صالحين، أما الإنسان فصنع الشر وبذلك صار شريرًا[1].

القديس أغسطينوس

❖ "**لأني لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل**" **[١٥]**.

لا يُفهم هذا التعبير عن فعل الشر، وإنما عن التفكير فيه، فإنه ليس في سلطاننا أن نفكر في الأمور غير اللائقة أو لا نفكر، إنما سلطاننا أن ننفذ ما بفكرنا أو نمتنع عن التنفيذ. نحن لا نقدر أن نمنع الفكر عن أن يأتينا من الخارج إلى ذهننا، لكننا قادرون أن نمتنع عن طاعته أو ممارسته.

في سلطاننا أن نريد بألا نفكر في هذه الأمور لكننا لا نقدر أن نطردها بحيث لا ترجع إلينا في ذهننا ثانية. لهذا كما قلت ليس في سلطاننا أن نفكر أو لا نفكر فيها؛ هذا هو معنى العبارة: "**لست أفعل الصالح الذي أريده**". فإنني لا أريد أن أفكر فيما يضرني.... لكن "**لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل**". فأنا لا أريد أن أفكر (بالشر) ومع هذا أفكر بما لا أريده.

تأمل أليس عن هذه الأمور عينها يتوسل داود لله في حزن، إذ هو يفكر فيما لا يريده، فيقول: "من الخطايا المستترة يا رب طهرني، من الغرباء احفظ عبدك حتى لا يتسلطوا علّي، فحينئذٍ أكون بلا

[1] *On Continence 20.*

عيب وأتنقى من خطية عظيمة" (مز ١٩: ١٢-١٣). كما يقول الرسول في موضع آخر: "هادمين ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح" (٢ كو ١٠: ٥)[1].

الأب ميثوديوس

ثالثًا: أفسد جسدي: لم يقف عمل ناموس الخطية عند تشويه المعرفة الروحية وتحطيم قوة الإرادة الصالحة، وإنما بسكنى الخطية في داخلي صار ناموسها عامًلا في أعضائي، فصارت آلات إثم تعمل لحسابه. هذا ما يصرخ منه الرسول طالبًا الخلاص من هذا الفساد لا بتحطيم أعضاء جسده، بل بتقديسها لحساب الله، بعدما عملت لحساب الخطية. هذا الأمر لا يستطيع الناموس الطبيعي ولا الموسوي أن يهبه، إنما هي نعمة الله التي تقدس الجسد مع النفس.

يشكو الرسول حاله، قائلًا: "**فالآن، لست بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطية الساكنة فيَّ، فإني أعلم أنه ليس ساكن فّي، أي في جسدي، شيء صالح، لأن الإرادة حاضرة عندي، وأما أن أفعل الحُسنى فلست أجد**" **[١٨-١٧]**.

وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [لم يقل الرسول أن جسده هو الذي يفعل هذا بل "**الخطية الساكنة فّي**"، لأن الله خلق الجسد صالحًا، ليس شرًا في ذاته، لكن إذ دخلت الخطية لم يعد يسكن فيه شيء صالح.]

يؤكد نفس القديس أن الجسد وإن كان ليس فيه عظمة النفس، لكنه ليس مضادًا للنفس، ولا هو في ذاته شر، بل يسند النفس، وكأنه بالقيثارة التي في يدّي العازف، والسفينة التي بين يدّي الربان، لا يضاد من يستخدمه، وكأن الجسد مع النفس متحملان المسئولية معًا.

مرة أخرى يود الرسول أن يؤكد أن الجسد ليس في ذاته شرًا ولا النفس أيضًا، وإنما الإنسان في كليته إذ قبل الشر في حياته بإرادته، أفسد حياته، وحطم قوة الإرادة الصالحة، لتعمل الخطية فيه، وتقوده حسب هواها، إذ يقول:

"**لأني لست أفعل الصالح الذي أريده،**
بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل،
فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل،

[1] *On Resurrection.*

فلست بعد أفعله أنا بل الخطية الساكنة فيَّ" [٢٠-١٩].

فالمشكلة ليست في الجسد، وإنما في الخطية التي سكنت فيَّ، فأفسدت النفس والجسد معًا. لذلك إذ جاء السيد المسيح حملني معه ليصلب الخطية التي سكنت فيَّ، ويسكن هو في داخلي. فعوض الأنين والصراخ: "**لست بعد أفعله أنا، بل الخطية الساكنة فيَّ**" أقول: "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غل ٢: ٢٠). فإن كنا قد سبق فسلمنا أعماقنا للخطية لنمت مع غالب الخطية، يملك هو فينا ونستتر نحن فيه، كقول الرسول: "لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذٍ تظهرون أنتم أيضًا في المجد" (كو ٣: ٣-٤).

هذا وقد أكد آباء الكنيسة أن الإنسان مادام في زمان الجهاد لن يُعصم من الخطأ، إنما يبقى بنعمة الله مجاهدًا لينطلق من نصرة إلى نصرة، صارخًا إلى الله بلا انقطاع ليعينه من ضعفه، حتى يكمل أيام غربته بسلام. ويحدثنا **الأب بينوفيوس** كيف تسند نعمة الله المؤمنين المجاهدين فيتخلصون من خطاياهم السابقة، بل ويليق بهم ألا يذكروها، لكن يبقى المؤمنون تحت الضعف في بعض الأمور كالتي يدعوها النبي بالسهوات والخطايا المستترة (مز ١٩: ١٢)، لذا يقول الحكيم: "الصديق يسقط في اليوم سبع مرات ويقوم" (أم ١٤: ١٦)، فالتوبة عنها لا تنتهي. [لأنه سواء عن جهل أو نسيان أو بالتفكير أو الكلام أم بمجرد الاشتياق أو عن ضرورة أو عن ضعف الجسد أو نجاسة في حلم... هذه الأمور غالبًا ما نسقط فيها كل يوم بغير إرادتنا أو بإرادتنا[1].]

أخيرًا، إذ يستبعد الرسول كل اتهام ضد الناموس وأيضًا ضد طبيعة جسده، ويجعل من الخطية التي سيطرت عليه وغلبته وسكنت فيه مقاومًا للناموس، أعلن تهلله بالناموس بالرغم من هزيمته بناموس الخطية، مقدمًا الشكر للسيد المسيح الذي يهبه النصرة على ناموس الخطية، إذ يقول:

"فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن،
ولكني أرى ناموسًا آخر في أعضائي.
ويحي أنا الإنسان الشقي،
من ينقذني من جسد هذا الموت.
أشكر الله بيسوع المسيح ربنا.
إذًا أنا نفسي بذهني أخدم ناموس الله،

[1] *Cassian: Conf. 20: 12.*

ولكن بالجسد ناموس الخطية" [٢٥-٢٢].

ماذا يعني أنا نفسي بذهني أخدم ناموس الله ولكن بالجسد ناموس الخطية؟ بالنعمة الإلهية التي صارت لي في المسيح يسوع تقدست حياتي، وإن كانت الخطية لا تكف عن محاربتي مادمت بعد في الجسد... هذا هو مفهوم النصرة بالنعمة الإلهية، النصرة المرتبطة بجهاد لا ينقطع مادمنا في الجسد. لكنه جهاد بالرب الساكن فينا.

❖ إن كان (الرسول) يخاف إغراءات الجسد فهل نحن في آمان؟

❖ أتريد أن تعرف أن لنا أجسادًا هي بعينها كأجساد القديسين... كلنا نلتزم بالمصارعة ليتقبل كل مكافأته حسب جهاده.

القديس جيروم[1]

❖ حتى الرسول كان يقمع جسده ويضبطه لئلا بعدما كرز للآخرين يصير هو نفسه مرفوضًا (١ كو ٩: ٢٧)، وإذ يشعر بعنف الأهواء الحسية يتحدث باسم الجنس البشري، قائلًا: "ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟"

❖ إن كان الرسول الإناء المختار، المفرز لإنجيل المسيح (غل ١: ١٥) بسبب وخزات الجسد وإغراءاته للرذيلة يقمع جسده ويضبطه لئلا بعدما كرز للآخرين يصير هو نفسه مرفوضًا، ومع هذا نجده يرى ناموسًا آخر يعمل في أعضائه ضد ناموس ذهنه، ويسبيه في ناموس الخطية [٢٣]، وإن كان وهو في عري وصوم وجوع وسجن وجلدات وعذابات كثيرة يعود إلى نفسه ليصرخ: أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟ فهل تظن أنه يليق بك أن تترك حذرك؟[2]

القديس جيروم

❖ كلنا نشعر بهذا، لكن ليس كلنا نخلص.

يا لي من إنسان شقي ما لم أطلب الدواء!....

---

[1] *On Ps. hom 41,51.*
[2] *Ep. 130: 9; 22:5.*

لنا طبيب، فلنطلب الدواء. دواؤنا هو نعمة الله، وجسد الموت هو جسدنا. لنكن غرباء عن المسيح. فإننا حتى وإن كنا في الجسد لكننا ليتنا لا نتبع أمور الجسد... إنما نطلب عطايا النعمة: "أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جدًا، ولكن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم" (في ١: ٢٣-٢٤)[1]

القديس أمبروسيوس

❖ يقول الرسول "**أنا نفسي**" **[٢٥]**، إذ لا يوجد اثنان من طبيعتين مختلفتين (واحد بطبعه صالح وآخر بطبعه شرير)، إذ لم يأتيا عن مصدرين مختلفين.

يقول: "**بذهني أخدم ناموس الله ولكن بالجسد ناموس الخطية**" [٢٥]، مادمت أكون مسترخيًا إذ يحارب (ناموس الخطية) الخلاص[2].

القديس أغسطينوس

❖ عندما يشعر القديسون أن ثقل الأفكار الأرضية يضايقهم، وإنهم يرتدون بعيدًا عن سمو أذهانهم منقادين بغير إرادتهم أو بالحري لاشعوريًا إلى ناموس الخطية والموت، وتعوقهم الأعمال الأرضية التي هي نافعة وصالحة عن معاينة الله، فإنهم يئنون إلى الله باستمرار، معترفين بانسحاق قلب لا بالكلام بل بقلوبهم أنهم خطاة. وبينما هم بغير انقطاع يلتمسون من رحمة الله الصفح عما يقترفونه يومًا فيومًا بسبب الضعف الجسدي، يزرفون دموعًا حقيقية للتوبة بغير انقطاع...

كذلك يدركون بالخبرة أنه بسبب ثقل الجسد يعجزون بقوتهم البشرية أن يبلغوا النهاية المطلوبة، وأن يكونوا متحدين، حسب اشتياق قلوبهم، بذلك الصلاح الرئيسي الأسمى، وإذ ينقادون بعيدًا عن رؤيته مأسورين بالأمور العالمية يتوجهون إلى مراحم الله "الذي يبرر الفاجر" (رو ٤: ٥)، ويصرخون مع الرسول: "ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟ اشكر الله بيسوع المسيح ربنا" (رو ٧: ٢٤-٢٥). لأنهم يشعرون بأنهم على الدوام لا يستطيعون أن يكملوا الصلاح الذي يريدونه، وإنما يسقطون في الشر الذي يكرهونه، أي الأفكار الزائفة والاهتمام بالأمور الجسدية.

إنهم بالحقيقة يسرون بناموس الله بحسب الإنسان الباطن الذي يسمو فوق كل المنظورات، ويسعون على الدوام ليكونوا متحدين بالله وحده، لكنهم "يرون ناموسًا آخر في أعضائهم"، أي منغرس في طبيعتهم البشرية "يحارب ناموس ذهنهم" (رو ٧: ٢٢-٢٣)، أي يأسر أفكارهم إلى ناموس الخطية

---

[1] *On Belief in Resurrection, 41.*
[2] *In Ioan. tr 41: 11.*

العنيف، ويلزمهم أن يتخلوا عن ذلك الصلاح الأعظم ويرضخوا للأفكار الأرضية التي وإن ظهرت هامة ومفيدة ونحتاج إليها في العبادة... إلا أنها تقف عائقًا عن التأمل في ذلك الصلاح الذي يسحر أنظار القديسين، فيرونها شريرة ويحاولون تجنبها...

إنني أقول أن هذا الناموس المنغرس في أعضاء البشر جميعًا الذي يحارب ناموس أذهاننا ويعوقها عن رؤية الله[1].

الأب ثيوناس

❖ أخيرًا يعبر الرسول الطوباوي بوضوح أنه قال هذا عن المقدسين والكاملين ومن كان على شاكلته، فيشير بإصبعه إلى نفسه، ويتدرج في الحال: "**إذًا أنا نفسي**" **[٢٥]**، أي أنا الذي أقول هذا أقدم أسراري الخاصة مكشوفة، لا سريرة شخص آخر. اعتاد الرسول أن يستعمل هذا الأسلوب بغير كلفةٍ كلما أراد أن يشير بالأخص إلى نفسه (٢ كو ١٠: ١، ١٢: ١٣، ١٦؛ غل ٥: ٢؛ رو ٩: ٢).

إذًا "**أنا نفسي**" تحمل بالتأكيد: أنا الذي تعرفونه بأنه رسول المسيح، الذي تبجلونه بأعظم احترام، والذي تعتقدون بأنه من أسمى الشخصيات وأروعها كشخصٍ يتكلم فيه المسيح، مع أني أخدم ناموس الله بالذهن أعترف بأنني بالجسد أخدم ناموس الخطية، بمعنى أن حالتي البشرية تجذبني أحيانًا من الأشياء السماوية الأرضية، وينحدر سمو ذهني إلى الاهتمام بأمور تافهة. وبناموس الخطية هذا أجد بأنني في كل لحظة أُخذ هكذا مأسورًا بالرغم من مثابرتي باشتياق راسخ نحو ناموس الله، ولكنني لا أستطيع بأية وسيلة أن أنجو من سلطان هذا الأسر ما لم أهرب دائمًا إلى رحمة المخلص.

لذلك يحزن جميع القديسين بتنهدات يومية من أجل ضعف طبيعتهم هذا. وبينما هم يستقصون أفكارهم المتنقلة ومكنونات ضمائرهم وخلواتهم العميقة يصرخون متضرعين: "لا تدخل في المحاكمة مع عبدك، فإنه لن يتبرر قدامك حيّ" (مز ١٤٣: ٢)....

ها أنت ترى إذن كيف يعترف جميع القديسين بصدق أن جميع الناس كما هم أيضًا خطاة، ومع ذلك لا ييأسون أبدًا من خلاصهم، بل يبحثون عن تطهير كامل بنعمة الله ورحمته...

[1] *Cassian: Conf., 23: 10, 11.*

لا يوجد أحد، مهما كان مقدسًا، في هذه الحياة بلا خطية. وقد أخبرنا أيضًا تعليم المخلص الذي منح تلاميذه نموذج الصلاة الكاملة...، إذ يقول: "وأغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" (مت ٦: ١٢).

إذن إذ قدم هذه كصلاة حقيقية يمارسها قديسون، كما يجب أن نعتقد دون أدنى شك، ممن يمكنه أن يبقى عنيدًا ووقحًا ومنتفخًا بكبرياء الشيطان، فيظن أنه بلا خطية[١].

الأب ثيوناس

مفهوم الجسد هنا

❖ يلزمنا أن نأخذ كلمة "الجسد" هنا لا بمعنى الإنسان أو المادة الملموسة، إنما يقصد الإرادة الشهوانية أو الرغبة الشهوانية[٢].

الأب دانيال

❖ لننصت إلى الرسول القائل: "**فاني أعلم أنه ليس ساكن فيّ أي في جسدي، شيء صالح**" **[١٨]**. فان ما يقصده الرسول هنا بالتأكيد هو "خطأ الجسد" الذي يوجد في الشيء الصالح "الجسد". فان زال هذا الخطأ من الجسد، لا يكون الجسد فاسدًا ولا مخطئًا.

وقد كشف المعلم نفسه انه يقصد بهذا (أي الجسد) طبيعتنا (أي كياننا كله)، إذ يقول في البداية "**فإني أعلم أنه ليس فيَّ**" ثم يوضح "**فيَّ**" بـ "**أي في جسدي**"، وهكذا يسمي جسده أنه هو *himself*، ولا يمكن أن يكون الإنسان عدو نفسه.

فعندما يُقمع الخطأ، يصير جسدنا محبوبًا، إذ يلزمنا أن نعتني به كقول الرسول "فإنه لم يبغض أحد جسده" (أف ٥: ٢٩).

وفي موضع آخر "**إذًا أنا نفسي بذهني أخدم ناموس الله، ولكن بالجسد ناموس الخطية**" **[٢٥]**. ليسمع من لهم آذان، إذ يقول "**إذًا أنا نفسي**" أنا بالذهن، وأنا بالجسد... ولكن كيف يخدم بالجسد ناموس الخطية؟ هل بقبوله شهوة الجسد وتكميلها! حاشا! بل لأن حركات الشهوة التي لا يريدها هي كائنة فيه، وإذ هو لا يوافقها فإنه بذهنه يخدم ناموس الله ولا يسلمه أعضاءه لتكون آلات إثم للخطية[٣].

---

[1] *Cassian: Conf., 23: 16–18.*
[2] *Cassian: Conf., 4: 11.*
[3] *On Continence 19.*

القديس أغسطينوس

البهجة بناموس الله

إن كنا بالنعمة نجاهد بلا انقطاع لكي يكمل تحررنا من ناموس الخطية، فان هذا الناموس لا يقدر أن يحطم بهجة خلاصنا وسرورنا بناموس الله العامل في داخلنا، إذ يقول الرسول: "**فاني أسّر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن**" **[٢٢]**. هكذا لا يفقد الإنسان بهجته وسلامه وسط الجهاد ضد ناموس الخطية.

❖ مادمنا نُسر بناموس الله بحسب الإنسان الداخلي نملك نوعًا من السلام، لكنه ليس سلامًا كاملاً، لأننا نرى ناموسًا آخر في أعضائنا يحارب ناموس ذهننا[١].

القديس أغسطينوس

❖ إذ نكون أحرارًا نُسر بناموس الله، لأن الحرية فرح....
لتكن بهجتك في الله ولتكن حرًا.
لا تخف العقوبة بل حب البرّ.
ألا تقدر أن تحب البرّ، خف إذن من العقوبة لعلك تبلغ حب البرّ[٢].

❖ بسبب حسن نقول إن عذوبة الله مخفية فيك. لقد وجد ناموس (الخطية) له موضعًا في أعضائك يقاوم ناموس ذهنك ويسبيك. لهذا فإن العذوبة التي بالنسبة لك مخفية يشرب منها الملائكة القديسون بينما لا تقدر أنت تتذوقها بسبب السبي[٣].

القديس أغسطينوس

---

[1] *In Ioan. tr 77: 4.*
[2] *In Ioan. Tr., 41: 10.*
[3] *Ser. On N. T. lessons 95: 3.*

الأصحاح الثامن

ناموس الروح وبرّ المسيح

أبرز الرسول في الأصحاح السابق دور الناموس كفاضحٍ للخطية دون معالجة لها، ثم قدّم لنا صورة قاتمة للغاية من جهة ناموس الخطيّة كمفسدٍ لحياتنا كلها، ومثير لشهوات الجسد ضد كل اشتياقٍ روحيٍ. والآن إذ ينتقل بنا إلى السيد المسيح الغالب وحده لهذا الناموس، يشرق علينا بالإمكانيات الإلهية التي تعمل في حياة المؤمن. لهذا إن كان بعض الدارسين يحسبون هذه الرسالة في كُلّيتها هي "كاتدرائية الإيمان المسيحي"، فيرى البعض في هذا الأصحاح "**قُدس الأقداس**" أو **المذبح الروحي**، عليه يقدّم المؤمن الحقيقي ذبيحة الحب والفرح والشكر وسط صراعه ضد الشرّ وضيقاته الزمنيّة.

قدّم لنا هذا السفر بقوّة إمكانيات الحياة المقدّسة في الرب، أو تمتّعنا ببرّ المسيح غالب ناموس الخطيّة، فاتحًا باب الرجاء في المجد الأبدي، ملهبًا القلب بمحبة المسيح الفائقة.

١. المسيح وناموس الروح	**١-١٧.**
٢. تجديد الخليقة وعمل الروح	**١٨-٢٧.**
٣. المسيح المبرر	**٢٨-٣٤.**
٤. محبتنا للمسيح المبرر	**٣٥-٣٩.**

١. المسيح وناموس الروح

سيطرت الخطيّة على الإنسان؛ سكنت فيه، وأخضعته لناموسها، فصار الإنسان جسديًا (٧: ١٤)، يسلك بنفسه كما بجسده تحت مذلة شهوات الجسد وحُسب مبيعًا للخطية. فجاء السيد المسيح، لا لينتزع ناموس الخطيّة من أعماقنا فحسب، وإنما ليُقيم "**ناموس روح الحياة**" [٢]، الذي يعطي للمؤمن إمكانية "**السلوك ليس حسب الجسد، بل حسب الروح**". فيُحسب الإنسان في كُلّيته، بجسده ونفسه، إنسانًا روحانيًا أو روحيًا.

أزال السيد المسيح ناموس الخطيّة المستعبد للإنسان، ليُقيم فيه ناموس روح الحياة واهب الحرّية! أعطانا روحه القدوس ساكنًا فينا [١١] يهب حياة للنفس والجسد معًا، حياة برّ عِوض موت الخطيّة، حياة البنوّة لله عِوض العبوديّة للخطية! حقًا أعطانا إمكانية الحياة وسط الآلام لكي ننعم بالروح على

الميراث مع مسيحنا.

هذا هو موجز حديث الرسول بولس عن "المسيح وناموس الروح"، والآن، لنتبع كلماته الرسولية:

أولاً: الانعتاق من الدينونة: "إذًا لا شيء من الدينونة، الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" [١].

إن كان ناموس الخطيّة يحطم نفسيتنا ويرعبنا، فإن نعمة المسيح ترفعنا لندرك أننا بالمسيح يسوع مُبرّرون، إن سلكنا حسب الروح لا حسب الجسد. لأن برّ المسيح لا يعمل في المتهاونين، الذين يستسلمون مرة أخري للحياة الجسدانيّة.

يقول **الأب ثيوناس** معلقًا علي هذه العبارة: [نعمة المسيح تحرّر جميع القدّيسين يومًا فيومًا من ناموس الخطيّة والموت، هذا الذي يخضعون له قسرًا، بالرغم من توسّلهم الدائم إلى أن يصفح الله عن تعدياتهم[1].]

يميز **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** بين ثلاثة أنواع من النواميس: ناموس موسى، وهو روحي لكنه لا يهب الروح ولا يبرر؛ وناموس الخطية العامل في جسدنا وهو يدخل بنا إلى الموت الأبدي؛ وناموس المسيح أو ناموس الروح وهو يهب الروح ويقدم لنا الحياة الأبدية ببرّ المسيح، وبه لا نسلك فيتراخٍ حسب الجسد، بل في قوة الروح.

[كحقيقة واقعة، يسقط كثيرون في الخطيّة حتى بعد المعموديّة ممّا يسبّب صعوبة في الأمر، لذلك أسرع الرسول ليواجه هذا الأمر، لا بقوله "**في المسيح يسوع**" فحسب، وإنما يضيف "**السالكين ليس حسب الجسد**"، مظهرًا أن هؤلاء يتركون تراخينا.

الآن لنا القوّة للسلوك "**ليس حسب الجسد**"، بعد أن كان هذا عملاً صعبًا. وها هو يقدّم برهانه على كلامه هذا، بقوله: "**لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني**" **[٢]**. فكما دعا الخطيّة "ناموس الخطيّة"، ها هو يدعو الروح "ناموس الروح".

لقد وصف ناموس موسى بأنه روحي (٧: ١٤) فما هو الفرق بينهما؟ الفرق عظيم وبلا حدود، فإن ذاك روحي، أمّا هذا فناموس الروح. ما هو التمييز بينهما؟ الأول مجرّد أُعطي بواسطة الروح، أمّا هذا فيهب الذين يتقبّلونه الروح بغير حدود. لذلك دعاه "ناموس الحياة" مقابل ناموس الخطيّة لا ناموس موسى. فعندما يقول أنه أعتقني من ناموس الخطيّة والموت لا يقصد ناموس موسى...

نعمة الروح القدس توقف الحرب الخطيرة بذبح الخطيّة، فيصير المُقاوم لنا سهلاً بالنسبة لنا،

---

[1] *Cassian: conf. 23: 13.*

وتُتوِّجنا منذ البداية عينها، وتسحبنا للصراع بعد أن تمدّنا بعونٍ عظيمٍ[1].]

إذًا ناموس المسيح، الذي هو ناموس الروح، هو تمتّع بعطيّة الروح، الذي يحطّم فينا عنف الخطيّة ويسندنا في صراعنا ضدها، واهبًا إيّانا روح الغلبة والنصرة، فنكلّل!

لاحظ **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول هو يتحدّث عن السيد المسيح واهب ناموس الروح يوضح أن هذا العمل هو عطيّة الثالوث القدوس محب البشر، الآب أرسل ابنه مبذولاً لأجلنا، والابن قدّم نفسه فِدْية ليدين خطايانا في جسده، والروح القدس يسكن فينا ليعمل بناموسه فينا. هذا هو عمل الثالوث القدوس الذي أعلنه الرسول في العبارة: "**لأنه ما كان الناموس عاجزًا عنه في ما كان ضعيفًا بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطيّة، ولأجل الخطيّة دان الخطيّة في الجسد**" **[٣]**.

يلاحظ هذا في النص الآتي:

أ. يرى **القدّيس يوحنا ذهبي الفم** أن الرسول لم يستخف بالناموس بقوله "**لأنه ما كان الناموس عاجزًا عنه**"، فإنه لم يقل أن الناموس شرّ، وإنما وهو متفق مع السيد المسيح يودّ صلاحنا، لكنه يعجز عن التحقيق. هذا العجز لا يقوم على عيبٍ فيه، وإنما على فسادنا نحن الذين صرنا جسدانيّين، إذ يقول: "**كان ضعيفًا بالجسد**"، هنا لا يقصد "الجسم الإنساني" إنما الحياة الجسدانيّة.

ويرى **القدّيس جيروم** أن سرّ العجز في الناموس هو عدم قدرتنا على تنفيذه، إذ يقول: [فقد عجز الناموس، لأنه لم يستطِع أحد أن يتمّمه سوى الرب القائل: "ما جئت لأنقض (الناموس) بل لأكمل" (مت ٥: ١٧)[2].]

❖ كان الناموس يعمل ليجعل الناس أبرارًا، لكنه لم يستطع، فجاء (المسيح) وفتح طريق البرّ بالإيمان، وبهذا حقّق ما اشتهاه الناموس؛ ما لم يستطيع الناموس أن يحقّقه بالحرف حقّقه هو بالإيمان. لهذا السبب يقول: ما جئت لأنقض الناموس[3].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

ب. لم يقل "دان الجسد"، وإنما قال: "**دان الخطيّة**"، فصار الجسم مقدسًا مع النفس، يحمل برّ المسيح وقوة الروح، قادرًا على الغلبة ضد الخطيّة.

ج. يقول الرسول: "**أرسل ابنه في شبه جسد الخطيّة**"، وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**

---

[1] In Rom. hom 13.
[2] On Ps. hom 7.
[3] In Matt. hom 16.

ليس لأنه لم يأخذ جسدًا مثلنا، وإنما لأنه أخذ جسدنا بدون الخطيّة.

❖ جاء في الجسد، أي في جسد شبه الخطيّة، لكن ليس في جسد خاطئ، إذ لم يخطئ قط، لذلك صار ذبيحة حقيقية عن الخطيّة إذ هو بلا خطيّة.

❖ أرسل الله ابنه لا في جسد خاطئ بل في شبه جسد الخطيّة، وأرسل الابن هؤلاء الذين وُلدوا بجسد خاطئ لكنهم تقدسوا به من دنس الخطيّة[1].

القدّيس أغسطينوس

❖ لم يقل "في شبه الجسد"، إذ أخذ المسيح جسدًا حقيقيًا، وليس شبه جسد، ولا قال "في شبه الخطيّة". لأنه لم يخطئ، إنما صار خطية لأجلنا. جاء فى شبه جسد الخطية... قيل "**في شبه**" لأنه مكتوب: "هو إنسان من يعرفه؟" (إر ١٧: ٩ الترجمة السبعينية). حسب الناسوت إنسان، في الجسد، حتى يمكن أن يُعرف، لكنه في القوّة هو فوق الإنسان لا يمكن أن يُدرك. أخذ جسدنا لكنه ليس له سقطات الجسد[2].

القدّيس أمبروسيوس

❖ جاء من هذا الجسد، لكنه ليس كسائر البشر، لأن العذراء لم تحبل به بالشهوة وإنما بالإيمان.
جاء في العذراء هذا الذي هو قبل العذراء.
اختارها الذي أوجدها، خلقها ذاك الذي سبق فاختارها.
وهبها الإثمار ولم ينزع عنها طهارتها التي لم تمس[3].

القدّيس أغسطينوس

د. جاء في تعليقات **القدّيس أثناسيوس الرسولي** وغيره من الآباء تأكيد علّة قبوله "شبه جسد الخطيّة"، ألا وهو اتحاده بطبيعتنا لننعم بالاتحاد معه، ونتمتع بعمله فينا بكوننا أعضاء جسده.

❖ صار إنسانًا ليؤلهنا فيه.

وُلد من امرأة، من عذراء، ليغير جبلنا الخاطي، فيصير جنسًا مقدسًا، شركاء في الطبيعة الإلهية، كما كتب الطوباوي بطرس (٢ بط ١: ٤).

---

[1] In Ioan. tr 41: 6; 108: 4.
[2] Conc. Repentance, 1: 3(12).
[3] Sermons on N. T. 19: 4.

❖ بسبب حسن مُسح الرب الذي بطبيعته غير المتغيّرة هو محب للبرّ ومبغض للإثم، وأُرسل دون أن يتغير حاملاً الجسد المتغير ليدين فيه الخطيّة، ويؤكّد له الحرّية والقدرة، محققًا برّ الناموس فيه، بهذا يمكننا أن نقول: لسنا في الجسد بل في الروح، إن كان روح الله ساكنًا فينا (رو ٨: ٩)[١].

البابا أثناسيوس الرسولي

ثانيًا: التمتّع بالبرّ

لم يقف الأمر عند حدود العتق من الدينونة، وإنما نحمل البرّ الذي يشتاق الناموس أن نتمتع به لكنه يعجز عن تقديمه.

يقول الرسول: "**لكي يتم برّ الناموس فينا، نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح**" **[٤]**.

ماذا يعني أن يتحقّق برّ الناموس فينا؟ يري **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن "البرّ" هنا لا يعني مجرّد عدم وجود خطيّة، وإنما [البر بالنسبة لنا هو التمتّع بالنصرة[٢]]، وأن البرّ لا يعني مجرّد الامتناع عن الخطيّة، وإنما التزيّن بالصلاح أيضًا، فلا يقف عند السلبيات، إنما يجب ممارسة الإيجابيات.

مرة أخرى يؤكّد **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن "البرّ" حياة ديناميكية مستمرّة، وعمل روحي غير متوقف، لذا يقول: [في هذه العبارة يظهر بولس أن المعموديّة لا تكفي لخلاصنا ما لم نمارس حياة لائقة بهذه العطيّة بعد نوالها[٣].]

ثالثًا: الانشغال باهتمام الروح لا باهتمام الجسد

"**فإن الذين هم حسب الجسد فيما للجسد يهتمون،**
ولكن الذين حسب الروح فيما للروح،
لأن اهتمام الجسد هو موت،
ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام،
لأن اهتمام الجسد هو عداوة الله،
إذ ليس هو خاضعًا لناموس الله،
لأنه أيضًا لا يستطيع،

---

[1] *Ep.10 ad Adelphium; against Arians, discourse. 1: 51.*
[2] *In Rom. hom 13.*
[3] *In Rom. hom 13.*

فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله،
وأمّا أنتم فلستم في الجسد بل في الروح،
إن كان روح الله ساكنًا فيكم..." [٥-٩].

يلاحظ في حديث الرسول بولس عن اهتمام الروح واهتمام الجسد الآتي:

أ. لا يقارن الرسول هنا بين جوهر الجسد أي الجسم بأعضائه وبين الروح، وإنما بين اهتمام الجسد واهتمام الروح، فيقصد باهتمام الجسد شهوات الجسد واهتماماته واشتياقاته الجسدانيّة، ويقصد باهتمام الروح اشتياقات الروح واهتماماتها الروحيّة.

مرة أخرى نؤكد أن الإنسان بجسده وروحه يمثل وحدة واحدة، إن ترك لجسده العنان يتلذّذ بشهوات جسدانية، يتعدّى الجسد حدوده فيُحسب جسدانيًا، إذ يسلك الإنسان ككل بفكره ونفسه وجسده، بطريقة جسدانيّة، وكأنه قد صار جسدًا بلا روح. وعلي العكس إن سلّم حياته كلها تحت قيادة الروح القدس تتقدّس روحه الإنسانيّة، ويتقدّس جسده بكل أحاسيسه وعواطفه، فيسلك الإنسان ككل، كما لو كان روحًا بلا جسد، إذ يتصرف حتى الجسد بطريقة روحية.

خلال هذه النظرة يمكننا أن نعرف اهتمام الجسد، بمعنى ترك الإنسان الجسد على هواه ليتعدّى حدوده، فتخضع حتى النفس لتحقيق هوى الجسد، أمّا اهتمام الروح فيعني خضوع الإنسان لروح الله، فيسلك كإنسان روحي، يحقّق هوى الروح. الأول يثمر موتًا للنفس والجسد على مستوى أبدي، والثاني يهب حياة وسلاما أبديًا [٦]. الأول يخلق عداوة لله [٧] إذ يطلب الإنسان ملذاته على حساب صداقته مع الله، أمّا الثاني فيجد رضّا في عيني الله.

بهذا الفهم يفسّر **القدّيس يوحنا ذهبي الفم** العبارة: "**فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله**" **[٨]**، قائلاً: هل نقطع جسدنا إربًا حتى نرضي الله، هاربين من طبيعتنا البشريّة؟ هذا التفسير الحرفي غير لائق، فهو لا يقصد الجسم الإنساني ولا جوهره، إنما يعني الحياة الحيوانيّة العالميّة المستهترة التي تجعل الإنسان جسدانيًا، حتى النفس تصير جسدانية، فتتغيّر طبيعتها ويتشوّه نبلها.

وأيضًا حين نسمع: "**أمّا** أنتم **فلستم في الجسد بل في الروح**"، لا نفهم بهذا أننا خلعنا الجسم الإنساني، لكنّنا ونحن في هذا الجسم قد تركنا تيّار الشهوات الجسدانيّة، فصرنا كمن هم بلا جسد من جهة الشهوات. استخدم السيد المسيح نفسه هذا التعبير حين قال لتلاميذه: "**أنتم لستم من هذا العالم**"، بمعنى أنهم لا يحملون فكر العالم الأرضي وشهواته الزمنيّة بالرغم من وجودهم في العالم.

بنفس المعنى يقول **القدّيس إيريناؤس:** [بهذه الكلمات لا يجحد مادة الجسم، وإنما يظهر ضرورة

أن يكون الروح القدس منسكبًا فيه. فهو بهذا لا يمنعهم من الحياة وهم حاملون الجسد، إذ كان الرسول نفسه في الجسد حين كتب لهم هذا، إنما كان يقطع شهوات الجسد التي تجلب الموت للإنسان[1].] كما يقول: [لا يتحقّق هذا بطرد الجسد وإنما بشركة الروح، لأن من يكتب إليهم ليسوا بدون جسد، إنما تقبّلوا روح الله الذي به نصرخ: "**أبا الآب**" (٨: ١٥)[2].]

ويرى **القدّيس إكليمنضس السكندري** أن التعبيرين "**في الروح**" و"**ليسوا في الجسد**" إنما يعني أن الغنوسيّين أي أصحاب المعرفة الروحيّة الحقّة يرتفعوا فوق أهواء الجسد: [إنهم أسمى من اللذّة، يرتفعون فوق الأهواء، يعرفون ماذا يفعلون. الغنوسيّيون أعظم من العالم[3].]

ب. إن اهتمام الروح ليس من عنديّاتنا، إنما هو ثمر سكنى السيد المسيح فينا، الذي بسكناه يُميت الحياة الجسدانيّة الطائشة، فيحيا الإنسان بكلّيّته، جسمًا ونفسًا، في انسجام كعضو في جسد المسيح، إذ يقول الرسول: "**وإن كان المسيح فيكم، فالجسد ميّت بسبب الخطيّة، وأمّا الروح فحياة بسبب البرّ** [١٠]

السالك بالروح القدس إنما ينعم بالمسيح أيضًا ساكنًا فيه، إذ يقول الرسول: "**وإن كان المسيح فيكم...**" وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [ينطق (الرسول) بهذا لا ليؤكّد أن الروح هو نفسه المسيح، حاشا، وإنما ليُظهر أن من له روح المسيح، يكون له المسيح نفسه. فإنه لا يمكن إلا حيث يوجد الروح يوجد المسيح أيضًا، لأنه حيث يوجد أحد الأقانيم الثلاثة يكون الثالوث القدوس حالاً، لأن الثالوث غير منقسم على ذاته، بل له وحدة فائقة للغاية... الآن تأمّل عظمة البركات التي ننعم بها بنوالنا الروح: بكونه روح المسيح، يكون لنا المسيح نفسه، ونصير مناظرين للملائكة، وننعم بالحياة الخالدة، ونتمسّك بعربون القيامة، ونركض بسهولة في سباق الفضيلة[4].]

يكمل **القدّيس الذهبي الفم** تعليقه على العبارة الرسولية مظهرًا أن الجسد الذي لم يكن خاملاً فحسب بسبب الخطيّة بل كان ميتًا، ها هو بالمسيح الساكن فينا صار رشيقًا يركض بسهولة في ميدان الفضيلة لينال الجعالة... الجسد بذاته ميّت بالخطيّة لكن بالله الروح تمتّع بالحياة التي لا تنحلّ، وصار له برّ المسيح.

هكذا إذ يتحدّث عن سكنى المسيح فينا يُعلن عن "برّ المسيح" الذي لا يقف عند إماتة الحياة

---

[1] Adv. Haer.5: 10: 2.
[2] Adv. Haer 5: 8: 1.
[3] Stromata, 2: 22.
[4] In Rom. hom 13.

الشهوانيّة الجسدانيّة وإنما ينعم بتجلّي الحياة بحسب الروح **[١٠]**... يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول بولس يشجّع السامع معلنًا عن البرّ كمصدر للحياة، لأنه حيث لا توجد خطيّة لا يوجد الموت، وحيث لا موت تكون الحياة غير قابلة للانحلال.

رابعًا: التمتّع بالقيامة

إن كان ناموس الخطيّة قانونه الموت الأبدي، فإن ناموس الروح الذي يهبه لنا السيد المسيح قانونه القيامة من الأموات، على مستوى أبدي. يهبنا السيد المسيح روحه القدوس ساكنًا فينا، الروح الذي أقام السيد المسيح من الأموات، إذ هو قادر أن يقيم طبيعتنا الساقطة، فينزع عنها ناموس الخطيّة أو الحياة الجسدانيّة الشهوانيّة ليهبنا الطبيعة الجديدة، الطبيعة المُقامة في المسيح يسوع، يسودها ناموس القيامة والحياة. هذا ما أعلنه الرسول بقوله: "**وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنًا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات، سيُحيي أجسادكم المائتة أيضًا بروحه الساكن فيكم**" **[١١]**.

يقول القدّيس يوحنا الذهبي الفم:

[مرة أخرى يمسّ (الرسول) نقطة القيامة بكونها أكثر الأمور تبعث الرجاء في السامع، وتهبه ضمانًا لما يُحدّث له في المسيح، فلا تخف إذن لأنك مثقّل بجسد مائت. ليكن لك الروح فستقوم ثانية لا محالة...

حقًا سيقوم الكل، لكن لا يقوم الكل للحياة، إنما يقوم البعض للعقاب والآخرون للحياة (يو ٥: ٢٩)...

إنه لا يعاقبك إن رأى روحه يشرق فيك، بل يوقف العقاب... ويدخل بك إلى حِجال العرس لتكون هناك مع العذارى (تك ٢٥: ١٢).

ليتك إذن لا تسمح لجسدك (الحياة الجسدانيّة) أن يعيش في هذا العالم، لكي يعيش جسدك هناك.

ليمت كي لا يموت! فإن احتفظت به هنا حيًا لا يعيش، وإن مات يحيا.

هذا هو حال القيامة بوجه عام. إذ يجب أن يموت أولاً ويدفن، عندئذٍ يصير خالدًا.

ولكن هذا يحدث في جرن المعموديّة، حيث يتحقّق الصلب والدفن وعندئذٍ القيامة. هذا أيضًا ما حدث بالنسبة لجسد الرب، إذ صُلب ودفن وقام. ليحدث هذا أيضًا بالنسبة لنا، فتكون لنا الإماتة المستمدة عن أعمال الجسد. لا أقصد موت جوهر الإنسان، فإن هذا بعيد عن قصدي، إنما موت

ميوله نحو الأمور الشرّيرة، فإن هذا هو الحياة أيضًا، بل ما هو هذا إلا حياة[1].]

يرى **القدّيس أمبروسيوس**[2] في هذه العبارة الرسولية: "**سيحيّ أجسادكم المائتة أيضًا بروحه الساكن فيكم**" **[١١]**، تأكيدًا لوحدة العمل بين الثالوث القدوس، فإن الآب يحيي من يشاء، وأيضًا الابن (يو ٥: ٢١)، كذلك الروح القدس. وقد جاء في حزقيال: "هلم يا روح من الرياح الأربع وهبّ على هؤلاء القتلى ليَحيوا... فدخل فيهم الروح فحَيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جدًا جدًا" (حز ٣٧: ٩-١٠).

خامسًا: الشعور بالدين للروح

"**فإذن أيها الإخوة نحن مدينون ليس للجسد لنعيش حسب الجسد،**

لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون،

ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون" **[١٢-١٣]**.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة هكذا:

[بعد أن أظهر عظم مكافأة الحياة الروحيّة إذ تجعل المسيح ساكنًا فينا، وتُحيي أجسادنا المائتة، وتهبها أجنحة لتطير بها إلى السماوات، وتجعل طريق الفضيلة سهلاً، بلياقة، يحثنا لتحقيق هذا الهدف. لم يقل: "يلزمنا ألا نعيش حسب الجسد"، وإنما قال هذا بطريقة أكثر إثارة وقوة هكذا: "**نحن مدينون للروح**". هذا ما عناه بقوله. "**نحن مدينون ليس للجسد**".

في كل موضع يؤكّد أن ما يقدّمه الله لنا ليس على سبيل الدين وإنما مجرّد نعمة (مجّانية). ولكن بعد هذا يوضّح أن ما نفعله نحن ليس بتقدمة اختياريّة، إنما هو دين (مقابل معاملات الله لنا)، إذ يقول: "قد أُشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيدًا للناس" (١ كو ٧: ٢٣)، كما يكتب: "إنكم لستم لأنفسكم" (١ كو ٦: ١٩)، وفي موضع آخر يثير ذات الفكر في أذهانهم بقوله: "وهو مات لأجل الجمع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم" (٢ كو ٥: ١٥). لقد أراد أن يثبت هذا بقوله: "**نحن مدينون**"... بقوله: "**نحن مدينون ليس للجسد**"، ولئلاّ تظن أنه يتحدّث عن طبيعة الجسد قال: "**إن عشتم حسب الجسد**"...

يقدّم لنا هنا تعليمًا... وهو أنه يلزمنا ألا نعيش حسب الجسد، بمعنى ألا نجعله سيّد حياتنا، إنما ليكن الجسد هو التابع لا القائد، ليس هو الذي يدبّر حياتنا، بل ناموس الروح هو الذي يدبرها. بإبرازه

---

[1] *In Rom. hom 13.*
[2] *Of the Holy Spirit 3: 19 (149).*

هذه النقطة، وتأكيده أننا مدينون بالروح، وإظهاره منافع هذا الدين الذي علينا للروح، لا يتحدّث عن الأمور الماضية بل عن الأمور المقبلة... فإن نفع الروح لا يقف عند هذا فقط، إنه حرّرنا من خطايانا السابقة، بل يهبنا حصانة ضد خطايانا المقبلة، ويحسبنا أهلاً للحياة الخالدة (ستحيون[1]).]

❖ وهبك المخلص الروح الذي به تميت أعمال الجسد[2].

القدّيس أغسطينوس

سادسًا: التمتّع بروح البنوّة

ركّز الرسول بولس في هذا الأصحاح وهو يتحدّث عن "**ناموس الروح، وبرّ المسيح**"، عن شعورنا أننا مدينون للروح القدس الذي يعتقنا من الدينونة مادمنا نسلك حسب الروح، ويهبنا روح الغلبة والنصرة فنواجه حرب الخطايا بقوّة، ونركض في ميدان الفضيلة، منطلقين نحو السماء كما بأجنحة الروح. أخيرًا، يكشف لنا الرسول عن عمل هذا الروح الإلهي فينا، لا بتقديم إمكانيات إلهية إلينا فحسب، وإنما بتجديد مركزنا بالنسبة لله، فيعتقنا من العبوديّة لنحتل مركز البنوّة الفائق الذي به نصرخ نحو الآب قائلين: "**يا أبّا الآب**"، نُحسب بالحق أولاد الله، لنا حق الميراث مع المسيح.

"**لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله،**
إذ لم تأخذوا روح العبوديّة أيضًا للخوف،
بل أخذتم روح التبنّي
الذي به نصرخ يا أبّا الآب؛
الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله" **[١٤-١٦]**.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العطيّة بقوله:

[الآن فإن هذه أيضًا أعظم كرامة من الأولى. ولهذا لم يقل "لأن كثيرين يعيشون بروح الله"، إنما يقول "**لأن كثيرون ينقادون بروح الله**"، مظهرًا أنه يستخدم سلطانًا على حياتهم (يقتادهم) كربانٍ يقود سفينة، أو سائق مركبة على زوج من الفرس، فهو لا يقود الجسد فقط وإنما النفس أيضًا، يملك عليهما... ولأنه يخشى بسبب الثقة في عطيّة جرن المعموديّة يهملون في رجوعهم بعد نوالهم العماد، لذا يود أن يقول لهم أنكم وإن نلتم المعموديّة ولا تنقادون للروح فإنكم تفقدون الكرامة التي نلتموها

[1] *In Rom. hom 14.*
[2] *Ser. On N. T. 78: 9.*

وسمو بنوّتكم[1].]

يرى ذات القدّيس أن قول الرسول: "**لم تأخذوا روح العبوديّة**" يُشير إلى العهد القديم حيث لم ينل اليهود روح البنوّة، إنما بنوالهم الناموس مجردًا عاشوا تحت تهديدات العقوبة في خوف كعبيدٍ، أمّا في العهد الجديد فلم تعد مكافأة الوصيّة أمورًا زمنية ولا عقابها زمنيًا، إنما قُدمت الوصيّة للبنين، ليكون الله نفسه هو مكافأتنا، ننعم به أبًا أبديًا، نناديه "أبًا"، وهي كلمة أرامية توجه لمناداة الأب.

يُعلّق **القدّيس أغسطينوس** على القول: "**روح العبوديّة أيضًا للخوف**"، قائلاً: [يوجد نوعان من الخوف ينتجان صنفين من الخائفين. هكذا يوجد نوعان من الخدمة يقدّمان نوعين من الخدام. يوجد خوف يطرده الحب الكامل خارجًا (١ يو ٤: ١٨)، كما يوجد نوع آخر من الخوف هو طاهر ويبقى إلى الأبد (مز ١٩: ٩). يُشير الرسول هنا إلى الخوف الذي ليس للمحبّة... كما يُشير في موضع آخر إلى الخوف الطاهر، بقوله: "لا تستكبر، بل خف" (رو ١١: ٢٠)[2].]

بهذا الروح نحمل لغة البنين في حديثنا مع الله كأب لنا، فنصرخ بالروح القدس الساكن فينا، واهب البنوة، لنقول: يا "أبًا". هذا الصوت الذي نصرخ به كما يقول **القدّيس جيروم**: [لا يخرج من الشفاه بل من القلب، ففي الحقيقة يقول الله لموسى: "مالك تصرخ إليَّ؟" (خر ١٤: ١٥)، وبالتأكيد لم ينطق موسى بكلمة[3].]

❖ بالحري يجدر بهم أن يفهموا أنهم إن كانوا أبناء الله، فبروح الله ينقادون ليفعلوا ما ينبغي فعله. وعندما يفعلون هذا يقدّمون الشكر لله الذي به فعلوا... وهذا لا يعني أنهم لم يفعلوا شيئًا (أي لا يحرمون من نسبة هذه الأعمال إليهم).

❖ إنه يعني عندما تميتون بالروح أعمال الجسد فتحيون [١٣] مجدوا الله، اشكروه، قدّموا له التشكرات، ذاك الذي تنقادون بروحه، لكي تقدروا على السير في هذه الأمور لتظهروا كأبناء الله[4].

القدّيس أغسطينوس

يحدّثنا **القدّيس كبريانوس** عن التزاماتنا كأولاد الله، قائلاً: [إن كنّا أولادًا لله، إن كنّا بالفعل قد بدأنا أن نكون هياكله، إن كنّا نقبل روحه القدوس، يلزمنا أن نحيا بالقداسة والروحانيّة. إن كنّا نرفع أعيننا عن الأرض نحو السماء، إن كنّا نرفع قلوبنا، ونمتليء بالله (الآب) والمسيح بالعلويات والإلهيات،

---

[1] *In Rom. hom 14.*
[2] *In Ioan. Tract., 85: 3.*
[3] *On Ps. hom 59.*
[4] *Reproach & Grace 4; Grace& Free- will 23.*

فليتنا لا نفعل إلا ما يليق بالله والمسيح، كما يحثّنا الرسول، قائلاً: "فإن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله، اهتمّوا بما فوق لا بما على الأرض، لأنكم قد مُتم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (كو ٣: ١-٤). ليتنا نحن الذين في المعموديّة متنا ودفنا عن الخطايا الجسديّة التي للإنسان القديم وقمنا مع المسيح في التجديد السماوي نفكر في أمور المسيح ونمارسها[1].]

هذا ويروي **القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص**[2] إن عطيّة البنوّة التي ننالها بالروح القدس هي عطيّة السيد المسيح نفسه، هذا الذي حمل مالنا ليهبنا ما له، فحمل موتنا ولعنتنا وخطايانا وعبوديتنا لينزع هذا كله عنّا، فلا نُحسب بعد عبيدًا بل أبناء وأحباء.

ويُعلّق **القدّيس أغسطينوس**[3] على تعبير "**أبَا الآب**"، قائلاً أن كلمة "أبَا" تقابل في اللاتينية *Pater* وهي تعني أيضًا "الآب"، وكأن الكنيسة تكرر الكلمة، إذ تصرخ بلغة اليهود "أبَا" وبلغة الأمم "الآب"، فهي كنيسة واحدة تضم أعضاء من اليهود والأمم يشعر الكل بأبوة الله لهم بلا تمييز.

يشهد بهذه البنوّة الروح القدس نفسه الذي يسكن فينا واهبًا إيّانا "كرامة البنوّة"، إذ يقول الرسول: "**الروح نفسه أيضًا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله**" **[١٦]**.

سابعًا: التمتّع بالميراث

إذ ننال روح البنوة، نُحسب أبناء الله لنا حق الميراث الأبدي، وكما يقول الرسول: "**فإن كنّا أولادًا فإننا ورثة أيضًا، ورثة الله، ووارثون مع المسيح**" **[١٧]**.

ظن اليهود أنهم كأصحاب للناموس هم ورثة المواعيد دون سواهم، لكن الرسول بلطفٍ يكشف لهم أن الأمم إذ نالوا روح البنوّة بالمعموديّة صاروا ورثة الله، وكما قال السيد المسيح نفسه: "أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديًا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين" (مت ٢١: ٤١)، كما قال: "وأقول لكم أن كثيرون سيأتون من المشارق والمغارب ويتّكئون مع إبراهيم واسحق في ملكوت السماوات، وأمّا بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية" (مت ٨: ١١-١٢).

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم: [**أضاف إلي قوله إننا ورثة الله "**وارثون مع المسيح**". لاحظ طموحه، فإنه يريد أن يقترب بنا إلي السيد. فحيث أنه ليس كل الأبناء ورثة أظهر أننا أبناء وورثة أيضًا. ولما كان ليس كل الورثة ينالون ميراثا عظيمًا أبرز هذه النقطة بكوننا ورثة الله. مرة أخرى إذ

---

[1] *On Jealousy & Envy 14.*
[2] *Adv. Eunomius 10: 4.*
[3] *Harmony. Of Gospels, 3: 4.*

يمكن أن نكون ورثة لله ولكن ليس ورثة مع الابن الوحيد أظهر أن لنا هذا أيضًا[1].]

ثامنًا: الشركة مع المسيح المتألم والممجد

إن كان الروح القدس يهبنا الميراث كأبناء لله، نرث الله مع المسيح... فإن هذا الميراث هو عطية مجانية لا فضل لنا فيها، لكنها لا تُقدم للخاملين بل للجادين في الشركة مع المخلص، الذين لهم شركة في آلامه يتمتعون بشركة أمجاده "**إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضًا معه**" **[١٧]**.

٢. تجديد الخليقة وعمل الروح

سبق فحدثنا عن "ناموس الروح" مبرزًا عمل الله فينا، أنه يعتقنا من الدينونة إن سلكنا بالروح القدس وليس حسب شهوات جسدنا، ويهبنا اهتمام الروح الذي هو الحياة والسلام، وننعم بسكنى السيد المسيح فينا فيهبنا برّه، وننعم بعربون القيامة عاملاً فينا، ونشعر بالدين نحو الروح الذي يهبنا البنوة لله والميراث مع المسيح والشركة معه. الآن يحدثنا عن عمل الروح فينا وأثره حتى على الخليقة غير العاقلة، مبرزًا ترقب العالم المخلوق من أجلنا لعودتنا إلي الأحضان الإلهية كأبناء لله بعد أن تركناه زمانًا فسببنا للأرض اللعنة وللخليقة فسادًا. هذا من جانب، ومن جانب آخر إذ نعود الآن لنختبر عربون الروح بقيامة نفوسنا من موت الخطية تتمتع أيضا أجسادنا بهذه القيامة مترقبة يوم الرب العظيم بصبرٍ ليعيش الإنسان بكليته، نفسًا وجسدًا، في كمال قوة القيامة أبديًا. ولئلا يستصعب المؤمن هذا أكدّ دور الروح القدس نفسه، واهتمامه بنا، لتحقيق هذا العمل فينا.

أولاً: بدأ الرسول حديثه بالقول: "**فإني أحسب أن الآم الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا**" **[١٨]**.

وضع هذه العبارة كخاتمة للحديث السابق وافتتاحية للحديث الجديد، فإنه إذ كان يتحدث عن "برّ المسيح" وارتباطه بناموس الروح، كاشفًا عن عمل الروح فينا، خاصة البنوة لله والتمتع بالميراث أراد أن يوضح أن حياتنا مع الله ليست هروبًا من الضيق والألم الحاضر، وإنما هي ارتفاع على الآلام الحاضرة خلال انفتاح القلب علي المجد الأبدي. وكأن الرسول بعد أن عرّفنا على عطايا الله غير المدركة إذا به يقودنا بثقة وسط آلام هذا الزمان وأخطاره، معلنًا أن اتحادنا مع الله بروحه القدوس في ابنه لا يغير الظروف المحيطة بنا بل يهبنا اتساعًا في القلب والفكر وقوة للنفس لتجتاز كل الظروف بنبلٍ من أجل الأمجاد الأبدية.

---

[1] *In Rom. hom 14.*

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة قائلاً: [لاحظ كيف يهدئ روح المصارعين ويرفعها في نفس الوقت، فإنه بعد ما أظهر أن المكافآت أعظم من الأتعاب، يحثهم لاحتمال متاعب أكثر دون أن يستكبروا، إذ لا يزالوا يغلبون لنوال الأكاليل كمكافأة لهم. في موضع آخر يقول: "لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا" (٢ كو ٤: ١٧). هنا لم يقل إن الآلام خفيفة، لكنه يربط الآلام بالراحة خلال إعلان المكافأة بالصالحات العتيدة. "**فإني أحسب أن الآلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا**" **[١٨]**... لم يقل "المجد الذي سيكون لنا" وإنما "**يُستعلن فينا**"، كما لو كان المجد فينا فعلاً لكنه لم يستعلن بعد... هذا أوضحه أكثر في موضع آخر: "حياتنا مستترة مع المسيح في الله" (كو ٣: ٣)... هذه الآلام. أيًا كانت مرتبطة بحياتنا الحاضرة، أما البركات القادمة فتبلغ عصورًا بلا حدود[1].]

هذا الحديث الرسولي عن المجد الأبدي الذي يُستعلن فينا خلال الآلام الزمنية المؤقتة ألهب قلب المؤمنين للانطلاق بالحب الإلهي على مستوى سماوي يرفع نفوسهم فوق كل ألم وضيق أو طلب خير زمني أو بركة مؤقتة:

❖ المحبة لا تجد شيئا ثقيلاً؛ الغيور لا يعرف عملا صعبًا. تأمل ما احتمله يعقوب من أجل راحيل المرأة التى وُعد بها، إذ يقول الكتاب المقدس: "فخدم يعقوب براحيل سبع سنين، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها" (تك ٢٩: ٢٠). لقد أخبرنا بنفسه بعد ذلك عما احتمله: "كنت في النهار يأكلني الحرّ في الليل الجليد" (تك ٣١: ٤٠). هكذا يليق بنا أن نحب المسيح ونطلب على الدوام قبلاته، وعندئذٍ يبدو كل صعب سهلاً لنا، وما هو طويل يصير قصيرًا.

لنُضرب بسهام حبه (مز ١٢٠: ٥) فنقول في كل لحظة: "الويل لي فإن غربتي قد طالت عليَّ" (مز ١٢٠: ٥).

❖ إن تطلعت أن ترث خيرات العالم لا تقدر أن تكون شريكًا مع المسيح في الميراث.

❖ إنك طماع للغاية يا أخي، إذ تود أن تبتهج بالعالم هنا وتملك مع المسيح هناك[2].

القديس جيروم

❖ [إلى المُقدمين للاستشهاد في المناجم:]

---

[1] *In Rom. hom 14.*
[2] *Ep 22: 40; 14: 16, 10.*

إنكم تنتظرون كل يومٍ بفرحٍ يوم رحيلكم المنقذ.

ها أنتم قد تركتم العالم بالفعل، وتسرعون نحو مكافآت الاستشهاد، نحو المنازل الإلهية، لكي تروا بعد ظلمة العالم هذه النور اللائق، وتتقبلون مجدًا أعظم من كل الآلام والأحزان[1].

الشهيد كبريانوس

❖ "**فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا**" **[١٨]**. انظر فإن النير هين والحمل خفيف (مت ١١: ٢٩). فإنه وإن كان عسيرًا على القليلين الذين اختاروه، لكنه سهل بالنسبة للذين يحبونه. يقول المرتل: "على حسب كلامك شفتيك لزمت طرقًا وعرة" (مز ٢٦: ٤)[2].

القديس أغسطينوس

ثانيًا: إذ يعلن الرسول أن الروح لا ينزع عن المؤمن الآلام والضيقات إنما يهبه مجدًا خفيًا في الداخل وسط الآلام الخارجية، يُستعلن هذا المجد في يوم الرب العظيم، ينتقل من حياة المؤمن الداخلية إلي الخليقة عينها، قائلا: "**لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله**" **[١٩]**.

ماذا يقصد بالخليقة التي تترقب في شوقٍ إعلان بنوتنا لله؟

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول يقصد بالخليقة هنا العالم كله بما فيه من جمادات. فإن كان الله قد خلق العالم كله من أجل الإنسان ليحيا سيدًا فيه يحمل صورته الإلهية ومثاله، فإن فساد الإنسان انعكست آثاره حتى علي الخليقة، فعندما سقط آدم جاء الحكم: "ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكًا وحسكًا تنبت لك" (تك ٣: ١٧-١٨). قاوم الإنسان إلهه، فأثمرت مقاومته مقاومة الخليقة له، لكنها حتى في هذه المقاومة كأنها تترجى عودته إلى حضن الله كابن له فتعود هي متهللة من أجل الإنسان الذي خلقت لأجله.

صوّر الرسول بولس الخليقة كشخصٍ يئن ويتمخض معًا يترجى صلاح الحياة كلها. غير أن هذا لا يُفهم بصورة حرفية مادية وإلا توقعنا أن تعود البشرية كما مع آدم في الفردوس الأول الأرضي المادي ويبقى الفردوس خالدًا، الأمر الذي يتنافى مع فكر المسيح وروح الإنجيل، إنما أراد الرسول أن يبرز فاعلية عمل السيد المسيح في حياة الإنسان، حتى تكاد الخليقة غير العاقلة أن تنطق متهللة من أجل المصالحة مع الله وعودته إلى الأحضان الأبوية.

---

[1] *Ep 76: 7.*
[2] *Ser. On N. T. 20: 3.*

في أوضاع استثنائية سمح الله للطبيعة العنيفة أن تخضع للمؤمن، كملاطفة الحيوانات المفترسة الجائعة للشهداء في الساحات الرومانية، وعدم فاعلية السم على بعضهم، وسكنى بعض المتوحدين والسواح مع الحيوانات البرية، وإعالة البعض في الصحراء بواسطة غربان الخ. هذا كله لم يكن قاعدة عامة إنما تحققت بفيض خاصة في عصور الضيق الشديد لمساندة الإيمان بطريقة ملموسة، ولتأكيد العطايا الإلهية الداخلية غير المنظورة والأمجاد السماوية المترقبة.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[يجعل (الرسول بولس) من العالم كله أشبه بشخصٍ، كما سبق ففعل الأنبياء عندما قدموا الأنهار تصفق بالأيادي (مز ٩٨: ٨)، والتلال تقفز، والجبال تتحرك، لا لنتخيل هذه الكائنات الجامدة أشخاصًا حية، فننسب لها قوة العقل، وإنما لكي ندرك عظمة البركات وكأنها قد أثارت الخليقة غير الحسية أيضًا. يستخدمون ذات الأسلوب أيضا في الظروف المؤلمة حيث يصورون الكرمة تنتحب والخمر يبكي والجبال وعوارض الهيكل تصرخ، لندرك مدي بشاعة الشر. هكذا امتثل الرسول بالأنبياء فجعل من الخليقة هنا أشبه بكائن حي يئن ويتمخض، لتظهر عظمة الأمور المقبلة...

ما معنى أن **الخليقة أخضعت للباطل [٢٠]؟** لماذا صارت فاسدة؟ وما هو السبب؟ بسببك أنت أيها الإنسان، فإنك إذ حملت جسدًا ميتًا قابلاً للآلام تقبلت الأرض لعنة وأنبتت شوكًا وحسكًا.

حتى السماء إذ تبلى مع الأرض ستتحول إلى حالة أفضل، اسمع ما ينطق به النبي: "من قدم أسست الأرض، والسماوات هي عمل يديك؛ هي تبيد وأنت تبقى، وكلها كثوب تبلى، كرداء تغيرهن فتتغير" (مز ١٠٢: ٢٥-٢٦). ويعلن إشعياء ذات الأمر، بقوله: "ارفعوا إلى السماوات عيونكم وانظروا إلى الأرض من تحت، فإن السماوات كالدخان يضمحل، والأرض كالثوب تبلى، وسكانها يموتون (مثلها)" (إش ٥١: ٦).

ها أنت ترى بأي معنى سقطت الخليقة في عبودية الباطل، وكيف تتحرر من حالة الفساد؟...

لقد حاصرها الشر لأجلك وصار مفسدًا، مع أن (الخليقة) لم ترتكب خطأ من جانبها، ولأجلك أيضًا سيحدث عدم الفساد. هذا هو معنى "**على الرجاء**" **[٢٠].**

عندما يقول إنها أخضعت "**ليس طوعًا**" لا ليظهر أن ما قد حدث لها وإنما لكي نتعلم عناية المسيح للكل، فإن إصلاح الخليقة لا يكون من ذاتها[1].]

الآن، ما هو رجاء الخليقة؟

[1] *In Rom. hom 14.*

"**لأن الخليقة نفسها أيضا ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله**" **[٢١].**

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[الآن، ما هي هذه الخليقة؟ إنها لا تعنيك أنت وحدك، وإنما معك أيضًا الخليقة الأدنى، التي لا تشترك معك في العقل أو الحس، هذه تشاركك بركاتك.

يقول "**ستعتق من عبودية الفساد**"، بمعنى أنها لا تعود تصير فاسدة، وإنما تتمشى جنبًا إلى جنب مع الجمال الذي يُوهب لجسدك. فكما أنه عندما صار جسدك فاسدًا فسدت هي أيضًا، هكذا الآن إذ صار جسدك غير فاسد تتبعه هي أيضًا. وإذ يعلن الرسول هذا يبلغ إلى النتيجة: "**إلى حرية مجد أولاد الله**"، فتتحقق حريتها.

إنه يشبه مربية تربي ابن ملك، عندما ينال الابن سلطان أبيه تتمتع هي معه بالخيرات، هكذا أيضًا بالنسبة للخليقة معنا.

ها أنت ترى في كل الأمور أن الإنسان يحتل مركز القيادة، فمن أجله خُلقت كل الأشياء.

انظر كيف يلطف (الرسول) المصارع، مظهرًا محبة الله غير المنطوق بها من نحو الإنسان، إذ يود أن يقول: لماذا أنت مرتبك عند تجاربك؟ فإن كنت تتألم من أجل نفسك فإنه حتى الخليقة تتألم بسببك. وليس فقط يلطف، وإنما يظهر أيضًا أن ما ينطق به أمر ذو أهمية. لأنه إن كانت الخليقة التي أوجدت بكاملها لأجلك هي "**علي رجاء**" فكم بالأولى يليق بك أنت أن تكون على رجاء، يا مَنْ مِنْ خلالك ستتمتع الخليقة بتلك الخيرات؟

كما أن الآباء إذ يرون الأبناء في طريقهم لنوال كرامة يُلبسون الخدم ثيأبًا بهية من أجل مجد الابن، هكذا يلبس الله الخليقة عدم الفساد من أجل مجد حرية الأبناء[1].]

ويرى **القديس غريغوريوس أسقف نيصص**[2] أن الخليقة التي تئن علي رجاء هي جماعة السمائيين الذين كمن هم يئنون من أجل الإنسان ليفرحوا بتمتعه بالبنوة، وكما قال السيد المسيح إن السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب (لو ١٥).

ويرى **القديس إيريناؤس** أن "الخليقة" هنا تعني "الجسد"، إذ يقول: "[من العدل أنه في ذات الخليقة التي فيها تعبوا وتألموا متزكين بكل طرق الاحتمال أن يتقبلوا مكافأة أتعابهم، وأنه في الخليقة التي فيها ذُبحوا من أجل محبتهم لله، فيها ذاتها ينتعشون مرة أخرى. الخليقة التي احتملوا فيها العبودية يملكون.

---

[1] *In Rom. hom 14.*
[2] *Adv. Eunomius 4: 3.*

فإن الله غنى في كل شيء، وكل شيء هو له. يليق إذن أن تُعاد الخليقة عينها إلي حالتها الأولى فتصير بلا مقاومة تحت سلطان البرّ كما أوضح الرسول في الرسالة إلى أهل رومية[1].]

ثالثا: الخليقة توبخنا برجائها كما بأنينها: إن كانت الخليقة التي تتمتع بالخيرات من أجلنا إذ سقطت تحت الفساد بسببنا تترجى مجدنا كأولاد لله لتلبس عدم الفساد، فإنها في هذا الانتظار كمن في حالة ولادة مستمرة تنتظر "جديدًا"، إذ يقول الرسول: "**فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معًا إلى الآن**" **[٢٢]**. هذا هو حال الخليقة التي أُوجدت من أجلنا فكم بالحري يليق بنا أن نئن نحن أيضا ونتمخض بالآلام من أجل تمتعنا بكمال مجد البنوة لله؟

رابعًا: إن كانت الخليقة التي لم تنل شيئا قد امتلأت رجاءً وصارت كما في حالة ولادة تئن وتتمخض، فكم بالحري يليق بنا نحن الذين تمتعنا فعلاً بعمل الروح القدس في نفوسنا، فنلنا باكورة المجد في داخلنا لنترجى كمال عمله حين تخلص أجسادنا أيضا بقيامتها في يوم الرب العظيم، فتنعم مع النفوس بذات المجد، إذ يقول الرسول: "**وليس هكذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا نئن في أنفسنا، متوقعين التبني فداء أجسادنا**" **[٢٣]؟**

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن باكورة الروح الذي نلناه يدفعنا لهذا الأنين الداخلي المملوء رجاءً. هذه الباكورة عظيمة للغاية لا تقف عند غفران الروح لخطايانا، وإنما أيضا تهبنا البرّ والتقديس، وقد ظهرت هذه الباكورة في عصر الرسول بإخراج الرسل للشياطين وإقامة الموتى خلال ظلهم (أع ٥: ١٥) وثيابهم (أع ١٩: ١٢). هذه هي الباكورة، فماذا يكون كمال الروح؟

إذن لنتوقع التبني كقول الرسول. كيف يكون هذا ونحن قد نلنا البنوة لله فعلاً؟ إننا نتوقع كمال مجد البنوة بقيامة الجسد من الأموات، كقول الرسول: "**الذي سيغير شكل جسد تواضعنا، ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته، أن يخضع لنفسه كل شيء**" (في ٣: ٢١)، "**لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت**" (١ كو ١٥: ٥٣).

إذًا ما نلناه كباكورة الروح إنما يفتح باب الرجاء للإنسان ليجاهد بالصبر حتى يبلغ كمال الروح الذي يمجّد الإنسان بكليته نفسًا وجسدًا، على مستوى أبدي، لذلك يكمل الرسول حديثه عن الرجاء لنوال كمال الروح قائلاً:

"**لأننا بالرجاء خلصنا،**

---

[1] *Adv. Haer 5: 32: 1.*

ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً،
لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضًا؟
وإن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر" [٢٥-٢٤].

أ. ماذا يعني: "**بالرجاء خلصنا**"؟ يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[هذا يعني أننا لا نطلب كل شيء لنا في هذه الحياة، وأن يكون لنا رجاء أيضًا، مؤمنين أن ما وعدنا به الله يحققه لنا، بهذا نحن خلصنا؛ فإن فقدنا الرجاء نفقد كل ما نلناه...

يود أن يقول: أتساءل، ألم تكن أنت خاضعًا لخطايا بلا حصر؟ ألم تكن يائسًا؟ ألم تكن تحت الحكم؟... ما الذي خلّصك إذن؟ الرجاء في الله وحده، وثقتك من جهة مواعيده وعطاياه، فإنه ليس لك شيء آخر تقدمه له. إن كان هذا هو الذي خلصك، فلنتمسك به الآن أيضًا. فمن قدم لك بركات عظيمة هكذا لا يمكن أن يخدعك في البركات المقبلة. لقد وجدك ميتًا ومحطمًا وسجينًا وعدوًا، فجعلك صديقًا وابنًا وحُرًا وبارًا ووارثًا معه، مقدمًا لك أمورًا عظيمة هكذا لم يكن يتوقعها أحد. هل بعد التمتع بمثل هذه العطايا بسخاءٍ وحبٍ يخونك في الأمور المقبلة؟...

هذا الطريق (الرجاء) خلصك من البداية؛ إنه العربون الذي أحضرته وحده إلى العريس. فلنتمسك به ولنحتفظ به، فإنك إن طلبت شيئًا في هذا العالم تفقد صلاحك الذي به صرت بهيًا، لهذا يكمل الرسول: قائلا: "**ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضا**[1]؟"]

يقول **القديس أغسطينوس:** [وإذ ننتظر خلود الجسد وخلاص نفوسنا في المستقبل نتسلم العربون فيُقال إننا قد خلصنا[2].]

يشبه **القديس أغسطينوس** هذا الرجاء بالبيضة التي تحمل في داخلها حياة تقدمها خلال دفء الضيقات والآلام، إذ يقول: [إنها بيضة، وليس بعد (كتكوت). إنها مغلفة بقشرة، لكن لا تنظر إليها هكذا بل انتظر في صبر، ولتجعلها في دفء فستقدم حياة. اضغط عليها[3].]

ب. إن كانت باكورة الروح تدفعنا للتمسك بالرجاء لنوال كمال المجد الذي يهبه الروح للأبناء، فإن هذا الرجاء ليس بالعمل السلبي، بمعنى آخر يلتزم المؤمن أن يمارس دورًا إيجابيًا باحتماله الأتعاب الكثيرة والآلام من أجل رجائه في غير المنظورات، إذ يقول الرسول "**نتوقعه بالصبر**" **[٢٥]**. هذا ما

---

[1] *In Rom. hom 14.*
[2] *In Ioan. Tr 86: 1.*
[3] *Ser On N. T.55: 7.*

يؤكده الرسول علي الدوام: إبراز عمل النعمة الإلهية المجانية، لكن دون سلبية من جهة المؤمن!

ج. إن كان المؤمن في رجائه بالتمتع بكمال عمل الروح ليُعلن مجد أبناء الله أبديًا وذلك خلال الصبر، فإن هذا الصبر عينه هو عطية إلهية نقتنيها بالله نفسه، إذ يسندنا الروح القدس نفسه في جهادنا، حتى في الأمور البسيطة والضعفات، وكما يقول الرسول: "**وكذلك الروح أيضا يعين ضعفاتنا**" **[٢٦]**.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [لكي تعرف أنه ليس بأتعابك وحدها والمخاطر التي تواجهها إنما تقف النعمة بجانبك، حتى في الأمور التي تبدو هينة للغاية، إذ يعمل معك، وفي كل الأحوال يقوم بدوره في الاتحاد[1].]

د. إذ يتعرض الرسول بولس لعون الروح القدس لنا في جهادنا حتى في الضعفات البسيطة كي نلتهب بالرجاء ونثابر بالصبر، يبرز عملاً رئيسيًا للروح القدس في حياتنا، بقوله: "**لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها، ولكن الذي يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح، لأنه بحسب مشيئة الله يشفع في القديسين**" **[٢٧-٢٦]**.

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم**[2] أن "الروح" هنا الذي يشفع فينا إنما يعنى القلوب الملتهبة بالروح القدس خلال "موهبة الصلاة "، إذ يعطى الروح القدس للبعض موهبة الصلاة عن الآخرين... فالروح يقترح علي النفوس المقدسة ما تصلي به من أجل إخوتها، لأنها لا تعلم ما تصلي لأجله كما ينبغي، فقد صلى بولس طالبًا أن يرى روما، وصلى موسى مشتهيًا رؤية فلسطين (تث ٣: ٢٦)، وطلب إرميا عن اليهود (إر ١٥: ١) وتشفع إبراهيم عن أهل سدوم (تك ١٨: ٢٣)، ومع ما لهذه الصلوات من قيمة كبرى تكشف عن قلوب مقدسة محبة للآخرين، لكنها في رأي **القديس يوحنا الذهبي الفم** لم يكن هؤلاء يعرفون ما يصلون لأجله كما ينبغي، فالإنسان مهما بلغت قداسته يحتاج إلى عون الروح ليرشده حتى في الصلاة عن الآخرين.

الروح يسند ليس فقط في الصلاة عن الآخرين وإنما حتى من أجل الإنسان نفسه، لأنه كما يقول **الأب إسحق** تلميذ القديس أنبا أنطونيوس: [أحيانًا نسأل أمورًا تضاد خلاصنا، وبواسطة عنايته الإلهية يرفض طلباتنا، لأنه يرى ما هو لصالحنا بحق أعظم مما نستطيع نحن. وهذا ما حدث مع معلم الأمم عندما صلى أن ينزع منه ملاك الشيطان الذي سمح به الرب لأجل نفعه. "من جهة هذا تضرعت إلى

---

[1] *In Rom. hom 14.*
[2] *In Rom. hom 14.*

الرب ثلاث مرات أن يفارقني، فقال لي: تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (٢ كو ١٢: ٨-٩)[1].

يعلق **القديس أغسطينوس** على أنّات الروح القدس فينا، قائلاً: [لا يئن الروح القدس في ذاته مع نفسه في الثالوث القدوس، في جوهره الأبدي... إنما يئن فينا، أي يجعلنا نئن. فإنه ليس بالأمر الهين أن الروح القدس يجعلنا نئن، إذ يهبنا أن ندرك أننا غرباء نسلك في أرض غربتنا، ويعلمنا أن ننظر نحو وطننا، فنئن بشوق شديد[2].]

٣. المسيح المبرر

إدراك تدبير الله لمحبيه

أبرز الرسول بولس حاجة المؤمن لإدراك خطة الله الخلاصية في حياته هو شخصيًا، إذ يقول: "**ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده**" **[٢٨]**.

خطة الله بالنسبة لنا فائقة، فهو لا يغير مجرى الأحداث والظروف حسب أهوائنا الشخصية، إنما يحّول كل الأمور بلا استثناء لبنيان نفس المؤمن الحقيقي، فتعمل حتى الظروف المضادة لمجده.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** علي هذه العبارة، قائلاً بأنه يليق بالمؤمنين ألا يختاروا لأنفسهم الحياة حسب فكرهم حاسبين أن هذا نافع لهم، إنما يقبلون ما يقترحه الروح القدس، لأن أمورًا كثيرة تبدو للإنسان نافعة تسبب له مضارًا كثيرة. كمثال قد يظن الإنسان أن الحياة الهادئة التي بلا مخاطر ولا متاعب نافعة له، لذلك طلب الرسول ثلاث مرات أن يرفع الله عنه التجربة، فجاءته الإجابة: "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (٢ كو ١٢: ٨-٩). بمعنى آخر لنترك كل الأمور في يديّ الروح ليحولها لبنيان نفوسنا.

مرة أخرى يؤكد **القديس يوحنا الذهبي الفم** إن كل الأمور التي تبدو مؤلمة تعمل لخير الذين يحبون الله، أما الذين لا يحبونه فحتى الأمور التي تبدو صالحة ومقدسة تعمل ضدهم إن لم يرجعوا إليه بالحب. ضرب أمثلة منها لم ينتفع اليهود بالناموس الصالح بل وتعثروا حتى في السيد المسيح.

❖ حتى الضيقات أو الفقر أو السجن أو المجاعات أو الميتات أو أي شيء آخر يحلّ بنا يستطيع

---

[1] *Cassian: Conf. 9: 34.*
[2] *In Ioan. Tr 6: 1.*

الله أن يحول كل الأمور إلى نقيضها.

❖ كما أن الأمور تبدو ضارة تكون نافعة للذين يحبون الله، فإنه حتى الأمور النافعة تصير ضارة للذين لا يحبونه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالنسبة للكاملين والحكماء يُقال: "**كل الأشياء تعمل للخير للذين يحبون الله**"، أما بالنسبة للضعفاء الأغبياء فقد قيل أن كل شيء ضد الشخص الغبي (أم ١٤: ٧)، فلا ينتفع من النجاح ولا ينصلح شأنه من المصائب... إذ ينهزم الإنسان بأكثر سهولة بالنجاح أكثر من الفشل، لأن الفشل يجعل الإنسان أحيانًا يقف ضد إرادته، وينال تواضعًا، خلال حزنه المفيد يقلل من خطيته وينصلح شأنه، أما النجاح فقد يدفع بالإنسان إلى الكبرياء العقلي والعظمة الكاذبة[2].

الأب تادرس

❖ ماذا يعني بـ "كل الأشياء" إلا تلك الآلام المرعبة القاسية التي تحل بنا؟ فإنه بالحق يصير حمل المسيح الثقيل خفيفا بالرغم من ضعف محبتنا[3].

القديس أغسطينوس

يقدم لنا **القديس جيروم**[4] أيوب مثلاً حيًا لمن تتحول الأضرار بالنسبة إلى خيره، فلم يترك العدو شيئًا في أيوب غير مضروبٍ سوى لسانه لعله يجدف به على الله، لكن هذه كلها آلت إلى خيره، فقد جاء إليه الله وتحدث معه علي مستوى الصديق مع صديقه.

يعلق كثير من الآباء على تسمية الذين يحبون الله هكذا: "**الذين هم مدعوون حسب قصده**" **[٢٨]**، نقتطف الآتي:

❖ لو أن الدعوة وحدها كانت كافية فلماذا لم يخلص الكل؟... ليست الدعوة وحدها تحقق الخلاص، وإنما نِيَّة المدعوين. فالدعوة ليست ملزمة لهم ولا هي قهرية، إذ الكل مدعوون لكن لا يطيع الكل الدعوة[5].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *In Rom. hom 15.*
[2] *Cassian: Conf. 6: 8.*
[3] *Grace& Free- will 33.*
[4] *On Ps. hom 6.*
[5] *In Rom. hom 15.*

❖ يقول المخلص نفسه:"**إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي**" (يو ٨: ٣١).

هل يحسب يهوذا من بين تلاميذه مادام لم يثبت في كلامه؟

هل يحسب من تلاميذه الذين قيل عنهم: "**فعلم يسوع إن تلاميذه يتذمرون على هذا، فقال لهم: أهذا يعثركم؟...**" (يو ٦: ٥٩-٦٦)؟

ألم يلقبهم الإنجيل "تلاميذ"؟ ومع هذا لم يكونوا تلاميذ حقيقيين، لأنهم لم يثبتوا في كلمته، كقوله: "إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي" (يو ٨: ٣١). فإذ ليس لهم المثابرة بكونهم ليسوا تلاميذ حقيقيين، ليسوا أبناء حقيقيين حتى وإن ظهروا هكذا أو دُعوا هكذا.

إذن نحن ندعو الناس مختارين وتلاميذ المسيح وأولاد الله، لأنهم هكذا يدعون إذ يتجددون (بالمعمودية) ونراهم يعيشون بالتقوى، ولكن هذا يصير حقيقة إن ثبتوا فيما دعوا فيه[1].

القديس أغسطينوس

اهتمام الله بمجدنا

إن كان الروح الإلهي يحول حتى الأمور التي تبدو لضررنا لخيرنا، لأنا مدعوون حسب قصده، فما هو هذا القصد الإلهي؟ قصد الله من جهة الإنسان أن يرفعه إلى المجد؛ فالله ليس في حاجة إلى تعبده أو خدمته إنما يحبه كابن، يوده شريكًا في المجد. هذا هو الأمر الذي في ذهن الله من جهة مختاريه الذين سبق فعرفهم لذلك عينهم، "**ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين**"**[٢٩]**.

❖ انظر سمو هذه الكرامة! فما هو للابن الوحيد بالطبيعة ينالونه بالنعمة.

إنه لم يكتف بهذه الدعوة أن يكونوا مشابهين له، بل يضيف نقطة أخرى: "**ليكونوا بكرًا بين إخوة كثيرين**" **[٢٩]**... هكذا يستخدم كل وسيلة ليقيم العلاقة بوضوح شديد[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ استخدم الرسول الملهم هذا التعبير "بكرًا" في أربع مناسبات: مرة يدعوه "بكر كل خليقة" (كو ١: ١٥)، وأخرى: "**بكرًا بين إخوة كثيرين**" (رو ٨: ٢٩)، وأيضًا "بكر من الأموات" (كو١: ١٨). وفي مناسبة أخرى يستخدم التعبير بطريقة مطلقة دون ربطه بكلمة أخرى، قائلاً: "وأيضًا متى أُدخل البكر إلى العالم يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله" (عب ١: ٦) فبأي معنى صار بكرًا بين إخوة

---

[1] *Reproach & Grece 22.*
[2] *In Rom. hom 15.*

كثيرين؟ بالتأكيد هذا واضح أنه من أجلنا نحن الذين بالميلاد جسد ودم وُلد بيننا واشترك هو أيضًا في اللحم والدم (عب ٢: ١٤)، لكي يغيّرنا من الفساد إلى عدم الفساد بميلادنا نحن من فوق بالماء والروح. لقد قاد بنفسه طريق هذا الميلاد منزلاً الروح القدس على المياه بعماده، حتى يصير في كل شيء بكرًا للذين يولدون روحيًا معطيًا اسم "**إخوة**" للذين يشتركون معه في الميلاد ويتشبّهون به بعمادهم بالماء والروح[1].

القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ لنفهم هذه الكلمات "**مشابهين صورة ابنه**" **[٢٩]** عن الإنسان الداخلي، لذلك يقول في موضع آخر: "ولا تشاكلوا هذا الدهر، بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم" (رو ١٢: ٢). قدر ما نتغير عن شكل هذا الدهر نتشكل كأبناء لله.

يمكننا أيضًا أن نفهم هذه الكلمات هكذا، أنه كما تشكّل بنا فظهر كمن هو مائت هكذا نتشكّل نحن به بعدم الموت، وهذه الحقيقة ترتبط بقيامة الجسد[2].

القدّيس أغسطينوس

❖ في الجسد يصير الرب قائدنا (بكرنا) إلى ملكوت السماوات وإلى أبيه، قائلاً: أنا هو الطريق، والباب، ومن خلالي ينبغي أن يدخل الكل (يو ١٤: ٦، ١٠: ٩)[3].

البابا أثناسيوس الرسولي

يعالج الرسول بولس موضوع اختيار الله لنا أو تعيينه لمختاريه، مؤكّدًا أنه لا يوجد قهر ولا إجبار في قبول نعمة الله، إنما يعين الله الذين يعرف أنهم يقبلون نعمته في كمال حريتهم، إذ يقول: "**الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم... والذين سبق فعيّنهم فهؤلاء دعاهم، والذين دعاهم فهؤلاء برّرهم أيضًا، والذين برّرهم فهؤلاء مجّدهم أيضًا**" **[٢٩-٣٠]**.

ويلاحظ في هذا النص أن الله. "**سبق فعرف الذين له**"، فاختياره وتعيينه لهم، لا على أساس محاباة، وإنما على أساس معرفته السابقة لهم، لا بمعنى أن لهم الفضل في شيء إلا قبولهم لدعوته وتجاوبهم لعمله فيهم بالمثابرة والجهاد. الله هو الذي يدعو وهو الذي يُبرّر وهو الذي يمجّد، لكن ليس في سلبيّة من جهتنا!

---

[1] *Adv. Eunomius 2: 8.*
[2] *City of God 22: 16.*
[3] *Against Arians 2: 61.*

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على تبرير الله وتمجيده لنا بالقول: [لقد برّرهم بتجديد جرن المعموديّة، والذين برّرهم مجّدهم بالعطيّة أي بالتبنّي[1].]

❖ كثيرون دُعوا فعلاً وتبرروا (بالمعموديّة خلال الإيمان)، ومن يبقى إلى النهاية فهؤلاء "**مجّدهم أيضًا**"، وهذا لم يتم بعد.

بالرغم من أن هذين الأمرين، أي دعاهم وبرّرهم، لم يتحقّقا بعد في كل من قيل عنهم، إلا أنه لايزال يوجد كثيرون إلى نهاية العالم سيدعون وسيتبرّرون. وقد استخدم صيغة الماضي – حتى بالنسبة للأمور المستقبلة – كما لو كان الله قد سبق فأعدّها منذ الأزل[2].

القدّيس أغسطينوس

مرافقة الله لنا في الجهاد الروحي

إذ تحدّث عن عطيّة الله لنا أنه عيّننا عن معرفته السابقة لنا بأننا نقبل عمله فينا، ودعانا، وبرّرنا بالمعموديّة، ومجّدنا بالبنوّة لنصير مشابهين صورة ابنه، يقف معنا كل أيام جهادنا، لنقول مع الرسول: "**فماذا نقول لهذا: إن كان الله معنا فمن علينا؟**" **[٣١]**.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**، قائلاً:

[إن كان الله نفسه قد صار (للمؤمن) فحتى الأمور التي تبدو ضده تتحوّل لحسابه... المؤمن الذي يهتّم بنواميس الله لا يقف أمامه إنسان ولا شيطان ولا شيء ما!

فإن سلبْته ماله تصير بالأكثر صرّافًا لمكافأته.

وإن تحدثت ضده بشرّ يُحسب هذا الشرّ مصدر بهاء جديد في عيني الله.

إن حرّمته حتى من الطعام يتمجّد بالأكثر وتعظم مكافأته.

إن قدمته للموت، الذي هو أقسى ما يقع على الكل، فإنك تربطه بإكليل الاستشهاد.

أي طريق حياة مثل هذا؟ هذا الذي لا يقدر شيء ما أن يقف ضد هذه_حتى أن الذين يدبّرون مكائد له يكونون بالنسبة له ليس أقل من الذين يخدمونه! لهذا يقول: "**إن كان الله معنا فمن علينا**[3]"؟]

الفداء، أعظم عطيّة!

بلا شك أن حب الله الفائق الذي خلاله بذل ابنه الوحيد عنّا يسحب كل المشاعر ويمتص كل

---

[1] *In Rom. hom 15.*
[2] *Reproach & Grace 23.*
[3] *In Rom. hom 15.*

الأحاسيس ليقف الإنسان في عجز، ماذا يطلب بعد؟ يقول الرسول: "**الذي لم يشفق على ابنه بل بذل لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء؟**" **[٣٢]**

قدّم ابنه مبذولاً ونحن بعد أعداء لمصالحتنا، فماذا يحجبه عنّا بعد المصالحة؟ أو كما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [الذي وهب الأمور العظيمة لأعدائه، أفلا يهب الأمور الأقل لأصدقائه[1]؟]

يقول الرسول: "**الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين**" **[٣٢]**. وكأن الأب هو الذي قدّم الكأس للابن، لكن الابن أيضًا بحبّه أراد أن يشرب الكأس، فالبذل مشترك: "الآب بذل ابنه الحبيب، والابن بذل ذاته"، وكما يقول **القدّيس أغسطينوس:** [واضع هذا الكأس واحد مع شاربه، إذ يقول الرسول نفسه: "أحبّنا المسيح أيضًا، وأسلم نفسه لأجلنا قربانًا وذبيحة لله رائحة طيبة" (أف ٥: ٢)[2].] كما يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [يُظهر الإناء المختار بوضوح وحده الحب الإلهي، فإن كلاً من الآب والابن قد بذلا، الآب بذل إذ لم يشفق على ابنه لأجلنا أجمعين (رو ٨: ٣٢)، والابن بذل إذ "أسلم ذاته لأجلي" (غل ٢: ٢٠)[3].]

على أي الأحوال إن التطلع إلى الصليب يسحب قلب المؤمن بالحب، إذ يرى في الله "الحب الباذل"، فيخجل أن يطلب بعد شيئًا، إلا أن يرتفع بالصليب إلى الحضن الأبوي بالروح القدس ليبقى فيه أبديًا ينعم بأبوته الإلهية الفائقة.

حقًا إن التطلع إلى الصليب يسحب القلب ليبقى في حالة شكر وتسبيح بلا انقطاع، الأمر الذي يزداد قوّة وبهاءً عندما نرتفع إلى السماوات لندرك بالأكثر فاعلية هذا الحب، حين نوجد مع الله أبناء له وأحباء! هناك يبقى الصليب تسبحتنا السماويّة غير المنقطعة.

رعاية حتى النهاية

إن كان الفداء الإلهي هو قمّة ما قدّمه الله للإنسان، معلنًا كمال حُبّه لا بالكلام والعواطف، وإنما بالبذل حتى الصليب، يبقى الصليب حدثًا فوق الزمن، ويبقى المصلوب حتى بعد صعوده إلى السماء يرعى البشريّة، مشتاقًا أن يسحبهم إلى مجده الأبدي. رعايته دائمة وهو في السماوات لا تنقطع حتى يدخل بنا إلى حيث هو قائم. هذا العمل الإلهي يعطي الرسول الجرأة ليقول:

---

[1] In Rom. hom 15.
[2] In Ioan. tr 112: 5.
[3] Of the Holy Spirit 1: 12 (129).

"من سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرّر.
من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات،
بل بالحري قام أيضًا،
الذي هو أيضًا عن يمين الله،
الذي أيضًا يشفع فينا" [٣٤-٣٣].

❖ إنه لا يترك رعايته لنا، بل لا يزال يشفع فينا محتفظًا بذات الحب لنا.

❖ إن كان الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا ينطق بها [٢٦]، والمسيح مات ويشفع فينا، والآب لم يشفق على ابنه من أجلك وقد اختارك وبررّك، فلماذا تخاف بعد؟[1]

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه يشفع فينا كل يوم غاسلاً أقدامنا، ونحن أيضًا نحتاج إلى غسل أقدامنا يوميًا بسلوكنا بالحق بخطوات روحية، فنعرف الصلاة الربانية، قائلين: "واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" (مت ٦: ١٢)[2].

❖ ليُصلِ كل واحدٍ منّا عن الآخر كما يشفع المسيح عنّا[3].

القدّيس أغسطينوس

هذا وقد وجد **القدّيس أمبروسيوس**[4] في هذه العبارات الرسولية باب الله مفتوح لكل نفس ترجع إليه، فاستخدمها في الرد على أتباع نوفاتيانوس الذين أغلقوا الباب على الراجعين بالتوبة لله، بعد إنكارهم للسيد المسيح أو سقوطهم في خطايا بشعة، مثقّلين النير عليهم باليأس.

٤. محبتنا للمسيح المبرر

إذ انتقل الرسول بولس من الناموس الموسوي فاضح الخطيّة دون معالج لها (ص ٧) إلى ناموس روح الحياة في المسيح يسوع كاشفًا عن عمل الروح القدس فينا خلال عمل المسيح الفدائي، إذ يرفعنا من اهتمام الجسد إلى اهتمام الروح، وعوض العبوديّة يهبنا رح البنوّة لله مقدسًا نفوسنا وأجسادنا، واهبًا إيّانا القيامة الداخليّة ورجاء قيامة الأجساد أيضًا، يسندنا في كل جهادنا حتى في الضعفات، محوّلاً

---

[1] In Rom. hom 15.
[2] In Ioan. tr 56: 4.
[3] In Ioan. tr. 58: 5.
[4] Conc. Repent. 1: 3 (14).

كل الأمور لخيرنا ليحقّق غايته فينا، ألا وهو "مجدنا السماوي"... أمام هذا العمل الإلهي العجيب الذي جاء ثمرة مجيء المسيح وبذل حياته عنّا، لم يعرف الرسول إلا أن يردّ الحب بالحب إذ ينشد لحن محبته للسيد المسيح، قائلاً:

"من سيفصلنا عن محبّة المسيح؟

أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟

كما هو مكتوب: إننا من أجلك نمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح.

ولكنّنا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا.

فإني متيقّن أنه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات،

ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا علو ولا عمق، ولا خليقة أخرى،

تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربنا" [٣٩-٣٥].

سحبت هذه التسبحة قلب الكنيسة ليشتهي أبناؤها الألم كل يوم من أجل المحبوب، ليقدّموا حياتهم ذبيحة حب لذاك الذبيح الذي سبق فبادر بالحب مقدمًا حياته مبذولة عنّا.

لم تعد الآلام والضيقات تحطم النفس، بل علّة الدخول إلى موكب الغلبة والنصرة تحت قيادة المسيح يسوع المتألم والمصلوب.

- "**من أجلك نمات كل النهار**"... من الواضح أننا سنرحل ومعنا أكاليل كثيرة إذ نعيش أيامًا كثيرة، أو بالحرى ننال أكاليل أكثر من الأيام بكثير، إذ يمكن أن نموت في يوم واحد لا مرة ولا مرتين بل مرات كثيرة. لأنه من كان مستعدًا لهذا يبقى ينال مكافأة كاملة على الدوام.

- لقد أظهر (الرسول) أيضًا أن أجسادنا قد صارت ذبيحة، فيليق بنا ألا نرتبك ولا نضطرب عندما يأمر الله بتقديمها.

- لأنه بالحقيقة لأمر عجيب، ليس فقط أننا غالبون وإنما غالبون بذات الأمور التي وُضعت كمكائد لنا. نحن لسنا غالبين فحسب وإنما "أكثر من غالبين"، إذ نمارس الغلبة بسهولة بلا تعب ولا مشقة، لأن الله يصارع بجوارنا، فلا تشك، فإننا وإن ضُربنا نحسب أفضل من الضاربين، وإن طردنا نغلب الذين يضطهدوننا، وإن متنا يبقى الأحياء (الذين يقتلوننا) في صراع... أنهم لا يحاربون البشر بل يقاومون القدير الذي لا يُغلب![1]

[1] *In Rom. hom 15.*

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ العبارة "**ذبحت ذبحها**" (أم ٩: ٢) تعبر عن الشهداء في كل مدينة حيث يذبحون يوميًا من أجل الحق بواسطة غير المؤمنين، صارخين بصوت عالٍ: "**إننا من أجلك نُمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح**"[١].

القدّيس هيبوليتس

❖ ليس شيء من هذه الأمور يقدر أن يفصل المؤمنين أو ينزع الملتصقين بجسده ودمه... **الاضطهاد** هو اختبار للقلب وفحص له. الله يسمح به لنا لكي نمحص وننزكى، إذ يودّ أن يزكي شعبه على الدوام، لكن معونته لا تقصر عن مساعدة المؤمنين في كل وقت وسط التجارب[٢].

الشهيد كبريانوس

❖ هنا تعبير "**كل النهار**" يعني كل الزمان الذي فيه تحتمل اضطهادات ونذبح فيه كغنم. هذا النهار لا يعني نهارًا يحتوي على اثنتي عشر ساعة إنما كل الزمان الذي فيه يتألم المؤمنون في المسيح يموتون لأجله[٣].

القدّيس إيريناؤس

ربّما نتساءل: هل يمكن للملائكة أو القوات أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع؟

❖ لم يقل هذا كما لو كانت الملائكة تحاول هذا أو القوات الأخرى، حاشا! إنما أراد أن يظهر عظم الحب نحو المسيح. فإنه لا يحب المسيح من أجل الأشياء الخاصة بالمسيح (ولو كانت السمائيين)، وإنما من أجل المسيح يحب الأشياء التي له. فيتطلّع إليه وحده، ويخاف أمرًا واحدًا هو السقوط عن محبته للمسيح. هذا الأمر في ذاته أكثر رعبًا من جهنم، أمّا التمتّع بالحب فيشتاق إليه أكثر من الملكوت[٤].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

هذا وقد لاحظ **القدّيس أمبروسيوس**[٥] في هذا الحديث الرسولي، أن الرسول لا يميّز بين محبتنا للآب ومحبتنا للمسيح [٣٥، ٣٩]، علامة وحدة اللاهوت، مقدّمين كل شيء فداء حبنا لله.

---

[1] *Fragments from Comm. on Prov 9: 1.*
[2] *Ep. 7: 5.*
[3] *Adv. Haer 2: 22: 2.*
[4] *In Rom. hom 15.*
[5] *Of the Christian faith 5: 16 (187).*

الأصحاحات ٩–١١

اختيار الله شعبه

قلنا أن اليهود بوجهٍ عام كانوا يشعرون بامتيازٍ خاصٍ بهم دون سائر الأمم من ثلاث جوانب رئيسية: أنهم أبناء إبراهيم صاحب الوعود الإلهية، وأصحاب الناموس الموسوي، وشعب الله المختار.

بالنسبة لبنوتهم لإبراهيم رفعهم الرسول بولس من البنوّة الجسديّة إلى البنوّة الروحية إن حملوا إيمانه فيهم، وانتقل بهم إلى بنوّتهم لله نفسه، الأمر الذي يشترك فيه الأمم المتنصرون معهم (ص ٤–٦). أمّا بالنسبة للناموس (ص ٧–٨) فأوضح أن الحاجة لا إلى الناموس في ذاته بل إلى غايته: المسيح يسوع، إذ يعجز الناموس عن التبرير من الخطيّة، إنما يقف عند كشفها، أمّا الإيمان فهو سرّ تبرير الكل. والآن في الأصحاحين (١٠–٩) يتحدّث عن امتيازهم كشعب مختار، وهو أمر غاية في الدقّة ويصعب النقاش فيه مع اليهود، إذ لا يقبلون التفاهم أو التحرّك عنه قيد أنمله، لذا كان الرسول يتحدّث معهم وكأنه يسير على أشواك، يودّ أن يكسبهم لكن ليس على حساب الحق، أو على حساب انفتاح الباب لسائر الأمم، فجاء حديثه مزيجًا بين حُبّه الشديد لبني جنسه وانفتاح قلبه للأمم، كما كرّس الأصحاح الحادي عشر للحديث مع الأممي المتنصر ألا يستكبر على أخيه اليهودي المتنصر، بسبب انفتاح باب الإيمان له، لأن خطّة الله الخلاصيّة من نحو شعبه لابدّ أن تتحقق في أواخر الدهور، حين يقبل اليهود الإيمان بالمسيح بعد جحودهم له كل هذا الزمان. إنه يطالب الأممي المتنصّر أن يسلك بروح التواضع لئلاّ وهو غصن من شجرة برّية مغروسة في شجرة الزيتون الأصليّة يُقطع بسبب كبرياء قلبه.

يلاحظ أن الرسول وهو يستعرض هذا الموضوع أبرز ثلاث نقط:

١. محبة الله المعلنة خلال مواعيده، واختياره لشعبه، لكن ليس كل الإسرائيليين حسب الجسد، إنما لمن يقبل البنوّة له بالإيمان.

٢. قسوة الإنسان الذي يقابل حب الله بالعصيان والجحود، وقد كان الثمر هو رفض إسرائيل الجاحد.

٣. البركة الشاملة، فإن الرفض يبقى جزئيًا إذ يشتاق الله أن يضم الكل له خلال الإيمان العام لكل الأمم والشعوب بما فيهم اليهود حين يقبلون ذاك الذي جحدوه.

الأصحاح التاسع

اختيار الأمم أيضًا

المشكلة الرئيسية في حياة اليهود هي شعورهم بأنهم شعب الله المختار، لذلك ترك معالجتها بعد تفنيد الحجتين السابقتين الخاصتين بانتسابهم لإبراهيم واستلامهم للناموس.

عالج الرسول هذه الحُجّة بحكمة عجيبة، إذ لم ينكر اختيارهم كشعب الله، إنما أكدّ أنه لا يقوم على امتياز فيهم أو عن استحقاق خاص بهم، إنما عن محبّة الله الذي "يرحم من يشاء". خلال هذا الفهم أعلن الله أيضًا حُبّه للأمم فاختارهم هم أيضًا.

١. تقدير الرسول لليهود ١-٥.
٢. اختيار الله للآباء ٦-١٣.
٣. اختيار الأمم أيضًا ١٤-٢٩.
٤. تعثر إسرائيل ٣٠-٣٣.

١. تقدير الرسول لليهود

إذ ختم الرسول حديثه السابق مؤكدًا أنه لا يمكن حتى للملائكة أو خليقة ما أن تفصله عن محبّة المسيح، ولئلا يظن اليهود المتنصّرون أنه تحدّث بهذا ليُعلن أنه مستعدّ أن يتخلّى عن شعبه بني جنسه من أجل إيمانه بالسيد المسيح، أراد أن يوضّح بقوّة أن إيمانه بالسيد المسيح يلهب بالأكثر قلبه بالحب نحو بني جنسه، ويتّسع قلبه لاحتوائهم في الإيمان حتى ولو كان قبولهم يلتزم حرمانه هو! لهذا يفتتح الرسول حديثه هنا بقوله:

"أقول الصدق في المسيح، لا أكذب وضميري شاهد لي بالروح القدس،
أن لي حزنًا عظيمًا ووجعًا في قلبي لا ينقطع،
فإني كنت أودّ لو أكون أنا نفسي محرومًا من المسيح
لأجل إخوتي أنسبائي حسب الجسد" [٣-١].

حُبّه لخلاص شعبه يؤكّد بالأكثر محبته للسيد المسيح، وشوقه لخلاصهم يثبت بالأكثر علاقته به، أمّا حديثه هنا فمن قبيل تأكيد مدى محبته لهم في الرب واهتمامه بهم، ومدى بذله لنفسه لحسابهم.

كان الرسول بولس أشبه بإبراهيم أب الآباء الذي رفع ابنه، الذي أخذ فيه المواعيد على مذبح

المحبّة، حاملاً السكّين كصليب ليذبحه، مؤمنًا أن الله قادر أن يُقيمه له حيًا ويحقّق مواعيده فيه. هكذا يرفع الرسول بولس نفسه كما إسحق على مذبح الحب من أجل أنسبائه حسب الجسد ممسكًا بالصليب، مؤمنًا أن محبته لبني جنسه لن تحرمه من المسيح ولا تفقده خلاصه، بل بالعكس تزيد نفسه بهاءً ومجدًا في عيني الله، لأنه إنما يمارس حب المسيح ويقبل عمل روحه فيه. فإن أعلن الرسول أنه مستعدّ أن يخدم شعبه حتى النهاية، حتى لو كان على حساب نفسه، فإن هذه المشاعر الصادقة لا تكون إلا لحساب نفسه أكثر فأكثر.

لعل الرسول بولس وهو يكتب هذه الكلمات يتمثل بموسى حين أعلن محبته لشعب الله، إذ يصرخ: "والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبته" (خر ٣٢: ٣٢). وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن هذه الصلاة كانت أثمن ما قدّمه موسى النبي إذ يظهر خلالها أكثر بهاءً منه وهو يتمّم المعجزات، لأن الحب أعظم من عمل الآيات. هكذا لا يلوم أحد الرسول بولس في كلماته هذه، إذ يراه يحقّق الوصيّة الإنجيليّة: "بهذا قد عرفنا المحبّة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة" (١ يو ٣: ١٦).

لقد اتُّهم الرسول بولس بخيانته لشعبه وعوائدهم وناموسهم (أع ٢١: ٣٣؛ ٢٢: ٢٢؛ ٢٥: ٢٤)، لهذا يؤكّد الرسول محبته العميقة لهم مهما بدت الخسارة، معلنًا ومؤكدًا أنه صادق في كلماته، إذ هو ملتزم أن ينطق "بالحق" لا "الكذب" بسبب اتحاده بالمسيح، مشهدًا الروح القدس الساكن فيه على ضميره الذي لا يدركه إنسان!

يقول **الأب إسحق** تلميذ القدّيس أنبا أنطونيوس: [أخيرًا إذ امتلأ الإناء المختار بهذه المشاعر رغب لو أمكن أن يكون محرومًا من المسيح من أجل نموّ الشعب المنتمي إليه وخلاص كل أمة إسرائيل لمجد أبيه (برفضهم الفكر التعصبي وقبول الإيمان المسيحي بدل الجحود)... ويقول أيضًا: "لأننا نفرح حينما نكون ضعفاء وأنتم تكونون أقوياء" (٢ كو ١٣: ٩)[1].]

الآن إذ يُعلن محبته الشديدة لخلاصهم قبل أن يعالج موضوع اختيارهم كشعب الله أراد أن يبرز جانبين:

أولاً: أنه لا يتحدّث كغريبٍ عنهم، أو عدوٍ يقاومهم، إنما يدعوهم هكذا "**أنسبائي حسب الجسد**" **[٣]**، أي إخوتي خلال رابطة الدم، إذ صار له إخوة أيضًا جدد خلال رابطة الإيمان الجديد والروح، فهو يُحدّث إخوته المحبوبين إليه.

---

[1] *Cassian: Conf. 9: 18.*

ثانيًا: إنه لا يتجاهل امتيازاتهم، إذ يقول: "**الذين هم إسرائيليّون، ولهم التبنّي والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد، ولهم الآباء، ومنهم المسيح حسب الجسد، الكائن على الكل إلهًا مباركًا إلى الأبد آمين**" **[٥-٤]**. وكأنه يقول أنا أعلم أنكم إخوتي شعب الله الذي ميّزكم الله بميزات دون سواكم، وقد أوضح لنا أن هذه الميزات كلها تكمل في شعب الله الجديد، إذ يقول:

أ. **هم إسرائيليّون:** فقد نال يعقوب هذا اللقب إسرائيل بأمرٍ إلهيٍ، لأنه "جاهد مع الله والناس وغلب" (تك ٣٢: ٨). فإن كان كلمة "إسرائيل" تعني "يملك كالله[1]"، فإن إسرائيل، وإن كان قد ملك ولكن إلى حين، أمّا إسرائيل الجديد فيقدّم ملوكًا حقيقيّين لا يملكون على الزمنيّات، إنما ينعمون بشركة المجد الإلهي مع ملك الملوك ورب الأرباب، يترنّمون قائلين: "جعلنا ملوكًا وكهنة لله أبيه" (رؤ ١: ٦).

ب. **ولهم التبنّي:** بمعنى أن الله اشتاق أن يتبنّاهم له ليكونوا كأهل بيته وخاصته؛ فعندما دعا الله موسى للعمل وسط شعبه قال له: "فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب، إسرائيل ابني البكر، فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه، ها أنا أقتل ابنك البكر" (خر ٤: ٢٢-٢٣). وعندما قدّم الله لشعبه وصايا تميّزهم عن الوثنيّين كان قول الرب: "أنتم أولاد الرب إلهكم" (تث ١٤: ١)، وحين أعلن الله خلاصه لهم عند رجوعهم إليه، قال: "لأني صرت لإسرائيل أبًا وافرايم هو بكري" (إر ٣١: ٩). لكن إسرائيل لم يستطع أن يمارس البنوّة لله بل مارس العصيان (إش ١: ٢) غير مقدم له كرامة الأبوة (ملا ١: ٦)... لذا احتاج إلى تغيير شامل لقلبه وطبيعته بسكنى روح التبنّي فيه، فيمارس بنوّته لله، ويحق له التمتّع بالميراث مع المسيح الابن وحيد الجنس (رو ٨: ١٤-١٧).

ج. **لهم المجد [٤]**، وكان علامته ظهور عمود السحاب والنار في البرية وأيضًا في الخيمة والهيكل، إذ قيل: "ثم غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن" (خر ٤٠: ٣٤). وكان وجود تابوت العهد علامة وجود المجد الإلهي، لذلك عندما سمعت امرأة فينحاس باستيلاء الفلسطينيين عليه: قالت "زال المجد من إسرائيل، لأن التابوت قد أُخذ" (١ صم ٤: ٢١). أمّا بالنسبة لإسرائيل الجديد فصار "المسيح" نفسه هو مجده، يسكن وسط شعبه ويحل في قلوبهم، ويملأهم بروحه القدوس.

د. **لهم العهود [٤]**، إذ أراد الله أن يرفع مؤمنيه دخل معهم في عهود مستمرة ليُقيم منهم شعبًا له، لكن هذا الشعب لم يلتزم بالعهود بل تجاوزها (هو ٨: ١) ونقضها (حز ١٧: ١٨) وحُسب حانثًا للعهد

[1] *Strong: Hebrew & Chaldee Dict., article 3478.*

وخائنًا له. لذا صار المؤمنون في حاجة إلى الالتقاء مع الله على مستوى عهد جديد، لا ليُنقش على حجارة كما في العهد القديم، وإنما داخل القلب بالروح القدس، يُعلن حب الله الباذل خلال دم ابن الله المبذول على الصليب (عب ١٢: ٢٤).

هـ. **لهم الاشتراع [٤]**، إذ امتازوا بنوال الشريعة، لكنهم لم يحفظوها في حياتهم العمليّة، بل حُسبوا كاسرين لها.

و. **لهم العبادة [٤]**، وقد جاءت الشريعة تقدّم الكثير من الطقوس الخاصة بالعبادة، كانت في الحقيقة ظلاً للعبادة الروحيّة.

ز. **لهم المواعيد [٤]**، خاصة المواعيد التي تتنبأ عن مجيء المسيّا، هذه التي اهتم الأنبياء بإعلانها.

ح. **ولهم الآباء [٥]**، إذ جاءوا من نسل الآباء البطاركة إبراهيم وإسحق ويعقوب.

ط. **ومنهم المسيح حسب الجسد [٥]**. يكفيهم فخرًا أن السيد المسيح، كلمة الله، الكائن على الكل إلهًا مباركًا إلى الأبد قد جاء متجسدًا منهم.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه الحديث الرسولي بقوله:

[ما يقوله الرسول لا يتحدّث به على المكشوف، فإنه إذ كان الكل يتكلّمون متهمين الله أنه بعد أن حسبهم أهلاً لاسم "الأبناء"، ولاستلام الشريعة، ولمعرفتهم له أكثر من كل البشر، والتمتّع بمجد عظيم كهذا، وخدمتهم له أكثر من كل العالم، وتقبّل المواعيد، ومنهم الآباء كأصدقاء له، وما هو أعظم من الكل أن من نسلهم جاء السيد المسيح، الآن قد صاروا مطرودين ومرذولين وحلّ محلّهم أناس لم يعرفوه من قبل قط، هم من الأمم.

إذ نطقوا بهذا كله وجدّفوا على الله، سمع بولس ذلك، فانعصر قلبه وغار على مجد الله واشتهى لو أمكن أن يُحرم هو ليخلصوا هم، وينقطع هذا التجديف، فلا يظهر الله كمخادعٍ لنسل أولئك الذين سبق فوعدهم بالنعم. ولكي تنظروا أنه للأسف وعد الله الذي قدّمه لإبراهيم "أعطيك الأرض ولنسلك" لا ليسقط... قال: "**ولكن ليس هكذا أن كلمة الله قد سقطت**" **[٦]**[1].]

هكذا جاء الحديث في بقية الأصحاح أشبه بدفاع للرسول عن عدم سقوط كلمة الله أو مواعيده للآباء، إنما تتحقق ليس حسب المفهوم الحرفي الضيّق الذي التزم به اليهود إنما بالمفهوم الروحي

[1] *In Rom. hom 16.*

العميق.

هذا وإذ أعلن لهم امتيازهم لم يداهنهم على حساب الحق، مؤكدًا أن الذي تجسد منهم هو "**الكائن على الكل إلهًا مباركًا إلى الأبد**" **[٥]**. وكما **يقول القدّيس هيبوليتس:** [هذه الكلمة تعلن سرّ الحق باستقامة ووضوح، فإنه ذاك الكائن على الكل هو الله، القائل بدالة: "كل شيء قد دُفع إليّ من أبي" (مت ١١: ٢٧). الكائن على الكل هو الله المبارك وقد وُلد إذ صار إنسانًا، لكنه هو الله إلى الأبد. في هذا يقول يوحنا أيضًا: "الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء" (رؤ ١: ٨). حسنًا دُعي المسيح بالقادر، إذ بهذا ينطق بما شهد به المسيح عن نفسه[1].]

٢. اختيار الله للآباء

حسب اليهود أنفسهم أنهم نالوا خلال آبائهم وعدًا إلهيًا أنهم شعب الله، هذا الوعد أو هذه الكلمة الإلهية لن تسقط عبر الأزمنة. والرسول بولس كمؤمن بكلمة الله يُدرك أنها لن تسقط أيضًا، إنما الخطأ ينصبّ في فهمهم لكلمة الله، فإن الله إذ وعد "إسرائيل" إنما يقدّم وعده "لإسرائيل الروحي الحقيقي"، لا لجنس معين بذاته مهما كانت تصرفاته، وإذ يعد إبراهيم بالنسل خلال إسحق، يطلب النسل الروحي الذي له إيمان إبراهيم وإسحق لا أولاد الجسد. ثم أن الله الذي اختار إسرائيل شعبًا له من حقه أن يبسط ذراعيه لسائر الأمم ليقبل الكل شعبه، خاصة إن سقط إسرائيل الجسدي في الجحود وعدم الإيمان.

"**ولكن ليس هكذا حتى أن كلمة الله قد سقطت،**

لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليّون" **[٦]**.

يؤكّد الرسول بولس إيمانه بكلمة الله أنها لن تسقط، ومواعيده لإبراهيم أب الآباء باقية، لكن ما يرفضه الرسول هو تفسيرهم للانتساب لإسرائيل، فإنه ليس كل إنسان من شعب إسرائيل إسرائيليًا بحق، أي ليس الكل أعضاء في شعب الله، وكما سبق فقال: "لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهوديًا ولا الخِتان في الظاهر في اللحم ختانًا" (رو ٢: ٢٨).

يعطي الرسول تفسيرًا كتابيًا لنسل إبراهيم الذي فيه تتحقّق المواعيد الإلهية، إذ يقول: "**ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جيمعًا أولاد، بل بإسحق يُدعى لك نسل، أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله، بل أولاد الموعد يُحسبون نسلاً. لأن كلمة الموعد هي هذه: أنا آتي نحو هذا الوقت ويكون لسارة ابن، وليس ذلك فقط، بل رفقة أيضًا وهي حبلى من واحدٍ وهو إسحق أبونا، لأنه وهما لم يولدا بعد ولا**

[1] *Against heresy of Noetius 6.*

فعلا خيرًا أو شرًا، لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذي يدعو، قيل لها أن الكبير يُستعبد للصغير، وكما هو مكتوب: أحببت يعقوب وأبغضت عيسو" [١٣-٧].

يلاحظ في هذا النص الرسولي:

أولاً: حكمة الرسول بولس وتمييزه في الحديث معهم، فكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول قدّم "إسحق" مثلاً للبنوّة لإبراهيم، فإنه وإن كان ابنًا لإبراهيم حقيقيًا لكنه لم يولد حسب قوّة الجسد أو حسب ناموس الطبيعة، إذ كان الأب شيخًا والأم عاقرًا، وإنما مولودًا حسب قوّة الوعد الإلهي. إذًا فنسل إبراهيم هم الذين ينعمون بالولادة لا حسب الجسد، وإنما حسب الإيمان والتمسك بوعود الله روحيًا.

لم يهاجم الرسول اليهود بكونهم نسلاً لإبراهيم، إنما هاجم فهمهم لشعب الله بطريقة حرفيّة جامدة تقف عند الانتساب الجسدي لإبراهيم. لنكن كإسحق فنصير أصحاب الوعد الإلهي حاملين البنوّة لا لإبراهيم فحسب بل كما يقول الرسول: "**هم أولاد الله**"، "**وأولاد الموعد**".

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:**

[هذا الوعد إذن وكلمة الله هما اللذان شكّلا إسحق وولداه. فماذا إن كان الرحم هو الأداة وأحشاء المرأة هي الوسيلة؟ لكن ليس قوّة الأحشاء هي التي ولدت الطفل بل قوّة الوعد.

هكذا نحن أيضًا نولد بواسطة كلمة الله. ففي جرن المعموديّة كلمة الله تلدنا وتشكّلنا. لقد ولدنا من جديد بالعماد باسم الآب والابن والروح القدس. هذا الميلاد ليس بقوّة الطبيعة بل بقوّة وعد الله (يو ٣: ٣؛ أف ٥: ٢٦؛ يع ١: ١٨؛ ١ بط ٣: ٢١).

فإنه كما سبق فأنبأ عن ميلاد إسحق ثم حقّق الوعد، هكذا بالنسبة لنا أيضًا قد سبق فأعلن عن ميلادنا منذ أجيال طويلة بواسطة الأنبياء ثم حقّق الوعد. أنتم تعرفون كيف قدّم الوعد أنه سيتحقّق كأمرٍ عظيمٍ، وقد تمّمه بسهولة شديدة (هو ٢: ١ الخ).

لكن إن قال اليهود إن الكلمات: "**بإسحق يُدعى لك نسل**" تفهم بأن كل من يولد من إسحق بالضرورة يحسب نسله، بهذا يكون بنو آدوم أبناؤه، لأن أباهم عيسو (آدوم) هو أيضًا ابنه... هكذا ترون أنه ليس كل أولاد الجسد هم أولاد الله، هكذا سبق فأخبر بطريقة ما عن تجديد الميلاد الذي من فوق بواسطة المعموديّة. (إذ يرى القدّيس بأن الوعد بنسل إسحق يُشير إلى الوعد للمولودين في المعموديّة ميلادًا ليس حسب الطبيعة أو الجسد.)

إن قلتم أن الولادة تتحقق بالرحم (من سارة) أقول أنها تتم هنا بالمعموديّة، إذ تتم بالروح كما

تحقّقت هناك بالوعد. فالرحم أكثر جمودًا من الماء بسبب عقر (سارة) وشيخوختها.

إذن لنتيقّن من معرفة دقيقة عن سمونا، ولتكن حياتنا لائقة بهذا السمو، فإنه ليس سموًا جسديًا أو أرضيًا، وليتنا لا نسمح أن يكون فينا شيء من هذا.

لم يصنعنا الله (كأبناء له) خلال النوم ولا بمشيئة جسد (يو ١: ١٣) ولا خلال جنون الشهوة... بل خلال الحب الإلهي نحو الإنسان (تي ٣: ٥).

وكما أنه في تلك الحالة تحقّق الميلاد بعد أن نزع الزمن الرجاء، هكذا في حالتنا نحن بعد أن غلبتنا شيخوخة الخطيّة وُلد إسحق فجأة صغيرًا وصرنا نحن أولاد الله ونسل إبراهيم (إش ٦٠: ٣١)[1].]

إذن وعد الله قائم وكلمته لم تسقط بل قائمة وفعالة، وإسحق لا يزال يُولد حتى اليوم كما من سارة التي لا تحمل قوّة الولادة بالطبيعة إنما بالوعد الإلهي، إذ لا يزال شعب الله يقوم خلال رحم الكنيسة الذي هو المعموديّة، حيث يُولد إسحق على الدوام لا خلال الجسد، ولا بهوى إنسان وإنما بالروح القدس بقوّة الكلمة.

يرى **القدّيس أغسطينوس** أن هذا الوعد لنسل إبراهيم من إسحق المولود من سارة قد تحقّق عندما علق السيد المسيح، وأعلن ملكه على هذا النسل، إذ جاء في علته التي سجلت على الصليب "**ملك اليهود**"، فقد ملك الرب بالصليب على اليهود من "نسل إسحق"... لكنه لم يملك على النسل حسب الجسد بل هو حسب الروح، إذ يقول: [المسيح ملك اليهود (حسب عنوان علته)، لكن اليهود مختوني القلب بالروح لا بالحرف، الذين مدحهم من الله لا من الناس، الذين ينتمون لأورشليم الحرة، أمنا الأبدية في السماء، سارة الروحيّة التي تطرد الجارية وأولادها من بيت الحرّية. فما كتبه بيلاطس قد كتب، لأنه ما قاله الرب قاله[2].]

يقول **القدّيس أغسطينوس**: [لكي يكونوا أبناء الوعد نسل إبراهيم يلزم أن يُدعو في إسحق، وذلك بتجميعهم معًا في المسيح خلال دعوة النعمة[3].]

هذا ويرى **القدّيس أغسطينوس**[4] أن أبناء الجسد الذين يولدون من قطّورة هم رمز الهراطقة الذين جاءوا كما من زوجة ثانية من السراري.

ثانيًا: لم يقف الرسول بولس عند تقديم مثلٍ واحدٍ لتحقيق وعد الله بطريقة روحية لا حرفيّة جامدة،

---

[1] In Rom. hom 16.
[2] In Ioan. tr 117: 5.
[3] City of God 16: 32.
[4] City of God 16: 34.

وإنما قدّم مثلاً آخر خلال اختيار الله ليعقوب دون عيسو، وهما في أحشاء رفقة. ففي مثل إسحق ربّما يقال أن الوعد يتحقّق في إسحق ونسله دون إخوته، لأن إسماعيل ابن الجارية، ولأن إسحق هو ابن الحرة أكبر سنًا من إخوته الذين من قطّورة، فهو الوارث للمواعيد الإلهية دون سواه، لذلك قدّم الرسول "يعقوب وعيسو" وهما من أب واحد وأم واحدة، بل وكانا توأمين في بطن واحدة، ومع ذلك لم يكن لهما نصيب واحد. فمن جهة الجسد لا يختلف يعقوب عن عيسو في شيء بل يمتاز عيسو بأنه البكر جسديًا. ومع ذلك "**الكبير يُستعبد للصغير**".

بمعنى آخر إن كان اليهود يمثّلون "الكبير" إذ سبقوا الأمم في معرفة الله، لكنهم إذ يجحدونه بينما يقبل الأمم الإيمان، يتحرّر من العبوديّة ويسقط اليهود فيها.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على اختيار يعقوب دون عيسو، هكذا: [انظر كيف حدث هذا ليس فقط في حالة إبراهيم وحده بل وفي حالة ابنه أيضًا، أن الإيمان والفضيلة في كل الأحوال هما المهمان ويعطيان العلاقة الحقيقة (للبنوّة). هنا نتعلم أنه ليس خلال الميلاد وحده بل خلال تأهّل الأشخاص لفضيلة أبيهم يحسبون أبناء له. فلو أن البنوّة تقوم على الميلاد الجسدي (وحده) لإستحقّ عيسو أن ينعم بما ناله يعقوب... إنه يُظهر بأن شرف الميلاد الجسدي ليس بذي قيمة، إنما يلزمنا أن نطلب فضيلة النفس التي يعرفها الله قبل أن تُمارس...الاختيار تمّ بناء على سبق معرفة الله، إذ يعلم من هو صالح[1] ومن هو ليس بصالح.]

ثالثًا: ربّما يتساءل البعض: لماذا قيل: "**لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيرًا أو شرًا، لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال، بل من الذي يدعو، قيل لها أن الكبير يستعبد الصغير؟**" ألعلّ عند الله محاباة؟ لماذا يحب يعقوب ويبغض عيسو؟

بمعنى آخر هل لأن الله اختار يعقوب قبل أن يعمل خيرًا أو شرًا خرج صالحًا بينما خرج عيسو شريرًا؟ ولماذا يُحاسب عيسو إذن على شرّه ويكافأ يعقوب على صلاحه؟

تأتي الإجابة على ذلك هكذا:

أ. أوضح الرسول نفسه في ذات الرسالة عدم محاباة الله، قائلاً بكل صراحة: "**لأن ليس عند الله محاباة**" **[١١]**. وقد سبق فأوضح الرسول أن اختيار الله يقوم على سابق معرفته غير المحدودة، إذ يقول: "**لأن الذين سبق فعرفهم، سبق فعيّنهم، فهؤلاء دعاهم أيضًا**" (رو ٨: ٣٠). فإن كان قد أحبّ

[1] *In Rom. hom 16.*

يعقوب وعيّنه ودعاه إنما لأنه سبق فعرفه أنه يقبل الدعوة ويتجاوب مع محبّة الله، حتى وإن كان في قبوله للدعوة يتعرّض للضعفات والسقطات، فالله يحبه من أجل نيّته الصادقة والجادة عمليًا، أمّا رفضه لعيسو فيقوم على رفض عيسو لله وإصراره على المقاومة ضد الله.

ب. بقوله: "**لأنه وهما لم يولدا بعد، ولا فعلا خيرًا ولا شرًا**" أراد أن يؤكّد الرسول أن يعقوب لم يتبرّر بسبب أعمال الناموس، ولا أعماله الصالحة الذاتية، فسرّ محبّة الله له إنما تقوم على نعمة الله المجّانية، لكن دون سلبيّة من جهة يعقوب. بمعنى آخر لو انتظر الله حتى ينمو يعقوب ويكبر ويظهر كرجلٍ صالحٍ، وعندئذ يدعوه لتعرّض يعقوب للكبرياء، وحسب أن الله دعاه عن استحقاق ذاتي، وأنه هو الذي سبق فسلك بالصلاح، فتأهل بذاته للدعوة، لكن الله أعلن حُبّه ليعقوب وهو بعد في الأحشاء ليبرز الله كمُبادرٍ بالحب نحو مؤمنيه، حتى قبل ممارستهم لعمل صالح. يحبهم، إذ يعلم أنهم يقبلون دعوته المجّانية وعمله الإلهي فيهم.

ج. لعل الرسول بولس أراد أن يوضّح لليهود أنهم وإن كانوا يعجزون عن تقديم مبرّر لاختيار الله لأبيهم يعقوب "إسرائيل"، فكيف يدركون خطّة الله نحو العالم كله؟ الله الذي سبق فأحب يعقوب وهو في الأحشاء لا يدرك شيئًا، له أيضًا أن يختار الأمم ويحبّهم، حتى ولو لم يدرك اليهود والأمم سرّ هذا الاختيار والحب للأمم! بمعنى آخر يعجز الشعب اليهودي ويعقوب نفسه عن تقديم تفسير لقبوله، وهكذا يعجز الكل عن إدراك سرّ انفتاح باب الإيمان للأمم أيضًا.

د. حديث الرسول هنا لا يقلل من دور الإيمان في الجهاد، لكنه يؤكّد أن خلاص الإنسان لا يتحقّق بالعمل الصالح خارج دائرة الإيمان، وأنه ما كان يمكن قبول يعقوب لو لم يبادر الله بالحب أولاً. لهذا لا نعجب إن سمعنا أن الله سيجازي كل إنسان حسب أعماله (مت ١٦: ٢٧).

هـ. يقدّم لنا **القدّيس إيريناؤس**[1] تعليلاً للقول الإلهي: "**أحببت يعقوب وأبغضت عيسو**"، وهو أن الله استخدم حتى الأجنّاء في بطن أمهاتهم كنبوّة، فأعلن هنا عن ظهور أمّتين، واحدة مستعبدة والأخرى حرّة، لكن للاثنين أب واحد، هو ربنا الواحد. فإن كان إسحق هو أب يعقوب كما أب عيسو هكذا الله هو أب اليهود كما الأمم.

و. يرى **القدّيس أغسطينوس** أن في هذا نبوّة لما يُحدّث في كنيسة المسيح، التي كانت كرفقة تحمل في داخلها أبرارًا وأشرارًا، إذ يقول: [صارعا في رحم الأم، وحين صارعا قيل لرفقة: "**في بطنك**

[1] *Adv. Haer 4: 21: 2.*

أمتان"، رجلان، شعبان، شعب صالح وآخر شرير، يتصارعان معًا في رحم واحد. كم من أشرار في الكنيسة! فإن رحمًا واحدًا يحملهم حتى يُعزلوا في النهاية. الصالحون يصرخون ضد الأشرار، والأشرار ضد الصالحين، وكلاهما يصارع أحدهما الآخر في أحشاء أمٍ واحدةٍ[١].]

هذا وقد سبق لنا اقتطاف بعض تعليقات الآباء في هذا الشأن عند دراستنا لسفر التكوين[٢].

نختتم حديثنا عن اختيار يعقوب دون عيسو دون محاباة بقول **القدّيس أغسطينوس:** [بالنسبة للخطيّة الأصليّة كان الاثنان متشابهين، أمّا بالنسبة للخطيّة الفعليّة فكانا مختلفين... الأكبر يُستعبد للأصغر، يفهمها كتابنا أن اليهود يخدمون الشعب الأصغر أي المسيحيّين (بتقديم النبوّات والرموز لهم)[٣].]

٣. اختيار الأمم أيضًا

إذ أعلن الرسول حُبّه الشديد لخلاص بني جنسه وحزنه عليهم لأنهم رفضوا مواعيد الله الصادقة، مؤكدا أن كلمة الله لن تسقط، وإنما تتحقق الوعود في إسرائيل الروحي الجديد، بدأ يحدّثنا عن اختيار الله للأمم كشعبٍ له، وليس من حق الإنسان الاعتراض على تدابير الله وقضائه، مؤكدًا أن هذا الاختيار ليس بالأمر الجديد، إذ سبق فأعلن الله عنه بالأنبياء.

"**فماذا نقول؟ ألعلّ عند الله ظلمًا؟ حاشا**" **[١٤]**.

كأن اعتراضًا قد أثير بقوله أن الله أحب يعقوب وأبغض عيسو وهما بعد في البطن لم يعملا خيرًا أو شرًا، ألا وهو: ألعلّ عند الله ظلمًا؟ وتأتي الإجابة قاطعة لا تحتاج إلى تدليل: حاشا! لأننا لا نقدر أن ندرك كل أسرار حكم الله وتدبيراته من كل الجوانب، فحكمنا البشري مختلف تمامًا عن حكم الله. هنا يودّ الرسول أن يؤكّد مبدأ هامًا أن الله لا يحابي أحدًا ولا يظلم أحدًا، حتى وإن بدا لنا حسب الفكر البشري ذلك في أمر ما. بهذا يمهّد الرسول الطريق كي لا يحكموا على خطّة الله الخلاصيّة من جهة قبول الأمم، لا لسبب إلا إدراكنا أن الله ليس بظالم وإن بدا تصرفه غير مُدرك بالنسبة لنا.

"**لأنه يقول لموسى:**

إني أرحم من أرحم، وأتراءف على من أتراءف" **[١٥]**.

تحقق هذا الحديث الإلهي مع موسى حين اشتاق أن يتمتّع بالمجد الإلهي (خر ٣٣: ١٩ الترجمة

---

[1] *In Ioan. tr 11: 10.*

[٢] طبعة ١٩٨٤، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

[3] *City of God 16: 35.*

السبعينية)، وقد جاء هذا القول ليُعلن لموسى أنه مع كل تقدير الله له ولجهاده ولكن ما يناله من عطيّة سماوية ألا وهو التمتّع برؤية المجد الإلهي فهي نعمة مجّانية إلهية تُعطى له، وليس ثمنًا لجهاده، ولا عن أعمال ذاتية. لكنها أيضًا لا توهب للمتراخين أو الخاملين؛ هي نعمة مجّانية للمجاهدين بروح الإيمان الحيّ.

ويرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن حديث الله هذا مع موسى يعني أن موسى مع ما بلغه من تقدير في عيني الله لا يقدر أن يدرك أعماق حكمة الله وأحكامه، وكأن الله يقول له: [يا موسى، ليس لك أن تعرف من هو مستحق لحبي نحو الإنسان، إنما أُترك هذا لي. فإن كان ليس من حق موسى أن يعرف فكم يكون الأمر بالنسبة لنا؟][1]

هذا ويلاحظ أن الله لم يقل: "أرحم من أرحم، وأهلك من أهلك"، بل قال: "**أرحم من أرحم وأتراءف على من أتراءف**"، مظهرًا سلطانه الإلهي في الحب والرحمة والرأفة بالإنسان، إذ لا يودّ هلاك الخاطئ مثل أن يرجع ويتوب، أنه بادر بحب يعقوب من جانبه أمّا بغضة عيسو فجاءت ثمرًا طبيعيًا لجحود عيسو نفسه وإصراره وعناده على عدم قبول مراحم الله. الله حب، لكنه لا يلزم الغير بقبوله.

"**فإذًا ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى، بل لله الذي يرحم**" **[١٦]**.

هل يتنافى هذا مع الوصيّة الرسولية: "**تمّموا خلاصكم بخوف ورعدة**" (في ٢: ١٢) وما شابهها؟ إن كانت رحمة الله ليست لمن يشاء ولا لمن يسعى، فلماذا يقدم لنا الله وصاياه، ويطلب منّا أن نقبله بإرادتنا الحرة ومشيئتنا الاختيارية؟ ولماذا يحثّنا في العهدين القديم والجديد على الجهاد حتى النهاية، قائلاً: "الذي يصبر إلى المنتهي فهذا يخلص" (مت ١٠: ٢٢، ٢٤: ١٣؛ مر ١٣: ١٣)؟ وفي سفر الرؤيا يؤكّد الرب: "كن أمينًا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة" (رؤ ٢: ١٠)، بل ويقول لملاك الكنيسة التي في ثياتيرا: "أنا عارف أعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك وصبرك..." (رؤ ٢: ١٩)؟

لا يستطيع أحد ممن يقرأ الكتاب المقدس بفهمٍ روحيٍ أن يتجاهل دور الإنسان الإيجابي في تمتّعه بالخلاص المجّاني، وإن الله يريد إرادتنا الحرة أو مشيئتنا الاختيارية مع سعينا الجاد، لأنه يقّدر الحرّية الإنسانيّة كل التقدير ولا يتجاهل دورنا العملي. إنما ما نودّ تأكيده هنا أن **الكتاب المقدس لا يُفهم كأجزاء منفصلة مستقلّة عن بعضها البعض، إنما يمثل وحدة واحدة متكاملة، يعالج أمورًا كثيرة ومتباينة. لذا يليق بالقارئ أن ينعم بروح الحكمة والتمييز حتى لا يستخدم عبارة في غير موضعها، إنما فيما يناسبها وبروح الكتاب ككلٍ.**

---

[1] *In Rom. hom 16.*

فالرسول بولس هنا لا يعالج مشكلة حريّة الإرادة الإنسانيّة أو الاختيار والجبر، وإلا لأعلن بوضوح كما في نفس هذه الرسالة وفي رسائله الأخرى تقدير الله للإرادة البشريّة، والإجبار على قبول الرحمة الإلهية أو عمل النعمة المجّاني. إنما يعالج هنا مشكلة لا تخص الأفراد كأفراد وإنما تخص قبول الأمم، لذلك فهو لا يتحدّث عن إرادة الإنسان هل هي حرة أم لا، إنما عن خطّة الله نحو خلاص العالم كله. إن الله الذي سبق فاختار إسرائيل شعبًا له كخميرة لتقديس العالم بمجيء المخلص حسب الجسد منهم، من حقّه أن يرحم من يرحم ويتراءف على من يتراءف، بفتح باب الرجاء لكل الشعوب، دون أن تقف الجبلة الضعيفة لتحاكمه.

يقول **القدّيس جيروم:** [من جانبنا نحن نقبل حريّة الإرادة هذه بسرور، لكنّنا لن ننسى أن نشكر العاطي، مدركين أننا نصير بلا قوّة ما لم يحفظ الله عطاياه فينا على الدوام... المشيئة هي منّا، والسعي أيضًا من جانبنا، لكن بدون معونة الله المستمرة لا تكون لنا مشيئة ولا سعي. يقول المخلص في الإنجيل: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧). أنه دائم العطاء، مانح باستمرار. لم يكتفِ بأن يهب النعمة مرة واحدة، إنما يقدّمها على الدوام. إنني أطلب لكي أنال، وإذ أنال أعود فأطلب ثانية، إذ أنا طامع في غنى الله وهو لا يمتنع عن العطاء، وأنا لا أكف عن الأخذ. كلما شربت عطشت، إذ اسمع تسبحة المرتّل: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب" (مز ٣٤: ٨). كل صلاح ننناله هو تذوق للرب[1].]

كما يقول أيضًا: [حيث توجد النعمة فإنها لا توهب عن أعمال، بل هي عطيّة مجّانية من العاطي... ومع ذلك فلنا أن نشاء أو لا نشاء، إنما الحرّية عينها التي لنا هي مقدّمة لنا برحمة الله[2].]

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد أراد الرسول أن يربكهم بذات فكرهم، وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنهم كانوا يقبلون رحمة الله لهم وسقوط فرعون تحت قسوته دون اعتراض من جانبهم، فلماذا يعترضون عندما يفتح باب رحمته لغيرهم؟ هذا ما دفع الرسول أن يكمل هكذا: "**لأنه يقول الكتاب لفرعون إني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي، ولكي ينادي باسمي في كل الأرض، فإذًا هو يرحم من يشاء ويقسي من يشاء. فستقول لي: لماذا يلوم بعد؟ لأن من يقاوم مشيئته! بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها: لماذا صنعتني هكذا؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان؟**

---

[1] *Ep. 133: 6.*
[2] *Ep. 130: 12.*

فماذا إن كان الله وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك؟ ولكي يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد التي أيضًا دعانا نحن إياها ليس من اليهود فقط، بل من الأمم أيضًا" [١٧–٢٤].

ويلاحظ في هذا النص الآتي:

أولاً: غاية هذا الحديث ليس تجاهل حرية الإنسان، الأمر الذي ليس موضع حديث الرسول هنا، إنما تأكيد دور الله في خلاصنا؛ إنه يعمل فينا لا عن استحقاق من جانبنا، وإنما عن حبه وفيض رحمته كنعمة مجانية.

❖ بهذا يتكشف بجلاء أن نعمة الله ورحمته تعملان دومًا لأجل خيرنا، فإذا تركتنا نعمة الله لا تنفع كل الجهود العاملة شيئًا؛ مهما جاهد الإنسان بكل نشاط لا يقدر أن يصل إلى حالته الأولى بغير معونة الله[1].

الأب دانيال

❖ في كل فضيلة إذ نشعر بتقدم فيها ننطق بكلمات الرسول: "لا أنا بل نعمة الله التي معي، بنعمة الله أنا ما أنا" (١ كو ١٥: ١٠)، "الله هو العامل فينا (فيكم) أن تريدوا وأن تعملوا من أجل مسرته" (في ٢: ١٣). إذ يقول مقدم خلاصنا نفسه: "الذي يثبت فيّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كبير، لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥). كما قيل: "إن لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون، وإن لم يحرس الرب المدينة فباطلاً يتعب الحراس" (مز ١٢٦: ١–٢)[2].

القديس يوحنا كاسيان

❖ لنتحقق ماذا يعني هذا؟ إن الأمر ليس بخصوص من يشاء أو من يسعى، وإنما بخصوص الله الذي يرحم. فإن كنا لا نشاء ولا نسعى، فالله لا يأتي ليعيننا. فمن جانبنا يلزمنا أن نشاء وأن نسعى فيتراءف علينا، لكن إن نام المصارع يفقد النصرة[3].

القديس جيروم

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن هذا الحديث الرسولي كان خطوة تمهيدية للسامع لكي يلين روحه المتعجرفة التي تنتقد خطة الله نحو خلاص الأمم، فقبل أن يكشف سرّ خطة الله أراد أن يؤكد

---

[1] *Cassian: Conf 4: 5.*
[2] *Instit. 12: 9.*
[3] *On Ps. hom 34.*

للسامع أنه ليس من حقه أن يقف هكذا موقف الناقد أو الديان لله، وكأن الرسول يقول: [عملنا هو أن نخضع لما يفعله الله لا أن نكون متطفلين محبين للاستطلاع حتى وإن كنا لا نعرف حكمة تصرفاته. لذلك قال: "**من أنت الذي تجاوب (ضد) الله**"؟... من أنت؟ هل أنت شريكه في سلطانه (أي ٣٨)؟ بل! هل تجلس لتدين الله؟... إنه لم يقل: "من أنت الذي تجاوب الله؟" بل "**تجاوب ضد الله**". أنظر كيف يرعبهم ويخيفهم فيجعلهم في رعدة عوض تساؤلهم وتطفلهم. هذا ما يفعله المعلم الممتاز الذي لا يجري وراء تخيلات تلاميذه الباطلة أيا كانت، إنما يقودهم إلى فكره بانتزاع الأشواك عنهم وغرس البذار، فلا يجيب في كل الحالات على الأسئلة التي تقدم له[1].]

يقف غير المؤمن من الله موقف الناقد لكل تصرف إلهي، أما الإنسان التقي فيقول مع إرميا النبي: "أبرّ أنت يا رب من أن أخاصمك، لكن أكلمك من جهة أحكامك: لماذا تنجح طريق الأشرار؟" (إر ١٢: ١).

يفرح الله ويسرّ بأولاده مشتاقًا أن يدخلوا معه في حوار، لكنه على أساس إيماني تقوي، حديث الابن الذي يتكئ على صدر أبيه لينهل منه أسرار أحكامه، ويتمتع بحكمته العلوية حتى وإن عاتبه أو خالفه أو حاججه. أما إن أخذ موقف الناقد العنيد، كما فعل بعض الفعلة مع صاحب الكرم حين أظهر الأخير كرمه ومحبته (مت ٢٠: ١-١٦)، إذ قال للمتذمرين: "يا صاحب ما ظلمتك... فخذ الذي لك واذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك، أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي؟" يوجه الرب نفسه هذا التوبيخ لليهود الذين يرفضون رحمة الله على الأمم متذمرين على إحساناته بإخوتهم في البشرية.

ثانيًا: يليق بالإنسان عوض أن يقف كناقدٍ لتصرفات الله الفائقة يطلب أن يملأه حكمة ومعرفة ليكتشف أمورًا عجيبة؛ ففي العهد القديم الذي يؤمن به اليهود ويفتخرون به جاء قول الله لفرعون: "إني لهذا أقمتك لكي أظهر فيك قوتي، ولكي ينادى باسمي في كل الأرض" **[١٧]** (خر ٩: ١٦ الترجمة السبعينية)، فالله الذي رحم موسى سمح فأقام فرعون ملكًا، وأبقاه حيًا لكي يستخدم قسوة قلبه لإعلان مجد الله، وبسبب عنفه مع شعب الله يُنادي باسم الرب في كل الأرض، إذ جاء في تسبحة موسى: "يسمع الشعب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حينئذ يندهش أمراء أدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة، يذوب سكان كنعان" (خر ١٥: ١٤-١٥). اختار الله موسى دون فرعون، وكما قال الرسول: "**فإذًا هو يرحم من يشاء، ويقسي من يشاء**" **[١٨]**. ليس لنا أن نتساءل: لماذا رحم موسى وقسى

[1] *In Rom. hom 16.*

قلب فرعون؟ لأن حكمة الله تفوق حكمتنا، إنما ما يمكننا أن نعرفه إن الله يعلم قلب موسى واشتياقه فسنده بنعمته ليتمجد فيه خلال الرحمة، أما بالنسبة لفرعون فكان قلبه قاسيًا (خر ٨: ١٥، ٣٢؛ ٩: ٣٤؛ ١٠: ٦)، وإنما ما فعله الله أنه لم ينزع هذه القسوة عنه قسرًا، إنما رفع يده عنه فبقى فرعون في قسوة قلبه، أو بمعنى آخر سمح له أن يمارس عنفه ضد شعب الله ليتمجد الله حتى في هذا العنف الشرير. الله الذي سند موسى بالرحمة لم يمنع فرعون عما يكنه قلبه الشرير، فيكمل موسى كأس مجده ويكمل فرعون كأس شره، والله يتمجد بهذا وذاك.

ثالثًا: اقتبس الرسول بولس من العهد القديم أيضًا الذي يقدسه اليهود مثال الفخاري (إر ١٨: ١–١٠) ليؤكد به أن الإنسان في علاقته بالله كالطين في يد الخزاف، وكالجبلة في يديّ جابلها، ليس له أن يعترض على تصرفات الله وحكمته، فمن حق الخزاف أن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان، وهو يتمجد في الإناءين.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذا المثال قائلاً:

[لم يقل هذا لينزع حرية الإرادة وإنما ليظهر إلى أي مدى يجب أن نطيع الله، فإذ يُدعى الله خزافًا نكون نحن بالنسبة له كقليل طين مهيأ قدامه، فيليق بنا أن نكف لا عن المجادلة والتساؤلات فحسب، وإنما حتى عن النطق أو التفكير بالكلية... هذه هي النقطة الوحيدة التي يطبقها الرسول في التشبيه، إذ لا يُقصد به إعلان نظام الحياة (إذ يفسره الهراطقة أن الله يخلق طبيعتين صالحة وشريرة) إنما يقصد فقط الطاعة التامة والالتزام بالصمت...

هذا ما يجب مراعاته في كل الأحوال عند استخدام التشبيهات، فلا نطبقها في كل النواحي، إنما نختار ما هو مناسب فيها، والذي لأجله قُدم التشبيه، ونترك الباقي...

عندما يقول: "**أم ليس للخراف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان؟**" **[٢١]**، لا تظن أن الرسول قال هذا بخصوص الخليقة أنها مجبرة بلا حرية إرادة، إنما لمجرد إظهار السلطان وتدابير الله المتنوعة... فإن فسّرناه بغير هذا ندخل في أخطاء متنوعة، فلو أنه كان يتحدث هنا عن الإرادة، وأنه هو خالق الإرادة الصالحة والإرادة الشريرة لأعفى الإنسان من المسئولية، ويظهر بولس نفسه متناقضًا مع نفسه، إذًا يُقدم على الدوام تقديرًا عظيما لحرية الإرادة[1].]

بمعنى آخر، يؤكد **القديس الذهبي الفم** أن الرسول يود أن يقدم جانبًا واحدًا من المثل وهو أن الله

[1] *In Rom. hom 16*

يعمل بنا ولا نقدر نحن إلا أن نطيع. لكنه لا ينزع عنا حرية إرادتنا، فإن أردنا الحياة معه يقوم هو بتغييرنا لمجد اسمه، بطريقة تفوق إدراكنا.

هذا ويمكننا أن نقول إنه كخزافي قادر أن يشّكلنا، لكن لا يقف الأمر عند القدرة مجردة، إنما وهو القدير هو الأب والحكمة عينها، يعمل بحكمته وخلال أبوته مشتاقًا أن يشّكل كل الطين إلى أوانٍ للكرامة، لكنه يكرم حرية إرادتنا، وإذ نرفض عمله نبقى بلا كرامة ونفقد عمل يديه المقدستين للنفس والروح والجسد.

إنه خزاف يتبنى آنيته ويحبها ويشتهي خلاص الكل، كما قيل: "الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١ تي ٢: ٤)؛ "الله يُسّر بالرأفة" (مي ٨: ١٨) ؛ "من يقبل إليَّ لا أخرجه خارجًا" (يو ٦: ٣٧)؛ "لا يُسر بموت الشرير، بل أن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا" (حز ٣٣: ١١).

رابعًا: إن كان الله يتمجد في آنية الكرامة بإعلان عمل نعمته المجانية في حياة مؤمنيه المجاهدين، مشتاقًا أن يكون جميع البشر آنية كرامة، لكن إذ أصر البعض إلا أن يصيروا آنية للهوان، فحتى في هذا يتمجد الله، إذ يبرز غضبه وسخطه على الخطية، فيدين الخطاة بكونه القدوس الذي لا يقبل أن يشاركه الأشرار مجده المقدس [٢٢]، ومن جانب آخر يتمجد بطول أناته على الإنسان [٢٢]، فإن الله يحتمل الأشرار زمانًا ولا يعاقبهم فورًا بالرغم من تجديفاتهم ومقاومتهم لعمل الله. هذا ما قصده بقوله: "**فماذا إن كان الله وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوة احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك**" **[٢٢]**.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على ذلك بقوله:

[ما يعنيه هو هذا: كان فرعون آنية غضب، أي كان إنسانًا قد ألهب غضب الله بقسوة قلبه. فبعدما تمتع بطول أناة كثيرة (من جهة الله نحوه) بقي بدون إصلاح، لهذا لم يدعه الرسول: "آنية غضب" فحسب وإنما أيضا: "مهيأة للهلاك". بمعنى أنه هيأ نفسه بنفسه للهلاك التام. الله لم يتركه محتاجًا إلى الأمور التي تشفيه كما لم ينزع عنه الأمور التي تهلكه، لذا فهو بلا عذر.إذ يعرف الله ذلك، احتمله بأناة كثيرة ليرده للتوبة. فلو لم يود توبته لما احتمله بأناة كثيرة، أما كونه لم ينتفع بالأناة الكثيرة للتوبة بل هيأ نفسه بالأكثر للهلاك، استخدمه الله وسيلة لإصلاح الغير بمعاقبته فيصلحون هم من حالهم؛ بهذا بيّن الله قوته.

لكن ليست رغبة الله إظهار قوته، إنما يود أن يظهر حنوه بكل طرق ممكنة. إن كان بولس لا يود

أن يظهر قوته بهذه الطريقة، إذ يقول: "ليس لكي نظهر نحن مزكين، بل لكي تصنعوا أنتم حسنًا" (٢ كو ١٣: ٧) فكم بالأكثر يكون الله نفسه؟ لكن إذ يطيل الله أناته كثيرًا ليقوده إلى التوبة ولم يتب الإنسان يحتمله الله زمانًا طويلاً لكي يظهر أولاً صلاحه وقوته حتى وإن كان الإنسان لم يضع في ذهنه أن ينتفع شيئًا من طول أناة الله العظيمة. عندئذ يظهر الله قوته بعقاب هذا الإنسان الذي لا يقبل الشفاء، وذلك كما يبيّن حبه للإنسان خلال رحمته نحو الذين ارتكبوا خطايا كثيرة وتابوا. لا يقال: "يبيّن حبه" بل "**مجده**" **[٢٣]**، ليظهر أن هذا الحب هو مجد الله على وجه الخصوص، الأمر الذي يغير الله أكثر من كل شيء.

بقوله "**قد سبق فأعدها للمجد**" **[٢٣]**، لا يعني أن كل شيء هو عمل الله وحده، لأنه لو كان الأمر كذلك لما وُجد ما يمنع من خلاص كل البشر... فإن كان فرعون قد صار آنية غضب بسبب انحطاطه، فإن هؤلاء (اليهود) قد صاروا آنية رحمة باستعدادهم للطاعة. وإن كان الجانب الأعظم للعمل هو من قبل الله، لكنهم ساهموا بالقليل، ومع ذلك لم يقل أنها: "آنية العمل الصالح"... بل "**آنية رحمة**" ليظهر أن الله هو الكل[1].]

خامسًا: إذ أبرز الرسول أنه ليس من حقهم نقد خطة الله بسبب عجزهم عن إدراك حكمته الإلهية كما ينبغي، مظهرًا حق الله في اختيار الأمم كما سبق فاختار اليهود، لا يغلق الباب عن كل يهودي إنما عن الشعب اليهودي ككل، كما لا يعني انفتاح الباب للأمم خلاص كل أممي... إذ يقول: "**التي أيضا دعانا نحن إياها ليس من اليهود فقط بل من الأمم أيضًا**" **[٢٤]**.

هكذا توصل الرسول لا إلى دعوة الأمم دون هياج اليهود عليه فحسب، وإنما إلى فتح باب محبة الله لكل إنسانٍ، يهوديًا كان أمميًا، حتى وإن جحد اليهود كأمة السيد المسيح.

٤. تعثر إسرائيل

إذ سبق فقدم الرسول ردودًا على انتقاد اليهود لفتح باب الدعوة للأمم دون أن يجرح مشاعر اليهود ختم حديثه بتقديم الدلائل من الأنبياء أنفسهم، فاختار بعض العبارات التي تعلن تعثر اليهود في الإيمان وقبول الأمم له؛ هنا يتحدث بلا تحرج لأنه يقتبس عبارات نبوية يؤمنون بها، إذ يقول:

"**كما يقول في هوشع أيضًا سأدعو الذي ليس شعبي شعبي،**

والتي ليست محبوبة محبوبة،

---

[1] *In Rom. hom 16.*

ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه لستم شعبي
أنه هناك يدُعون أبناء الله الحيّ" [٢٦-٢٥].

اقتبس الرسول هذه العبارات عن (هو ٢: ٢٣؛ ١: ١٠) (الترجمة السبعينية)، مقدمًا النبي هوشع شاهدًا لأقواله إن الأمم الذين كانوا ليسوا شعب الله ولا محبوبين لديه خارج المقدسات صاروا شعب الله والمحبوبين لديه وأبناءه!

كأن ما يتم في العصر الرسولي ليس بالأمر الغريب، إذ سبق فأعلنه الله لأنبيائه ليمهدوا لتحقيق خطته الإلهية من جهة خلاص الأمم والشعوب.

يقول **القديس إيريناؤس:** [دعا النبي أسماء أولاده لورحامة "ليس لهم رحمة"، ولوعمي "ليس شعبي" (هو ١) ... حتى أنه كما يقول الرسول "**سأدعو الذي ليس شعبي شعبي، والتي ليست محبوبة (بلا رحمة) محبوبة، ويكون في الموضع الذي قيل فيه لستم شعبي أنه هناك يُدعون أبناء الله الحيّ**". فما حدث كرمز خلال أعمال النبي يؤكد الرسول أنه يتم حقًا بالمسيح في الكنيسة. هكذا أيضا اتخذ موسى أثيوبية زوجة له... مظهرًا أن الزيتونة البرية قد طُعمت في الزيتونة الأصلية وتشترك معها في ثمارها. فبزواجه من الأثيوبية أعلن عن ظهور الكنيسة من بين الأمم، والذين يستخفون بها ويتهمونها ويستهزئون بها يمتلئون برصًا، ولا يكونوا أطهارًا، ويستبعدون من خيمة البرّ (عد ١٢). هكذا أيضًا بالنسبة لراحاب الزانية، التي تدين نفسها بكونها من الأمم مملوءة من كل الشرور، لكنها تقبلت الجواسيس الذين كانوا يتجسسون الأرض وخبأتهم في بيتها، وعندما تحطمت كل المدينة التي كانت تعيش فيها عند سماع الأبواق السبعة حُفظت راحاب الزانية مع كل بيتها بالإيمان بعلامة القرمز (يش ٦: ٢٢)، وكما أعلن الرب للفريسيين عن الذين يقبلون مجيئه، إذ قال: "**العشارون والخطاة يسبقونكم إلى ملكوت السماوات**" (مت ٢١: ٣١)[1].]

لم يكتفِ الرسول بهذا بل قدم إشعياء النبي الذي جاء في نبوته متناغمًا معه، إذ يقول:

"**وإشعياء يصرخ من جهة إسرائيل،**
وإن كان عدد بني إسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص،
لأنه متمم أمر وقاض بالبرِّ،
لأن الرب يصنع أمرًا مقضيًا به على الأرض" **[٢٨-٢٧].**

جاء هذا القول في إشعياء (١٠: ٢٣-٢٢ الترجمة السبعينية) وكان يحمل نبوة عن المسبيين، إذ

[1] *Adv. Haer. 4: 20, 21.*

كانوا كثيرين جدًا بالنسبة للقلة القليلة التي تنجو من الأسر... وقد سمح الله بذلك بل وقضى بهذا التأديب لأجل البرّ. طبّق الرسول هذه النبوة بصورة أشمل على العصر المسياني حيث يؤسر عدد كبير جدًا من اليهود تحت الجحود رافضين الإيمان المسياني، وقليلون هم الذين يخلصون بقبولهم المسيّا المخلص، وقد سمح الله بذلك لأجل البرّ، ليفتح الباب للأمم.

يعلق القديس يوحنا الذهبي الفم على هذا القول الرسولي، هكذا:

[إنه يعني: أنا لا أهتم بالجمع (بالعدد الضخم)، ولا أتأثر بالجنس (اليهود) وإنما أخلص من يتقدمون كمستحقين للخلاص. أنه لم يذكر "**كرمل البحر**" بلا سبب. إنما يذكرهم بالوعد القديم (تك ٢٢: ١٧؛ ٣٢: ١٢) الذي جعلوا أنفسهم غير أهلٍ له.

لماذا ترتبكون إذن إن كان الوعد لا يتحقق (للكل) إذ أظهر كل الأنبياء أنه ليس الجميع يخلصون؟ عندئذ يظهر الرسول أيضا طريق الخلاص... "**لأنه متمم أمر وقاض (بسرعة) بالبر، لأن الرب يصنع أمرًا مقضيًا به (سريعًا) على الأرض**" **[٢٨]**...

هذا الأمر هو الإيمان الذي يحمل خلاصًا في كلمات قليلة: "لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت" (رو ١٠: ٩). ها أنتم ترون أن الرب متمم كلمة قليلة على الأرض، والعجيب أن هذه الكلمة القليلة لا تحمل خلاصًا فحسب بل وبرًا[1].]

بمعنى آخر إن كان إسرائيل قد صار ذا باعٍ طويلٍ في أعمال الناموس الحرفية وشكليات العبادة لكن الرب في ملء الزمان صنع أمرًا مقضيًا به أو أمرًا عاجلاً، مركزًا حول الإيمان بالمخلص، الذي ينقذ المؤمنين به وإن كانوا قلة من اليهود. هذه القلة تنبأ عنها إشعياء أيضًا (إش ١: ٩): "**لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلا لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة**" **[٢٩]**.

كأن ما حدث في العصر الرسولي سبق فحدث في عصر إشعياء، إذ قليلون هم الذين عاشوا في الإيمان فخلصوا من الهلاك، بدونهم تعرض إسرائيل كله للإبادة بالنار كما حدث لسدوم وعمورة (تك ١٩).

أخيرًا يخرج الرسول بهذه النتيجة:

"**فماذا نقول؟ إن الأمم الذين لم يسعوا في إثر البرّ، أدركوا البرّ،**

البرّ الذي بالإيمان،

---

[1] *In Rom. hom 17.*

ولكن إسرائيل وهو يسعى في أثر ناموس البرّ لم يدرك ناموس البرّ.
لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان، بل كأنه بأعمال الناموس،
فإنهم اصطدموا بحجر الصدمة،
كما هو مكتوب: ها أنا أضع في صهيون حجر صدمة وصخرة عثرة
وكل من يؤمن به لا يخزى" [٣٣-٣٠].

هذه هي النتيجة النهائية أن الأمم الذين لم ينالوا المواعيد، ولا استلموا الشريعة ولم تكن لهم معرفة إلهية قبل الكرازة بالإنجيل لم يسعوا في إثر البرّ، ولكن إذ جاءتهم الكرازة أدركوا البرّ الذي حسب الإيمان بالمسيح يسوع، أما إسرائيل الذي له ميزات كثيرة فإذ سعى في إثر ناموس البرّ لكن خلال حرفية أعمال الناموس دون روحها، فقدوا الإيمان، واصطدموا بالسيد المسيح "**حجر الصدمة**"، وتحقق فيهم القول النبوي: "ويكون مقدسًا وحجر الصدمة وصخرة عثرة لبيتي إسرائيل، وفخًا وشركًا لسكان أورشليم" (إش ٨: ١٤)... كما تحقق في الأمم القابلين للإيمان: "هأنذا أؤسس في صهيون حجرًا، حجر امتحان، حجر زاوية كريمًا، أساسًا مؤسسًا، من آمن لا يهرب" (إش ٢٨: ١٦).

الأصحاح العاشر

سرّ الجحود

إذ يعالج الرسول بولس مشكلة "اختيار شعب الله" التي أساء اليهود استخدامها، فعِوَض شعورهم بحب الله الفائق لهم، والتزامهم بمسئولية الكرازة بين الأمم، تحجّرت قلوبهم بالجحود، وتعثروا في السيد المسيح "حجر الزاوية"، الذي صار لهم حجر صدمة وصخرة عثرة (٩: ٢٣-٢٢). بينما قبله المؤمنون حجرًا كريمًا مختارًا (مز ١١٨: ٢٢؛ ١ بط ٢: ٦-٧). الآن يكتب لنا عن "سرّ جحودهم" حتى لا نسقط نحن أيضًا فيما سقطوا فيه بطريق أو آخر.

١. غيرة اليهود بلا معرفة ١-٥.

أ. جهلهم برّ الله ٣.

ب. جهلهم غاية الناموس ٤-٥.

٢. رفضهم بساطة الإيمان ٦-١١.

٣. رفضهم حب الله الشامل ١٢-١٣.

٤. رفضهم الالتزام بالكرازة ١٤-١٨.

٥. شهادة الأنبياء عن جحودهم ١٩-٢١.

١. غيرة اليهود بلا معرفة

إذ يعالج الرسول موضوعًا شائكا للغاية، يمكن خلاله أن يُتهم بالخيانة لأمّته، يُعلن من حين إلى حين مدى حُبّه لإخوته حسب الجسد، وعن عدم تجاهله لما نالوه من امتياز دون سائر الأمم في عصري الآباء والأنبياء، وأيضًا عن غيرتهم الدينيّة، وإن كانت بلا إدراك روحي حقيقي، إذ يقول:

"**أيها الإخوة إن مسرة قلبي وطلبتي إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص،**

لأني أشهد أن لهم غيرة لله،

ولكن ليس حسب المعرفة" [٢-١].

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة الرسولية موضحًا أن الرسول وهو يستعد لتوبيخهم بأكثر صرامة يودّ أن يقول لهم: لا تلتفتوا إلى الألفاظ، ولا إلى الاتهامات، كأني اتهمكم بروح عدائي، فإن "خلاصكم" هو موضوع سرور قلبي وصلاتي لله.

يا له من روح إنجيلي ملتهب بالحب، فمقاومة اليهود المستمرّة له لم تجرح مشاعر محبّته، إذ لا يجد ما يسرّ قلبه مثل خلاص الآخرين حتى المقاومين له. هم في قلبه، يشتهي خلاصهم، ولا يكفّ عن الطلبة من أجلهم. هذه الأبوّة الحانية نجدها في خدام الله الحقيقيّين، الذين من الأعماق يصرخون مع صموئيل النبي: "وأما أنا فحاشا لي أن أخطئ إلى الرب، فأكف عن الصلاة من أجلكم، بل أعلمكم الطريق الصالح المستقيم" (١ صم ١٢: ٢٣).

علامة الحب الصراحة والوضوح، إذ يشهد لغيرتهم لله، لكنها غيرة ليست حسب المعرفة، سقط فيها هو من قبل، إذ كان في غيرته "ينفث تهددًا وقتلاً على تلاميذ الرب" (أع ٩: ١). يقول **القدّيس أغسطينوس:** [كانوا يظنّون أنهم يقدّمون خدمة لله بذبحهم خدّامه! يا له من خطأ مريع، عندما تودّ أن تسرّ الله بضربك محبوبيه حتى الأرض، وهدم مذبح الله الحيّ لتأتي به أرضًا كي لا يُهجر الهيكل الحجري، يا له من عمى لعين! هذا هو ما حدث مع إسرائيل من أجل ملىء الأمم، أقول أنه حدث جزئيًا وليس للكل، فلم تقطع كل الأغصان، وإنما بعضها، لكي تتطعّم أغصان الزيتونة البريّة (رو ١١: ٢٥، ١٧)[1].]

ما سقط فيه اليهود يمكن أن يسقط فيه بعض المسيحيين، إذ تكون "**لهم غيرة لله ولكن ليس حسب المعرفة**"، كأن يسلك الإنسان بفكر متعصّب دون إدراك روحي للإيمان المستقيم أو اتساع قلب لمحبّة الغير؛ أو كأن يجاهد في طريق الفضيلة غير متكىء على صدر الله بل على ذراعه البشري وقدراته الخاصة ومعرفته الزمنيّة.

سر جحود اليهود جهلهم أمرين؛ أولاً: برّ الله، ثانيًا: غاية الناموس. يقوم الأول على جهلهم عمل الله في حياة المؤمن، فطلبوا برّ أنفسهم، لا برّ الله، فصار ذلك عائقًا عن خلاصهم، والثاني جهلهم غاية الناموس وأحكامه فتمسّكوا بالحرف القاتل دون الروح الذي يحيي.

أولاً: جهلهم برّ الله

"لأنهم إن كانوا يجهلون برّ الله،
ويطلبون أن يُثبتوا برّ أنفسهم،
لم يخضعوا لبرّ الله" [٣].

---

[1] *In Ioan. tr. 93: 4.*

يحاول أن يعطيهم عذرًا: "**جهلهم برّ الله**"، لكنه يحوّل العذر إلى اتهام ضدّهم يقوم على كبريائهم واعتداءهم بالذات: "**برّ أنفسهم**". جهلهم لا يقوم على ظروف خارجية قهريّة، وإنما على فساد داخلي يدبّ في النفس.

حينما تتضخم "الأنا *ego*" تملأ القلب، فلا تطيق آخر في داخله، حتى إذ تديّنت تعمل لحساب ذاتها المغلقة، فتطلب تثبيت "برّ نفسها" عِوض اتساعها بالحب لتقبل نعمة الله واهبة البرّ بالإيمان. يحدّثنا إشعياء النبي عن هذا البرّ الذاتي، قائلاً: "قد صرنا كلنا كجنس، وكثوب عُدة كل أعمال برنا، وقد ذبلنا كورقة وآثامنا كريحٍ تحملنا" (إش ٦٤: ٦).

❖ يقول الرسول بولس أن المسيح بالنسبة لنا برّ (١ كو ١: ٣٠)؛ وبالتالي من يجوع إلى هذا الخبز إنما يجوع إلى البرّ النازل من السماء، الذي يهبه الله، وليس الذي يصنعه الإنسان لنفسه. فلو أن الإنسان لا يصنع لنفسه برًا لما قال الرسول نفسه لليهود: "**إذ كانوا يجهلون برّ الله، ويطلبون أن يُثبتوا برّ أنفسهم، لم يخضعوا لبرّ الله**" **[٣]**... برّ الله لا يعني أن الله بارّ، وإنما يعني البرّ الذي يهبه الله للإنسان فيجعله بارًا بالله. مرة أخرى، ما هو برّ هؤلاء اليهود؟ البرّ الذي هو من عمل قوتهم والذي افترضوه، فحسبوا أنفسهم كما لو كانوا مكمِّلين للناموس بفضائلهم الذاتيّة[1].

القدّيس أغسطينوس

❖ الله وحده هو البارّ والذي يبرّر، يهب الإنسان البرّ.

إنهم يطلبون أن يُثبتوا برّ أنفسهم، بمعنى أنهم يظنّون بأن الصلاح هو من عندهم لا عطيّة إلهية. بهذا "**لم يخضعوا لبرّ الله**"، لأنهم متكبرون ويحسبون أنهم قادرون على إرضاء الله بذواتهم لا بما لله[2].

القدّيس أغسطينوس

❖ قال هذا عن اليهود الذين في اعتداءهم بذواتهم احتقروا النعمة، ولم يؤمنوا بالمسيح أنه يقول بأنهم أرادوا أن يُقيموا برّهم، هذا البرّ الذي من الناموس، لا أنهم ينفّذون الناموس، بل يقيمون برّهم في الناموس، عندما يحسبون في أنفسهم أنهم قادرون على تنفيذ الناموس بقوتهم، جاهلين برّ الله، لا البرّ الذي لله بل البرّ الذي يمنحه الله للإنسان[3].

القدّيس أغسطينوس

---

[1] *In Ioan. tr 26: 1.*
[2] *City of God 17: 4.*
[3] *Grace & Freewill, 24.*

ثانيًا: جهلهم غاية الناموس

إن كانت "الأنا" قد حجبت عنهم الالتقاء مع الله بعمله فيهم، فصار برّهم الذاتي المزعوم عائقًا عن تمتّعهم ببرّ الله، فإن تمسكهم بحرفيّة الناموس وشكليّاته أفقدهم المتعة بغاية الناموس الحقيقية، ألا وهو الالتقاء بالمخلّص. يقول الرسول: "**لأن غاية الناموس هي المسيح للبرّ، لكل من يؤمن، لأن موسى يكتب في البرّ الذي بالناموس، أن الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها**" **[٥-٤]**.

اقتبس الرسول بولس من موسى العبارة: "تحفظون فرائضي وأحكامي التي إذا فعلها إنسان يحيا بها" (لا ١٨: ٥). وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن الإنسان لا يمكن أن يحيا ولا أن يتبرّر ما لم يتمّم كل الفرائض وأحكام الناموس، الأمر الذي يعتبر مستحيلاً. لهذا فإذ أراد اليهود أن يتبرّروا بالناموس فالناموس عينه يُعلن عن العجز التام لكل إنسان أن يحقّق البرّ والحياة... بهذا يدفعنا إلى الإيمان بربنا يسوع المسيح الذي وحده غير كاسرٍ للناموس، بل وقادر على تبرير مؤمنيه. بهذا لم يترك الرسول بولس لليهود عذرًا يلتمسونه، فإن الناموس نفسه يُعلن عن المسيح بكونه وحده يتركّز فيه البرّ؛ من ينعم بالبرّ الذي قصده الناموس، ومن يرفضه إنما يرفض البرّ حتى وإن ظنّ في نفسه أنه بالناموس يتبرّر.

❖ المسيح هو غاية الناموس للبرّ، الذي أنبأنا عنه بالناموس لكل من يؤمن[2].

القدّيس إكليمنضس السكندري

٢. رفضهم بساطة الإيمان

ربّما يتساءل البعض: إن كان اليهود قد عجزوا عن تحقيق البرّ بالناموس بتنفيذ وصاياه، فماذا يكون حالنا أمام الوصايا الإنجيليّة وهي أصعب من وصايا الناموس؟ لذلك أسرع الرسول ليوضّح الإمكانيات الجديدة التي صارت لنا خلال السيد المسيح والتي يمكن تركيزها في نقطتين جوهريتين:

أ. أن الإيمان بالمسيح بسيط وقريب منّا للغاية [٨-٦].

ب. أن الأب أقام المسيح، ليهبنا قوّة القيامة عاملة فينا [١١-٩].

بهذا لم يحطم الرسول الأعذار اليهوديّة فحسب، وإنما فتح لنا باب الإيمان لنعيشه بكونه سهل المنال، خلال الحياة المُقامة لنا في المسيح ربنا.

---

[1] *In Rom. hom 17.*
[2] *Strom 2: 9.*

أولاً: رفضهم الإيمان البسيط القريب

"وأما البرّ الذي بالإيمان فيقول هكذا:

لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء أي ليحدر المسيح،

أو من يهبط إلى الهاوية أي ليصعد المسيح من الأموات،

ولكن ماذا يقول؟

الكلمة قريبة منك في فمك وفي قلبك،

أي كلمة الإيمان التي نكرز بها" [٨-٦].

اقتبس الرسول عبارات لموسى النبي بعد أن أعطاها مسحة إنجيلية، إذ جاء في سفر التثنية: "أن هذه الوصيّة أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك، ولا بعيدة منك، ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويُسمعنا إيّاها لنعمل بها؟ ولا هي في عبر البحر حتى تقول: من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويُسمعنا إيّاها لنعمل بها؟ بل الكلمة قريبة منك جدًا في فمك وفي قلبك لتعمل بها" (تث ٣٠: ١١-١٤).

كان موسى يُحدّث شعبه عن الشريعة أو الوصيّة الإلهية أو الكلمة الإلهية، كيف صارت بين أيديهم ليست ببعيدة عنهم، ليست بالشريعة المرتفعة في السماء يصعب بلوغها والتعرف عليها، ولا هي في الأعماق ليس من ينزل إليها ليجلبها. إنما صارت في وسطهم تبكّتهم وتحثهم على الرجوع إلى الله. إن كان هذا ينطبق على كلمة الله المُعلنة خلال الحروف والمُسلمة بين يديّ موسى النبي لتُوضع في الهيكل وسط الشعب، فبالأحرى تنطبق على كلمة الله المتجسّد، الذي صار إنسانًا وحلّ بيننا كواحد منّا. فلم يعد غريبًا عنّا ولا ببعيدٍ عن حياتنا، بل هو قريب إلينا. يسكن فينا ويحلّ بروحه في داخلنا، لنحيا به في كلماتنا وتصرّفاتنا وكل مشاعرنا وأحاسيسنا.

في القديم كان اليهود يعتزون بأنهم شعب الله الذي تسلم الشريعة الإلهية بواسطة موسى بيد ملائكة (عب ٢: ٢)، أمّا الآن فقد جاءنا الكلمة نفسه متجسدًا، يهبنا ذاته، ويجعلنا فيه أبناء الآب في مياه المعموديّة بالروح القدس. يقول **القدّيس أغسطينوس:** [أرسل الناموس بواسطة خادم، أمّا النعمة فجاء بنفسه من أجلها[1].]

إن كان برّ الناموس صعبًا بل ومستحيلاً، فقد جاء السيد المسيح لا ليقدّم وصايا سهلة، ولا ليتهاون مع مؤمنيه، وإنما قدّم ذاته قريبًا من مؤمنيه، بل ساكنًا فيهم، لا ليتمّموا أعمال الناموس إنما

[1] *In Ioan. tr. 3: 2.*

به يزيد برّهم عن الكتبة والفرّيسيّين، كقوله: "إن لم يزد برّكم على الكتبة والفرّيسيّين لن تدخلوا ملكوت السماوات" (مت ٥: ٢٠).

حدّثنا **القدّيس أغسطينوس** عن طريق لقائه مع الله قائلاً بأنه في غباوة كان يبحث عن الله في الطبيعة وكتب الفلاسفة، خرج خارجًا عن نفسه يطلبه، بينما كان الله في داخله عميقًا أعمق من نفسه وعاليًا أعلى من علوّه. إذن لنطلبه في داخلنا، فنجده يملك على القلب، ويُقيم عرسه فيه!

ثانيًا: التمتّع بقيامة المسيح فينا

"لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع،
وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت،
لأن القلب يؤمن به للبرّ،
والفم يعترف به للخلاص،
لأن الكتاب يقول: كل من يؤمن به لا يخزى" [١١-٩]

إن كان الإيمان ليس بالأمر الصعب، لكنه كما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] يطلب نفسًا متيقظة ساهرة تقبل المسيح الذي قام من الأموات. فكما سبق فقال الرسول أن إبراهيم "على خلاف الرجاء آمن على الرجاء" (رو ٤: ١٨)، هكذا المسيحي يقبل على خلاف الرجاء الطبيعي الحياة المُقامة في المسيح. هذا هو مركز إيماننا!

يلاحظ في هذه العبارة الرسولية الآتي:

أ. اشتراك الفم مع القلب في الإيمان: "**إن اعترفت بالرب يسوع، وآمنت بقلبك... خلصت**" **[٩]**. فإن كان القلب هنا يُشير إلى الإنسان الداخلي، فإن الفم يُشير إلى الحياة الظاهرة؛ إيماننا في جوهره لقاء النفس الداخليّة مع عريسها لكن دون تجاهل للجسد بكل أعضائه! بمعنى آخر إيماننا يمس أعماقنا الداخليّة وتصرفاتنا الظاهرة. بدون القلب يصير اعترافنا الظاهري لغوًا وتعصبًا وشكليّات، وبدون الحياة العاملة والاعتراف الظاهر لا ننعم بهذه المكافأة: "كل من يعترف بي قدام الناس اعترف أنا أيضًا به قدام أبي الذي في السماوات" (مت ١٠: ٣٢).

[1] *In Rom. hom 17.*

❖ ينبع هذا الاعتراف عن جذور القلب. أحيانًا تسمع إنسانًا يعترف (بالمسيح) لكنك لا تدرك إن كان مؤمنًا أو غير مؤمن يجب ألا تدعو أحدًا أنه يعترف (بالمسيح) أن كان غير مؤمنٍ (بقلبه)، لأن من يعترف هكذا إنما ينطق بغير ما في قلبه[1].

القدّيس أغسطينوس

ليتنا نؤمن بربنا يسوع بكل قلبنا، فيملك كربٍ، ويخلص أعماقنا من كل ظلمة، متجاوبين مع مخلصنا بحياتنا المقدّسة فيه، فنعترف به بشفاهنا.

يرى **القدّيس أمبروسيوس**[2] الاعتراف بالفم يمثل إحدى القبلات التي يقدّمها المؤمن لعريسه السيد المسيح حين يناجيه، قائلاً: "ليقبلني بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر" (نش ١: ٢). فإن كان عريسنا لا يكف عن أن يقبّلنا بقبلات الحب العملي الباذل، يليق بنا أن نرد القبلات بالقبلات، والحب بالحب، لنوجد فيه محبوبين ومقدّسين.

ويرى **القدّيس أمبروسيوس** أيضًا في الاعتراف بالفم والإيمان بالقلب أشبه بالبوقين الذين من الفضة (عد ١٠: ٢): [بهذين البوقين يبلغ الإنسان الأرض المقدّسة، أي نعمة القيامة. دعهما يصوتان لك كي تسمع صوت الله، فتحثك منطوقات الأنبياء والملائكة على الدوام وتسرع بك إلى العلويات[3]].

ب. الاعتراف بالفم بربنا يسوع المسيح لا يعني مجرّد شهادة الشفتين له، وإنما تعني إبراز الحياة المقدّسة لا لمجد الإنسان، وإنما لمجد الله نفسه، إذ يقول السيد المسيح: "فليضيء نوركم قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات" (مت ٥: ١٦). وكما يقول **القدّيس أغسطينوس**: [الذين يرغبون في إظهار أعمالهم الحسنة للناس ليمجدوا ذاك الذي أخذوا منه هذه الأعمال الظاهرة فيهم فيتمثلون بهم بالإيمان، بالحق يضيء نورهم أمام الناس، لأن منهم تنبعث أشعة نور المحبّة... لاحظوا الرسول أيضًا عندما يقول: "كما أنا أيضًا أرضي الجميع في كل شيء" (١ كو ١٠: ٣٣)، فإنه لم يقف عند هذا كما لو كان إرضاءه للناس هو هدفه النهائي، وإلا فباطلاً يقول: "لو كنت بعد أرضى الناس لم أكن عبدًا للمسيح" (غل ١: ١٠)، بل أردف في الحال مظهرًا سبب إرضائه الناس، قائلاً: "غير طالب ما يوافق نفسي بل الكثيرين لكي يخلصوا" (١ كو ١٠: ٣٣). فهو لا

---

[1] *In Ioan tr 26: 1.*
[2] *Ep. 41: 15.*
[3] *On Belief in Resurrection. 2: 112.*

يرضي الناس لنفعه الخاص وإلا فلا يكون عبدًا للمسيح، بل يرضي الناس لأجل خلاصهم حتى يكون رسولاً أمينًا للمسيح[1].

ج. "**لأن الكتاب يقول كل من يؤمن به لا يخزى**" **[١١]**. اقتطف الرسول بولس ذلك عن سفر إشعياء (٢٨: ١٦ الترجمة السبعينية)، ليؤكّد أمرين، الأول أنه بأعمال الناموس يمكن للإنسان أن يخزى، إذ يعجز عن التمتّع بالبرّ، أمّا بالإيمان الحيّ فلن يخزى. الأمر الثاني أنه لم يحدد فئة معيّنة بل قال: "**كل من يؤمن به**"، مؤكدًا عمومية الخلاص بلا تمييز بين يهودي وأممي.

٣. رفضهم حب الله الشامل

إذ سبق أن كشف الرسول عن سرّ جحود اليهود: رفضهم الإيمان البسيط القريب، جاء بعبارة نبوية مقتبسة من إشعياء النبي (٢٨: ١٦) نعلن أن "كل" من يؤمن به لا يخزى. كما يقتبس من يوئيل العبارة "كل من يدعو باسم الرب يخلص" (يؤ ٢: ٢٨-٢٩). العبارة التي اقتبسها الرسول بطرس في عظة يوم الخمسين (أع ٢: ٢١).

هكذا لا يتوقف الرسول بولس عن تأكيد انفتاح باب الإيمان لجميع الأمم، "لأن الله، هو رب الكل" (أع ١٠: ٣٦) كما قال القدّيس بطرس في بيت كرنيليوس.

"**لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني،**
لأن ربًا واحدًا للجميع،
غنيًا لجميع الذين يدعون به،
لأن كل من يدعو باسم الرب يخلص" [١٣-١٢].

٤. رفضهم الالتزام بالكرازة

يدخل القدّيس بولس الرسول بهم إلى اتهام جديد، ألا وهو تجاهلهم الدور الرئيسي الذي كان يجب أن يقوموا به كشعب الله المختار: الكرازة بالمسيّا الذي شهد له العهد القديم برموزه ونبوّاته. بمعنى آخر كان يليق بهم عِوض الدخول في مناقشات غبيّة بتشامخٍ وكبرياءٍ ضد الأمم أن يكونوا هم الكارزين لهم بالإيمان. هذا ما قصده الرسول بقوله: "**فكيف يدعون بمن لا يؤمنوا به؟ وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به؟ وكيف يسمعون بلا كارز؟ وكيف يكرزون أن لم يُرسلوا؟ كما هو مكتوب ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات...**" **[١٥-١٤]**.

---

[1] *Ser. On N. T. 4: 4.*

يقدّم لنا **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** تحليلاً رائعًا لهذا النص الرسولي، إذ يقول[1] بأن الرسول يجرّدهم من كل عذر، فبعدما قال أن لهم غيرة لله لكن ليس حسب المعرفة، بدأ عن طريق الأسئلة يوضّح أنه كان يحب أن يكونوا أول المؤمنين بالسيد المسيح، لأنه قد أُرسل لهم الأنبياء ككارزين لهم به خلال النبوّات، لكنهم سدوا آذانهم ورفضوا الإيمان. فإن كان الخلاص يتطلب الدعوة باسمه كقول يوئيل النبي: "كل من يدعو باسم الرب يخلص" (رو ١٠: ١٣؛ يؤ ٢: ٢٨-٢٩)، فالدعوة باسمه تستلزم الإيمان به، والإيمان يتطلب السماع عنه، والسماع لا يتحقّق إلا بالكارزين، والكارزون لا يبشِّروا ما لم يُرسلوا. وقد أُرسل لهم الكارزون فعلاً وكرزّوا قبل مجيئه بأجيال كثيرة كقول إشعياء الذي أعلن عن رسالة الكارزين المبشرين بالسلام (إش ٥٢: ٧)، ومع هذا فقد رفض اليهود الإيمان، فهم بلا عذر.

كان يليق باليهود أن يسبقوا الأمم في قبول الإيمان بالمسيّا المخلص ليقوموا بدور الكارزين، مكمّلين رسالة أنبيائهم، عِوض مقاومتهم للإيمان. هكذا يظهر الرسول أن دينونتهم مضاعفة.

على أي الأحوال حتى هذا الرفض للإيمان تنبأ عنه إشعياء، إذ يقول الرسول: "**لكن ليس الجميع قد أطاعوا الإنجيل، لأن إشعياء يقول: يا رب من صدّق خبّرنا؟ إذًا الإيمان بالخبر، والخبر بكلمة الله، لكنني أقول: ألعلّهم لم يسمعوا؟ بلى إلى جميع الأرض خرج صوتهم، وإلى أقاصي المسكونة أقوالهم**" **[١٨-١٦]**.

لقد سبق فأنبأ إشعياء أنه ليس الجميع يطيعون الإنجيل، إذ يرفض كثير من اليهود خبر التبشير الذي سبق فأعلنه النبي نفسه (إش ٥٣: ١). هو قدّم الخبر ليؤمنوا بالإنجيل، لكنهم لم يسمعوا، مع أن الأمم الذين في أقاصي المسكونة سمعوا وآمنوا، وهكذا صاروا شهودًا على اليهود.

اقتبس الرسول جزءً من المزمور ١٩ حيث ينشد المرتّل: "السماوات تحدّث بمجد الله، والفَلك يخبر بعمل يديه، يوم إلى يوم يذيع كلامًا، وليل إلى ليل يبدي علمًا، لا قول ولا كلام لا يسمع صوتهم، في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم". يُعلن المرتّل في هذا المزمور أن الشهادة عن الله عامة والكرازة بأعماله مقدّمة لكل البشريّة خلال الطبيعة عينها (السماوات والفلك) وخلال كرازة الكارزين التي تبلغ أقصى المسكونة، وكأن المرتّل قد شاهد بروح النبوّة خدمة الرسل التي اتّسعت لتضم الشعوب والأمم من مشارق الشمس إلى مغاربها.

٥. شهادة الأنبياء عن جحودهم

[1] *In Rom. hom 18.*

أعلن الرسول عن سرّ جحود اليهود برّ الله وعدم إدراكهم غاية الناموس، ورفضهم الإيمان البسيط القريب إليهم، وضيق قلبهم الذي لا يقبل حب الله الجامع لكل البشريّة، ونسيانهم رسالتهم ككارزين بالمسيّا المخلص للعالم. الآن يقدّم لهم الرسول شهادة أعظم تبيّن جحودهم، هما موسى وإشعياء:

"**لكني أقول: ألعلّ إسرائيل لم يعلم؟**

أولاً: موسى يقول أنا أُغيرَكم بما ليس أمة،

بأمّة غبيّة أغيظكم (تث ٣٢: ٢١)؛

ثم إشعياء يتجاسر ويقول: "وُجدت من الذين لم يطلبوني،

وصرت ظاهرًا للذين لم يسألوا عني (إش ٦٥: ١)؛

أما من جهة إسرائيل فيقول:

"**طول النهار بسطت يديّ إلى شعب معاند ومقاوم**" (إش ٦٥: ٢) **[٢١-١٩].**

يلاحظ في هذه العبارات الرسولية والمقتبسة من أقوال موسى وإشعياء النبيّين الآتي:

أولاً: يتساءل الرسول بولس: "**ألعلّ إسرائيل لم يسمع؟**" وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أنه يقصد: هل سمع إسرائيل ولم يفهم؟ إن كان الأمم الوثنيّون سمعوا وأدركوا الإيمان، فكم بالأحرى كان يليق باليهود الذين [أعطاهم الله منذ القدم كل العلامات التي تستهدف نحو إزالة الغشاوة عن عيونهم[1].]

ثانيًا: اقتبس الرسول العبارة الموسويّة (تث ٣٢: ٢١): "**هم أغاروني بما ليس إلهًا، أغاظوني بأباطيلهم، فأنا أُغيرهم بما ليس شعبًا، بأمّة غبيّة أغيظهم**". وكأن الله قبل الأمم الوثنيّة كشعبٍ له خلال الإيمان ليُثير أيضًا مشاعر اليهود لعلهم يرجعون عن جحودهم ويتوبون إلى الله، وهكذا لم يغلق الرب الباب في وجه أحدٍ.

ثالثًا: يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** في العبارة "**طول النهار بسطت يديّ إلى شعب معاند ومقاوم**" إشارة إلى العهد القديم بأكمله حيث بسط الرب يديه خلال نداء الأنبياء المستمر، وإعلانه عن حُبّه لهم رغم عنادهم ومقاومتهم. إنه أب يبسط يديه نحو شعبه، كما نحو طفله الصغير الذي يرفض أحضان أبيه المتّسعة له بالحب. ويرى **القدّيس يوستين** في هذا القول النبوي (إش ٦٥: ٢) إشارة إلى الصليب حيث بسط الرب يديه عند موته ليحتضن الكل[2].

---

[1] *In Rom. hom 18.*
[2] *Dial. with Trypho 97.*

الأصحاح الحادي عشر

اختيار الأمم أيضًا

إن كان الرسول بولس كيهودي حقيقي فنّد بروح الحب حجج اليهود، لا ليحط من امتيازاتهم في العهد القديم، إنما ليرفعهم فوق روح التعصّب وضيق الأفق، فيتمتّعوا مع سائر الأمم ببرّ المسيح، بل ويشعروا بالتزامهم بالكرازة به أكثر من غيرهم، الآن كرسولٍ للأمم يحذّر بذات روح الحب أيضًا الأمم المتنصّرين لئلاّ يفقدوا برّ المسيح خلال كبريائهم أو استخفافهم بإخوتهم اليهود، موضحًا خطّة الله الفائقة نحو الكل.

١. لا يرفض الله شعبه ١-١٠.
٢. قبولهم خلال توبتهم ١١-١٦.
٣. الأمم زيتونة برّية ١٧-٢٤.
٤. انتظار توبة اليهود ٢٥-٣٢.
٥. خطّة الله الفائقة ٣٣-٣٦.

١. لا يرفض الله شعبه

مرة أخرى أودّ أن أؤكد أن حديث الرسول هنا كما في الأصحاحات السابقة خاص بالشعوب ككل لا بالأفراد. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن كانت الأصحاحات السابقة (١٠-٤) موجهة إلى الشعب اليهودي كي لا يستكبر بسبب انتسابه الجسدي لإبراهيم، واستلامه الناموس الموسوي، واختياره كشعب الله، فإنه في هذا الأصحاح يتحدّث مع الأمم فيحذّرهم من إساءة فهم الحديث السابق لئلاّ يستكبروا ويستخفوا باليهود، معلنًا أنهم لابدّ أن يقبلوا السيد المسيح في أواخر الدهور، ويتراجعوا عن الجحود الذي يمارسونه الآن. بمعنى آخر حين يُحدّث اليهود يوبّخهم ليفتحوا قلوبهم بالحب للأمم، وحين يُحدّث الأمم يوبّخهم ليفتحوا قلوبهم لليهود الراجعين بالإيمان لله، يودّ أن يرى البشريّة كلها تسند بعضها البعض بروح الحب والتواضع لئلاّ يهلك أحد بسبب التشامخ والعجرفة.

في هذا الأصحاح يعطي الرسول رجاءً لليهود ليتخلّوا عن جحودهم للمسيّا وتعصبهم البغيض، كما يقدّم تواضعًا للأمم الذين دخلوا إلى الإيمان بالتطعيم في الشجرة الأصيلة.

بدأ الرسول حديثه بسؤال مع إجابة سريعة قاطعة يليها شرح تفصيلي:

"**فأقول: ألعلّ الله رفض شعبه؟ حاشا.**

لأني أنا أيضًا إسرائيلي من نسل إبراهيم من سبط بنيامين.

لم يرفض الله شعبه الذي سبق فعرفه.

أم لستم تعلمون ماذا يقول الكتاب في إيليا؟

كيف يتوسّل إلى الله ضد إسرائيل قائلاً:

يا رب قتلوا أنبياءك، وهدموا مذابحك،

وبقيتُ أنا وحدي وهم يطلبون نفسي؟

لكن ماذا يقول له الوحي؟

أبقيتُ لنفسي سبعة آلاف رجل لم يحنوا ركبة لبعل.

فكذلك في الزمان الحاضر أيضًا قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة" **[٥-١].**

خشي الرسول لئلا يُساء فهم اقتباسه من إشعياء النبي: "**أمّا من جهة إسرائيل، فيقول: طول النهار بسطتُ يديّ إلى شعب معاند ومقاوم**" (رو ١٠: ٢١؛ إش ٦٥: ٢)، فيحسبون أنه يغلق الباب على إسرائيل مزدريًا به، لذلك أسرع بهذا السؤال: ألعلّ الله رفض شعبه؟ وجاء بإجابة حاسمة: حاشا!

جاءت الإجابة بعد ذلك بدقة بالغة وبدلائل، إذ يلاحظ فيها الآتي:

أولاً: يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن الرسول عند إجابته لم يقل "**شعبه**" فحسب بل قال: "**شعبه الذي سبق فعرفه**" **[٢].** فإن الذين قبلوا الإيمان من اليهود هم قليلون لكنهم "**معروفون**" لدى الله، هذا هو شعبه! كأن وعد الله قائم وقد تحقّق حتى في اليهود وأن الذين تمتعوا به قليلون. لا يشغل الله ضخامة العدد، لكنه يطلب أبناء أمناء وإن كانوا قلّة.

شعب الله معروف لديه، يعرف عددهم، ويناديهم بأسمائهم، وإن كانوا قلّة مخفيّة كما في أيام إيليا حيث انحرف الشعب إلى العبادة الوثنيّة وقتلوا الأنبياء وهدموا مذبح الله، لكن الشعب الحقيقي كان محصيًا لديه (٧٠٠٠ رجل) لم يحنِ ركبة لبعل بل هو أمين في عبادته، لم يعرفه حتى إيليا نفسه الذي ظن أن الشعب كله قد هلك، فطلب لنفسه الموت، قائلاً: "بقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها" (١ مل ١٩: ٤، ١٤).

في كل جيل يوجد "**شعبه الذي سبق فعرفه**"، السبعة آلاف رجل الذين لا يحنون ركبهم لبعل، المعروفون لله بأسمائهم. أمّا كونهم ٧٠٠٠، فلأن رقم ٧ يُشير إلى الكمال، لأن الإنسان أكمل خليقة

[1] *In Rom. hom 18.*

الله على الأرض يحمل نفسًا على صورة الثالوث، وجسدًا من هذا العالم (أربعة أركان العالم)، فيرمز للإنسان بكليته (٤+٣) برقم ٧. وأمّا رقم ١٠٠٠ فيشير للحياة السماويّة أو الروحيّة لأن يومًا عند الرب كألف (مز ٨٤: ١٠). كأن رقم ٧٠٠٠ يُشير إلى جماعة الكاملين روحيًا، الذين تقدست نفوسهم وأجسادهم بالروح القدس ليعيشوا بفكر روحي وعلى مستوى سماوي. أمّا كونهم رجالاً فلا يعني تمايز الجنس، وإنما يعني أنهم يحملون الحياة الناضجة البعيدة عن لهو الأطفال وعجزهم وعن تدليل النساء وترفّههم. لذا جاءت الوصيّة الرسولية: "كونوا رجالاً" (١ كو ١٦: ١٣).

ثانيًا: يقدّم الرسول بولس ثلاثة أدلة على عدم رفض الله لشعبه:

أ. يقدّم نفسه دليلاً على ذلك، إذ يقول: "**لأني أنا أيضًا إسرائيلي من نسل إبراهيم من سبط بنيامين**" **[١]**. بقوله "**أيضًا**" يعني به غيره من اليهود المؤمنين بالسيد المسيح سواء في كنيسة رومية أو غيرها، فقد أوضح أن الله لا يزال يحقّق مواعيده لشعبه، وأنه هو إسرائيلي حقًا من سبط بنيامين من نسل إبراهيم وليس دخيلاً، وقد نال الوعد بل وصار كارزًا به. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [يقول أنا المعلم والكارز... لو أن الله رفضهم لما اختير هو نفسه الذي من هذا الجنس ليقوم بالكرازة والاهتمام بشئون العالم وكل الأسرار والتدبير الشامل[1].]

ب. أمّا الدليل الثاني فهو ما ورد في سفر ملوك الأول (ص ١٩) عن إيليا النبي الذي ظن في نفسه أنه لم يعد يوجد بعد شعب مختار لله إذ يقول: "**يا رب قتلوا أنبياءك وهدموا مذابحك، وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي**" [٣]. لقد اختفت الكنيسة حتى عن عينيّ إيليا النبي الغيور، لكنها لن تختفي عن عيني الله. وكان هذا نبوّة ورمزًا للشعب اليهودي الذي قاوم السيد المسيح وقتلوا تلاميذه وأرادوا تحطيم مذابحه الحيّة، وظهر الكل كهالكين، لكن من بينهم كان التلاميذ الذين من أصل يهودي وقد قبلوا الرب وشهدوا له، وأيضًا وُجد كثيرون آمنوا وإن كانوا إن قورنوا بالجاحدين يُحسبون قلّة.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إن كنتم لا تعرفونهم فهذا ليس بالأمر العجيب، فإن النبي الذي كان رجلاً عظيمًا وصالحًا لم يعرفهم، لكن الله دبرّ كل الأمور لنفسه حتى عندما لم يعرف النبي... الآن يقرأ لهم الرسول العبارة: "**قتلوا أنبياءك وهدموا مذابحك**" ليظهر لهم في ألم أن ما فعلوه بالمسيح والرسل ليس بالأمر الغريب، إذ اعتادوا على ممارسة ذلك... لاحظ كيف يوجّه إليهم اتهامًا قويًا لا خلال بولس ولا بطرس ولا يعقوب ولا يوحنا بل خلال من له أعظم تقدير عندهم، رئيس الأنبياء،

[1] *Rom. hom 18.*

وصديق الله، الغيور عليهم جدًا (١ مل ١٩: ١٤) حتى سلّم نفسه للجوع من أجلهم، والذي لا يزال حيًا حتى اليوم... بهذا المعنى أيضًا يقول الرسول بعبارة أخرى حين كتب إلى أهل تسالونيكي: "لأنكم تألّمتم أنتم أيضًا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضًا من اليهود، الذين قتلوا الرب (يسوع) وأنبياءهم واضطهدونا نحن، وهم غير مرضيّين لله، وأضداد لجميع الناس" (١ تس ٢: ١٤-١٥)[1].

ج. الدليل الثالث على تتمة وعود الله لشعبه الذي سبق فعرفه فقد أورده في الأصحاح السابق، إذ أعلن كلمات الرب على فم موسى النبي: "أنا أغيركم بما ليس أمة، بأمّة غبيّة أُغيظكم" (١٠: ١٩)، الأمر الذي يشرحه بإسهاب في هذا الأصحاح [٣٦-١١]، موضّحًا أن ما حدث من جحود بالنسبة لأغلبية اليهود يفتح باب مراحم الله أمام الأمم حتى متى يتم مِلء الأمم، في آخر الأزمنة، يرجع اليهود عن كبريائهم وجحودهم ليقبلوا الإيمان بالسيد المسيح.

ثالثًا: إذ أوضح الرسول بالدليل القاطع، خلال نفسه كمثالٍ وخلال شهادة الأنبياء، خاصة موسى وإيليا أنّ وعد الله قائم، وإن كان الذين تحقّق فيهم الوعد قلّة، فإن سرّ جحودهم هو "قساوة القلب" أو بمعنى آخر فساد العين الداخليّة (القلب) وعجزها عن معاينة الله والتعرّف على أعماله الخلاصيّة. هذا ما أعلنه الرسول بقوله:

"فكذلك في الزمان الحاضر أيضًا قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة.
فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال،
وإلا فليست النعمة بعد نعمة،
وإن كان بالأعمال فليس بعد نعمة،
وإلا فالعمل لا يكون بعد عملاً.
فماذا؟ ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله،
ولكن المختارون نالوه، وأمّا الباقون فتقسوا.
كما هو مكتوب: أعطاهم الله روح سبات وعيونًا حتى لا يبصروا،
وآذانًا حتى لا يسمعوا إلى هذا اليوم.
وداود يقول: لتصر مائدتهم فخًا وقنصًا وعثرة ومجازاة لهم.

[1] *Rom. hom 18.*

لتظلم أعينهم كي لا يبصروا،

ولتحن ظهورهم في كل حين" [١١-٥].

هكذا يقدّم لنا الرسول صورة واقعية لحال إسرائيل، إذ رفض غالبيتهم الإيمان، وقبِل القلّة أن يتمتّعوا بالوعد كشعب الله الحقيقي، مقدّمًا تفسيرًا لسرّ جحود الغالبية، مدعمًا ذلك بشهادة العهد القديم نفسه عنهم.

يلاحظ في هذه العبارات الرسولية الآتي:

أ. البقيّة التي تتمتّع بالخلاص، تتمتّع به خلال نعمة الله المجّانية، وليس خلال حرفيّة أعمال الناموس ولا أعمال البرّ الذاتي. هذه الأعمال تضاد النعمة: أعمال الحرف القاتل التي بلا روح، والأعمال النابعة عن الذات، أمّا الأعمال الروحيّة التي هي من صنيع الروح القدس فينا فليست مضادة للنعمة بل تتجاوب معها.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هنا مرة أخرى يثبت الرسول النعمة ويظهر قوّتها (رو ١١: ٥-١١)، هذه التي بها يخلص الإنسان على الدوام وبدونها يهلك. لنقدّم التشكّرات أننا ننتسب للذين يخلصون، وليس للذين يحسبون أنهم قادرون على الخلاص بأعمالهم الذاتية بل بعطيّة الله. ونحن بتقديمنا نقدّم التشكّرات لا بالكلام بل بالعمل والتصرفات. لأن هذه التشكّرات أصيلة، إذ نمارس الأمور التي يتمجّد الله بها بالتأكد، ونهرب من الأعمال التي تحرّرنا منها[1].]

هكذا يحدّثنا **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** بإفاضة عن ارتباط النعمة بالعمل الروحي الذي يضاد أعمال البرّ الذاتي وأعمال الحرف. فإن الشكر الذي نقدمه لله على عطيّة النعمة المجّانية إنما يقدّم خلال الأعمال الروحيّة المقدّسة بالرب والهروب من الشرّ الذي تحرّرنا منه. وكأن العمل الذي نمارسه سواء إيجابيًا بممارسة الحياة الفاضلة بالروح القدس أو سلبيًا برفض الشّرور التي حررتنا منها النعمة الإلهية، هذا العمل لا يضاد النعمة الإلهية بل يمجد الله فينا.

إن كانت النعمة الإلهية تجعل من الإنسان الترابي الأرضي كائنًا سماويًا، فالمرتّل يُعلن "السماوات تحدّث بمجد الله" (مز ١٩: ١)، لا بالكلام بل بالحياة العاملة المجيدة. هذا هو ما فعلته النعمة في نفس بولس الرسول التي صارت متلألئة بالمجد الإلهي خلال الحياة العاملة بالرب، تجتذب الكثيرين إليها لمجد الله. وكما يقول **الذهبي الفم:**

[كان لبولس نفسًا لا تقل عن السماء، قادرة أن تجتذب إليها كل البشر. نفوسنا لا تعادل الأرض،

---

[1] *Rom. hom 18.*

إنما كانت نفسه تعادل السماوات!... يتخطى سمو نفسه السماوات كلها لتتدخل في حديث مع المسيح نفسه! جمالها فائق يُعلن عنه الله نفسه!

دهشت الملائكة عندما خُلقت الكواكب (أي ٣٨: ٧)، أمّا بالنسبة له فالله يعجب به، إذ يقول: "لأن هذا لي إناء مختار" (أع ٩: ١٥).

السماء تظلِّلها السحب عدة مرات، أمّا نفس بولس فلم تظللَّها تجربة قط! وحتى وسط العواصف كانت نفسه أكثر صفاءً من السماء وقت الظهيرة، تضيء على الدوام قبل أن تلحقها غيوم. فإن "الشمس" الذي يشرق في بولس يبعث بأشعته التي تفوق غيم التجارب لتضيء أكثر بهاءً. لذلك يقول: "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (٢ كو ١٢: ٩).

إذن لنجاهد متمثِّلين به، وعندئذٍ تصير هذه السماء كلا شيء، بل إن أردنا حتى الشمس والقمر أيضًا، فإن هذه قد خُلقت لأجلنا، ولسنا نحن لأجلها[1].]

ليتنا نقبل عمل النعمة المجّانية لتصير نفوسنا سماءً للرب، هذه التي تعمل في النفوس المتجاوبة معها بالحب العملي والجهاد الروحي القانوني، في غير اعتداد بالذات ولا حرفيّة قاتلة.

ب. إذ أبرز الرسول قوّة النعمة الفائقة أظهر سرّ جحود غالبية شعب إسرائيل، ألا وهو طلبهم البرّ الذاتي، فلم ينالوا النعمة التي تغيرّ القلب لتفتح بصيرته، وتدرك عمل الله الخلاصي.

يقول الرسول: "**فماذا؟ ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله**" **[٧]**، لأنه طلب أن يتبرّر بأعمال الناموس الحرفيّة وسعي ببرّه الذاتي فحُرم من عطيّة البرّ.

"**ولكن المختارون نالوه**" **[٧]**. هذه القلّة التي قبلت الإيمان بالمسيح ونالت النعمة الإلهية تمتعت بالخلاص كفئة مختارة. ولئلاّ تعترض الأكثرية، قائلة: "ما ذنبنا نحن مادمنا غير مختارين؟ لذلك كشف الرسول عن دورهم في الجحود: "**وأمّا الباقون فتقسوا**" **[٧]**. إن كانت النعمة هي عطيّة الله المجّانية فإن قسوة القلب هي من عندنا.

لقد قاوموا الحق، ولم يتجاوبوا من نعمة الله المجّانية، لذلك تُركوا لفساد قلبهم القاسي، فانطمست بصيرتهم الداخليّة وعجزوا عن الاستماع لصوته. الأمر الذي سبق فأنبأ عنه الأنبياء، وقد لخّصه الرسول بقوله: "كما هو مكتوب: أعطاهم الله روح سُبات، وعيونًا حتى لا يبصروا، وآذانًا حتى لا يسمعوا إلى هذا اليوم" [٨]، إذ جاء في العهد القديم: "اسمعوا سمعًا ولا تفهموا، وأبصروا إبصارًا ولا تعرفوا" (إش ٦: ٩)، "ولكن لم يعطكم الرب قلبًا لتفهموا، وأعينًا لتبصروا، وآذانًا لتسمعوا،

[1] *Rom. hom 18.*

إلى هذا اليوم" (تث ٢٩: ٤). "الآن الرب قد سكب عليكم روح سبات وأغمض عيونكم" (إش ٢٩: ١٠).

هكذا يوضّح لهم الرسول أنهم إذ رفضوا عمله فيهم صاروا إلى حال رديء، إذ صارت نفوسهم لا ترى الحق ولا تسمع له، بل صارت نائمة وخاملة تحمل "روح السبات" الذي يعني عدم التغيير، أو الاستكانة لما هي عليه من شر. أما ثمر هذا فقد أعلنه داود النبي هكذا: "**لتصر مائدتهم فخًا وقنصًا وعثرة ومجازاة لهم**" **[٩]** (مز ٦٩: ٢٢). بمعنى أنهم وهم مطمئنّون ومستكينون للشر تحلّ بهم النكبات وسط ولائمهم، فيتحوّل فرحهم إلى غمّ، وسلامهم إلى ضيق. تُشير "**مائدتهم**" هنا إلى رموز العهد القديم ونبوّاته، فإنها مائدة مشبعة إن قدمت بطريقة روحية، إذ تُقدّم لنا "شخص السيد المسيح نفسه"، أمّا وقد تمسّكت هذه الأغلبية بالحرف القاتل فصار ما هو للبنيان علّة هدم لهم، بل وفخًا وعثرة ومجازاة لهم. وربّما تُشير "**مائدتهم**" بالأكثر إلى ذبيحة الفصح التي غايتها الشرّكة مع الله خلال المصالحة بالدم الكريم، ففي الفصح قام يهوذا، ممثلاً لهؤلاء الجاحدين، بدور الخيانة العامة عِوض قبول المصالحة.

"**لتظلم عيونهم**"، إذ أبقوا على برقع الحرف ورفضوا إبطاله، كقول الرسول: "لكن حتى اليوم حين يُقرأ موسى البرقع موضوع على قلبهم، ولكن عندما يرجع إلى الرب يُرفع البرقع، وأمّا الرب فهو الروح، وحيث روح الرب هناك حرية، ونحن جميعًا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة يتغير إلى تلك الصورة عينها من مجدٍ إلى مجدٍ كما من الرب الروح" (٢ كو ٣: ١٥-١٨).

"**لتنحنِ ظهورهم**" علامة الضعف والعجز الروحي والعبوديّة، فإن الخطيّة ثقيلة ومرهقة للنفس، والناموس يعجز عن أن يرفعها خارج النعمة.

ج. يحدّثنا **القدّيس أغسطينوس** عن سرّ جحود إسرائيل، قائلاً: [لم يستطيعوا أن يؤمنوا لأن إشعياء النبي تنبأ عن ذلك، وقد تنبأ لأن الله سبق فعرف ما سيحدث. إن سألت لماذا لم يستطيعوا؟ أجيب في الحال: لأنهم لم يريدوا، لأنه بالتأكيد كان الله يرى مسبقًا إرادتهم التي فسدت، وقد سبق فأخبر بها النبي لأنه ليس شيء مخفيًا عن الله[1].]

٢. قبولهم خلال توبتهم

سبق فتحدث الرسول عن رجوع اليهود عن جحودهم متى قبلوا ذاك الذي صلبوه وآمنوا به. يقول

[1] *In Ioan. tr. 53: 6.*

القدّيس أمبروسيوس[1] أن شمشون اليهودي الذي قتل الأسد، كان رمزًا لليهود الذين صلبوا السيد المسيح الأسد الخارج من سبط يهوذا، وقد عاد شمشون ليجد في أحشاء هذا الأسد مخزنًا لعسل الحكمة (قض ١٤: ٨)، وكأنه يمثّل اليهود الراجعين إلى السيد المسيح بالتوبة ليجدوا فيه كل لذّة الحكمة وشبعها.

يرى القدّيس بولس أن الله سمح بقسوة قلب اليهود لينفتح الباب للأمم، فإن عاد هؤلاء بالتوبة والإيمان إلى الله كم يكون حال الكل؟ إذ يقول:

"**فأقول: ألعلّهم عثروا لكي يسقطوا؟ حاشا.**

بل بزلّتهم صار الخلاص للأمم لإغارتهم.

فإن كانت زلّتهم غنى للعالم، ونقصانهم غنى للأمم، لكم بالأحرى ملؤهم!

فإني أقول لكم أيها الأمم إني أنا رسول للأمم أمجد خدمتي.

لعلي أغير أنسبائي وأخلص أناسًا منهم؟

لأنه أن كان رفضهم هو مصالحة العالم، فماذا يكون اقتبالهم إلا حياة من الموت؟

وإن كانت الباكورة مقدّسة فكذلك العجين!

وإن كان الأصل مقدسًا فكذلك الأغصان!" **[١٦-١١]**.

ويلاحظ في هذه العبارات الرسولية الآتي:

أولاً: لاحظ **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[2] أن الرسول بولس إذ كان في الأصحاحات السابقة يوجّه لليهود اتهامات متتالية لذا كان يستعين بشهادات الأنبياء مرارًا وتكرارًا، مثل إشعياء وإيليا وموسى وهوشع، أمّا الآن إذ يستخدم أسلوب الملاطفة معهم فلا يجد حاجة للاستعانة بشهادات نبوية.

ثانيًا: عجيب هو الله في حُبّه وحكمته، يستخدم عثرة اليهود لخلاص الأمم، ويستخدم خلاص الأمم لإغارة اليهود ليرجعوا إليه بالتوبة. إنه صانع خيرات، يحوّل الشرّ كما الخير لبنيان البشريّة فيه.

ثالثًا: يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[3] على العبارة: "**فأقول: ألعلّهم عثروا لكي يسقطوا؟ حاشا! بل بزلّتهم صار الخلاص للأمم لإغارتهم**" **[١١]**، قائلاً بأن الرسول أراد أن ينزع عنهم روح اليأس ويهيئهم لقبول النعمة، مظهرًا أن عثرتهم كانت بسماحٍ إلهيٍ لخلاص الأمم. كان يمكن للرسول أن

---

[1] *Of the Holy Spirit 2: Intr. (9).*
[2] *In Rom. hom 19.*
[3] *In Rom. hom 19.*

يقول بأنهم تعثّروا أو سقطوا عن الإيمان بسبب غباوتهم، بينما تحقّق خلاص الأمم بقبول الأمم للإيمان، لكن الرسول أراد أن يرفع من نفسيتهم حتى يقوموا من العثرة التي سقطوا فيها، معلنًا أنها سبب خلاص للأمم.

هذه ليست لغة الرسول وحده وإنما جاءت الأمثال في الأناجيل تقدّم ذات المعنى، ففي مَثل العُرس إذ رفض المدعوّون الحضور دُعي الذين في الشوارع والطرقات (مت ٢٢: ٩)، وفي مَثل الكرم إذ قتل الكرّامون الوارث جاء صاحب الكرم بكرامين آخرين (مت ٢١: ٣٨). وإذ قاوم اليهود بولس مناقضين ومجدّفين جاهر قائلاً لهم: "كان يجب أن تُكلّموا أنتم أولاً بكلمة الله، ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقّين للحياة الأبدية، هوذا نتوجه إلى الأمم" (أع ١٣: ٤٦). من هذا يتّضح أنه كان يجب أن تبدأ الكرازة بهم ثم تتحوّل إلى الأمم، لكنهم إذ رفضوا الإيمان تغيّر الأمر ليصير الأمم أوّلين، جاءهم يسوع فلم يقبلوه ولا اهتمّوا بأعماله وآياته، بل صلبوه، فاجتذب الأمم إليه، وصار الآخرون أوّلين، حتى إذ يقبلوا الإيمان وينالوا المواعيد يغير اليهود فيؤمنوا.

رابعًا: يُعلّق أيضًا **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على القول الرسولي: "**فإن كانت زلّتهم غنى للعالم، ونقصانهم غنى للأمم، فكم بالحري ملؤهم؟!**" **[١٢]**، قائلاً: [هنا يتكلّم ليعظمهم... لأنه إن كان بتعثّرهم تمتّع كثيرون بالخلاص، وبرفضهم صار كثيرون مدعوّين، ماذا يكون الحال برجوعهم[1]؟]

ويلاحظ في هذه العبارة الرسولية إذ يكتب برقةٍ يرفع من نفسية اليهود بعد أن فنّد حججهم معلنًا جحودهم تحت اسمين آخرين "**زلّتهم**"، "**نقصانهم**". فكلمة "**زلّة**" تحمل التعثّر الذي يمكن أن يصحبه قيام أو اشتياق للقيام، "**والنقصان**" ربّما يعني أن البعض آمن والآخر لم يؤمن بعد لهذا فهم في حالة "**نقص**" حتى يكمل الكل أو الغالبية بقبولهم للإيمان. هذا من جانب ومن جانب آخر، إذ يوجّه هذا الأصحاح للأمم يهبهم طمأنينة، إن رفض اليهود قد فتح لهم الطريق وعودتهم للإيمان لا يعني غلقه، بل بالحري اتساعه يفيض من البركات السماويّة.

أمّا قوله "**ملؤهم**"، وليس "رجوعهم"، "تغيّرهم" فكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** إنما يُشير إلى رجوع الغالبيّة العظمى منهم في أواخر الأيّام لينضمّوا للذين سبقوا أن قبلوه.

خامسًا: يقدّم لنا الرسول سببين رئيسيين في خدمته للأمم:

أ. التزامه بالعمل كرسولٍ مفرزٍ لخدمة الأمم، يشعر بثقل المسئولية الملقاة على كتفيه من قبل الله

[1] *In Rom. hom 19.*

نفسه الذي أفرز من بطن أمه وكرّسه لهذا العمل، لذا يقول: "**فإني أقول لكم أيها الأمم بما أني رسول للأمم أمجّد خدمتي**" **[١٣]**. لم يكن هذا الشعور يفارقه، مشتاقًا أن يحتضن العالم الأممي كله بين ذراعيه ليحملهم بالحب إلى الصليب، ويتمتّعوا بعمل الله الخلاصي.

ب. أمّا السبب الثاني، فهو يري في خدمته للأمم ما يثير غيرة اليهود، مشتاقًا أن يقبلوا النعمة التي قدمت لهم ورفضوها: "**لعلّي أُغير (أجعلهم في غيرة) أنسبائي وأخلص أناسًا منهم**" **[١٤]**، وقد جاءت الكلمة اليونانية التي ترجمة "**أنسبائي**" في حرفيتها "جسدي"، إذ يدعو اليهود جسده!

سادسًا: أراد أن يبرز قوّة عودة اليهود الجاحدين إلى الإيمان بالسيد المسيح، فحسب هذا العمل أشبه بالقيامة من الأموات، إذ يقول: "**لأنه إن كان رفضهم هو مصالحة العالم، فماذا يكون اقتبالهم إلا حياة من الأموات؟**" **[١٥]**، كأن الله سيتمجّد فيهم وتبتهج الكنيسة في العالم كله برجوع الجاحدين، ويتهلل الكل ليراهم كمن هم قيام من الأموات.

سابعًا: لا يتجاهل الرسول بولس الباكورة الأولى، أي رجال العهد القديم من اليهود كإبراهيم وإسحق ويعقوب والأنبياء، هؤلاء الذين يشبههم الرسول بالباكورة المقدّسة أو الأصل المقدس، إذ يقول: "**وإن كانت الباكورة مقدّسة فكذلك العجين، وإن كان الأصل مقدّسًا فكذلك الأغصان**" **[١٦]**. كأنهم سيرجعون في أواخر الدهور ليحملوا ذات التقديس الذي كان لآبائهم.

إن كان **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** قد أخذ هنا بالتفسير الحرفي للعبارة، قائلاً بأن آباء وأنبياء العهد القديم يمثّلون الباكورة المقدّسة التي لابد أن يتقدّس خلالها العجين كله، فإن **القدّيس إيريناؤس**[1] يرى في الباكورة إشارة إلى كلمة الله الذي اتّخذ لنفسه جسدًا، أي حملنا نحن العجين فيه لتقديسنا. ويقدّم لنا **القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص** نفس المعنى إذ يقول:

[إذ صرتُ بكرًا أُقدّم فيّ كل البشريّة لإلهها وأبيها.

جعل البكر الله الحقيقي إلهًا للبشريّة، والآب الصالح أبًا لها، وصارت الطوباوية مؤكّدة للطبع البشري ككل.

بواسطة البكر صار الله الحقيقي الآب أبًا وإلهًا لكل البشريّة، لأنه: "**إن كانت الباكورة مقدّسة فكذلك العجين**"

حيث يكون المسيح البكر يكون أيضًا من هم للمسيح[2]].

---

[1] *Adv. Haer. 1: 8: 4.*
[2] *Adv. Eunomius 2. 8.*

[يقدَّس العجين كله بواسطة بكره في نفسه[1]].

[ذاك الذي صار لأجلنا شريكًا لنا في الدم واللّحم يشفينا ويردّنا إلى الموضع الذي شردنا منه، وصرنا مجرّد لحم ودم بالخطيّة (عب ٢: ١٤)[2].]

لنقبل مسيحنا الباكورة القادر أن يقدس عجين حياتنا كلها، أي كمال بشريتنا، فتتحوّل نفوسنا وأجسادنا وأفكارنا وقلوبنا إلى مقدس للرب، ويُعلن ملكوت الله فينا لنقبله أيضًا بكونه الأصل الحامل للأغصان، مقدسًا إيّاها.

بمعنى آخر، السيد المسيح هو سرّ تقديسنا، نحمله فينا كباكورة، ويحملنا فيه بكونه الأصل حامل الأغصان. يختفي فينا لتقديسنا، ونُحمل به لإثمارنا، إذ يقول: "اثبتوا فيّ وأنا فيكم، كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبتوا فيَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان، الذي يثبت فيَّ، وأنا فيه، هذا يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٤-٥).

٣. الأمم زيتونة برّية

يقدّم الرسول بولس للأمم المتنصّرين تحذيرًا لئلاّ بعد ما طُعموا في شجرة الزيتون الأصليّة وحُسبوا أبناء لإبراهيم بسبب قبولهم الإيمان يسقطون في الكبرياء فينتزعون عن هذه العطية. إذ يقول:

"**فإن كان قد قُطع بعض الأغصان،**

وأنت زيتونة برّيّة طُعمت فيها فصرت شريكًا في أصل الزيتونة ودسمها،

فلا تفتخر على الأغصان.

وإن افتخرت، فأنت لست تحمل الأصل، بل الأصل إيّاك يحمل" **[١٨-١٧]**.

يلاحظ في هذا التحذير الآتي:

أولاً: يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول قال: "**قُطع بعض الأغصان**"، مع أن الغالبية قد قُطعت عن الأصل، وحُرموا من انتسابهم لإبراهيم برفضهم الإيمان، وذلك لأنه يكتب بلطف لتعزيتهم حتى لا يسقطوا في اليأس.

يشبِّه الرسول كنيسة العهد القديم بالزيتونة، ذات الأصل المقدَّس ولها دسمها الروحي، وإن كانت بعض الأغصان جاءت غير مقدّسة تستحق القطع، بينما يشبه الأمميّين بزيتونة برّية ليس فيها ثمر

---

[1] *Adv. Eunomius 4: 3.*
[2] *Adv. Eunomius 12: 1.*

ولا دسم، بالإيمان تمتعت بعض أغصانها أن تُطعم في الأصل المقدس فحُسب الأمم أبناء لإبراهيم.

ثانيًا: يسأل الرسول الأمم المتنصّرين: "**لا تفتخر على الأغصان... لا تستكبر بل خف**" **[١٨-٢٠]**.

بينما يوبخ اليهود على عدم إيمانهم: "**حسنًا، من أجل عدم الإيمان قُطعت**" **[٢٠]**، يتحدّث بحزم مع الأمم أن يثبتوا في الإيمان الذي قبلوه خلال "مخافة الرب". يطالبهم ألا يتكبّروا لئلاّ تُنتزع النعمة الإلهية عنهم بل يخافون، لا الخوف النابع عن عدم الإيمان الذي تطرده المحبّة خارجًا (١ يو ٤: ١٨)، وإنما مخافة الرب المقدّسة، إذ قيل: "أجعل مخافتي في قلوبهم، فلا يحيدون عني" (إر ٣٢: ٤٠)، "تمّموا خلاصكم بخوف ورعدة، لأن الله هو العامل فيكم" (أف ٢: ١٢-١٣).

يقول **القدّيس إيريناؤس:** [يلزمنا ألا نستكبر ولا نقسو على رجال العهد القديم، بل نخف لئلا بعدما صرنا في معرفة المسيح إذ نرتكب ما يغضب الله لا ننال غفران الخطايا بل نحرم من ملكوته[1] (رو ٣: ٢٣).]

إن كان عدو الخير غلب الكثيرين من اليهود برفض الإيمان تمامًا، فإنه لا يلقي بسلاحه أمام الذين يؤمنون، إذ يحاول تحطيمهم بالكبرياء. نوالنا نعمة الله يسندنا في الجهاد لكنه يثير العدو علينا أكثر فأكثر، لذا يليق بنا أن نحذر مجاهدين بالنعمة عينها التي ننالها.

بهذا الروح كتب **القدّيس جيروم** إلى أوستوخيوم: [أودّك أن تخرجي من نذر البتولية لا بالكبرياء بل بالمخافة. إنك تسيرين حاملة ذهبًا، تحفّظي من طريق اللص (الكبرياء)[2].]

لقد وهبنا الله نعمته الغنيّة لتعمل فينا إن تجاوبنا معها، فنحمل الثمار الروحيّة في حياتنا. وكما يقول **القدّيس جيروم:** [كرّامنا يطلب الثمار. فإن كان بالحق قد قطع الأغصان الأولى لأنها كانت عقيمة فسيعاملنا بذات الحكم إن كنّا بلا ثمر. علاوة على هذا فإن الثمر لا يخص الجسد وحده بل والنفس أيضًا، فإنه بالتأكيد إذ يخدم الجسد الرب تخدمه النفس أيضًا مع الجسد[3].

ثالثًا: إن كان الله يطلب الثمر فإن الرسول يؤكّد أن هذا الثمر يتحقّق بالثبوت في لطف الله [٢٢]، فإن كنّا بالإيمان تمتّعنا بنعمته الغنية، فبثبوتنا في هذا الإيمان المعلن خلال تجاوبنا مع نعمة الله بالحياة العاملة، ندخل بالأكثر في دائرة لطف الله. بمعنى آخر الله هو الأول في طريق حياتنا، وهو

---

[1] *Adv. Haer. 4: 24: 1.*
[2] *Ep. 22: 3.*
[3] *On Ps. hom 33.*

الذي يكمل الطريق معنا، وهو النهاية أو الغاية، لكن دون سلبيّة من جانبنا. إذ يقول: "**وأمّا اللطف فلك أن ثبت في اللطف، وإلا فأنت أيضًا ستقطع**" **[٢٢]**.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لم يقل هنا: "هوذا أعمالك الحسنة، تأمّل أتعابك"، إنما يقول: "**هوذا لطف الله**" نحو الإنسان، مظهرًا أن ما تتمتّع به، ينبع بكليته عن النعمة التي من فوق فترتعب... خف، لأن البركات لا تقطن فيك بثبات إن صرت متراخيًا، وأيضًا الشّرور لا تثبت فيك إن تغيرت، لهذا يقول: "**إن لم تستمر في الإيمان فستقطع**".]

في الوقت الذي فيه يحذّر المؤمنين لكي يثبتوا في الإيمان بتمسكهم بنعمة الله وتجاوبهم معها عمليًا حتى لا يُقطعوا، يطلب من الجاحدين ألا يثبتوا في الجحود، بل يتغيّروا بقبولهم الإيمان، إذ يقول: "**وهم إن لم يثبتوا في عدم الإيمان سيطعمون، لأن الله قادر أن يطعمهم أيضًا**" **[٢٣]**.

هنا أيضًا يؤكّد حريّة الإرادة الإنسانيّة، إذ يستطيع الإنسان أن يثبت في الإيمان أو يتركه، وأن يقبل الجحود أو يرفضه، ليس لأن الإنسان قادر على ذلك بذاته، وإنما لأن الله فاتح أحضانه باستمرار ليسند الكل، حتى في الإرادة الصالحة (أف ٢: ١٣)، دون تجاهل لحرّيته الإنسانيّة. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [ها أنت ترى عظم حريّة اختيار الإنسان وعظمة فاعلية ذهنه، فإنه ليس شيء ثابتًا لا الصلاح ولا الشرّ. ها أنت ترى كيف يرفع من نفسيّة الإنسان المحطّم، ويحط من الآخر الواثق في ذاته، فلا تخور عند سماعك عن صرامة الله، ولا تنتفخ عند سماعك عن لطفه[1].]

رابعًا: ربّما يستصعب الكثيرون عودة اليهود لقبول السيد المسيح الذي صلبوه وقاوموه حتى بعد صعوده؛ هل يمكن لليهودي أن يقبل الإيمان المسيحي ويتخلّى عن تعصّبه؟ يجيب الرسول أنه إن كان الإيمان عمل فائق للطبيعة، إذ طُعّم أغصان الزيتون البريّة في الأصل الدسم المثمر، وحُسب الأمم الذين ورثوا الرجاسات الوثنيّة أبناء لإبراهيم روحيًا، فهل يصعب عليه أن يردّ الأغصان الطبيعية إلى أصلها؟ **لأنه إن كنت أنت قد قُطعت من الزيتونة البريّة حسب الطبيعة وطُعِّمت بخلاف الطبيعة في زيتونة جيدة، فكم بالحري يُطعِم هؤلاء الذين هم حسب الطبيعة في زيتونتهم الخاصة؟**" **[٢٤]**.

٤. انتظار توبة اليهود

يعتبر الرسول بولس نفسه أنه يقدّم "**سرًا**" يكشفه [٢٥]؛ يقصد بالسرّ أمرًا إلهيًا بقي مخفيًا، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه عمل يصعب على الإنسان قبوله بحكمته البشريّة، بنود هذا السرّ هي:

---

[1] *In Rom. hom 19.*

أ. جحود إسرائيل جزئي لا كلي، إذ قبل بعض اليهود الإيمان بالسيد المسيح كالرسل وغيرهم [٢٥].

ب. ينتظر الله ملء الأمم [٢٥].

ج. ببلوغ ملء الأمم يعود إسرائيل، فيقبل الإيمان بالمسيح؛ هذا لا يعني جميع الأفراد.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذا الفصل بالعبارات التالية:

[يقصد بالسرّ هنا [٢٥] أمرًا غير معروف وغير منطوق به، ومدهش للغاية ولا يتوقعه أحد. في موضع آخر يقول: "هوذا سرّ أقوله لكم، لا نرقد كلنا ولكنّنا نتغير" (١ كو ١٥: ٥١).

ما هو السرّ إذن؟

"**أن العمى قد حصل جزئيًا لإسرائيل**". هنا يُلقي بصَفعة على اليهود، بينما يبدو كمن يحط من شأن الأمم، إذ عني الرسول تقريبًا بأن عدم الإيمان لم يكن جامعًا وإنما كان جزئيًا. ولقد قدّم إشعياء شاهدًا، هذا الذي صرخ قائلاً: "سيخرج من صهيون المنقذ، ويرد الفجور عن يعقوب" (إش ٥٩: ٢٠) "هوذا هو العهد من قبلي لهم متى نزعت خطاياهم" (إش ٢٧: ٩؛ إر ٣١: ٣١). يقول: متى نزعت خطاياهم وليس عندما يقدمون ذبائح ولا عندما يمارسون أعمال الناموس الأخرى. هذا الوعد لم يتحقّق فيهم لأنهم لم ينالوا غفران الخطايا بالمعموديّة، لذلك فسينتهي هذه الوضع. "**من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم**" **[٢٨]**، لأنه عندما دُعيتم أنتم كانوا هم مسبيّين، ومع ذلك فإن الله لا يريد أن يقطع دعوتكم بل ينتظر حتى يؤمن كل الأمم وعندئذٍ يأتي هؤلاء للإيمان.

لم يبلغ الرسول النهاية عند رفضهم إنما ستعلن لهم الرحمة ثانية[1].]

٥. خطّة الله الفائقة

يختم الرسول بولس هذا الأصحاح بذكصولوجية يُعلن فيها مجد الله من جهة أحكامه الفائقة الإدراك ومحبته الشديدة لكل البشريّة. هذه الذكصولوجية تنبع عن قلب يتطلع إلى نعمة الله وصلاحه، برجاء عجيب في خلاص العالم، إذ يقول مترنمًا:

"يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه!

ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء!

لأن من عرف الرب؟ أو من صار له مشيرًا؟

[1] *In Rom. hom 19.*

أو من سبق فأعطاه فيُكافأ؟

لأن منه وبه وله كل الأشياء، له المجد إلى الأبد؛ آمين" [٣٦-٣٣].

يتهلل الرسول بهذه التسبحة، مدركًا أن خطّة الله تفوق إدراك الخليقة، ومحبته عجيبة إذ به خُلق العالم ولأجله، يتمجّد في خليقته أبديًا!

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** معلقًا على هذه الذكصولوجية بأن الرسول وقد استعرض الأزمنة السابقة وتأمّل تدبير الله القديم الذي به يقوم العالم الحاضر، يدرك عناية الله فيُصاب برهبة، ويصرخ لكي يثق سامعوه أن ما قيل سيتحقّق. وفي رهبته الشديدة أمام أعمال الله يقدّم تشكّرات وتمجيدات لله.

الباب الثالث

الجانب العملي ص ١٢ – ص ١٥

١. المؤمن والحياة اليومية ١٢.
٢. المؤمن والوطن ١٣.
٣. المؤمن والإخوة ١٤.
٤. المؤمن والضعفاء ١٥.

الأصحاحات ١٢–١٥

الجانب العملي

عالج الرسول بولس في الأصحاحات السابقة الجوانب الإيمانية التي تمس خلاص الكل، مبرزًا أهمية الإيمان الحيّ العامل بالمحبّة على مستوى العمومية لكل الأمم والشعوب بلا محاباة؛ قدّمها لا بطريقة فلسفية جافة، إنما ممتزجة بالحياة العمليّة لتعلن "الحياة الجديدة في المسيح يسوع" كحياة إيمانية عمليّة. والآن كعادته إذ يكرس الرسول الأصحاحات الأخيرة من الرسالة للوصايا العمليّة، فإنه لا يقدّمها في عزلة عن الجانب الإيماني، بمعنى أنه لا يقدّمها كوصايا أخلاقية أو سلوكية بحتة، إنما من الزاوية الإيمانية.

بمعنى آخر إن كانت الرسالة إلى أهل رومية كما يدعوها البعض هي "إنجيل بولس"، فإن هذا السفر يقدّم الإيمان عمليًا، والوصايا إيمانية؛ يقدّم الحياة كوحدة واحدة.

الأصحاح الثاني عشر

المؤمن والحياة اليومية

إن كانت الأصحاحات السابقة تكشف عن إمكانيات النعمة في حياة المؤمن، ففي هذا الأصحاح وما يليه يحدّثنا الرسول عن ترجمة النعمة في حياتنا العمليّة، حتى لا نحرم من الثبوت في السيد المسيح والتمتّع بنعم إلهية بلا توقف، كقول الإنجيل: "**ومن ملئه نحن جميعا أخذنا نعمة فوق نعمة**" (يو ١: ١٦).

في هذا الأصحاح يحدّثنا عن:

١. تكريس الحياة كلها لله	**١.**
٢. تجديد الخارج والداخل	**٢.**
٣. التعقّل في الجهاد	**٣.**
٤. تنوّع المواهب	**٤-٨.**
٥. المحبّة الأخوية	**٩-١٠.**
٦. حرارة الروح	**١١.**
٧. الفرح في الرجاء	**١٢.**
٨. الشركة في احتياجات القدّيسين	**١٣.**
٩. مباركة المضطهدين	**١٤.**
١٠. الشركة العمليّة	**١٥.**
١١. التواضع	**١٦.**
١٢. مسالمة الجميع	**١٧-٢١.**

١. تقديم الحياة كلها لله

يفتتح الرسول بولس هذا الفصل العملي لا بتقديم وصايا تفصيليّة محدّدة، وإنما بتقديم الحياة كلها ذبيحة حب الله، معلنًا لنا عن غاية الوصيّة: ردّ الحب بالحب، وتسليم الحياة بكاملها لله، في أعماقها ومن جذورها، إذ يقول: "**فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدّموا أجسادكم ذبيحة حيّة مقدّسة مرضيّة عند الله عبادتكم العقليّة**" **[١]**.

إن كان كلمة الله المتجسّد قد قدّم لنا حُبّه عمليًا بتقديم جسده ذبيحة حب على الصليب، هكذا يليق بنا خلال اتحادنا معه أن نحمل ذات فكره، فنقدّم حبّنا لله عمليًا، بتقديم أجسادنا ذبيحة حب لله، لا بذبح الجسد بطريقة مادية، وإنما بقبول "الإماتة" من أجل الله، وكما يقول الرسول: "من أجلك نُمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح" (رو ٨: ٣٦).

يلاحظ في هذه العبارة الرسولية الآتي:

أولاً: يبدأ حديثه بحرف العطف "ف" كمقدّمة للالتماس الذي يرجوه، معلنًا أن ما يوصي به هنا هو امتداد لحديثه السابق، فلا انفصال بين حديثه الإيماني وحديثه السلوكي، إن صح هذان التعبيران، فلا سلوك حيّ خارج الإيمان، ولا حياة للإيمان الصادق بدون سلوك عملي.

ثانيًا: يسألهم أن يتطلّعوا إلى "مراحم الله" أو رأفته غير المحدودة، حتى يقدّموا أجسادهم ذبيحة. ولئلاّ يظنّوا أنه يسألهم ذبيحة ماديّة قال: "**ذبيحة حيّة**".

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:**

[إذ قال "**ذبيحة**"، فلكي يمنع كل أحد عن التفكير بأنه يطالبهم بقتل أنفسهم، أضاف: "**حيّة**". ولكي يميّزها عن الذبيحة اليهوديّة، قال: "**مقدّسة، مقبولة لدى الله، عبادتكم العقليّة**"، لأن ذبيحتهم كانت ماديّة وليست مقبولة تمامًا. يقول الله: "من طلب هذا من أيديكم؟" (إش ١: ١٢). وبعبارات متنوعة استبعدها تمامًا وبوضوح، إذ يقول: "ذابح الحمد يمجدني" (مز ٥٠: ٢٣)، "أسبح اسم الله بتسبيح، وأعظمه بحمدٍ، فيُستطاب عند الرب أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف" (مز ٦٩: ٣٠-٣١). وفي موضع آخر يزدري بها، قائلاً: "هل آكل لحم الثيران؟ أو أشرب دم التيوس"؟ (مز ٥٠: ١٤). هكذا يأمرنا بولس أيضًا أن نقدم أجسادنا "**ذبيحة حيّة**".

ربّما يُقال: كيف يصير الجسد ذبيحة؟

دعْ العين لا تنظر الشرّ، فتصير ذبيحة!

لا ينطق لسانك بدنس، فيصير ذبيحة!

لا تمارس يدك عملاً محرّمًا، فتصير مُحرقة كاملة!

لكن هذا لا يكفي، إنما يجب ممارسة الأعمال الصالحة، فتقدّم اليدّ الصدقات، ويبارك الفم من يقاومه، وليجد السمع لذته في فصول الكتاب المقدس. لأن الذبيحة لا تسمح بأمر دنس بل هي بكر الأعمال.

إذن لنقدّم لله الباكورة بأيدينا وأرجلنا وفمنا وكل أعضائنا! فمثل هذه الذبيحة مرضيّة، أمّا ذبائح اليهود فكانت غير طاهرة لذا قيل: "إنها لهم كخبز الحزن" (هو ٩: ٤). لا تكن ذبائحنا هكذا!...

شريعة هذه الذبيحة جديدة ونارها من نوع عجيب. نارها لا تحتاج إلى خشب يوضع تحتها، بل نارها حيّة فيها، لا تحرق الذبيحة بل بالأحرى تحييها. هذه هي الذبيحة التي كان الله يطلبها منذ القديم. لذلك يقول النبي: "ذبيحة الله روح منسحق" (مز ٥١: ١٧)؛ كما قال الثلاثة فتية عندما قدموها: "في ذلك الوقت لا يوجد رئيس ولا نبي ولا قائد ولا مُحرقة أو موضع لنقدّم فيه ذبيحة أمامك فنجد رحمة، لكنّنا نقدم قلبًا منسحقًا وروحًا متواضعًا فاقبلنا إليك"...

بهذا لا نحتاج إلى سكين أو مذبح أو نار، بالحري نحتاج إلى هذه كلها، لكنها ليست مصنوعة بالأيدي، إنما تأتينا من فوق. نحتاج إلى نار علويّة، وسكّين؛ هكذا مذبحنا هو اتساع السماء!

إن كان إيليا إذ قدّم ذبيحة منظورة نزلت نار من فوق التهمت كل الماء والخشب والحجارة، فكم بالأكثر يُحدّث هذا بالنسبة لك[1]!]

يحدّثنا **القدّيس جيروم** عن هذه الذبيحة التي نقدّمها لله، قائلاً: [احضر تقدماتك؛ أي نوع من التقدمات؟ تقدمات نفسك! فالبتولية هي ذبيحة مُحرقة للمسيح، وكل طهارة سواء في الحياة البتولية أو الترمّل أو العفّة (الزوجيّة) هي تقدمة ذبيحة للمسيح[2].]

ثالثًا: لماذا يقول: "قدّموا أجسادكم"؟ ولم يقل "حياتكم"؟ بلا شك أراد الرسول أن يقدّم المؤمن كل حياته ذبيحة حب لله، لكنه ركّز هنا على الجسد، لأنه الأداة التي تعبّر عمليًا عمّا في القلب والفكر دون انفصال عن النفس. هذا من جانب ومن جانب آخر أراد أن ينزع الأفكار الدخيلة من جهة احتقار الجسد واعتباره عنصر ظلمة. الله يقبل الجسد ذبيحة حيّة، إذ يراه مقدسًا له. الجسد الذي يُقدّم ذبيحة حيّة مقبولة لدى الله، بلا شك يستحق بالنعمة أن يشارك النفس في المكافأة الأبدية، فيقوم معها ليحيا أبديًا في السماء.

رابعًا: إن كان الجسد يُقدّم ذبيحة حيّة، إنما خلال "**العبادة العقليّة**"، أي العبادة التي تقوم على فكر روحي أصيل. وهي عبادة عقليّة، إذ يتفهّم المؤمن بالروح أسرارًا إلهيّة.

٢. تجديد الخارج والداخل

---

[1] *In Rom. hom 20.*
[2] *On Ps. hom 23.*

"**ولا تشاركوا هذا الدهر،**

بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم،

لتخبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضيّة الكاملة" **[٢].**

لكن نقدّم حياتنا ذبيحة حب، يلزم أن نقدّمها مقدّسة للرب، فلا تكون حياتنا على شاكلة أهل العالم الحاضر الذي يعيشون لحساب الجسد، ويطلبون الكرامات الزمنيّة، وإنما يلزم تجديد الذهن الداخلي لنحمل لا إرادتنا الذاتية، بل إرادة الله الصالحة المرضيّة الكاملة. تجديد القلب والنفس على صورة خالقنا يهبنا إرادته عاملة فينا، فتكون تصرفاتنا الخارجية أو سلوكنا الظاهر يمثّل النقاوة الداخليّة.

يقول **القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص:** [كيف تقدرون أن تُطيعوا بولس الذي يحثّكم على تقديم أعضائكم ذبيحة حيّة مقدّسة مرضيّة إن كنتم تتمثلون بهذا العالم ولا تتشكّلون بتجديد أذهانكم، عندما لا تسلكون في جدة الحياة بل تبقون سالكين في روتين الإنسان العتيق[١]؟]

في دراستنا للتجديد – في كتاب: "**الروح القدس بين الميلاد الجديد والتجديد المستمر**" ميّزنا بين التجديد الذي ننناله في مياه المعموديّة حيث يُصلب الإنسان العتيق وننعم بالإنسان الجديد الذي على صورة خالقنا يحمل قوّة القيامة فيه، وبين التجديد الذهني المستمر خلال نموّنا الدائم بنعمة الله الدائمة الحركة فينا، ترفعنا من قوّة إلى قوّة، ومن مجد إلى مجد. خلال هذا التجديد المستمر بعمل النعمة الدائم نمارس الحياة المقدّسة كذبيحة حب لله لا تتوقف. لذا يقول **الشهيد كبريانوس:** [إنكم تقدّمون هذه الذبيحة لله، وتحتفلون بها بغير توقّف، نهارًا وليلاً، إذ صرتم ذبائح الله، مظهرين أنفسكم كتقدمات مقدّسة بلا عيب[٢].]

يقارن **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** بين الذين يشاكلون هذا العالم أو يحملون هيئته أو "**شكله**" وبين الذين يتغيّرون داخليًا بتجديد أذهانهم، فيرى في الأولين أنهم يحملون شكل العالم الزائل خلال الأمور الظاهرة الوقتيّة، بينما الآخيرون يحملون الحق الأبدي في داخلهم، إذ يقول:

[شكل (هيئة) هذا العالم حقير وزهيد ووقتي، ليس فيه سموّ ولا استمرارية ولا استقامة، إنما هو فاسد تمامًا. فإن أردت السلوك باستقامة لا تشكّل نفسك حسب شاكلة هذه الحياة الحاضرة، إذ لا يوجد فيها شيء باقٍ أو مستقر. لهذا يقول "شاكلة (هذا الدهر)" وفي موضع آخر يقول: "لأن هيئة (أو شكل) هذا العالم تزول" (١ كو ٧: ٣١)...

---

[1] *On Virginity.*
[2] *Ep. 76: 3.*

إن تحدثت عن الغنى أو المجد أو جمال إنسان أو ترف أو ما يشبه ذلك من الأمور العظيمة التي تريدها تجدها "شكلاً مجرّدًا" وليست حقيقة. إنها مجرّد عرض وقناع وليست كيانًا دائمًا.

"**لا تشاكلوا هذا الدهر، بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم**"، لم يقل "بتغيير شكله" بل "تغيّروا" مظهرًا أن طرق العالم هي "شكل" أمّا طريق الفضيلة فليس شكلاً بل كيان حقيقي يحمل جمالاً طبيعيًا خاصًا به لا يحتاج إلى خداعات أو أشكال خارجية تزول...

ليس شيء أضعف من الرذيلة، ولا ما يشيخ سريعًا مثلها... هل تخطيء كل يوم؟ هل تجعل نفسك تشيخ؟ لا تيأس ولا تخر، بل تجدد بالتوبة والدموع مع الاعتراف وعمل الصلاح[1]!]

هكذا يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن من يحمل شكل العالم الحاضر يحمل طبيعته الفانية الزائلة، أمّا من يتجدد كل يوم بالتوبة فيلتقي بالحق الأبدي، عِوض الظلال الفانية، بمعنى آخر من يرتبط بالخطيّة إنما تشيخ نفسه وتهلك، ومن يرتبط بالتوبة يتجدّد مثل النسر شبابه الداخلي (مز ١٠٣: ٥)، فيحمل فيه إرادة الله الصالحة المرضيّة الكاملة.

٣. التعقّل في الجهاد

يطالبنا الرسول بولس بالحياة المقدّسة في الرب خلال الإمكانيات الجديدة التي صارت لنا بتجديد أذهاننا يسألنا ألا يرتئي أحد فوق ما ينبغي، لئلاّ يظن في نفسه أنه أفضل من غيره، فإن كان الروح يعمل فيه بطريقة فائقة، لكن لكل واحد موهبته وقياس لقامته الروحيّة، فيسلك في جهاده الروحي بروح التواضع والحكمة، بما يناسب ما يناله من نعم إلهية وعطايا.

"**فإني أقول بالنعمة المعطاة لي لكل من هو بينكم،**

ألا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي،

بل يرتئي إلى التعقّل كما قسّم الله لكل واحد مقدارًا من الإيمان" **[٣]**.

يقول **القدّيس أغسطينوس:** [حين قال يوحنا المعمدان: "لأنه ليس بكيل يعطى الله الروح" (يو ٣: ٣٤)، كان يتحدّث بنوع خاص عن ابن الله الذي لم يتقبل الروح بكيلٍ، لأن الروح يسكنه في كمال اللاهوت (كو ٢: ٩)... بكونه الابن الوحيد المساوي للآب بالطبيعة لا بالنعمة... أمّا بالنسبة للآخرين، فيُعطى الروح بكيل فائض حتى يبلغ كل واحد كمال ملئه ليس الروح هو الذي يُقسم إنما المواهب التي يمنحها الروح، إذ توجد مواهب متنوعة ولكن الروح واحد (١ كو ١٢: ٤)[2].]

---

[1] *In Rom. hom 20.*
[2] *In Ioan. tr 74: 3.*

إذن نحن ننعم بعطايا الروح، كل له موهبته وقامته لكي يمتلئ. بهذا الملء الروحي نشتاق أكثر لعمل الروح وعطاياه لنطلب أكثر فيهب، ونبقى في حالة نموّ دائم، لعلّنا نبلغ قياس مِلْء قامة المسيح. لكن شتّان بين علاقتنا نحن بالروح وعلاقة المسيح به، فنحن ننعم بالروح كهبة مجّانية وعطيّة ونعمة، أمّا المسيح فهو واحد مع الآب والروح القدس في اللاهوت.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على العبارة التي بين أيدينا (رو ١٢: ٣)، قائلاً:

[إذ قال قبلاً: "**فأطلب إليكم برأفة (مراحم) الله**" [١]، يعود هنا فيقول: "**أقول بالنعمة**". لاحظ تواضع فكر المعلِّم وروحه الخاضعة تمامًا! إنه يريد أن يقول بأنه ليس أهلاً أن يكون موضع ثقة بأي حال (من ذاته)، ليقدّم نصيحة أو مشورة، لذا يحمل معه تارة "**مراحم الله (الرأفة)**" وأخرى "**النعمة**". يودّ أن يقول: إذ أتكلم لا أنطق بكلماتي بل بكلمة من عند الله.

لا يقول: "فإني أقول بحكمة الله"، ولا "فإني أقول بالناموس المُعطى من الله"، وإنما يقول: "**بالنعمة**"، ليذكركم على الدوام بالهبات التي قُدِّمت لهم ليجعلهم أكثر خضوعًا، وليُظهر لهم إنهم لهذا السبب ملتزمون بطاعة ما يُقال هنا.

"**لكل من هو بينكم**" **[٣]**، لا أقول لهذا الشخص وحده أو ذاك، وإنما الحاكم والمحكوم، للعبد والحرّ، للأمّي والحكيم، للمرأة والرجل، للصغير والشيخ؛ لأن الشريعة عامة للكل، إذ هي شريعة الرب. بهذا يجعل لغته لا تقبل المعارضة مقدِّمًا دروسه للجميع....

لأسمع: "**لا يرتئي فوق ما ينبغي**". هنا يقدّم لنا أُم كل الأعمال الصالحة، **أي تواضع الفكر**، ممتثلاً بسيده. فعندما صعد على الجبل وأخذ يقدّم نسيجًا من الوصايا السلوكية، قدّم في المقدّمة هذا الينبوع، قائلاً: "طوبى للمساكين بالروح" (مت ٥: ٣)، هكذا أيضًا بولس إذ يعبر من الجوانب التعليمية إلى الجوانب العمليّة يحدّثنا عن الفضيلة بطريقة عامة، سائلاً إيّانا أن نقدم ذبيحة عجيبة، وإذ يودّ أن يقدّم صورة خاصة بها بدأ بتواضع الفكر كما من الرأس، مخبرًا إيّانا: "**لا يرتئي فوق ما ينبغي، بل يرتئي إلى التعقل**" **[٣]**.

إنه يعني القول: لقد تسلَّمنا حكمة، لا لنستخدمها لكبريائنا، وإنما لنكون متعقِّلي الفكر. وهو لا يقول هذا لنكون منحطّين في الفكر بل نكون متعقّلين، قاصدًا بالتعقّل هنا الفضيلة العاقلة والصحيّة في الذهن... الكلمة اليونانية للتعقّل تعني فقط حفظ التعقّل سليمًا.

إذن لكي يظهر أن الذي لا يكون متواضعًا هكذا لا يمكن أن يكون متعقلاً، أي لا يكون ذا عقل رزين صحيّ... يدعو إلى تواضع الفكر تعقُّلاً...

انظر كيف يستعرض بوضوح علّة المرض لينزعه تدريجيًا؛ فبعد ما قال أنه يجب أن نتعقل أردف قائلاً: "**كما قسَم الله لكل واحد مقدارًا من الإيمان**" **[٣]**، ليقصد هنا العطيّة بالإيمان. بقوله "**قسَم**" يلاطف من له عطيّة أقل، ويجعل من له نسيب أكبر متواضعًا، لأنه إن كان الله يقسّمها وهي ليست بجهادك الذاتي فلماذا تتكبر؟... إن كان الإيمان الذي به تتم المعجزات هو ذاته من الله فعلى أي أساس تنتفخ؟[1]

٤. تنوع المواهب

الآن إذ سألنا أن نحمل تجديدًا حقيقيًا في الداخل [٢]، فيكون لنا الفكر المتعقّل، مدركين بروح التواضع أن ما نحمله حتى من إيمان هو عطيّة إلهية، ليس لنا أن نفتخر بها كما لو كانت من عندنا أو باستحقاقنا، فعلى هذا الأساس المتين يطالبنا بالعمل والجهاد، مُعلنًا أن يضرم كل واحد موهبته حسبما وهبه الله. بمعنى آخر إن تجديدنا الداخلي وتواضع فكرنا يلهب قلبنا للعمل ليس حسب هوانا بل حسب عطيّة الله لنا التي تتكامل مع عطاياه لإخوتنا، وتتناغم معها بروح واحدة كلٌّ يعمل في مجاله بفرحٍ وبهجة قلب، فلا يحسد من يظنه أفضل منه في الموهبة ولا ينتفخ على من يظنه أقل منه فيها... فإن المواهب متنوّعة ولكن الروح واحد (١ كو ١٢: ٤)؛ هي عطيّة النعمة الإلهية، إذ يقول الرسول: "**فإنه كما في جسدٍ واحدٍ لنا أعضاء كثيرة، ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد، هكذا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح وأعضاء بعضًا لبعض، كل واحد للآخر، ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا**" **[٤-٦]**.

التشبيه الذي استخدمه الرسول هنا يرد أيضًا في رسالته إلى أهل كورنثوس (١ كو ١٢: ١٢ الخ) حيث يبرز الرسول جمال الكنيسة في وحدتها وتكامل أعضائها معًا بكونهم جسدًا واحدًا متنوع المواهب... هذا المفهوم هو علاج لكل نفس متشامخة على إخوتها!

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:**

[عظيمة هي قوّة هذا الدواء، وعظيمة هي قدرة هذا التشبيه، في علاج مرض الكبرياء. لماذا تنتفخ؟ أو لماذا يحتقر آخر نفسه؟ أليس جميعنا جسدًا واحدًا، العظيم منّا والصغير؟

إن كنّا في مجموعنا واحدًا، وأعضاءً لبعضنا البعض، فلماذا تعزل نفسك بالتشامخ؟ لماذا تهين أخاك؟ فكما هو عضو لك أنت عضو له.

[1] *In Rom. hom 20.*

لقد قرر (الرسول) أمرين يكسران الروح المتكبر: الأول إننا أعضاء بعضنا لبعض، ليس فقط الصغير عضو للكبير، وإنما الكبير أيضًا للصغير، والثاني إننا جسد واحد. بل توجد نقطة ثالثة، وهي أن العطيّة من قِبل النعمة، لذلك لا تستكبر، لأنها معطاة لك من الله...

أيضًا إذ يمس موضوع المواهب لا يقل إن أحدًا أكبر وآخر أصغر بل ماذا؟ المواهب مختلفة! كلماته هكذا "**لنا مواهب**" (**رو ١٢: ٦**) ليست أقل وأعظم بل "**مختلفة**[1]".]

الآن يقدّم لنا الرسول عينات من المواهب:

أولاً: "أنبوّة فبالنسبة إلى الإيمان" [٦].

ماذا يعني بالنبوّة؟ لا يعني مجرّد الكشف عن أحداث مقبلة في هذا العالم، إنما غاية النبي الحقيقية هي إعلان أسرار الله نحو الإنسان، لبنيان الكنيسة، وتمتع البشريّة بالأمجاد المقبلة، أي الكشف لا عن أحداث زمنية، وإنما عن "المجد الأبدي".

في العهد القديم كان عمل الأنبياء الرئيسي هو الانطلاق بشعب الله إلى ترجّي مجيء المسيّا المخلص خلال الرموز والظلال والنبوّات بطريقة أو أخرى، أمّا وقد جاء السيد المسيح صارت النبوّة في جوهرها هي الدخول بالنفوس إلى مجيئه الأخير لتنعم بشركة الميراث معه.

هذا العمل ليس بشريًا، إنما هو عطيّة الله للناطق والمستمع، لذا تحتاج إلى الإيمان في حياة الاثنين لينعما بهذه البركة الإلهية.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [وإن كانت عطيّة لكنها لا تُسكب جزافًا، إنما يتوقف قياسها حسب مستقبليها، إنها تفيض متى وَجدت أوانٍ للإيمان قدر ما تتسع[2].]

ثانيًا: "أم خدمة ففي الخدمة" [٧].

يقول **القدّيس الذهبي الفم:** [حتى الرسولية تُدعى خدمة، وكل عمل روحي هو خدمة. حقًا إن "الخدمة" هي اسم خاص بوظيفة معيّنة (أي الدياكونية)، لكنه هنا يستخدم الكلمة بمعنى شامل[3].]

يقصد الرسول كل خادم – أيًا كانت رتبته – ليعمل فيما أُوكِل إليه، أي في الخدمة، عِوَض الانشغال بأعمال الآخرين. ليكون أمينًا في خدمته أيّا كانت هذه الخدمة!

ثالثًا: "أم المعلم ففي التعليم" [٧].

---

[1] *In Rom. hom. 21.*
[2] *In Rom. hom. 21.*
[3] *In Rom. hom. 21.*

يميّز الرسول بين الرسل والأنبياء والمعلِّمين: "**وضع الله أناسًا في الكنيسة، أولاً رُسلاً، ثانيًا أنبياء، ثالثًا معلِّمين**" (١ كو ١٢: ٢٨). ربّما يختلف المعلِّمون عن الأنبياء في تخصصهم للعمل التعليمي البحت كدراسات روحية بنّاءة.

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول بدأ بمن هم أقل "الأنبياء"، ثم الأعظم "الرسل"، ثم عاد إلى الأقل "المعلِّمين" حتى ينزع كل فكر للكبرياء بسبب نوعيّة الموهبة.

رابعًا: "أمّا الوعظ ففي الوعظ " [٨].

يقوم التمييز بين الواعظ والمعلم على أساس أن الأول عمله الحثّ على التوبة، خاصة بين الجماهير. أمّا الثاني فيهتم بالفكر الدراسي الروحي. وإن كان غاية الكل هو التقاء كل نفس بالثالوث القدوس. ربّما عني بالوعظ الحديث التأملي العاطفي، أمّا التعليم فيقوم بالأكثر على دراسة موضوع معين.

خامسًا: "المعطي فبسخاء" [٨].

بعد أن استعرض المواهب الروحيّة الخاصة بالكرازة والتعليم والوعظ والعمل الرعوي صار يتحدّث عن العمل السلوكي كجزء لا يتجزأ من المواهب الروحيّة، فحين يحث المعطي أن يقدّم بسخاء، إنما يودّ أن يُعلن له أن يكون أمينًا في عطائه. يعطي بحبٍ كما بغير كيلٍ، يعطي بقلبه المتسع. وكما يقول السيد: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (أع ٢٠: ٢٥)، بمعنى إنه يعطي بفرحٍ وتهليلٍ، ولا ينتظر أجرة؛ يشعر بلذّة وبهجة روحية في عطائه أكثر مما في أخذه.

جاءت الترجمة اليونانية الحرفيّة: "المعطي فببساطة"، لأن الإنسان البسيط يهب بسخاء.

سادسًا: "المدبر فباجتهاد" [٨].

ليكن المدبر للأمور الكنسية عاملاً باجتهاد روحي وغيرة مقدّسة.

لا يفصل الرسول بين المواهب الكرازيّة والتعليميّة والرعويّة وبين الخدمات الحيّة (العطاء) أو التدبير. فالكنيسة وإن ضمت أعضاء لهم مواهب متنوعة لكنها ما دامت تقدّم بروح الإنجيل فهي متكاملة.

سابعًا: "الراحم فبسرور" [٩].

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لا يكفي أن نظهر رحمة، وإنما يليق بنا أن نقدّمها باتساع، بروح سمِحة، وليس فقط بروح سمِحة بل بروح فرحة مبتهجة... وقد ركّز على نفس النقطة بقوّة عندما

كتب إلى أهل كورنثوس ليحثّهم على الاتساع، إذ يقول: "من يزرع بالشح فبالشح أيضًا يحصد، ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضًا يحصد" (٢ كو ٩: ٦). ولكي يصحّح مزاجهم يقول: "ليس عن حزن أو اضطرار" (٢ كو ٩: ٧)... فإنك إن حزنت وأنت تصنع رحمة فأنت قاس وعنيف. إن كنت حزينًا كيف تقدر أن تسند الذين هم في حزن؟... هذا هو السبب في قوله "الراحم فبسرور"، لأنه كيف يكون حزين الملامح من يتقبّل الملكوت؟! من يبقى كئيب النظرة وهو ينال غفران خطاياه؟ إذن لا تفكّر في إنفاقك المال (عمل الرحمة) بل في الفيض الذي تناله خلال الإنفاق. فإن كان الذي يبذر يفرح مع أنه يبذر وهو غير متأكد من جهة الحصاد، كم بالأكثر من يُفْلِح السماوات؟ فإنك تعطي إنما القليل لتنال الكثير... بالفلسين حُسبت الأرملة أنها فاقت من قدّم وزنات كثيرة وذلك بسبب روحها المتسع[1].]

٥. المحبّة الأخوية

إذ حثنا الرسول على العمل، كل حسب موهبته، بروح متواضع، يسألنا أن نسلك بالحب الأخوي مترجمًا عمليًا بحب الخير للآخرين وكره الشرّ، وتقديم الآخرين في الكرامة، إذ يقول:

"**المحبّة فلتكن بلا رياء.**

كونوا كارهين الشرّ، ملتصقين بالخير.

وادّين بعضكم بعضا بالمحبّة.

مقدّمين بعضكم بعضًا في الكرامة" **[١٠-٩]**.

إن كان التواضع هو الخط الواضح في إضرام المواهب، فإن الحب هو الفكر السائد الذي يربط الكنيسة معًا في الرب كأعضاء حيّة متكاملة، تعيش معًا بروح الكمال، منسجمة معًا، تشارك بعضها البعض.

يوصينا **القدّيس باسيليوس الكبير**: [يليق بالمسيحي أن يكون هادئًا في صوته، لا يجيب أحدًا أو يتصرف مع أحد بخشونة أو باستخفاف بل في كل شيء يسلك بحلم (في ٤: ٥) مكرمًا كل أحد[2].]

حدّثنا الرسول بولس بفيض عن المحبّة (١ كو ١٣)، مبرزًا قوّتها وفاعليّتها بل وأبديّتها، ويوصينا الرسول بطرس: "لتكن محبتكم بعضكم لبعض شديدة" (١ بط ٤: ٨)، ويرى القدّيس يوحنا أن ممارسة الحب أشبه بتمتّع بالقيامة، إذ يقول: "نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة" (١ يو ٣: ١٤).

---

[1] *In Rom. hom. 21.*
[2] *Ep. 22: 2.*

المحبّة ليست عاطفة مجردة إنما هي تمتّع والتصاق بالخير خلال اتحادنا بربنا يسوع "**المحبّة**" ونفورنا من الشرّ... بهذا تتبع المحبّة من أعماق داخليّة وشركة مع الله، إذ يقول الرسول: "كل من يحب فقد وُلد من الله، ويعرف الله... لأن الله محبّة" (١ يو ٤: ٧-٨). هذا ما يعنيه الرسول بقوله: "المحبّة فلتكن بلا رياء" **[٩]**.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إن كان لك هذه (المحبّة)، فإنك لا تبالي بالخسارة المادية ولا بتعبك الشخصي، ولا بجهادك في الكلام، ومشقاتك وخدمتك بل تحتمل هذا كله بشجاعة... لكي تساعد أخاك... هذا هو الحب، إن اقتناه أحد يقتني كل شيء بعد ذلك.]

هكذا يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** إن من له الحب الذي بلا رياء يمارس الوصايا السابق ذكرها، وأيضًا يبغض الشرّ من أعماقه، إذ يصير غريبًا عن الأعمال الشرّيرة فحسب، وإنما يكون غريبًا عن مجرّد الميل إلى الشرّ؛ يدخل في عداوة وبغضة وحرب ضد الرذيلة. ولا يقف الأمر عند الجانب السلبي أي بغض الشرّ، وإنما يلتصق بالخير.

لقد أوصى الله الإنسان أن يلتصق بامرأته (تك ٢: ٢٤) ويكونا جسدًا واحدًا، هكذا يوصينا الرسول أن نلتصق بالخير، وكأنه زوجة نتّحد معها ونصير واحدًا معها.

يترجم الرسول هذه المحبّة عمليًا من جانبين: المودة الأخوية وتقديم الآخرين في الكرامة [١٠]. ويوصينا القدّيس بطرس بالمودّة النابعة عن الحياة التقوية (٢ بط ١: ٧)، ويوصينا القدّيس بولس بتكريم الآخرين: "حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم" (في ٣: ٢).

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [حينما يقول "**وادّين بعضكم بعضًا**"، يعني كونوا أصدقاء وحارّين أيضًا. لا تنتظر أن يحبك الغير، بل اقفز نحوه بنفسك ولتكن أنت المبتدئ. بهذا تحصد أجرة محبته أيضًا. أظهر السبب لماذا يلزمنا أن نحب بعضنا بعضًا واخبرنا عن الطريق الذي فيه تلتهب المودة الثابتة، إذ أردف قائلاً: **مقدّمين بعضكم بعضًا في الكرامة**" **[١٠]**. هذا هو الطريق الذي يُنتج المودّة، والذي فيه تسكن مودّة بعد إنتاجها. ليس شيء يخلق أصدقاءً مثل السعي بغيرة لتكريم الإنسان قريبه.]

٦. حرارة الروح

"غير متكاسلين في الاجتهاد،
حارين في الروح،
عابدين الرب" [١١].

إن كان الرسول بولس قد ركز أنظارنا على عطايا الله الفائقة ونعمته العاملة فينا، لنضرم مواهبه فينا بروح التواضع، ونسلك معًا بروح الحب، فإن الحياة المسيحية جهاد لا ينقطع. هي انتهاز لكل فرصة للعمل بروح الله باجتهاد لنحيا ملتهبين بالروح، عابدين الرب بقوة.

يحثنا على الجهاد، قائلاً: "**غير متكاسلين في الاجتهاد**" **[١١]**. وكما يقول الحكيم سليمان: "كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك" (جا ٩: ١٠)، "اذهب إلي النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيمًا" (أم ٦: ٦). ويوصينا القديس بطرس الرسول: "وأنتم باذلون كل اجتهاد قدموا في إيمانكم فضيلة ... لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الإخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين، لأنكم إذ فعلتم ذلك لن تزلوا أبدًا" (٢ بط ١: ٥-١٠).

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[كيف نصير "**غير متكاسلين في الاجتهاد** (في الغيرة)، **حارين في الروح**"؟... أي نكون حارين ومتيقظين... إن سكن الروح فيك يجعلك صالحًا لتحقيق تلك الأهداف، ويصير كل شيء سهلاً بالروح والحب، وتتلألأ أنت من كل جانب.

إن كان روح الله نارًا متقدة، فإننا إذ نتجاوب معه يلهب أعماقنا، ويحولنا إلى لهيبٍ متقدٍ، لا تستطيع مياه كثيرة أن تُطفئه. هذا اللهيب الروحي يعلمنا كيف نعبد الرب بالروح والحق، لذا يكمل الرسول حديثه قائلاً: "**عابدين الرب**" **[١١].]**

يحدثنا **القديس جيروم** عن الوصية الرسولية: "**حارين في الروح**"، قائلاً:

[عندما يقول الرسول: حارين في الروح، إنما يعني كونوا صادقين في الحكمة[1].]

[ليهبنا الله ألا يزحف البرود إلى قلبنا (مت ٢٤: ١٢)، فإننا لا نرتكب خطية إلا بعد أن تبرد المحبة... "**إلهنا نار آكلة** " (تث ٤: ٢٤)، فإن كان الله نارًا إنما لكي ينزع برودة الشيطان[2].]

يلهبنا هذا الروح الناري، فنعبد الرب بالروح فوق حدود الزمن والأحداث، لنعيش بالروح في حالة نصرة دائمة وأعظم من نصرة، وكما يقول **القديس البابا أثناسيوس الرسولي:**

[إن كنت تخشَ الأزمنة وتعمل بجبن فذهنك ليس ناضجًا. يليق بك أن تظهر غيرة نحو المسيح، وتواجه الظروف بشجاعة، مستخدمًا لغة الطوباوي بولس: "**في هذه جميعها نحن أكثر من غالبين**" (رو ٨: ٣٧). الأكثر هنا هو أننا نعبد الرب لا الزمن[3]. هكذا يرى **البابا أثناسيوس** في النفوس

---

[1] *Ep. 52: 4.*
[2] *On Ps. hom 57.*
[3] *Ep. 49 ad Dracontium.*

الضعيفة غير الحارة إنها عبدة الزمن لا الرب، تسلك في العبادة حسب الظروف والأحداث بروح الضعف لا الغلبة.

٧. الفرح في الرجاء

إذ يلهبنا الروح القدس فنعبد الرب فوق حدود الزمن نمتليء رجاءً بالأمور غير المنظورة فتفرح قلوبنا ويتسع قلبنا لاحتمال الضيق، ملتجئين إلى الله بالصلاة الدائمة، إذ يقول الرسول: "**فرحين في الرجاء، صابرين في الضيق، مواظبين على الصلاة**" **[١٢]**.

يقول **القديس أغسطينوس:** [لنصغ ولنبتهج في الرجاء حتى وإن كان الحاضر حياة لا تُحب وإنما تُحتمل، إذ تكون لك القوة على احتمال كل تجاربها[1].]

ويرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول في وصاياه هذه يقدم سلسلة من الإمكانيات تعين المؤمن في جهاده، إذ يعلق على هذه العبارة الرسولية، قائلاً:

[هذه الأمور كلها هي وقود لهذه النار. فعندما طلب إنفاق المال [٨] واحتمال التعب والتدبير باجتهاد [٨] والتعليم [٧] وغير ذلك من الأعمال يمدّ المصارع بالحب والروح خلال الرجاء.

ليس شيء يجعل النفس شجاعة هكذا ومحبة للمخاطرة مثل الرجاء! وقبل نوالنا الأمور التي نترجاها يقدم لنا مكافأة هي: "**صابرين في التجارب**". قبل نوالنا الأمور المقبلة تتمتع في الحياة الحاضرة بصلاح عظيم خلال التجارب إذ تصير إنسانًا صبورًا ومجرّبًا.

يقدم لنا أيضًا عونًا آخر: "**مواظبين على الصلاة**"

الحب يجعل الأمور سهلة، والروح يعين، والرجاء ينير، والتجارب تصقلك فتجعلك مجربًا قادرًا على احتمال كل شيء بشهامة، يرافق هذا كله سلاح عظيم جدًا هو الصلاة.

ها أنت تراه يقدم للمصارعة بكل طريقة قدمًا ثابتة، مظهرًا أن الوصايا تُمارس بطريقة سهلة[2].

٨. الشركة في احتياجات القديسين

إن كان "الحب" هو الخط الواضح في كل هذه الوصايا الرسولية، فأحد ملامح هذا الخط العملي هو: "**مشتركين في احتياجات القديسين، عاكفين على إضافة الغرباء**" **[١٣]**. هذا هو ثمر طبيعي للعضوية في الجسد الواحد، إذ يشارك العضو أخاه في احتياجاته. نرى ذلك واضحًا في مساهمة أهل فيلبي في احتياجات القديس بولس الذي فرح لا بالعطية في ذاتها وإنما بثمر الحب المتكاثر، إذ كتب

---

[1] *In Ioan. tr 111: 1.*
[2] *In Rom. hom 21.*

إليهم هكذا. "أرسلتم إليّ مرة ومرتين لحاجتي، ليس أني أطلب العطية، بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم... فيملأ إلهي كل احتياجاتهم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع" (في ٤: ١٦-١٩).

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:**

[لم يقل: "معطين" بل قال: "**مشتركين في احتياجات القديسين**" مظهرًا أنهم ينالون أكثر مما يهبون، فإن الأمر هو تجارة، إذ هي "شركة".

هل قدمت لهم مالاً ؟ هم يقدمونك شهمًا أمام الله.

"**عاكفين على إضافة الغرباء**". لم يقل "مضيفين للغرباء" بل "**عاكفين**" عليها، ليعلمنا ألا ننتظر أن يسألوننا، لا يأتون هم بل نحن نجري إليهم لنعكف حتى نجدهم. هكذا فعل لوط، وأيضًا إبراهيم. فقد قضى إبراهيم كل يومه منتظرًا ضحية صالحة، وإذ رآها أسرع إليها وجرى للالتقاء بهم وسجد أمامهم إلى الأرض، وقال: "يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك" (تك ١٨: ٣). ليس كما نفعل نحن عندما نرى غريبًا أو فقيرًا نقطب جبيننا ولا نود حتى الحديث معه. وبعد آلاف التوسلات نلين فنأمر الخادم أن يعطيه شيئًا تافهًا، ظانين أننا قمنا بواجبنا [1].

أرسل **القديس كبريانوس**[2] **يشكر أساقفة نوميديا** *Numidia* لأنهم سمحوا له أن تشترك كنيسته من إخوة وأخوات وزملاء في المساهمة بدفع مبلغ إليهم لتحرير الإخوة الذين أسرهم البرارة. هكذا كانت عادة الكنيسة الأولى إنها تشعر بفرحٍ شديدٍ حين يُسمح لها بمثل هذه الشركة في خدمة القديسين.

٩. مباركة المضطهدين

"**باركوا على الذين يضطهدونكم،**

باركوا ولا تلعنوا" **[١٤]**.

جاء الوصية الإلهية تأمرنا أن نبارك الذين يضطهدوننا (مت ٥: ٤٤؛ لو ٦: ٢٨). فإننا إذ كنا نستحق اللعنة، حملها السيد المسيح عنا على الصليب، ليهبنا بركته عاملة فينا، يليق بنا أن نرد له هذا العمل في خليقته التي يحبها فنحب الذين يضطهدوننا، مباركين إياهم... لقد صارت حياتنا بالمسيح تحمل بركته، فكيف نستطيع أن نلعن أحدًا ؟ لذلك يقول معلمنا يعقوب الرسول: "من الفم الواحد تخرج بركة ولعنة؛ ألعل ينبوعًا ينبع من نفس عين واحدة العذب والمرّ؟" (يع ٣: ١٠-١١).

---

[1] *In Rom. hom. 21.*
[2] *Ep. 59.*

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [لم يقل: لا تكن شتامًا ولا منتقمًا، وإنما سألنا ما هو أفضل: "باركوا على الذين يضطهدونكم"... فإن إنسانًا يعمل بحكمة هكذا، يمارس عمل الملائكة. بعد قوله "باركوا" قال "**لا تلعنوا**" لئلا نمارس الاثنين معًا. الذين يضطهدوننا يمدوننا بمكافأة لحسابنا. فإن كنت متعقلاً فلتضف إلى المكافأة مكافأة أخرى تقدمها لنفسك. هو يهبك الاضطهاد، هب لنفسك مباركتك للآخرين، بهذا تقتني علامة عظيمة جدًا لمحبة المسيح. فمن يلعن مضطهده يظهر أنه لا يُسر باحتمال الآلام من أجل المسيح، هكذا من يبارك يظهر عظمة حبه للمسيح[1].]

١٠. الشركة العملية

"**فرحًا مع الفرحين وبكاءً مع الباكين**" **[١٥].**

لا تقوم هذه الشركة على فكر اجتماعي بحت أو مجاملات ظاهرية، وإنما عن شركة الأعضاء التي تشعر ببعضها البعض.

ربما يسهل على الإنسان أن يحزن مع الحزين ويئن مع أناته، لكن يصعب جدًا أن يفرح مع فرح أخيه، هذا يتطلب نفسًا سامية، فلا يحسد أخاه على نجاحه، بل يفرح معه، حاسبًا كل نجاح لأخيه هو نجاح لنفسه. يقول الرسول: "فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه، وإن كان عضو يكرم فجميع الأعضاء تفرح معه، وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفرادًا" (١ كو ١٢: ٢٦-٢٧).

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [ليس شيء يثبت الحب بقوة مثل المشاركة في الفرح والألم. ليس لأنك بعيد عن المتاعب تنعزل عن مشاركة الآخرين أيضا. فعندما يتعب قريبك احسب الضيق خاصًا بك. شاركه دموعه لكي تسند روحه المنسحقة، وشاركه فرحه ليصير الفرح فيه عميقًا متأصلاً؛ ثبتّ المحبة إذ بهذا تخدم نفسك أكثر من خدمتك له. فبدموعك تصير أنت رحومًا، وبمشاعر البهجة تنقي نفسك من الحسد والغم... إن كنت لا تستطيع أن تنزع عنه الشرور شاركه بدموعك، فتزيل عنه نصف الشر؛ وإن كنت لا تستطيع أن تزيد خيراته فشاركه فرحه فتضيف إليه أمرًا عظيمًا[2].]

١١. التواضع

"**مهتمين بعضكم لبعض اهتمامًا واحدًا،**

غير مهتمين بالأمور العالية،

بل منقادين إلى المتضعين؛

---

[1] *In Rom. hom 22.*

[2] *In Rom. hom. 22.*

لا تكونوا حكماء عند أنفسكم" [١٦].

يحثنا على المحبة التي "لا تطلب ما لنفسها" (١ كو ١٣: ٥) ، بل ما هو للغير (في ٢: ٤) كأنه لنفسها. هذا هو الحب الذي به يحب الإنسان قريبه كنفسه، مهتما اهتمامًا واحدًا، غير مميز بين ما هو لنفسه وما هو لغيره.

بهذا الروح لا يهتم المؤمن بالأمور العالية، أي بغنى هذا العالم وأمجاده وكرامته، ولا بمعاشرة الأغنياء والعظماء لأجل غناهم وكرامتهم، بل ينقاد إلى النفوس المتواضعة وإلى الفقراء، حاملاً فكر المسيح، كقول الرسول: "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد" (في ٢: ٥–٧). وقد عاش السيد المسيح منقادًا إلى المتواضعين، إذ قيل: "أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء في الإيمان ورثة الملكوت؟" (يع ٢: ٥).

لنقبل فكر المسيح هذا ولا نسلك بالحكمة البشرية المتعجرفة: "**لا تكونوا حكماء عند أنفسكم**" **[١٦]**، وكما جاء في سفر الأمثال: "أرأيت رجلاً حكيمًا في عيني نفسه؟ الرجاء بالجاهل أكثر من الرجاء به" (أم ٢٦: ١٢)، لأن الجاهل قد يدرك جهله فيقبل المشورة، أما الحكيم في عيني نفسه فيعيش متصلفًا لا يقبل مشورة الله ولا نصح الكنيسة.

يعلق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذه الوصايا الرسولية، قائلاً:

[مرة أخرى يركز على تواضع الفكر، الأمر الذي سبق فحث به، إذ كانت الاحتمالات قائمة لأن يمتلئوا تشامخًا إما بسبب مدينتهم (كعاصمة الدول الرومانية) أو لأسباب أخرى متنوعة... ليس شيء يسبب انشقاقات في الكنائس مثل (المجد) الباطل.

ماذا يعني بقوله: "**مهتمين لبعضكم البعض اهتمامًا واحدًا**" **[١٦]؟** هل دخل فقير إلى بيتك؟ تشبه به في سلوكك؛ لا تضع أشياء فاخرة للمباهاة بغناك. ليس غني ولا فقير في المسيح. لا تخجل من الفقير بسبب ملابسه الخارجية بل اقبله من أجل إيمانه الداخلي. إن رأيته في حزن فلا تمتنع عن مواساته، وإن رأيته فرحًا فلا تخزه بل شاركه فرحه... احمل في ذهنك ماله كما لك أنت، إذ قيل: "مهتمين بعضكم لبعض اهتمامًا واحدًا". كمثال إن كنت تحسب نفسك إنسانًا عظيمًا فاحسبه هو أيضا كذلك...

"**غير مهتمين بالأمور العالية بل منقادين إلى المتضعين**" **[١٦]**، بمعنى انزل إلى تواضعهم وشاركهم، سر معهم؛ لا تتواضع فقط من جهة الفكر، وإنما كن معينًا وابسط يدك إليهم، ليس كمن هم

آخرون بل كأنهم شخصك أنت، كما يهتم الأب بطفله، والرأس بالجسد. وكما يقول في موضع آخر: "كأنكم مقيدون معهم" (عب ١٣: ٣)...

"**لا تكونوا حكماء عند أنفسكم**" **[١٦]**. لا تظنوا أنكم تستطيعون العمل بذواتكم يقول الكتاب في موضع آخر: "ويل للحكماء في أعين أنفسهم، والفهماء عند ذواتهم" (إش ٥: ٢١)... ليس شيء ينفخ البشر ويجعلهم يحسبون أنفسهم مختلفين عن غيرهم من البشر مثل ظنهم أنهم قادرون أن يعملوا بذواتهم. لذلك وضعنا الله في مكان فيه يحتاج كل للآخر؛ فإن كنت حكيمًا تشعر أنك محتاج للآخر، أما إن حسبت نفسك في غير احتياج إلى الغير فأنت أكثر الناس غباءً وضعفًا... لا تحسب نفسك أنك تنحط باحتياجك للغير، بل هذا بالأكثر يمجدك، ويجعلك أقوى، وأكثر بهاءً، وفي أمان أعظم[1].]

١٢. مسالمة الجميع

"**لا تجازوا أحدًا عن شرّ بشرّ، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس.**
إن كان ممكنًا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس.
لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب.
لأنه مكتوب: لي النقمة أنا أجازي يقول الرب.
فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه،
لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه.
لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير" **[١٧-٢١]**

سبق لنا الحديث عن هذه الوصايا في دراستنا للإنجيل بحسب متى (ص ٥)، لذا أكتفي هنا بإبراز النقاط التالية:

أولاً: يعتني الإنسان المسيحي بأمور حسنة قدام جميع الناس، يهتم بالشهادة لله محب البشر، فلا يجد مجالاً لرد شر الآخرين بالشر... لا يتلائم هذا مع غايته ولا مع طبيعته الجديدة التي تمتع بها.

ثانيًا: يقول "**إن كان ممكنًا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس**"، إذ يليق بنا بذل كل الجهد لنكسب كل نفس بالحب والسلام، لكن هناك أوضاع يستحيل فيها ذلك مثل مقاومة الهراطقة للإيمان، إذ يستحيل أحيانا مسالمتهم لأنهم يخدعون البسطاء إلى الجحود أو الإيمان المنحرف إن تسللوا إلى الكنيسة، أو إنكار أحد الزوجين الإيمان (١ كو ٧: ١٥).

[1] *In Rom. hom. 22.*

ليتنا نبذل كل الجهد أن نسالم إن أمكن كل البشرية فننعم بسلام أورشليم السماوية فينا، وكما يقول **القديس جيروم:** [من كان ليس في سلام مع أخيه فهو خارج تخوم أورشليم[1].]

ثالثًا: ماذا يعني بقوله: "**لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب**" **[١٩]؟** إن كان يقصد به غضب الإنسان، فيعني أن نحتمل غضبه بالصبر، ونقابل ثورته بالحب كقول السيد المسيح: "لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا" (مت ٥: ٣٩).

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** إنه يقصد "غضب الله"، بمعنى ألا ينتقم الإنسان لنفسه تاركًا الأمر لله نفسه مدافعًا عنه، إذ يقول: [اتركه لله، ولتهتم أنت بأخطائك.]

يقدم لنا **القديس أمبروسيوس** أبانا يعقوب كمثل حيّ للهروب من وجه أخيه عند غضبه، إذ يقول: [تمثل بالأب (إسحق) الذي بمشورة الأم (رفقة) جعلته يهرب بعيدًا من هي هذه الأم؟ إنها "رفقة" التي هي "الصبر"...

لقد أحبت الأم ابنها لكنها فضلت أن يُحرم منها عن أن يحرم من الله (فأشارت عليه بالهروب من الغضب[2]).]

[تعلّم مشورة الصبر، مفضلاً أن يهرب ليعيش في أرض غريبة عن أن يثير غضب أخيه، ولم يرجع حتى شعر أن أخاه قد هدأ. بهذا وجد نعمة عظيمة لدى الله[3].]

رابعًا: ماذا يعني "**تجمع جمر نار على رأسه**"؟ هل نقدم الطعام للعدو الجائع والماء للظمآن بقصد إغاظته؟

رأينا في دراستنا لإنجيل متى (٥: ٤٤) أن الوصية بعيدة كل البعد عن هذا المفهوم، إنما تعني جمر نار روح الله الذي ينقي العدو بالتوبة حتى يدرك حبك مقابل عداوته.

❖ إنها تعني أنك تنقي عدوك من الخطية، لأن صبرك يغلب مشورته.

❖ بمعنى آخر، إنك تشفيه من رذائله بحرق حقده لترده بالتوبة.

❖ حتى الناموس يعلمنا أن نحب العدو، فإن سقط حيوان العدو يلزمنا أن نرفعه، ويخبرنا الرسول: "**فإن جاع عدوك فاطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه**"، لا

---

[1] On Ps. hom 57.
[2] Ep. 63: 100.
[3] Duties of Clergy 1: 21 (91).

بطريق اللعنة والإدانة كما يظن غالبية الناس وإنما بتهذيبه وجذبه إلى التوبة، فيغلبه الحنو، ويذوب بدفء الحب، فلا يصير بعد عدوًا[1].

القديس جيروم

خامسًا: يوصينا الرسول: "**لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير**" **[٢١]**، فإن كان الشر يجعل الإنسان ضعيفًا فلا تقابل الضعيف بالضعف، إنما قابله باتساع القلب في نضوج الحب. وكما يقول **الأب يوسف:** [بلطفنا نقهر غضبهم... الإنسان الضعيف لا يقدر أن يعين الضعيف، ولا من يعاني أمرًا يقدر أن يشفي عليلاً مثله. أما من كان غير خاضع للضعف، فهذا يستطيع أن يقدم علاجًا للضعيف[2].]

[1] On Ps. hom 22, 41; adv. pelag. 1: 30 (See st. Aug: On Christian Doctrine 3: 16).
[2] Cassian: Conf. 16: 22, 23.

الأصحاح الثالث عشر

المؤمن والوطن

سبق فتحدّث الرسول عن المسيحي والحياة اليومية (ص ١٢) مظهرًا كيف يليق به أن يترجم إيمانه عمليًا في كل حياته، سواء في عبادته لله أو تقديس جسده بالروح القدس، أو في علاقته بالمؤمنين كأعضاء معه في الجسد الواحد ثم مع جميع الناس حتى مضطهديه، مقدّمًا بنعمة الله شهادة حيّة لمسيحه محب البشر. الآن يحدّثنا الرسول عن مركزه كمواطن حيّ يشعر بالتزاماته نحو وطنه بروح التواضع والاحترام. فإن كان المؤمن يدرك أن قلبه قد انطلق نحو السماء ليجد له فيها وطنًا أبديًا، فهذا يزيده التزامًا بالخضوع والحب ليشهد للوطن السماوي خلال سلوكه العملي.

١. الخضوع للسلاطين ١–٥.

٢. أمانته نحو الوطن ٦–٧.

٣. التزامه بحب القريب ٨–١٠.

٤. استعدادنا للوطن السماوي ١١–١٤.

١. الخضوع للسلاطين

"لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة،
لأنه ليس سلطان إلا من الله،
والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله،
حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله،
والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة" [١–٢].

بلا شك كانت علاقة اليهود بالحكام غير الإسرائيليين تمثل مشكلة، إذ تمسكوا بحرفيّة الوصيّة الموسويّة: "إنك تجعل عليك ملكًا الذي يختاره الرب إلهك، من وسط إخوتك تجعل عليك ملكًا، لا يحل لك أن تجعل رجلاً أجنبيًا ليس هو أخاك" (تث ١٧: ١٥). لقد أساء اليهود فهم هذه العبارة، فكانوا يقاومون السلطات أينما وجدوا، وكانوا مثيري شغب في روما، حتى اضطر الإمبراطور كلوديوس قيصر إلى طردهم من روما (أع ١٨: ٢) حوالي عام ٤٩م.

لقد ارتبطت العقيدة الدينية في ذهن اليهودي بالسياسة، فحسبوا أن المسيّا المخلص قادم لإنقاذهم من السلطة الرومانية وبسط نفوذهم على مستوى العالم، الأمر الذي دفعهم إلى صلب ربنا يسوع المسيح، إذ لم يجدوا فيه سؤل قلبهم. أمّا المسيحي فكمؤمنٍ حقيقيٍ يدرك أن السماء هي دائرة اهتمامه الداخلي، كقول الرسول: "فإن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله، اهتمّوا بما فوق لا بما على الأرض" (كو ٣: ١-٢). هكذا ينسحب قلبه إلى السماويات، مدركًا أن حياته كلها في يديّ الله ضابط الكل. ولا يطمع المسيحي كمؤمنٍ في مراكز زمنية، ولا يرتبط إيمانه بالسياسة، إذ يرى في كنيسته ليست مؤسسة زمنية، وإنما "حياة سماوية"، لا تدخل في السياسة، وإنما تقبل الكل بروح التواضع والخضوع والحب في الله.

كتب الرسول بولس: "**لتخضع كل نفس للسلاطين، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله**" **[١]**، ذلك في الوقت الذي كان فيه نيرون يضطهد الكنيسة بكل عنفٍ. إذ كان يؤمن إن نيرون أيضًا . بالرغم من شرّه . قد أقيم بسماح إلهي لخير الكنيسة، وليس عمل الكنيسة أن تقاومه لا في الظاهر ولا بالقلب، إنما ترد مقاومته بالحب والخضوع في الأمور الزمنيّة مادامت لا تمس إيمانها بالله.

جاء في سفر الأمثال: "بي تملك الملوك، وتقضي العظماء عدلاً، بي تترأس الرؤساء والشرفاء، كل قضاة الأرض" (أم ٨: ١٥-١٦)، "قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء أن يميله" (أم ٢١: ١)، لهذا لا تكف الكنيسة عن أن تصلي من أجل الرئيس أو الملك ومشيريه ورجاله لكي يعطيهم الرب سلامًا وحكمة.

يحدّثنا **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** عن خضوع الكنيسة للحكام، قائلاً: [إن كان يليق بنا أن نجازي الذين يضرّوننا بالخير، فكم بالأحرى يليق بنا أن نطيع من هم نافعون لنا؟... لقد أظهر (الرسول) أن هذه التعليمات تشمل الكل كالكهنة والرهبان وليس فقط الذين يمارسون أعمالاً عالمية... إذ يقول: "**لتخضع كل نفسٍ للسلاطين الفائقة**" **[١]**. فإن كنتَ رسولاً أو إنجيليًا أو نبيًا، أو أيًا كنت فلتعلم أن هذا ليس مدمّرًا للدين[1].]

يفسر لنا **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** هذه العبارة موضحًا إننا نلتزم بالخضوع للرؤساء والحكام، لأن هذا التدبير هو من الله، لا بمعنى كل ملك أو مسئول أقيم من عند الله، وإنما التدبير ذاته هو من الله، إذ يقول: [ماذا تقول؟ هل كل حاكم اختاره الله؟ نجيب: لست أقول هذا، فإنني لا أتحدث عن

[1] *In Rom. hom 23.*

أفراد، وإنما عن المركز نفسه، إذ يجب أن يوجد حكام ومحكومين، حتى لا تسير كل الأمور في ارتباك، فيصير الناس كالأمواج يتخبطون من هنا وهناك، هذا ما أقول عنه إنه حكمة الله. لذلك لم يقل: "لأنه ليس حاكم إلا من الله" وإنما يقول: "**ليس سلطان إلا من الله**". وذلك كما يقول الحكيم: "زواج الرجل بامرأة من عند الرب" (أم ١٩: ١٤ الترجمة السبعينية)، بمعنى أن الله أوجد الزواج لكن هذا لا يعني أنه هو الذي يأتي بكل رجل يتزوج بامرأة. فإننا نرى كثيرين يتزوّجون للشرّ تحت شريعة الزواج، هذا لا ننسبه لله.]

يكمل **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** مظهرًا أن الخضوع هنا ليس لأجل منفعة زمنية، وإنما من أجل الله نفسه. فالخضوع هنا لا يعني ضعفًا بل "طاعة في الرب"، لذا يليق بالمؤمن في خضوعه أن يخاف لا من الناس وإنما من الشرّ: "**فإن الحكام ليس خوفًا للأعمال الصالحة بل الشرّيرة. أفتريد أن لا تخاف السلطان؟ افعل الصلاح فيكون لك مدح منه، لأنه خادم الله للصلاح، ولكن إن فعلت الشرّ فخف، لأنه لا يحمل السيف عبثًا إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشرّ. لذلك يلزم أن يُخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضًا بسبب الضمير**" **[٥-٣]**.

هكذا يرفعنا الرسول من الخضوع عن خوف أو للتملق إلى الخضوع عن ضمير داخلي حق، فيكون خضوعنا للسلاطين نابعًا عن أعماقنا الداخليّة، ممارسين الخير والصلاح، وممتنعين عن الشرّ من أجل الضمير الداخلي. هكذا يلتقي خضوعنا للسلطان بتقديسنا الداخلي.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على العبارة الرسولية السابقة، قائلاً: [انظروا كيف يجعل منهم أصدقاء للحاكم، مظهرًا أنه يمتدحهم من عرشه، فلا مجال للغضب... ليس الحاكم هو السبب في الخوف، وإنما شرّنا!]

٢. أمانته نحو الوطن

في خضوعنا للسلطان نمارس وصية إنجيلية كجزءٍ لا يتجزأ من حياتنا الروحيّة. هذا الخضوع لا يكون بالفم أو اللسان، وإنما بالعمل الجاد، بإيفاء الوطن حقّه علينا، فبسرور نقدم الالتزامات، إذ يقول الرسول: "**فإنكم لأجل هذا توفون الجزيّة أيضًا، إذ هم خدّام الله مواظبون على ذلك بعينه؛ فأعطوا الجميع حقوقهم، الجزيّة لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، الخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام**" **[٧-٦]**.

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الرسول قد حوّل ما يراه الكثيرون ثقلاً إلى راحة، فإن كان الشخص ملتزم بدفع الجزية إنما هذا لصالحه، لأن الحكام "هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه"،

يسهرون مجاهدين من أجل سلام البلد من الأعداء، ومن أجل مقاومة الأشرار كاللصوص والقتلة. فحياتهم مملوءة أتعابًا وسهر. بينما تدفع أنت الجزية لتعيش في سلام يُحرم منه الحكام أنفسهم. هذا ما دفع الرسول بولس أن يوصينا لا بالخضوع للحكام فحسب وإنما بالصلاة من أجلهم لكي نقضي حياة هادئة مطمئنة (١ تي ٢: ١-٢).

هذا وإن كلمة "أعطوا" هنا في الأصل اليوناني تعني "ردّوا"، فما نقدمه من جزية أو تكريم للحكام ليس هبة منّا، وإنما هو إيفاء لدين علينا، هم يسهرون ويجاهدون ليستريح الكل في طمأنينة.

سبق لنا الحديث بإفاضة عن الوصيّة الإلهية: "**أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله**" في تفسيرنا (مت ٢٢: ٢١؛ ١ بط ٢: ١٣، ١٧).

هذا والجزية هنا يقصد بها ما يأخذه الحاكم على النفوس والعقارات، أمّا الجباية فيأخذها على التجارة.

٣. التزامه بحب القريب.

التزامنا نحو الوطن لا يقف عند الخضوع للسلاطين ودفع التزاماتنا الماديّة كالضرائب، وإنما يمتد أيضًا لحب كل إنسانٍ، إذ يقول الرسول: "**لا تكونوا مديونين لأحد بشيءٍ إلا بأن يحب بعضكم بعضًا، لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس**" **[٨]**.

لا يستريح المؤمن مادام عليه دين، فيبذل كل الجهد أن يفي دين الآخرين عليه، ولعلّه يقصد هنا أنه يليق بالشعب أن يفوا الحكام الدين، لأن الآخرين يبذلون كل الجهد لأجل سلام الشعب.

على أي الأحوال يليق بنا أن نفي كل إنسان دينه، إنما نبقى نشعر بدين الحب نحو الكل من أجل الله الذي أحبّنا، فنعيش كل حياتنا نرد حب الله لنا بحبّنا للناس. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** عن إيفاء دين الحب [يريدنا أن نبقى على الدوام نفي الدين، ولا ينتهي.] يسألنا **القدّيس أغسطينوس** أن نطلب من الله الحب حتى نقدر أن نفي الدين[1].

بهذا الفكر لا نمارس "الحب" وحده، إنما نكمل الناموس كله، "**لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس**" **[٨]**. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [مرة أخرى نناقش الأعمال الصالحة، المنتجة لكل فضيلة... إنك مدين لأخيك بالحب، لأننا أعضاء لبعضنا البعض؛ فإن تركنا الحب تمزّق الجسد إلى أشلاء. إذن فلتحب أخاك، فإن كنت بصداقتك له تقتني إتمام الناموس كله فأنت مدين له بالحب بكونك تنتفع به.]

[1] *In Ioan. tr 57: 1.*

يوضّح الرسول ذلك بقوله: "**لأن لا تزن، لا تقتل، لا تشهد بالزور، لا تشتهِ، وإن كانت وصية أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة: أن تحب قريبك كنفسك**" **[٩]**.

إذ يمتلئ القلب حبًا حقيقيًا، إنما يمتلئ بالله نفسه الذي يشبع القلب والنفس والعواطف والأحاسيس، فلا يحتاج الإنسان إلى ملذات العالم وإغراءاته ولا شهوات الجسد ولا خداعات الخطيّة لتملأ حياته. الحب مشبع للكيان الإنساني، ومبهج للحياة!

بالحب أيضًا نلتقي مع السيد المسيح محب البشر، فتصير الوصايا الإنجيليّة هي ناموس حياتنا الداخليّة، عندئذٍ يكمل فينا الناموس بكونه وصايا سهلة وهينة.

يكمل الرسول حديثه، قائلاً: "**المحبّة لا تصنع شرًا للقريب، فالمحبّة هي تكميل الناموس**" **[١٠]**.

المحبّة وهي أم كل فضيلة، ترفع الإنسان في أعماقه فوق كل شرّ، ليحيا بالروح مكملاً الناموس.

❖ حيث يوجد الحب، ماذا نحتاج بعد؟... وحيث لا يوجد الحب، فأي شيء يمكن أن يكون نافعا؟ فإن الشيطان يؤمن (يع ٢: ١٩)، لكنه لا يحب، لكن ليس أحد يحب ما لم يؤمن[١].

القدّيس أغسطينوس

❖ المحبّة هي تكميل الناموس، مثل المسيح (الذي أكمل الناموس)... بالحب تكمل الوصايا: لا تزن، لا تشته امرأة قريبك، تلك الخطايا التي مُنعت قبلا بالخوف[٢].

القدّيس إكليمنضس السكندري

❖ الحب هو بداية الفضيلة ونهايتها، الحب هو جذورها وأساسها وقمّتها. إن كان الحب هو البداية والتكميل، فماذا يعادله؟[٣]

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

٤. استعدادنا للوطن السماوي

إن كان يليق بنا أن نكون أمناء بالنسبة لوطننا الأرضي فنخضع للسلاطين، ونقدم لهم الكرامة عمليًا بالحياة الفاضلة، ونحب جميع إخوتنا كأنفسنا، فإن هذا الالتزام ينبع عن أعماقنا الملتهبة بحب الوطن السماوي، وشوقنا الدائم للاستعداد للانطلاق إليه.

هذا وإنكم عارفون إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم،

---

[1] *In Ioan. tr 83: 3.*
[2] *Strom. 4: 19.*
[3] *In Rom hom 23.*

فإن خلاصنا الآن أقرب ممّا كان حين آمنّا" [١١].

لنكن أمناء ومحبّين للكل، لأن أيّامنا على الأرض مقصّرة، هي مجرّد "**ساعة**"، وكأنها ساعة نوم نستيقظ لنجد أنفسنا مع الله وجهًا لوجه في ملكوته السماوي أبديًا.

يشعر الرسول أن كل يوم ينقضي إنما يدخل به إلى الأبدية، مقتربًا من نهاية حياته الزمنيّة لينعم بشهوة قلبه. كأنه يترقب خروجه من العالم يومًا وراء يومٍ، وساعة بعد ساعةٍ! هذه هي إحساسات الكنيسة الأولى، إذ نسمع: "الوقت منذ الآن مقصّر" (١ كو ٧: ٢٩)؛ "نهاية كل شيءٍ قد اقتربت" (١ بط ٤: ٧)؛ "هي الساعة الأخيرة" (١ يو ٢: ١٨).

❖ لقد اقتربت القيامة، اقتربت الدينونة الرهيبة، اقترب اليوم الذي يحرق كأتون. لذلك وجب علينا أن نتحرّر من تغافلنا... أنظر كيف يضع القيامة قريبة جدًا منهم، فالأيّام تتقدّم لينتهي زمان حياتنا الحاضرة، والحياة العتيدة تقترب... فإنه لا يليق أن يكونوا في بداية سعيهم غير ملتهبين غيرة، وقد بلغ شوقهم كمال شدته، ليفتروا في غيرتهم مع مرور الزمن... إنما يجب أن يحدث العكس ألاَ يتراخوا بعامل الزمن، وإنما أن يزدادوا قوّة أكثر فأكثر. فكلما اقترب مجيء الملك يلزم بالأكثر أن يستعدّوا؛ كلما اقتربت المكافأة بالأكثر يصحون في صراعهم، كما يحدث في المباريات حيث يزداد حماس المتسابقين كلما اقتربت نهاية المباراة[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

"قد تناهي الليل وتقارب النهار،
فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور،
لنسلك بلياقة كما في النهار،
لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر،
ولا بالخصام والحسد،
بل البسوا الرب يسوع،
ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات" [١٤-١٢].

يرى القدّيس بولس أن ليل الحياة الحاضرة يتناهى، لكي يقترب نهار الأبدية التي بلا ليل، لذا لاق بنا أن نتهيأ لهذا النهار فنحمل فينا السيد المسيح "شمس البرّ"، نلبسه فيحطِّم فينا كل أعمال الظلمة، مشرقًا علينا بأعماله المقدّسة كأسلحة نور.

[1] *In Rom hom 24.*

يشبِّه **البابا غريغوريوس (الكبير)** الرسول بولس هنا بالديك الذي يعطي صوتًا جميلاً لنستيقظ عند انتهاء الظلمة، وحلول النهار في الفجر[1].

❖ لنمارس حياتنا هنا الآن بنفس الطريقة التي سنحياها في النهار، أي في العالم العتيد[2].

القدّيس جيروم

❖ إن كانت الظلمة قد رحلت عن صدرك، إن كان الليل قد تبدّد من هناك، إن كان الظلام قد طُرد، إن كان بهاء النهار قد أنار حواسك، إن كنت قد بدأت أن تكون إنسان النور، فلتمارس أعمال المسيح، لأن المسيح هو النور والنهار[3].

القدّيس كبريانوس

❖ يليق بنا أن نترك الأعمال نفسها تصرخ عاليًا، إذ تجعلنا نسير في النهار، إذ تضيء أعمالك (مت ٥: ٦)[4].

القدّيس إكليمنضس السكندري

❖ **"بل البسوا الرب يسوع المسيح" [١٤].**

نلبسه عندما نحب الفضيلة ونبغض الشرّ؛ عندما ندرّب أنفسنا على العفّة ونميت شهوتنا؛ عندما نحب البرّ لا الإثم؛ عندما نكرم القناعة ويكون العقل راسخًا؛ عندما لا ننسى الفقير بل نفتح أبوابنا لجميع البشر، عندما نقبل تواضع الفكر وننبذ الكبرياء[5].

القدّيس البابا أثناسيوس الرسولي

❖ **"قد تناهى الليل وتقارب النهار" [١٢]**

إذ أوشك هذا (الليل) على النهاية واقترب اليوم الأخير يلزمنا أن نمارس الأعمال التي تخص الأخير لا الأول...

---

[1] *Pastoral Rule 3: 39.*
[2] *On Ps. hom 46.*
[3] *On Jealous y& Envy 10.*
[4] *Strom. 4: 26.*
[5] *Pasch. Ep. 4: 3.*

إذ يرحل الليل تمامًا يسرع كل منّا نحو الآخر، قائلاً: لقد حلّ النهار، فنمارس أعمال النهار، كأن نلبس، تاركين أحلامنا ونومنا ليجدنا النهار مستعدين... هكذا فلنخلع عنّا تخيلاتنا، ولنترك أحلام هذه الحياة الحاضرة، ولننزع عنّا النوم العميق ونلتحف بثياب الفضيلة...

يقول: "**فلنخلع أعمال الظلمة، ونلبس أسلحة النور**" **[١٢]**. نعم لأن النهار يدعونا أن نلبس الأسلحة ونحارب (روحيًا). لا تخف عند سماعك الأسلحة، لأن العدّة المنظورة ثقيلة وارتداءها مضني، أمّا الأسلحة هنا فمرغوب فيها، يستحق أن نصلي لنوالها، لأنها أسلحة من نور! إنها تجعلك أكثر بهاءً من أشعة الشمس، وتهبك بريقًا عظيمًا، وتقدّم لك أمانًا... إنها أسلحة النور!

"**لنسلك بلياقة كما في النهار**" **[١٣]**... لم يقل: "اسلكوا"، بل قال "**لنسلك**" ليجعل حثه بعيدًا عن التعقيد وتوبيخه لطيفًا!...

"**بل البسوا الرب يسوع المسيح**" **[١٤]**... لا يحدثهم عن أعمال معيّنة وإنما يثير فيهم أمورًا أعظم، لأنه حينما تحدّث عن الرذيلة أشار إلى أعمالها، أمّا وهو يتحدّث عن الفضيلة فلا يُشير إلى أعمالها بل إلى أسلحتها، ليظهر أن الفضيلة تجعل صاحبها في آمان كامل وبهاء عظيم... إنه يقدّم الرب نفسه كثوب الملك نفسه، من يلتحف به تكون له الفضيلة مطلقًا[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

[1] *In Rom. hom 24.*

الأصحاح الرابع عشر

المؤمن والإخوة

الكنيسة مستشفى لعلاج كل مريض وليست محكمة لإدانة الناس، لذا يليق بالمسيحي أن يترفّق بأخيه الضعيف في الإيمان ليسنده بروح الحب لا الإدانة، حتى يسير الكل في طريق الخلاص، وينعم الكل بالشركة مع الله.

١. قبول الضعيف بلا ازدراء **١–٩.**

٢. عدم إدانة الإخوة **١٠–١٣.**

٣. ملكوت الله وعثرة الضعفاء **١٤–٢٣.**

١. قبول الضعيف بلا ازدراء

نود قبل استعراض حديث الرسول بولس أن نفهم ماذا يقصد بالأخ الضعيف.

أ. يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] إن الرسول بولس يعالج هنا مشكلة قامت بين اليهود المتنصّرين وبعضهم البعض. إذ خشي البعض لئلاّ في أكلهم اللحوم يأكلون لحم خنزير وهم لا يدرون فيكونوا كاسرين للناموس، وإذ كان ضميرهم متشككًا تظاهروا بالصوم والتقشّف، فامتنعوا عن أكل اللحوم بالكلية، بينما آخرون أدركوا إنهم في المسيح يسوع نالوا الحرّية من هذه الطقوس الحرفيّة، فصاروا يأكلون اللحوم أيّا كانت، ودخلوا في صراع فكري ومناقشات مع إخوتهم المتظاهرين بالصوم، وهم في الحقيقة ضعيفي الإيمان. في حكمة لم يرد الرسول أن يدخل في هذا الصراع وإنما حسب أن أمر الأكل أتفه من أن يشغل فكر المسيحيين ووقتهم، فصار مقاومًا لا لفكر هؤلاء ولا أولئك وإنما يقاوم الصراع ذاته القائم بين الفريقين.

بحكمة أيضًا ظهر الرسول كمن ينتهر الأقوياء الذين لا تتشكّك ضمائرهم من جهة أنواع اللحوم، لازدرائهم بإخوتهم الضعفاء الذين يتشكّكون من أجل أحكام الشريعة الموسويّة التي عاشوا تحت سلطانها زمانًا قبل الإيمان المسيحي ويصعب عليهم التخلص منها. لكنه في انتهاره هذا لم يعْرج عن الحق، إذ كشف بلطفٍ عن ضعف الضعفاء وتشكّكهم، مقدمًا لهم العلاج بطريقة غير مباشرة، بدعوتهم "**ضعفاء**" مظهرًا أنهم فاقِدو الصحة ومحتاجون أن يستندوا على الروح ليصيروا أقوياء.

---

[1] *In Rom. hom 25.*

ب. يرى البعض إنهم مجموعة من المتنصّرين من الفرقة اليهوديّة التي تسمى بالأسينيّة، وكانوا يميلون إلى قهر الجسد بنسكٍ شديدٍ، وقد أشار إليهم الرسول بولس في كو ٢: ١٦–٢٣. هذا ويقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس في حديثه عن يهود روما، أن بعضهم امتنع عن أكل اللحوم تمامًا خشية أن يتدنّسوا بما هو نجس منه.

ج. يرى البعض إن هؤلاء الإخوة هم الذين حرّموا أكل اللحم وشرب الخمر اللذيّن قُدِّما في الهياكل الوثنيّة أولاً ثم عُرضا في السوق (١ كو ٩: ٤–١٣).

على أي الأحوال فإن ما ورد في هذا الأصحاح هو دستور حيّ للمعاملات بين الإخوة في الكنيسة المتفاوتي القامة الروحيّة، يكشف عن التزام الكل بترك المناقشات الغبيّة في الصغائر، والاهتمام بما هو لبنيان الكل بروح الحب الخالي من كل ازدراء أو إدانة.

ومن هو ضعيف في الإيمان فاقبلوه لا لمحاكمة الأفكار؛

واحد يؤمن أن يأكل كل شيء وأمّا الضعيف فيأكل بقولاً،

لا يزدرِ من يأكل بمن لا يأكل،

ولا يدن من لا يأكل من يأكل، لأن الله قبله" [١–٣].

يلاحظ في هذا النص الرسولي وما يليه في هذا الشأن [١–٩] الآتي:

أولاً: إن كان أحد في ضعف إيمانه متشكّكًا من جهة أكل اللحوم التي يحسبها الناموس نجاسة، فهو وإن كان ضعيفًا لكنه مقبول لدى الله، فلا يليق رفضه. تقبله الكنيسة دون أن تحطِّمه بمناقشات تحطِّم حياته.

ثانيًا: يقول الرسول "**لا يزدرِ**" القوي بالضعيف. قد يوجّهه أو يحثّه على ما هو أفضل، لكن دون تشكيكه في أمر خلاصه، ودون الاستخفاف به. والعجيب إن الرسول بولس وهو يمثل الإنسان القوي الإيمان من جهة عدم تشكّكه، ساميًا فوق الأعمال الناموسيّة الحرفيّة، خضع لهذه الأعمال ليس من أجل ضميره هو وإنما من أجل ضعفاء الإيمان حتى لا يعثروا بسببه. إذ يقول: "فإني إذ كنت حرًا من الجميع، استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس... صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حالٍ قومًا" (١ كو ٩: ١٩–٢٢).

يحدّثنا **الأب يوسف** في نفس الأمر، قائلاً: [بالتأكيد لم يكن مفيدًا أن يختتن تيموثاوس، ولا أن

يحلق (الرسول) رأسه، ولا أن يتبع التطهيرات اليهوديّة، ولا أن يسير عاري القدمين، ولا أن يدفع النذور حسب الشريعة، إنما فعل هذا لأنه يطلب لا ما لنفسه بل ما هو للكثيرين[1].]

ثالثًا: يقول الرسول: "**لا يدن من لا يأكل من يأكل**"، فإن الضعفاء في الإيمان الذين تشكّكوا من جهة الأطعمة المحرمة ناموسيًا صاروا يدينون اليهود المتنصّرين، الذين لم يعودوا يخضعون لهذه التشريعات حرفيًا، وحسبوا أنهم نهمون. هكذا صار الضعيف ديّانًا للقوي عِوض مراجعته لنفسه فيما يتصرف.

رابعًا: يرى **القدّيس أمبروسيوس**[2] أن المؤمن الذي يحيا لا في بتولية الجسد بل يتزوج يكون كمن يأكل بقولاً؛ فلا يليق بالبتول أن يزدري بالمتزوج، ولا المتزوج أن يدِن البتول، لأن الله يقبل هذا وذاك إن سلكا بروح الإيمان المملوء حبًا.

يتحدّث **القدّيس إكليمنضس السكندري** عن الطعام في حياة المؤمن مظهرًا إنه يليق بنا ألا نهتم بالأطعمة الشهيّة حتى في إضافتنا للغرباء، إذ يقول: [الطعام الحق هو تقديم الشكر. فمن يقدّم التشكّرات لا يشغل وقته بالملذّات. إن أردنا أن نحث أحد ضيوفنا على الفضيلة فلنحجم عن تقديم الأطباق الشهيّة، فنظهر مثلاً بهيًا للفضيلة، إذ نعلن حبنا له في المسيح[3].]

خامسًا: يكمل الرسول حديثه: "**من أنت الذي تدين عبد غيرك؟! هو لمولاه يثبت أو يسقط، ولكنه سيثبت لأن الله قادر أن يثبّته**" **[٤]**. هنا يوجّه الحديث للشخص الضعيف الذي يدين أخاه لأنه يأكل متهمًا إيّاه بالنهم، حاسبًا في تصرفاته أنه إنسان ساقط، فيضع نفسه موضع مولاه ليحكم على الآخرين، بينما يهتم المولى نفسه ليثبّت المؤمنين.

بقوله "**هو لمولاه يثبت أو يسقط**" يعني أن ثبوت الإنسان في الإيمان يحسبه المولي مكسبًا له، وسقوطه يحسبه خسارة، فالأمر خاص بالله نفسه الذي هو سيّد الكل، الذي يشتاق أن يربح لنفسه كل إنسان.

ليتنا ندرك هذا فندرك مدى شوق الله لثبوتنا فيه، وثبوت إخوتنا العبيد معنا فيه. هو المهتم الأول عن خلاص الكل، إن صح هذا التعبير!

سادسًا: "**واحد يعتبر يومًا دون يوم وآخر يعتبر كل يوم، فليتيقّن كل واحد في عقله**" **[٥]**.

---

[1] *Cassian: Conf. 17: 20.*
[2] *Conc. Virgins 1: 6.*
[3] *Paedagogus. 2: 1.*

ماذا يقصد الرسول باليوم هنا؟ يرى البعض إنه يطبّق ذات المبدأ الخاص بالأطعمة المحلّلة والأطعمة المحرّمة حسب الشريعة اليهوديّة على الأعياد اليهوديّة والمواسم حسب الشريعة، هل يحفظها اليهود كأيام مقدّسة أم يرون كل الأيام مقدّسة؟ هذا ويرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** إنه يلمح على الأصوام اليهوديّة. على أي الأحوال نجده هنا يطالب كل مؤمن "**أن يتيقّن كل واحد في عقله**"، بمعنى أن يحكّم عقله وضميره في هذا الأمر.

يتساءل **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** عن السبب لماذا يتحدّث الرسول مع أهل رومية بهذا الأسلوب، فيعطي لكل واحدٍ الحرّية في الحكم في هذا الأمر، مع أنه يشدّد جدًا في إيضاح الحق في رسائل أخرى مؤكدًا عدم الالتزام بالأعياد والمواسم اليهوديّة، إذ يقول: "انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل، حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم وليس حسب المسيح... فلا يحكم عليكم أحد في أكلٍ أو شربٍ أو من جهة عيدٍ أو هلالٍ أو سبتٍ" (كو ٢: ٨، ١٦)؟ ويجيب بأن كنيسة روما قد وصلتها رسالة الإيمان مؤخرًا ولم يكن المؤمنون هناك قادرون على البت في هذه الأمور، فأراد الرسول ألا يحدث انشقاقات بسبب حفظ الأعياد اليهوديّة والشرائع الموسويّة أو الامتناع عنها. ويمكننا أن نضيف بأن الرسول أراد أن ينتظروا حتى مجيئه ليكشف لهم أسرار الإيمان المسيحي، فيرتفع بالكل فوق هذه الشرّائع الموسويّة، لا كأمر رسولي يلزم طاعته بلا فهم، وإنما كفكر إنجيلي رسولي يتذوّقونه ويدركوه خلال حديثه معهم فمًا لفمٍ.

هذا ولعلّ الفارق بين حديثه هنا وحديثه في الرسالة إلى أهل كولوسي، أن الرسول هنا يكتب بخصوص الشعب البسيط الذي قد بدأ طريق الإيمان، أمّا في حديثه إلى أهل كولوسي فهو يحذّر من المعلّمين المنشقّين الذين يبثّون فكر التهوّد عن عمد وبقوّة، فيسبّبون بلبلة فكريّة على نطاق واسع. يوجد فارق بين مؤمن يتشكّك ضميره لأنه عاش زمانه القديم يمارس أعمال الناموس الحرفيّة وبين معلّمٍ يتحدّث عن عمد ويكرز بالعودة إلى الحياة الناموسيّة في حرفيّتها كفكرٍ تلتزم به الكنيسة.

هذا ونحن لا نريد الدخول هنا في الحديث عن التدبير الكنسي من جهة الأعياد الكنسية والأصوام بفكر إنجيلي، واختلافه تمامًا عن الفكر الناموسي الحرفي. الأمر الذي أتركه للحديث عنه في تفسير الرسالة إلى أهل كولوسي إن شاء الرب وعشنا.

نعود إلى حديث الرسول بولس هنا لنراه يودّ أن يرفع المؤمنين في هذه الكنيسة الناشئة عن الصراع في أمر الأعمال الناموسية الحرفيّة، ليهتم الكل، لا بهذه الأمور وإنما بالشكر لله. يقول الرسول: "**الذي يهتم باليوم للرب يهتم، والذي لا يهتم باليوم فللرب لا يهتم، والذي يأكل فللرب يأكل لأنه يشكر الله،**

والذي لا يأكل فللرب لا يأكل ويشكر الله" [٦]. هكذا يظهر الرسول صدق نيّة الكل سواء الذي في ضعف لا يقدر أن يتخلّى عن التزامه بأعمال الناموس، كحفظ الأعياد والأصوام اليهوديّة أو الذي تحرّر عن هذا الحرف، لذا لاق بالكل أن يشكر الله عِوض الدخول في مجادلات.

تكشف هذه العبارة أيضًا عن عادة المسيحيّين منذ العصر الرسولي، وهو تقديم صلاة شكر لله عند تناولهم الطعام.

سابعًا: في حكمة عجيبة سحب الرسول الطرفين من النقاش في هذا الأمر ليكشف لهما أن أمور الكل تشغل الله نفسه الذي اقتنانا بالدم الكريم، فيحسبنا خاصته، فإن عشنا له بالإيمان حُسِب ذلك ربحًا إلهيًا، وإن متنا بفقدان الإيمان حُسِب خسارة. يقول الرسول: "**لأن ليس أحد منّا يعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته، لأننا إن عشنا فللرب نعيش، وإن مُتنا فللرب نموت. فإن عشنا وإن مُتنا فللرب نحن. لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش، لكي يسود على الأحياء والأموات" [٧–٩].**

يقول: **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [بهذا جعل الأمر أكثر وضوحًا. كيف يمكن لمن يعيش لأجل الناموس (مستعبدًا لحرفيّته) أن يعيش للمسيح؟... إننا لسنا أحرارًا بل لنا سيّد يريدنا أن نحيا ولا يشاء لنا الموت، فإن هذه الأمور تخصّه هو أكثر منّا. بقوله هذا يظهر أن الله مهتم بنا أكثر من اهتمامنا نحن بأنفسنا، فيحسب حياتنا ربحًا له وموتنا خسارة. نحن لا نموت لأنفسنا وحدنا بل لسيّدنا. هنا يقصد الموت عن الإيمان. على أي الأحوال هذا يكفي لإقناعنا أنه مهتم بنا، أننا نعيش له ونموت له. لم يكتف الرسول بذلك وإنما يردف، قائلاً: "**فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن**" عابرًا بنا إلى الموت الجسدي... مقدّمًا إشارة عظيمة عن اهتمامه بنا[1].]

يكمّل **القدّيس يوحنا ذهبي الفم** تعليقه قائلاً بأن الله كسيّد مهتم بخلاصنا. لا يحتقر عبيده، مقدمًا حُبّه لهم لا بالمال وإنما بحياته، إذ صار هو نفسه خلاصنا. قدّم دمه فِدْية كثمن عظيم، مظهرًا قوّته غير المنطوق بها... فكيف نتركه بعد هذا كله لنرتدّ إلى أعمال الناموس الحرفيّة؟

لقد مات وقام لكي يهبنا الحياة، فنحسب أنفسنا مدينين له بحياتنا، سواء في وجودنا هنا في هذا الزمان الحاضر أو انتقالنا منه. يقول الرسول: "**وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام**" (٢ كو ٥: ١٥).

٢. عدم إدانة الإخوة

[1] *In Rom. hom 25.*

إن كان الرب قد قدّم دمه الثمين سرّ خلاصنا، به نحيا ونتشدّد في جهادنا، فقد صرنا بكليّتنا في ملكيته. بهذا المفهوم لا يليق بنا إلا أن نسلِّم كل أحاسيسنا ومشاعرنا لذاك الذي افتدانا عِوض الانشغال بإدانة الآخرين، الذين هم أيضًا ليسوا ملك أنفسهم، بل ذاك الذي فدى الكل.

إدانتنا لإخوتنا تفسد حياتنا وتسيء إلى إلهنا كما إلى إخوتنا. فمن جهة تفسد أعماقنا، إذ تحمل ازدراء بالإخوة عِوض اتساع القلب لهم، وتسيء إلى الله بكونه هو الديّان الذي يخضع الكل له، مقدمًا حسابًا عن نفسه وأخيرًا تعثر الآخرين. هذا ما أعلنه الرسول بقوله:

"**وأمّا أنت، فلماذا تدين أخاك؟**

أو أنت أيضًا لماذا تزدري بأخيك؟

لأننا جميعًا سنقف أمام كرسي المسيح،

لأنه مكتوب: أنا حيّ يقول الرب إنه لي ستجثو كل ركبة وكل لسان سيحمد الله.

فإذًا كل واحدٍ منّا سيعطي عن نفسه حسابًا لله.

فلا نحاكم أيضًا بعضنا بعضًا،

بل بالحري أحكموا بهذا أن لا يوضع للأخ مصدمة أو معثرة" [١٠-١٣].

إنه يسأل الأخ الضعيف الذي يتشكّك ضميره بخصوص الطقوس اليهوديّة الحرفيّة ألاّ يدين أخاه القوي الذي ارتفع فوق حرفيّة الناموس، كما سأل الأخير ألا يستخف بالأول. فلا ينحصر كل منهما في تصرفات الآخر، بل يتطلّع الكل إلى ذاك الذي يدين الجميع، والذي يخضع له كل حيّ (إش ٤٥: ٢٣).

هنا يقتبس الرسول ما ورد في إشعياء عن الله (٤٥: ٢٣) لينسبه للسيد المسيح بكونه الله الكلمة الديّان.

٣. ملكوت الله وعثرة الضعفاء

ينقلنا الرسول بولس من الانشغال بإدانة الآخرين أو الاستخفاف بالإخوة إلى الوقوف أمام كرسي الله، لا لنشعر بمهابة ذلك اليوم فحسب، وإنما لكي ترتفع أفكارنا على الدوام إلى "ملكوت الله" الذي يلزم أن ننعم به جميعًا. خلال هذا الملكوت نهتم بأمر واحد هو شركتنا جميعًا مع الله في المسيح يسوع بروحه القدوس.

يقول الرسول: "**إني عالم ومتيقّن في الرب يسوع أن ليس شيء نجسًا بذاته، إلا من يحسب شيئًا نجسًا فله هو نجس" [١٤].** هنا يقدّم الرسول تصريحًا واضحًا من قِبل ربنا يسوع إن كل شيء

هو طاهر للطاهرين، ويصير نجسًا للنجسين. خليقة الله طاهرة، إن أكلناها بدون تشكّك تُحسب طاهرة، لكن إن تشككنا بسبب الناموس الذي ميّز بين أطعمة محلّلة وأخري نجسة كرموزٍ وقتيّة تحقّقت في الأصل وتلاشت عندئذ تصير الأطعمة نجسة، وأيضًا إن تشكّكنا إنها قُدمت للأوثان كذبائح تصير نجسة لا لسبب إلا لتشكّك ضميرنا. هذا ما أكده الرسول لأهل كورنثوس: "كل الأشياء تحلّ لي، لكن ليس كل الأشياء توافق... كل ما يباع في الملحمة كلوه غير فاحصين عن شيء من أجل الضمير، لأن للرب الأرض وملؤها؛ وإن كان أحد من غير المؤمنين يدعوكم وتريدون أن تذهبوا فكل ما يقدّم لكم كلوا منه غير فاحصين من أجل الضمير، ولكن إن قال لكم أحد هذا مذبوح لوثنٍ فلا تأكلوا من أجل ذاك الذي أعلمكم والضمير... أقول الضمير، ليس ضميرك أنت بل ضمير الآخر" (١ كو ١٠: ٢٣-٢٩).

إذن ليس شيء في خليقة الله نجسًا، لهذا فإن الكنيسة في أصوامها تؤكد أنها لا تمتنع عن الأطعمة بكونها نجسة وإلا حسب ذلك بدعة وانحراف عن الحق (١ تي ٤: ٣-٤)، إنما يكون الصوم لأجل قمع الجسد وتدبيره حسنًا تحت قيادة الروح القدس[1].

حقًا إن كل شيء طاهر، لكن الذي يفسده هو روح الإنسان الذي يتشكّك في استخدام الأشياء الصالحة بطبيعتها كأشياء دنسة، فتصير بالنسبة له هكذا. أمّا القوي وإن كان لا يتشكّك بضميره القوي لكنه من أجل المحبّة، حتى لا يهلك أخوه الذي مات المسيح عنه يمتنع عن هذه الأطعمة، كما يوصينا الرسول: "**فإن كان أخوك بسبب طعامك يحزن، فلست تسلك بعد حسب المحبّة؛ لا تهلك بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله**" **[١٥]**. في موضع آخر يقول الرسول: "الطعام لا يقدّمنا إلى الله، لأننا إن أكلنا لا نزيد، وإن لم نأكل لا ننقص، ولكن انظروا لئلاّ يصير سلطانكم هذا معثرة للضعفاء. إن كان طعام يعثر أخي فلن آكل لحمًا إلى الأبد لئلاّ أُعثر أخي" (١ كو ٨: ٨-١٣).

وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**: [احتفاظ الإنسان بالطعام (دون تشكّك) ليس بالأمر الأهم من حزن أخيك. انظر كيف يركّز (الرسول) على المحبّة، ذلك لأنه يعلم أن المحبّة تفعل كل شيء... أمَا تقدّر أخاك، فتقتني خلاصه بامتناعك عن الأطعمة؟ فإن المسيح لم يمتنع عن أن يصير عبدًا، بل وأن يموت من أجله، أما أنت فلا تستخف بالطعام من أجل خلاصه... إنه لم يمت من أجل الضعيف فقط وإنما من أجل العدوّ أيضًا، أفلا تمتنع عن الطعام من أجل الضعيف؟ قدّم المسيح ما هو أعظم ألا تقدّم ما هو أقل؟[2]]

---

[1] *Cassian: Conf. 21: 13.*
[2] *In Rom. hom 26.*

"فلا يُفتر على خلاصكم،

لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشربًا،

بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس" [١٧].

إن كان أمر خلاص أخيك يشغل كل كيانك لا تنشغل بأمر الأطعمة، بل من أجله أترك الطعام الذي يعثره حتى لا تعطى فرصة أيضًا للغير أن يفتروا على صلاح فكرك (عدم التعثر بالأطعمة)... بمعنى آخر حتى وإن كنت من جهة الصلاح لا تتشكّك في الأطعمة، لكن بعثرتك للضعيف يتعثّر الآخرون فيك، لأن نفس أخيك أثمن من طعامك أو عدمه.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** بأنه عندما يصارع المؤمن ويتماحك بسبب الأطعمة، فبهذا النزاع يسبّب انشقاقًا في الكنيسة بانتهار الإخوة الممتنعين عن الأطعمة، فينطق الذين في الخارج بالشرّ على الكنيسة وعلى صلاحك، الذي هو المحبّة والوحدة بين الإخوة والسلام واللطف الخ.

إذن لنشهد ملكوت الله لا بانقسامنا في أمور ثانوية، كالطعام وإنما باتحادنا برباط الحب الحقيقي وتجلّي ثمار الروح فينا الذي هو البرّ والسلام والفرح.

❖ أفضل شيء أن نقتني ملكوت الله... بمجتمع المحبّة المقدّسة، الكنيسة السماويّة؛ فإن المحبّة هي أمر نقي يؤهل لله، عملها الشرّكة[1].

القدّيس إكليمنضس السكندري

❖ إن كان ملكوت الله داخلنا (لو ١٧: ٢١)، وهو برّ وسلام وفرح (رو ١٤: ١٧)، فإن من يتمّم هذه يكون في ملكوت الله. وعلى العكس من يعيش في الشرّ والنزاع والحزن الذي للموت يكون في ملكوت الشيطان وفي الجحيم والموت. بهذا يتميز ملكوت الله عن ملكوت الشيطان.

❖ لا يتحدّث الرسول عن الفرح بغير تمييز... بل يوضّح مؤكدًا نوعه أنه "**في الروح القدس**" (رو ١٤: ٧)، إذ يعرف تمامًا الفرح الممقوت الذي نسمع عنه: "العالم يفرح" (يو ١٦: ٢٠)، "ويل لكم أيها الضاحكون لأنكم ستحزنون وتبكون" (لو ٦: ٢٥)[2].

الأب موسى

ما هو ملكوت الله الذي يتحدّث عنه الرسول هنا؟

---

[1] *Paedagogus. 2: 1;*
[2] *Cassian: Conf. 1: 13.*

❖ يليق بنا بالحق أن ننظر إلى ملكوت السماوات من جوانب ثلاثة:

إما أنه ما سيملكه القدّيسون حين تخضع لهم الأمور، كما قيل: "فليكن لك سلطان على عشر مدن... ولكن أنت على خمس مدن" (لو ١٩: ١٧، ١٩). وما قيل للتلاميذ: "وتجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (مت ١٩: ٢٨).

أو يعني أن السماوات يملكها السيد المسيح، حيث: كل الأشياء "تخضع له"، ويكون الله "الكل في الكل" (١ كو ١٥: ٢٨).

أو أن القدّيسين سيملكون مع الله في السماوات[1].

الأب موسى

لنهتم بملكوت الله – أي يملك فينا، أو نملك نحن به – فوق كل اعتبار، لكي بهذا نُحسب مرضيّين عند الله، مزكّين عند الناس "لأن من خدم المسيح في هذه (البرّ والسلام والفرح في الروح القدس) فهو مرضيّ عند الله ومُزكّى عند الناس" **[١٨]**.

أخيرًا يختم حديثه مطالبًا بالعمل الإيجابي البنّاء لكل نفس، قائلاً:

"**فلنعكف إذًا على ما هو للسلام، وما هو للبنيان بعضنا لبعض.**

لا تنقض لأجل الطعام عمل الله.

كل الأشياء طاهرة، لكنه شرّ للإنسان الذي يأكل بعثرة.

حسن أن لا تأكل لحمًا ولا تشرب خمرًا

ولا شيئًا يصطدم به أخوك أو يعثر أو يضعف.

ألك إيمان؟ فليكن لك بنفسك أمام الله.

طوبى لمن لا يدين نفسه فيما يستحسنه.

وأمّا الذي يرتاب فإن أكَل يُدان، لأن ذلك ليس من الإيمان،

وكل ما ليس من الإيمان فهو خطيّة" **[١٩–٢٣]**.

إذن لتكن غايتنا هو حفظ سلام الكنيسة ووحدتها بعيدًا عن الانشقاقات. فإنه ليس بنيان للكنيسة وتثبيت لعمل الله بدون السلام والمحبّة الأخوية.

[1] *Cassian: Conf. 1: 13.*

الأصحاح الخامس عشر

المؤمن والضعفاء

"سرّ المسيح" عند الرسول بولس هو انفتاح باب الإيمان للعالم كله، لتتمتّع جميع الشعوب بخلاص المسيح المجّاني. وقد جاءت هذه الرسالة في مجملها تُعلن هذا السرّ، فتتحدث عن عمومية الخلاص. والآن يقدّم لنا الرسول هذا الأصحاح العملي متناغمًا مع فكر الرسالة كلها، ألا وهو التزام الكنيسة ككل وكل عضو فيها بانفتاح القلب نحو خلاص الجميع، محتملين الضعفاء، مهتمّين بالأمم أيًا كان ماضيهم، يسندون الرسول بصلواتهم ليحقّق في حياته وكرازته إعلان هذا السرّ، بالرغم من مقاومة بعض اليهود المتعصبين له:

١. احتمال الضعفاء	**١-٧.**
٢. اتساع القلب للأمم	**٨-١٣.**
٣. مساندته في خدمة الأمم	**١٤-٢١.**
٤. شوقه لخدمتهم في روما	**٢٢-٢٤.**
٥. فهمه لعطاء الأمم	**٢٥-٢٨.**
٦. جهادهم معه بالصلوات	**٢٩-٣٠.**
٧. مقاومة غير المؤمنين له	**٣١-٣٢.**
٨. خاتمة	**٣٣.**

١. احتمال الضعفاء

"فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء
ولا نرضي أنفسنا،
فليُرضِ كل واحدٍ منَّا قريبه للخير لأجل البنيان،
لأن المسيح أيضًا لم يرضِ نفسه،
بل كما هو مكتوب تعييرات معيّريك وقعت عليَّ" [١-٣].

هذا هو "سرّ المسيح" أن كلمة الله أعلن قوته بنزوله إلينا يحمل ضعفنا لكي يرفعنا إلى كمال قوّته وبهائه ومجده؛ فالمؤمن إذ يحمل فيه "سرّ المسيح" أو فكره إنما يُدرك القوّة الحقيقية باحتماله بالحب

ضعفات الضعفاء، مهتمًا بخير قريبه لأجل بنيانه، ولا يطلب ما هو لذاته. هذا العمل ليس من عنده، إنما هو عمل المسيح الساكن فيه، والذي يشتاق إلى خلاص الكل.

ويلاحظ في هذه الوصيّة الرسولية تجاه الضعفاء الآتي:

أولاً: يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [انظر كيف يثير اهتمامهم بمديحه لهم لا بدعوتهم أقوياء فحسب وإنما بضمهم إليه كأقوياء... "**فيجب علينا نحن الأقوياء**"[1]]

هذا هو منهج الرسول بولس في كل كرازته وفي كل رسائله، قبل أن يوصي ويشجّع، وقبل أن يكشف الجراحات يُعلن الأمور الصالحة والفاضلة فيهم؛ فعِوض أن يوبّخهم هنا لأنهم يحتقرون الضعفاء ويستخفّون بالأمم، يُعلن لهم أنهم بالمسيح أقوياء فيُلزمهم أن يمارسوا عمل المسيح، الفاتح أحضانه لكل ضعيف وكل أممي بالحب لا بالإدانة!

هذا وحديث الرسول يُعلن أن في الكنيسة يوجد على الدوام أقوياء وأيضًا ضعفاء، وكما يقول **القدّيس أغسطينوس:** [لا توجد الكنيسة بدونهما[2]]. إذ يحتمل الأقوياء الضعفاء، فيتزكّون على عظيم محبتهم، ويمتثّل الضعفاء بالأقوياء دون حسدٍ فينمون على الدوام.

ثانيًا: بقوله "**لأن المسيح لم يُرضِ نفسه، بل كما هو مكتوب: تعييرات معيّريك وقعت عليّ**" يودّ أن يُعلن لهم بطريقة غير مباشرة، إنهم إن كانوا أقوياء، إنما لأن السيد المسيح حمل ضعفهم، فتعييراتهم وقعت عليه، إذ حمل عار خطاياهم ليُقيمهم أقوياء بعد الضعف. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هل أنتم أقوياء؟ رُدّوا هذا لله الذي جعلكم هكذا، وذلك إن رأيتم ضعف المرضى بحق. فإننا نحن كنّا ضعفاء أيضًا، وبالنعمة صرنا أقوياء. لنعمل أيضًا بالنسبة بالضعفاء (أي نسندهم بالنعمة[3]).]

ثالثًا: إن كنّا بالنعمة الإلهية نلنا القوّة في المسيح يسوع، يليق بنا ترجمة هذه القوّة عمليًا، وكما يقول الرسول: "**فليُرضِ كل واحد منّا قريبه للخير لأجل البنيان**" **[٢]**. في هذا يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هل أنت قوي؟ ليختبر الضعيف قوّتك. ليأت وليعرف قوّتك، أرضه. لم يقل "**أرضه**" هكذا بطريقة مجرّدة وإنما "**لخيره**"، وليس فقط "لخيره" مجرّدة، لئلاّ يقول الشخص المتقدّم: انظر ها أنا أسحبه لخيره! إنما يضيف الرسول: "**لأجل البنيان**"... هذا التصرّف يلزم أن يفعله "كل واحد"[4].]

---

[1] *In Rom. hom 27.*
[2] *Ser. On N. T. 26: 4.*
[3] *In Rom. hom 27.*
[4] *In Rom. hom 27.*

هذه هي "القوّة" الحقيقية في المسيح يسوع، أن ننزل إلى الضعيف مع مسيحنا لنحمله على منكبي الحب، ونرتفع معه لنحيا معًا سالكين الحياة الصالحة لبنيان نفوسنا ونفوسهم، أو لبنيان العالم كله في الرب. بهذا نرضي الآخرين للخير للبنيان، مقدّمين لا أموالنا وطاقاتنا لخدمتهم، وإنما أيضًا نقدّم قلوبنا ومشاعرنا وأحاسيسنا، نشاركهم آلامهم وأتعابهم وضيقاتهم.

رابعًا: يقدّم لنا الرسول بولس السيد المسيح مثلاً نقتدي به، إذ لم يُرضِ نفسه بل من أجلنا حمل تعييراتنا التي كنّا نستحقها ليهبنا برّه. هذه هي عادة الرسول أنه يقدّم لنا السيد المسيح في كل شيء مثلاً.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إذ كان (الرسول) يتحدّث عن الصدقة، قدّم لنا المسيح (مثلاً): "فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو غني" (٢ كو ٨: ٩). وإذ كان يحث على المحبّة حثّنا به قائلاً: "كما أحبّنا المسيح" (أف ٥: ٢٥). وعندما نصحنا على احتمال الخزي والمخاطر قدّمه ملجأ لنا: "من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهينًا بالخزي" (عب ١٢: ٢). هكذا في هذه العبارة (رو ١٥: ٣) يفعل ذات الشيء، موضّحًا أن النبي سبق فأعلن عن ذلك قديمًا، بقوله: "تعييرات معيّريك وقعت عليّ" (مز ٦٩: ٩). لماذا لم يقل: "أخلى نفسه" (في ٢: ٧)؟ لأنه لم يرد أن يشر فقط إلى تأنّسه، وإنما أيضًا إلى إساءة معاملته واتهامه بواسطة كثيرين، والنظر إليه كضعيف. فقد قيل: "إن كنتَ ابن الله فانزل عن الصليب" (مت ٢٧: ٤٠)، وأيضا: "خلَّص آخرين وأمّا نفسه فما يقدر أن يخلِّصها" (مت ٢٧: ٤٠)... وهنا أيضًا يظهر إن المسيح لم يُعيَّر وحده وإنما الآب أيضًا، إذ يقول "تعييرات معيّريك وقعت عليّ". فما يقوله تقريبًا هو هذا: ما يحدث الآن ليس بالأمر الجديد أو الغريب، فإنهم في العهد القديم اعتادوا أن يعيّروا (الآب)، وهاهم الآن ثائرون على ابنه. لكن هذه الأمور كُتبت لكي نتمثّل بهما[1].]

خامسًا: إن كان ما قد كُتب في العهد القديم (مز ٦٩: ٩) أن التعييرات قد سقطت على الأب والإبن، إنما لأجل نفعنا، لكي يبعثنا ذلك على احتمال الضعفات والتعييرات حتى بالصبر مع التعزية يكون لنا رجاء إننا نتمثّل بالله نفسه محتمل الضعفاء. هذا ما أعلنه الرسول بقوله: "**لأن كل ما سبق فكتب، كُتب لأجل تعليمنا، حتى بالصبر والتعزية بما في الكتب يكون لنا رجاء**" **[٤]**.

غاية الكتاب المقدس أن يحثّنا على الاحتمال بصبر، ليهبنا تعزية في وسط الآلام، الأمر الذي

[1] *In Rom. hom 27.*

يفتح لنا باب الرجاء. لأننا إن كنّا نتعزّى وسط آلامنا، فماذا يكون حالنا حين ننطلق من العالم بآلامه؟

سادسًا: إذ يحثّنا الرسول بولس على احتمال ضعفات الضعفاء لخيرهم لبنيانهم، وهو يقدّم لنا السيد المسيح مثلاً حيًا في هذا العمل، بل وعاملاً فينا لتحقيق ذلك، يرفع الرسول صلاة لله كي يسندنا، قائلاً:

"وليعطكم إله الصبر والتعزية أن تهتمّوا اهتمامًا واحدًا فيما بينكم
بحسب المسيح يسوع،
لكي تمجّدوا الله أبًا ربنا يسوع المسيح بنفسٍ واحدةٍ وفمٍ واحدٍ" [٦-٥].

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هذا ما يودّ الحب أن يفعله أن يهتم الإنسان بالآخرين كما بنفسه، ولكي يظهر أن ما يطلبه ليس حبًا مجردًا يضيف: "**بحسب المسيح يسوع**". هذا ما يفعله في كل موضع، إذ يوجد نوع آخر من الحب. فإنه أي نفع للاتفاق معًا (إن لم يكن بحسب المسيح يسوع[1])؟]

هذا الحب في المسيح يسوع يمجّد الله الآب لا خلال وحدة الفم فقط أي بالكلام، وإنما وحدة الإرادة أيضًا (نفس واحدة)...

هذا الحب في المسيح يسوع واهب الوحدة هو طريق تنفيذ الوصيّة: "**لذلك اقبلوا بعضكم بعضًا كما أن المسيح أيضًا قبلنا لمجد الله" [٧].**

٢. اتساع القلب للأمم

الآن إذ يوصينا باحتمال الضعفاء خلال الحب الحقيقي، واهب الوحدة في المسيح يسوع، يقدّم لنا تطبيقًا عمليًا في حياة السيد المسيح كما في حياتنا نحن أيضًا، فبالحب ضمّ السيد المسيح أهل الخِتان والأمم معًا فيه، حاملاً ضعفات الكل، وبذات الحب يليق باليهود المتنصّرين أن يفتحوا قلبهم لإخوتهم الراجعين من الأمم لله، لتتحقق فيهم إرادة الله التي سبق فأعلنها في العهد القديم من جهة قبول الأمم للإيمان بالله.

وأقول أن يسوع المسيح قد صار خادم الخِتان،
من أجل صدق الله،
حتى يثبت مواعيد الآباء،

[1] *In Rom. hom 27.*

وأمّا الأمم فمجّدوا الله من أجل الرحمة،

كما هو مكتوب: من أجل ذلك سأحمدك في الأمم وأرتل لاسمك" [٩-٨].

ماذا يقصد الرسول بهذا؟ يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** [أن إبراهيم نال وعدًا أن بنسله تتبارك جميع الأمم (تك ١٢: ٧، ٢٢: ١٨). وما حدث أن نسل إبراهيم وإن كان قد مارس الخِتان لكنه كسر الناموس وحُسب متعدّيًا فسقط بالناموس تحت اللعنة، لهذا جاء السيد المسيح خادمًا للختان، إذ أكمل الناموس ولم يكسره، حتى متى ارتفع على الصليب ينزع لعنة الناموس التي للعصيان. تألّم لكي لا يسقط الوعد المُعطَى لإبراهيم، حاملاً الغضب عن الساقطين فيتحرّروا عن العداوة والتغرّب عن الله... بهذا رفعهم السيد المسيح عن اللعنة، وأقامهم من سلطان الناموس، ليتحقّق فيهم الوعد الإلهي الذي أُعطيَ لآبائهم. هذا من جانب أهل الخِتان، أما من جانب الأمم فقد انفتح لهم أيضًا باب المراحم الإلهية لينعموا مع أهل الختان بالعمل الخلاصي جنبًا إلى جنب، فيشترك الاثنان – اليهودي والأممي – خلال نعمة الله في تقديم الحمد لله والتسبيح لاسمه، كما سبق فأنبأ المرتّل: "لذلك أحمدك يا رب في الأمم وأرنم لك" (مز ١٨: ٤٩)، وما أعلنه موسى النبي: "تهلّلوا أيها الأمم شعبه" (تث ٣٢: ٤٣)، وداود النبي: "سبحوا الرب يا كل الأمم" (مز ١١٧: ١)، وأيضًا إشعياء النبي: "ويخرج قضيب من جزع يسّى وينبت غصن من أصوله... ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسّى القائم راية للشعوب إيّاه تطلب الأمم" (إش ١١: ١، ١٠).]

[كل هذه المقتطفات قدمت لكي يظهر أنه يجب أن نتحد ونمجد الله، ولكي يتواضع اليهودي ولا ينتفخ على هذه الشعوب، وفي نفس الوقت يحث الأممي على التواضع إذ يظهر له أنه قد نال نعمة عظمى[1].]

إن كان الله منذ القدم قد خطّط لخلاص كل الشعوب والأمم حتى أنبأ بذلك رجال العهد القديم، فكيف يمكن لليهودي أن يغلق قلبه عن قبول أخيه الأممي معه في الإيمان، والتهليل والتسبيح لله؟

ليفتح اليهودي قلبه بالحب ليضم إلى صدره الأممي، وليفتح الأممي قلبه شاكرًا الله الذي رفعه عن ضعفه ليدخل بين صفوف المؤمنين!

إذ فتح أبواب الرجاء لليهود كما للأمم. لهذا يقدّم الرسول أشبه بصلاة أو شفاعة لدي الله ليزيدهم في هذا الرجاء بدخولهم إلى الإيمان بقوّة الروح القدس مملوئين سرورًا وسلامًا، إذ يقول: "**وليملأكم إله الرجاء كل سرور وسلام في الإيمان، لتزدادوا في الرجاء، بقوّة الروح القدس" [١٣].**

---

[1] *In Rom. hom 28.*

٣. مساندة في خدمة الأمم

إذ تحدّث عن التزامهم كأقوياء أن يحتملوا ضعفات الضعفاء، وكيهود متنصّرين أن يقبلوا الأمم في الإيمان بفرح وسرور، أراد أن يلطّف الحديث معهم، فلا يجعل من وصيته أمرًا ثقيلاً على نفوسهم، لهذا بادر يمدحهم مظهرًا أن ما يطلبه منهم ليس بالكثير بالنسبة لقامتهم الروحيّة وإدراكهم، إذ يقول: "**وأنا نفسي متيقّن من جهتكم يا إخوتي أنكم أنتم مشحونون صلاحًا، ومملوؤون كل علم، قادرون أن يُنذر بعضكم بعضًا**" **[١٤]**.

ويلاحظ هنا رقته في الحديث من جهة الآتي:

أولاً: لم يقل أنه سمع عن صلاحهم، وإنما هو بنفسه متيقّن من صلاحهم. ليس محتاجًا إلى آخرين يشهدون لهم أمامه. وكأنه يقول إن كنت أوصيكم أو أقسو عليكم بالانتهار لكنني متيقّن من جهتكم إنكم مشحونون صلاحًا!

ثانيًا: يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على تعبيره: "**أنكم أنتم مشحونون صلاحًا**"، بالقول: [كأنه يقول: ليس لأنكم قساة أو مبغِضون لإخوتكم لذلك أنصحكم أن تقبّلوا عمل الله ولا تهملوه أو تحطموه، فإني أعرف أنكم مشحونون صلاحًا؛ وإنما يبدو لي هنا أن أدعوكم لكمال فضيلتكم[١].]

ثالثًا: في رقّة يحثّهم كما على اتساع القلب أكثر فأكثر بحب الآخرين حيث لا ينقصهم ملء الصلاح والمعرفة والقدرة. من جهة القلب هم صالحون لطفاء محبّون؛ من جهة الفكر لهم ملء العلم والمعرفة، ومن جهة الإمكانية قادرون. هذا كله أعطاه الجسارة ليطالبهم أكثر فأكثر! غاية في الحكمة والتشجيع!

رابعًا: يكتب القدّيس بولس إليهم بروح الأخوة المتواضعة، الأخوة التي أعطته دالة ليتجاسر فيكتب إليهم لا كمن يوصيهم بأمرٍ غريبٍ عن حياتهم، وإنما يذكرهم لينموا بالأكثر فيما يمارسونه فعلاً، إذ يقول: "**ولكن بأكثر جسارة كتبت إليكم جزئيًا أيها الإخوة، كمذكّر لكم بسبب النعمة التي وُهبت لي**" **[١٥]**.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لاحظ تواضع فكر بولس، لاحظ حكمته... إنه ينزل من كرسي السيادة هنا وهناك ليتحدّث إليهم كإخوة وأصدقاء في نفس الدرجة[٢].]

---

[1] *In Rom. hom 29.*
[2] *In Rom. hom 29.*

خامسًا: يُعلن الرسول أنه ملتزم بالكتابة لهم لأنه يمارس خدمته الرسولية التي أُفرز لها كرسول للأمم، فإن كانت روما عاصمة العالم الأممي في ذلك الحين فهو يشعر أنها يجب أن تكون مركز عمله. هذه هي النعمة التي وُهبت له من الله، خدمة الأمم، التي لا يتوقّف عن التمتّع بها قط.

يحسب الرسول نفسه كاهنًا يقدّم ذبيحة الحب خلال الكرازة، فإن كان ليس من سبط لاوي لكنه كاهن الله كرسول للسيد المسيح يقدّم قربان الأمم مقبولاً ومقدسًا بفعل الروح القدس، إذ يقول: "**حتى أكون خادمًا ليسوع المسيح لأجل الأمم، مباشرًا لإنجيل الله ككاهنٍ، ليكون قربان الأمم مقبولاً، مقدسًا بالروح القدس**" **[١٦]**.

يفسّر **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** هذه العبارة هكذا:

[بالنسبة لي هذا كهنوت، الذي هو الكرازة والإعلان. هذه ذبيحة أقدّمها. لا يخطِّئ أحد من الكهنة عندما يكون غيورًا على تقديم ذبيحة بلا عيب.

يقول هذا لكي يرفع أفكارهم، ويُظهر لهم أنهم ذبيحة، معتذرًا عن دوره في هذا العمل. كأنه يقول: السكّين التي لي هي إنجيلي، كلمة الكرازة. أقوم بهذا لا لأتمجّد ولا لأشتهر، وإنما لكي تكون ذبيحة الأمم مقبولة ومقدّسة بالروح القدس. بمعنى أن نفوس الذين أعلِّمهم تصير مقبولة. فإنه إذ قادني الله إلى هذا السموّ فليس في هذا تكريمي أنا قدر ما هو يخصّكم أنتم.

كيف يصيرون مقبولين؟ بالروح القدس.

فالحاجة ليس فقط إلى الإيمان، وإنما إلى طريق الحياة الروحيّة لكي نتمسّك بالروح الذي أعطى مرة للكل. فإنه لا حاجة إلى حطب أو نار أو مذبح أو سكّين بل للروح الذي فينا بالتمام.

لهذا أبذل كل وسيلة لأمنع النار من أن تنطفئ، إذ أسرّ بها... كما أن الكاهن يقف ليلهب النار هكذا أفعل أنا إذ أُثير تذكرتكم[1].]

هذا ويوضّح الرسول دوره في الخدمة بدقّة إذ يلقِّب نفسه "خادمًا" و"كاهنًا"، لكن الذي يقدّس روح الله نفسه، إذ يقول: "**ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدّسًا بالروح القدس**". يحدّثنا **القدّيس باسيليوس الكبير** عن دور الروح القدس، قائلاً:

[المخلوق عبد، والروح هو الذي يحرّر (رو ٨: ٢)؛

المخلوق محتاج إلى حياة، والروح هو واهب الحياة (يو ٦: ٦٣)؛

المخلوق يطلب التعلم، والروح هو الذي يعلم (يو ١٤: ٢٦).

[1] *In Rom. hom 29.*

المخلوق يتقدس، والروح هو الذي يُقدس (رو ١٥: ٢٦)؛

من تدعوهم ملائكة، رؤساء، قوات سمائية... هؤلاء يتقبلون التقديس خلال الروح، أمّا الروح نفسه فهو قدوس بطبيعته، لا يتقبل صلاحًا من خارجه بل الصلاح من جوهره، لهذا فيُميز بالاسم: "قدوس" (إش ٦: ٣)[1].]

سادسًا: إن كان الرسول بطريق غير مباشر يقدّم نفسه مثلاً، يشعر خلال الحب الرسولي أنه كاهن يقدّم حياتهم الإيمانية تقدمة حب مقبولة لدى الله ومقدسة، يقدّمها لا لحساب نفسه بل لحسابهم، ليتمجّد الله فيهم بقبولهم، حتى يردّوا الحب بالحب، فيسندوه في خدمته للأمم باتساع قلبهم واحتمالهم ضعفاتهم والصلاة عنهم والشهادة لله أمامهم. ربّما يتساءلون: وماذا تنتفع أنت بهذا العمل الكرازي؟ لذا يجيب، قائلاً: "**فلي افتخار في المسيح يسوع من جهة ما لله، لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء ممّا لم يفعله المسيح بواسطتي لأجل إطاعة الأمم بالقول والفعل**" **[١٨-١٧]**.

إن كانت الخدمة لحساب الآخرين لبنيانهم روحيًا في الرب فهي أيضًا لحساب الكارز أو الخادم فيتمجّد لا بذاته وإنما بنعمة الله العاملة فيه ككارز وفيهم كمخدومين، إذ يعمل الله بروحه القدوس فيه وفيهم. وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على لسان القدّيس بولس: [إنه يعني أنني أتمجّد لا بذاتي ولا بغيرتي وإنما بنعمة الله... انظر كيف يحاول بكل قوّة أن يظهر العمل كله لله ولا يُنسب شيئًا لنفسه. فما أنطق به أو أفعله أو أمارسه من معجزات الله هو العامل هذا كله، الروح القدس صانع الكل.[2]]

سابعًا: إذ يحثهم الرسول بولس على مساندته في خدمة الأمم بالصلاة كما بعمل المحبّة لكي يتمجّد الله فيهم يقدّم لهم نفسه مثلاً في خدمته، إنه منطلق للخدمة في غيرة بلا حدود للكرازة لا في البلاد الخاضعة لروما فحسب وإنما بين البرابرة أيضًا، لكن هذه الغيرة تلتحم بروح التواضع؛ فإن كان ينطلق من أورشليم ليخدم في كل موضع بالإنجيل حتى الليريكون[3]، لكنه وهو يخدم لا ينطلق إلى حيث انطلق رسول آخر فيدخل على تعبه وينسب الناس النجاح إليه، بل يذهب إلى حيث لم يكرز الرسل حيث الطريق غير ممهّد والجهاد أصعب.

"**بقوّة آيات وعجائب بقوّة روح الله،**

---

[1] *Ep. 159: 2.*
[2] *In Rom. hom 29.*

[3] الليريكون هي إحدى ولايات المملكة الرومانية شمال غربي مكدونية.

حتى إني من أورشليم وما حولها إلى الليريكون قد أكملت التبشير بإنجيل المسيح، ولكن كنت محترصًا أن أبشر هكذا، ليس حيث سُمي المسيح، لئلاّ أبني على أساسٍ آخر" [٢٠-١٩].

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**، قائلاً: [قال هذا ليظهر نفسه إنه متغرب عن المجد الباطل، وليعلمهم إنه يكتب إليهم لا حبًا في المجد أو في تكريمهم له، وإنما لإتمام خدمته، وتحقيق كمال عمله الكهنوتي كمحبٍ لخلاصهم... ها أنت تراه يجري إلى حيث العمل الأكثر والتعب الأقسى[1].]

يقول **القدّيس جيروم**: [انظر بولس الذي كان مضطهدًا في اليهوديّة، ها هو يكرز بين الأمم. إنه يحمل صليب المسيح كغالبٍ يأسر الكل. لقد قهر العالم كله من المحيط حتى البحر الأحمر.[2]]

٤. شوقه لخدمتهم في روما

كما أبرز الرسول إنه لم يكتب إليهم حبًا في مجده الذاتي بل في خلاصهم، ليبعث فيهم ذات الروح من جهة الشوق لخلاص الآخرين خاصة الضعفاء والأمميّين، الآن يؤكّد لهم أيضًا أنه منذ سنوات يشتاق إليهم لزيارتهم بدافع الحب لا المجد الزمني. يقول الرسول: "**لذلك كنت أُعاق المرار الكثيرة عن المجيء إليكم، وأمّا الآن فإذ ليس لي مكان بعد في هذه الأقاليم، ولا اشتياق إلى المجيء إليكم، منذ سنين كثيرة فعندما أذهب إلى أسبانيا آتي إليكم، لأني أرجو أن أراكم في مروري، وتشيعوني إلى هناك أن تملأت أولاً منكم جزئيّا" [٢٢-٢٤].**

ويلاحظ في كلمات الرسول هذه:

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** إن الرسول أبرز محبّته الشديدة لهم بشوقه لزيارتهم منذ سنوات، وفي نفس الوقت لم يعطِهم مجالاً للكبرياء، إذ أوضح إنه يلتقي بهم عابرًا بهم أثناء رحلته إلى أسبانيا. فهم موضع حبه بحق، وغيرهم كأهل أسبانيا أيضًا موضع هذا الحب عينه، حتى أن زيارته لهم ستأتي عارضًا في طريقه، لكن ليس حُبّه عارضًا. لقد أثار مشاعر محبّتهم بفيض محبّته، بقوله أنه "يمتلئ بصحبتهم" هذه هي لغة الوالدين اللذين يجتذبان أولادهما إليهما... [إنه كأب ملتهب أنجب بحق ابنًا؛ هكذا كان يحب المؤمنين[3].]

٥. فهمه لعطاء الأمم

---

[1] *In Rom. hom 29.*
[2] *On Ps. hom 14.*
[3] *In Rom. hom 29.*

أعلن الرسول عن شوقه الشديد لزيارتهم، وقدّم عذرًا لتأجيله الزيارة إذ هو مضطر أن يذهب أولاً إلى أورشليم حاملاً معه عطاء الأمم لقدّيسي أورشليم الذين تعرّضوا لمجاعة، فقد سُرّ مؤمنو مكدونية وأخائية الذين هم من أصل أممي أن يُحسبوا أهلاً لرد حب اليهود المتنصّرين في أورشليم بخدمتهم روحيًا بالحب بتقديم عطاءً ماديًا وقت عوزهم.

"لأن أهل مكدونية وأخائية
استحسنوا أن يصنعوا توزيعًا للفقراء القدّيسين الذين في أورشليم،
استحسنوا ذلك وإنهم لهم مدينون،
لأنه إن كان الأمم قد اشتركوا في روحانياتهم
يجب عليهم أن يخدموهم في الجسديات أيضًا" [٢٧-٢٦].

أولاً: يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن حديث الرسول هنا لم يكن بقصد إثارة كنيسة روما للمساهمة في احتياجات القدّيسين في أورشليم الذين تعرضوا للمجاعة، وإلا كان قد زارهم للجمع للقديسين. إنما استغلّ هذا العطاء من جانب الكنائس التي معظم أعضائها من أصل أممي للكنيسة التي معظم أو كل أعضائها من أصل يهودي، ليُعلن دخول الكنيسة ككل في شركة حب. بهذا يثير الرسول كنيسة روما لا للعطاء المادي لكنيسة أورشليم، وإنما لانفتاح القلب لخدمة الأمم.

ثانيًا: يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لم يقل: أذهب لأحمل العطاء، بل "لأخدم" (دياكونس[1]).] فإن كان الرسول العظيم لا يتطلّع إلى العطاء إلا كعمل روحي وخدمة وليس عملاً اجتماعيًا مجردًا، فكم بالأكثر تكون بهجته ليس حين يحمل عطاء ماديًا بل إنجيل الحق لأهل روما؟

لقد حسبت الكنائس عطاءهم "**شركة**"، علامة حب داخلي ووحدة، فحمل الرسول لا أموالهم ولا تقدماتهم المادية فحسب، إنما ما هو أعظم، حمل قلوبهم المملوء حبًا وروح الوحدة الذي فيهم مع بقية الأعضاء. ولهذا السبب حسب الرسول أنه يحمل كنزًا ملوكيًا محفوظًا بختم ملكي لا يستطيع أن يسلبه لص أو تحيق به مخاطر.

ثالثًا: يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[2] [يدعو الرسول ما يحمله "**ثمرًا**" [٢٨] لا "عطاء" لأن ما يحمله إنما هو لنفع مقدميه، وثمرهم الروحي[3].]

---

[1] *In Rom. hom 29.*
[2] *In Rom. hom 29.*
[3] *In Rom. hom 29.*

٦. جهادهم معه بالصلوات

كان الرسول يبدو متهلّلاً من أجل ثمر الروح المعلن في كنائس الأمم التي قدمت لا عطاء ماديًا مجردًا بل ثمرًا متكاثرًا، علامة حب لإخوتهم في أورشليم. الآن يثير كنيسة روما لتساهم هي أيضًا في الخدمة لا بتقديم مال لاحتياجات القدّيسين وإنما لتقديم صلوات بجهادٍ عظيمٍ لدى الله من أجله لكي يتمّم الله رسالته فيه بالرغم من مقاومة البعض له.

والعجيب إنه قبل أن يسألهم هذا الطلب كمن هو محتاج إلى جهادهم معه في خدمة الكرازة للأمم خلال الصلوات خشي لئلاّ يحسبوا أنفسهم ليسوا أهلاً لهذا العمل، لذا يقول: "**وأنا أعلم إني إذا جئت إليكم سأجيء في ملء بركة إنجيل المسيح**" **[٢٩]**. وكأنه يقول عندما أجيء إليكم أجدكم أهلاً للمدح بلا حدود خلال الإنجيل، من أجل فيض أعمالكم المقدّسة المستحقّة كل تطويب. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن ما يقدّمونه من جهاد في الصلاة عنه لأجل الخدمة يأتي متناغمًا مع عمل السيد المسيح الخلاصي ومحبة الروح القدس، إذ يقول: "**فأطلب إليكم أيها الإخوة بربنا يسوع المسيح وبمحبة الروح، أن تجاهدوا معي في الصلوات من أجلي إلى الله**" **[٣٠]**. لذا فصلواتهم حتمًا تكون مقبولة وفعّالة، لأنها حسب إرادة الله الصالحة ومحبته الفائقة.

٧. مقاومة غير المؤمنين له

لا تقف خدمتهم النابعة عن اتساع قلوبهم بالحب نحو إخوتهم الذين من الأمم عند احتمال ضعفاتهم والشهادة لعمل الله الخلاصي أمامهم، وإنما أيضًا تمتد إلى الصلاة من أجل الكارزين حتى يخلّصهم الرب من مقاومة المعاندين. ويحسب الرسول نفسه أكثرهم احتياجًا للصلاة عنه من أجل شدّة المقاومة التي يجابهها، إذ يقول: "**لكي أنقذ من الذين هم غير مؤمنين في اليهوديّة، ولكي تكون خدمتي لأجل أورشليم مقبولة عند القدّيسين**" **[٣١]**.

٨. خاتمة

إذ يتحدّث عن المقاومة التي تصيبه من الأشرار، والتزام الكنائس أن تصلي من أجله، يصلي هو أيضًا من أجل الكل ليسندهم الله في جهادهم، إذ يقول: "**إله السلام معكم أجمعين. آمين**" **[٣٣]**.

الباب الرابع

أصحاح ختامي

ص ١٦

الأصحاح السادس عشر

أصحاح ختامي

يُعتبر الأصحاح السابق خاتمة الفصل العملي من الرسالة وهو فصل متكامل ومتناغم مع الفصل السابق له، الفصل الإيماني، حيث يصعب فصل إيمان الكنيسة عن حياتها السلوكية. أما هذا الأصحاح الأخير والذي يمثل ختام الرسالة يقدّم لنا في غالبيته عددًا كبيرًا من الأسماء التي لا نعرف عن بعضها شيئًا؛ لكنه في الواقع يمثل صورة حيّة ومبهجة وفعّالة عن الحياة المسيحية في العصر الرسولي، فيها يكشف الروح القدس عن التهاب الكنيسة بروح الحب الذي يقدّس المشاعر والعواطف المتبادلة في الرب لبنيان الكنيسة روحيًا، فكثيرون يدعوهم "أحباء" أو "أنسباء" أو "العاملين معنا في الرب"، بينما يدعو هذه "أختنا" وتلك العجوز "المحبوبة" وثالثة "التاعبة في الرب". لكل شخص لقب خاص محفور بالروح في قلب الرسول بولس.

١. توصيته بخصوص فيبي	١–٢.
٢. تحيات شخصية	٣–١٥.
٣. القبلة الروحيّة العامة	١٦.
٤. تحذير من المعلِّمين الكذبة	١٧–٢٠.
٥. تحيات أصدقاء الرسول	٢١–٢٤.
٦. ذكصولوجية "ختام"	٢٥–٢٧.

١. توصيته بخصوص فيبي

"أوصي إليكم بأختنا فيبي التي هي خادمة (شمّاسة) الكنيسة التي في كنْخَريا،
كي تقبلوها في الرب كما يحق للقديسين،
وتقدّموا لها في أي شيء احتاجته منكم،
لأنها صارت مساعدة لكثيرين ولي أنا أيضًا" [٢–١].

يكتب الرسول إلى كنيسة لم يسبق له خدمتها بحضوره هناك، لكنه في دالة الحب يقدّم لهم فيبي شماسة بالكنيسة التي في كنخريا موصيًا عنها. بهذا يشعرهم الرسول أنه ليس بغريبٍ عنهم، لكنه صاحب دالة لديهم، كما يهبهم حُبًا يطلب حبّهم وخدمتهم.

يرى البعض إنها من متنصري الأمم لأن اسم "فيبي" مشتق من "فيبس" اسم أحد الآلهة الوثنيّة. ويرى البعض أن هذا الاسم "فيبي" مشتق من الكلمة اليونانية "فوس" التي تعني "يشرق" أو "يضيء[1]".

يبدو أنها كانت غنيّة وذات مركز اجتماعي مرموق، أقيمت كشمّاسة للكنيسة في كنخريا ميناء كورنثوس، يبعد حوالي تسعة أميال شرقي كورنثوس، وكان لها خدمتها الفعّالة في الكنيسة، حتى قال الرسول عنها: "**لأنها صارت مساعدة لكثيرين ولي أنا أيضًا**".

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [انظروا كيف يكرمها بطرق كثيرة، فقد أشار إليها قبل الكل ودعاها أخته. وهذا ليس بالأمر الهيّن أن تدعى أختًا لبولس؛ كما ذكر رتبتها بكونها "شماسة" (خادمة)... ليهتمّوا بها على أساسين: يقبلوها من أجل الرب، ولأنها هي نفسها قدّيسة[2].]

٢. تحيات شخصية

إن كانت هذه الرسالة تقدّم لنا أسماء ٢٦ شخصًا أغلبهم لا نعرف عنهم شيئًا، لكنّنا نشعر بأهمية هذا الجزء من الرسالة، إذ يقدّم لنا صورة حيّة لقلب رسولنا بولس الذي يظهر عاطفته الحانية واعتزازه وتقديره للمشاعر المقدّسة في الرب. يمكننا أيضًا أن نرى في هذه التحيّات الحارّة صورة للصداقات العميقة والحب الطاهر السخي بين أعضاء الكنيسة الأولى.

لقد قدّم لنا الرسول كل صديق له يحمل لقبًا خاصًا يعتز به الرسول، هذا اللقب لا يقوم على الشهرة أو الغنى أو العلم، وإنما على شركة الحياة التقوية والجهاد في الخدمة.

يلاحظ في الـ ٢٦ اسمًا، أن اسمًا واحدًا عبرانيًا هو "مريم" وأربعة أسماء لاتينيّة هي أمبلياس وأوربانوس وجوليا ونيريوس، وبقيّة الأسماء يونانية.

"**سلّموا على بريسكلاّ وأكيلا العاملين معي في المسيح يسوع،**

اللذين وضعا عنقيهما من أجل حياتي،

اللذين لست وحدي أنا أشكرهما،

بل أيضًا جميع كنائس الأمم،

وعلى الكنيسة التي في بيتهما" **[٣-٥].**

جاء ذكر أكيلا وزوجته بريسكلا في (أع ١٨: ٢، ١٨، ٢٦؛ ١ كو ١٦: ١٩؛ ٢ تي ٤: ١٩)؛ وهما يهوديّان يعملان كصانعي خيام، تركا روما كأمر كلوديوس قيصر عام ٤٩ الذي طرد جميع

---

[1] *Strong: Greek Dict. of the N. T., articles 5402; 5457.*
[2] *In Rom. hom 30.*

اليهود من روما، ليعودا ثانية. كانا تاجرين غنيين وتقيين، كانت الزوجة أكثر غيرة على ما يظن، لذا ذكرها الرسول قبل زوجها (أيضًا في ١ كو ١٦: ١٩؛ رو ١٨: ٢). التقى بهما الرسول لأول مرة في كورنثوس (أع ١٨: ٢) وبقي معهما حوالي ١٨ شهرًا وذهبا معه إلى أفسس (أع ١٨: ١٨)، ثم رجعا إلى روما. أينما وُجدا كان يفتحان بيتهما ككنيسة لخدمة المؤمنين الغرباء ويجتمع فيها المؤمنون للعبادة. يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن بيتهما كان يُدعى كنيسة، إمّا لأنهما كسبا كل أهل بيتهما للإيمان أو لفتح بيتهما لخدمة المؤمنين الغرباء.

لقد عرض هذين المؤمنين حياتهما للخطر بسبب معلمنا بولس الرسول ربّما أثناء الشغب الذي حدث في كورنثوس (أع ١٨: ٦-١٠) أو في أفسس (أع ١٩: ٣١-٣٢)... لذلك يبقى لا الرسول وحده بل وجميع كنائس الأمم يقدّمون الشكر لهما.

"**سلّموا على أبينتوس حبيبي الذي هو باكورة أخائية للمسيح**" **[٥]**.

كلمة "أبينتوس" من أصل يوناني تعني "مستحق للمديح[2]"، وهو أول من قبِل الإيمان في آسيا الصغرى على يدي الرسول. يدعوه الرسول حبيبه وباكورة عمله هناك، وكأنه يسأله أن يرد الحب بالحب، فلا يكف عن العمل في روما لحساب الإيمان الذي قبِله قبْل كثيرين.

"**سلّموا على مريم التي تعبت لأجلنا كثيرًا**" **[٦]**؛ لا نعرف عنها شيئًا، إلا أنها كانت نافعة للرسول في خدمته قبل ذهابها إلى روما. وكأنّه يطالبها أيضًا ألا تكف عن التعب من أجل الخدمة.

يُعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذه العبارة قائلاً: [ما هذا؟ لقد كُرمت امرأة وحسبت متنصرة! أفلا نخجل نحن كرجال؟... إننا نحسبه كرامة لنا أن توجد نساء بيننا كهذه، ولكنّنا نخجل إن كنّا كرجال صرنا خلفهن[3].] يكمل حديثه قائلاً بأنه وإن كانت النساء ممنوعات من خدمة التعليم العامة (١ تي ٢: ١٢؛ ١ كو ١٤: ٣٥) لكنها لا تحرم من النطق بكلمة التعليم إذ تستطيع الزوجة أن تربح رجلها (١ كو ٧: ١٦)، وتهذّب أولادها (١ تي ٢: ١٥)، بل ونجد برّيسكلا تعلم أبولس. كما يُعلّق على قول الرسول: "**التي تعبت لأجلنا كثيرًا**"، بقوله: [قدّمت خدمات أخرى كثيرة محتملة مخاطر، من جهة المال والأسفار. فإن نساء تلك الأيام كنّ روحيات أكثر من الأسود (في القوّة)، ساهمن مع الرسل في التعب لأجل الإنجيل.[4]]

---

[1] *In Rom. hom 30.*
[2] *New Westminster Dict. of the Bible, p 269.*
[3] *In Rom. hom 31.*
[4] *Ibid.*

"**سلّموا على أندرونكوس ويونياس نسيبي المأسورين معي اللذين هما مشهوران بين الرسل وقد كانا في المسيح قبلي**" **[٧]**. الاسم الأول من أصل يوناني يعني "الغالبين[١]"، والثاني من أصل لاتيني، وهما يهوديان يمتّان بصلة قرابة للرسول، احتملا السجن معه في وقت غير معروف، يعتزّ بهما لأنهما قد عرفا السيد المسيح قبله، ولهما دورهما الهام في الخدمة حتى صارا مشهورين بين الرسل.

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[٢] أنهما لم يسقطا تحت الأسر بالمعنى الحرفي (كأسرى حرب) وإنما احتملا ما هو أقسى من ذلك، إذ عاشا في الغربة محرومين من أقربائهما واحتملا المجاعة والميتات المستمرة وسقطا تحت المتاعب بلا حصر.

على أي الأحوال لم يتجاهل الرسول القرابة الجسديّة التي تتقدّس خلال الإيمان، كما لا يخجل من الكشف عن إيمانهما بالسيد المسيح قبله...

"**سلّموا على أمبلياس حبيبي في الرب**" **[٨]**.

كلمة "أمبلياس" من أصل لاتيني تعني "مُكبّر" أو "مُضخم[٣]".

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن دعوته "**حبيبي**" تكشف عن حب الرسول الشديد له بسبب حياته الفاضلة.

"**سلّموا على أوربانوس العامل معنا في المسيح**
وعلى أستاخيس حبيبي، سلّموا على أبَلِّس المزكّى في المسيح،
سلّموا على الذين هم من أهل أرستوبولوس،
سلّموا على هيروديون نسيبي،
سلّموا على الذين هم من أهل نركسيس الكائنين في الرب" **[٩-١١]**.

"**أوربانوس**" كلمة لاتينية تعني: "قاطن مدينة[٤]"، "**أستاخيس**" كلمة يونانية تعني: "سنبلة قمح[٥]"، "**أبَلِّس**" ربّما مشتقّة من "أبولو[٦]"، "أرستوبولس" كلمة يونانية تعني: "ناصح حكيم[٧]"، "**هيروديون**" ربّما

---

[1] *New Westminster Dict. p 43.*
[2] *In Rom. hom 30.*
[3] *New Westminster Dict. p 40.*
[4] *Mckenzie: Dict. Of the Bible, p 909.*
[5] *New Westminster Dict. p 904.*
[6] *Mckenzie, 38.*
[7] *New Westminster, p 62.*

من "هيرودس "أي" من نسل بطولي *Hero*، "**نركسيس**" كلمة لاتينية من أصل يوناني معناها غير أكيد...

يلاحظ إن الرسول يمدح الجميع، فيدعو الأول عامل معه في خدمة السيد المسيح، والثاني حبيبه، والثالث مُزكى في المسيح ربّما لاجتيازه ضيقات كثيرة بصبره أو لجهاده في الخدمة الخ. أمّا بالنسبة لأهل أرستوبولس وأهل نركسيس فربّما كان هذا الاثنان وثنيين وصار لهما عبيد أو أبناء مؤمنون معهما.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إذ يقدّم مدحًا خاصًا بكل أحد، لا يسمح بوجود حسد فيما بينهم بمدحه لأحد واستخفافه بآخر، ولكي لا يوجد بينهم تهاون أو ارتباك، مقدمًا لكل واحد كرامة متساوية، وإن كان ليس الكل يستحق كرامة متساوية هكذا[1].]

يهدي الرسول السلام أيضًا **لتِريفينا وتِريفوسا**، وهما كما يقال إنهما كانتا جاريتين قد تعبتا في الرب واستحقتا مديح الرسول بولس. الاسمان لاتينيّان مشتقّان عن الكلمة اليونانية التي تعني "رقيقة" أو "لطيفة". كما يسلّم على **برسيس**، اسمها يوناني معناه "فارسي"، لم يخجل من أن يدعوها "المحبوبة" من أجل كبر سنّها.

يذكر أيضًا **روفس** الذي يقال أنه ابن سمعان القيرواني الذي حمل مع السيد المسيح صليبه (مر ١٥: ٢١)، وقد شهد **لأم روفس** إنها في محبّتها للرسول وخدمتها له صارت "أُمًا" له.

وهكذا أخذ يعدد السلام لإخوة في الرب...

٣. القبلة الروحيّة العامة

بعد أن قدّم التحيات لأسماء معينة، من رجال ونساء، خدام للرب وشعب، سادة وعبيد وجواري، أعلن حُبّه للجميع، الذين لا يعرفهم بالاسم، ليس حُبّه وحده وإنما حب الكنائس كلها لهم: "**سلّموا بعضكم على بعض بقبلةٍ مقدّسة، كنائس المسيح تسلم عليكم**" **[١٦]**. هكذا كانت الكنيسة في العالم تشعر إنها أسرة واحدة، وكان الرجال يقبّلون الرجال، والنساء يقبّلن النساء بقبلة مقدّسة (١ كو ١٦: ٢٠؛ ١ تس ٥: ٢٦؛ ١ بط ٥: ١٤). وكانت القبلة الروحيّة تمثل جزءً لا يتجزأ من العبادة، علامة الحب الذي بلا رياء، وإلى يومنا هذا نسمع الشماس في القداس الإلهي، يعلن: "قبلوا بعضكم بعضًا بقبلة مقدّسة".

يقول الراهب الإنجيليكاني دكس أن القبلة الرسوليّة لا تزال بصورتها الأولى عند الأقباط والأثيوبيّين

[1] *In Rom, hom 31.*

فقط[١].

❖ لا تظن أن هذه القبلة كتلك التي اعتاد الأصدقاء على ممارستها في الاجتماعيات (*agio*) هي ليست من هذا الصنف، إنما هذه توّحد النفس وتزيل كل حقد. هي علامة اتحاد النفوس معًا[٢].

القدّيس كيرلس الأورشليمي

❖ هي علامة السلام، فما تظهره الشفاه من الخارج يوجد في القلوب في الداخل[٣].

القدّيس أغسطينوس

٤. تحذير من المعلِّمين الكذبة

يحذّرهم الرسول بولس من صانعي الانشقاقات والعثرات، هؤلاء الذين هم جسدانيّون يخدمون بطونهم لا المسيح.

يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [(الانشقاق) هو سلاح الشيطان يقلب كل شيء رأسًا على عقب. مادام الجسد متحدًا معًا لا يقدر أن يجد الشيطان له مدخلاً، أمّا العثرة فتأتي خلال الانقسام. من أين يأتي الانشقاق؟ من الآراء المخالفة لتعاليم الرسل. ومن أين تأتي هذه الآراء؟ من عبوديّة الناس للبطن والأهواء الأخرى... هذا ما قاله عندما كتب إلى أهل فيلبي: "الذين إلههم بطنهم" (في ٣: ١٩)[٤].]

يسألهم الحذر من المعلِّمين الكذبة الذين: "**بالكلام الطيّب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السلماء**" **[١٨]**، إذ هم مخادعون ينطقون بالكلمات المعسولة على خلاف ما في باطنهم. لذا يليق بنا أن نكون حكماء للخير وبسطاء للشر [١٩].

إن كان العدو يستخدم أساليب الخداع والمكر ليصطاد النفوس البسيطة في شباكه، فإن مسيحنا قادر أن يسحقه: "**وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم، نعمة ربنا يسوع المسيح معكم، آمين**" **[٢٠]**، إنه يصلي لأجلكم لكي يهبهم الله النعمة الإلهية لخلاصهم من كل تجربة:

❖ ما دام يتحدّث عن صانعي الانشقاقات والعثرات بين الناس لذلك أشار إلى "إله السلام" أيضًا لكي يملأهم رجاءً من جهة الخلاص من هذه الشّرور...

---

[1] Gregory Dix: The shape of Liturgy, p 110.

[٢] للمؤلف: المسيح في سرّ الإفخارستيا، ١٩٧٣، ص ٤١١.

[3] PL 38: 1101 A.

[4] In Rom. hom 32.

إنها صلاة ونبوّة في نفس الوقت (إن الله يسحق الشيطان تحت أقدامنا سريعًا)!... إنها أقوى سلاح؛ حصن منيع وبرج ثابت[1]!

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ ها أنتم ترون الشيطان الصيّاد الذي يشتاق أن يقتنص نفوسنا للهلاك. إنه ينصب شباكًا كثيرة وخداعات من كل نوع... مادمنا في حالة نعمة تكون نفوسنا في سلام، لكن ما أن نلهو بالخطيّة حتى تصير نفوسنا في اضطراب كقارب تلطمه الأمواج[2].

القدّيس جيروم

هكذا يقدّم الرسول صلاة عن شعبه لا ليحطّم أصحاب الانشقاقات، وإنما ليحطّم الشيطان نفسه الذي يعمل فيهم ليصير تحت أقدامهم لا حول له ولا قوة. إنه ينهار سريعًا لأن الزمان مقصّر وأيّام خداعه قليلة.

٥. تحيات أصدقاء الرسول

يظن البعض أن الرسول بولس قرأ رسالته في كورنثوس قبل إرسالها، وأن التحيات هنا جاءت كطلب الكنيسة هناك.

جاءت التحيات من القدّيس تيموثاوس الابن المحبوب للرسول بولس، ابنه في الإيمان، وشريكه في العمل، ورفيقه في كثير من الرحلات. وأيضًا من غايس مضيف الرسول بل "**ومضيف الكنيسة كلها**"، ربّما لأنه حوّل بيته إلى مركز للعبادة، وكان يضيف فيه المؤمنين الغرباء عن كورنثوس.

٦. ذكصولوجية "ختام"

جاءت الذكصولوجية هنا تحمل صدى ما جاء في الرسالة ككل، إذ عبّر فيها عن الحاجة إلى الله الذي لا يهب فقط الإيمان، وإنما يهبنا ثبوتنا فيه أيضًا. وإن السرّ الذي أعلنه لنا في ملء الزمان هو السرّ الأزلي الخفي، الذي تنبّأ عنه الأنبياء: سرّ قبول جميع الأمم لإطاعة الإيمان، إذ يقول: "**والقادر أن يثبّتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السرّ الذي كان مكتومًا في الأزمنة الأزلية، ولكن ظهر الآن وأُعلم به جميع الأمم بالكتب النبويّة، حسب أمر الإله الأزلي لإطاعة الإيمان، لله الحكيم وحده بيسوع المسيح له المجد إلى الأبد، آمين**" **[٢٥-٢٧]**.

---

[1] *Ibid.*
[2] *On Ps. hom 20.*

فقد أبرز الآتي:

أ. الله هو الذي يثبّتنا في الإنجيل.

ب. خطّة الله من نحونا (سرّه) أزليّة.

ج. هذه الخطّة سبق أن تنبّأ عنها الأنبياء في العهد القديم.

د. خطّة الله هي طاعة جميع الأمم للإيمان.

أخيرًا أوضح الرسول أن الذي كتبها هو ترتيوس [٢٢] وأُرسلت مع الشمّاسة فيبي إلى أهل روما.

المحتويات

مقدّمة في الرسالة ٥

روما، نشأة المسيحيّة في روما، زمان ومكان كتابتها، أعضاء الكنيسة الأولى، أهمية الرسالة وغايتها، مشكلة الأصحاح السادس عشر، المواضيع في الرسالة، أقسامها.

الباب الأول

حاجة الكل إلى الخلاص

الأصحاح الأول: مقدّمة الرسالة ٢١

البركة الرسوليّة، افتتاحية تشجيعية، شرور الأمم.

الباب الثاني

الجانب التعليمي "التبرير بالإيمان العامل بالمحبّة"

الأصحاح الثاني: حاجة اليهودي للخلاص ٤٣

الناموس وإدانة الآخرين، الناموس والحياة العمليّة، الناموس والتعليم.

الأصحاح الثالث: حاجة الكل للخلاص ٥٦

الاتهام: عدم أمانتنا مع أمانة الله، علّة الاتهام: الكل بلا برّ، الحكم: دينونة الكل والحاجة إلى تبرير عام.

اليهودي وبرّ الله ٦٨

الأصحاحات ٤-١١: التبرير بالإيمان العامل بالمحبّة ٦٩

الأصحاح الرابع: إبراهيم دُعي في الغُرْلة ٧٠

إبراهيم والإيمان، إبراهيم أب جميع المؤمنين، إيمان إبراهيم وإيماننا.

الأصحاح الخامس: بنوّتنا لآدم الواحد ٨٠

ثمار برّ المسيح، آدم وبنوه تحت الموت، آدم الثاني والنعمة.

الأصحاح السادس: بنوّة المؤمنين لله ٩٩

الحياة الجديدة بالمعموديّة، الحرّية في المسيح يسوع.

الأصحاح السابع: الناموس فاضح الخطيّة ١١٢

الحاجة إلى التحرّر من الناموس، الناموس يفضح الخطيّة، ناموس الله وناموس الخطيّة.

الأصحاح الثامن: ناموس الروح وبرّ المسيح ١٣٢

المسيح وناموس الروح، تجديد الخليقة وعمل الروح، المسيح المبرّر، محبتنا للمسيح المبرّر.

الأصحاحات ٩-١١: اختيار الله شعبه ١٦٢

الأصحاح التاسع: اختيار الأمم أيضًا ١٦٣

تقدير الرسول لليهود، اختيار الله للآباء، اختيار الأمم أيضًا، تعثر إسرائيل .

الأصحاح العاشر: سرّ الجحود ١٨٣

غيرة اليهود بلا معرفة، رفضهم بساطة الإيمان، رفضهم حب الله الشامل، رفضهم الالتزام بالكرازة، شهادة الأنبياء عن جحودهم.

الأصحاح الحادي عشر: الأممي وبرّ الله ١٩٣

الله لا يرفض شعبه، قبولهم خلال توبتهم، الأمم زيتونة برّية، انتظار توبة اليهود، خطّة الله الفائقة.

الباب الثالث

الجانب العملي

الأصحاحات ١٢-١٥: الجانب العملي ٢٠٩

الأصحاح الثاني عشر: المؤمن والحياة اليومية ٢١٠

تقديم الحياة كلها لله، تجديد الخارج والداخل، التعقّل في الجهاد، تنوّع المواهب، المحبّة الأخوية، حرارة الروح، الفرح في الرجاء، الشركة في احتياجات القدّيسين، مباركة المضطهدين، الشركة العمليّة، التواضع، مسالمة الجميع.

الأصحاح الثالث عشر: المؤمن والوطن ٢٢٩

الخضوع للسلاطين، أمانته نحو الوطن، التزامه بحب القريب، استعدادنا للوطن السماوي.

الأصحاح الرابع عشر: المؤمن والإخوة ٢٣٧

قبول الضعيف بلا ازدراء، عدم إدانة الإخوة، ملكوت الله وعثرة الضعفاء.

الأصحاح الخامس عشر: المؤمن والضعفاء ٢٤٦

احتمال الضعفاء، اتساع القلب للأمم، مساندته في خدمة الأمم، شوقه لخدمتهم في روما، فهمه لعطاء الأمم، جهادهم معه بالصلوات، مقاومة غير المؤمنين له، خاتمة.

الباب الرابع

أصحاح ختامي

الأصحاح السادس عشر: أصحاح ختامي ٢٥٨

توصيته بخصوص فيبي، تحيات شخصية، القبلة الروحيّة العامة، تحذير من المعلِّمين الكذبة، تحيات أصدقاء الرسول، ذكصولوجية "ختام".

صدر عن هذه السلسلة

العهد القديم

١ التكوين
٢ الخروج
٣ اللاويين
٤ العدد
٥ التثنية
٦ يشوع
٧ القضاة
٨ راعوث
٩ صموئيل الأول
١٠ صموئيل الثاني
١١ ملوك أول
١٢ ملوك الثاني
١٣ أخبار الأيام الأول
١٤ عزرا
١٥ نحميا
١٦ يهوديت
١٧ أستير
١٨ أيوب (٤ أجزاء)
١٩ المزامير
٢٠ الأمثال (٣ أجزاء)
٢١ الجامعة
٢٢ نشيد الأناشيد
٢٣ حكمة سليمان
٢٤ إشعياء
٢٥ إرميا (جزءان)
٢٦ مراثي إرميا
٢٧ حزقيال
٢٨ دانيال
٢٩ هوشع
٣٠ يوئيل
٣١ عاموس
٣٢ عوبديا
٣٣ يونان
٣٤ ميخا
٣٥ ناحوم
٣٦ حبقوق
٣٧ صفنيا
٣٨ حجي
٣٩ زكريا
٤٠ ملاخي

العهد الجديد

١ إنجيل متى
٢ إنجيل مرقس
٣ إنجيل لوقا
٤ إنجيل يوحنا (جزءان)
٥ أعمال الرسل (جزءان)
٦ رسالة رومية
٧ كورنثوس الأولى
٨ كورنثوس الثانية
٩ غلاطية
١٠ أفسس
١١ الرسالة إلى فيلبي
١٢ الرسالة إلى كولوسي
١٣ تسالونيكي الأولى
١٤ تسالونيكي الثانية
١٥ تيموثاوس الأولى
١٦ تيموثاوس الثانية
١٧ الرسالة إلى تيطس
١٨ الرسالة إلى فليمون
١٩ الرسالة إلى العبرانيين
٢٠ رسالة يعقوب
٢١ رسالة بطرس الأولى
٢٢ رسالة بطرس الثانية
٢٣ رسائل يوحنا الثلاث
٢٤ رسالة يهوذا
٢٥ رؤيا يوحنا اللاهوتي

يُطلب مِن

❖ مكتبة مارمرقس بالأنبا رويس / العباسية / القاهرة – ت: ٢٤٨٨٢٤٥٤

❖ كنيسة مارجرجس – سبورتنج / الإبراهيمية / الإسكندرية ت: ٥٩١٩٨٨٨ / ٠٣